

جامعة الحاج لخضر باتنة
كلية الحقوق
قسم العلوم السياسية

النقاش الرابع بين المقاربات النظرية للعلاقات الدولية

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في العلوم السياسية، تخصص: العلاقات
الدولية

إشراف الأستاذ:

د. صالح زيانى

إعداد الباحث:

عادل زقاغ

لجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة الجزائر	أ. د. محمد رضا مزوي
مشرفا و مقررا	جامعة باتنة	د. صالح زيانى
عضووا مناقشا	جامعة باتنة	د. عبد النور بن عنتر
عضووا مناقشا	جامعة عنابة	د. عبد الحق بن جديد
عضووا مناقشا	جامعة الشلف	د. محمد غربي

السنة الجامعية: 2009/2008

خطة البحث

مقدمة

الفصل الأول: التحولات "الباراديمية" في العلاقات الدولية مدخل استيمولوجي تاريخي

المبحث الأول: الإطار الاستيمولوجي لدراسة التحولات المعرفية
المطلب الأول: أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي
المطلب الثاني: منطق الثورة العلمية لدى "توماس كون"
المطلب الثالث: البرامج البحثية "اللاكتاشية"
المطلب الرابع: "الفرضي المنهجية الخالقة" لدى "فابر آينت"
المبحث الثاني: مسار تطور علم السياسة والتفسير "الكوني"- "اللاكتاشي"
المطلب الأول: إرساء علم السياسة وأهم محطاته تطوره
المطلب الثاني: دور الثورة المعرفية دولاتية-التوجه في إرساء تخصص العلوم السياسية
المطلب الثالث: أول تحدي باراديمي في حقل علم السياسة-الباراديم التعددي
المطلب الرابع: التحول الباراديمي الأول في علم السياسة-السلوكية
المطلب الخامس: التحدي الباراديمي الأول للسلوكية- "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد"
المطلب السادس: استعفاء التحول "الباراديمي" -مستقبل بروسيترويكا علم السياسة.
المبحث الثالث: النقاشات الثلاثة المؤسسة للباراديم العقلاني في العلاقات الدولية
المطلب الأول: "النقاش النظري الأول" نظرتان أنطولوجيتان للطبيعة الإنسانية
المطلب الثاني: مأخذ الليبراليين ومؤرخي العلم على النقاش النظري الأول
المطلب الثالث: "النقاش النظري الثاني" - نظرتان منهجيتان لطبيعة المعرفة
المطلب الرابع: بوادر النقاش النظري الثاني في سياق نظرية واقعية مغمورة
المطلب الخامس: النقاش النظري الثالث بين الباراديمات الثلاث.
المطلب السادس: الاتصال المنظوري نيو-نيو وإطلاق النقاش النظري الرابع

الفصل الثاني: أهم التحولات الباراديمية في النقاش النظري الرابع

المبحث الأول: النقاش الرابع والمتصل من مصددة الثنائيات في المنظومة المعرفية
المطلب الأول: مستويات التملص من الثنائيات المؤطرة للنقاشات النظرية
المطلب الثاني: من الوضعيية وما بعد الوضعيية إلى ما بعد الكوني "
المطلب الثالث: من الموضوعية والذاتانية إلى البيذانية
المطلب الرابع: من التفسيرية والتوكينية إلى البذانية أرضية معرفية وسطوية
المبحث الثاني: مؤسسة التفاعلات الدولية من منظور النقاش النظري الرابع
المطلب الأول: حواجز المؤسسة من منظور النيومؤسساتية العقلانية
1. حافز المكاسب النسبية لدى النيو-أقعيين
2. السعي من أجل المكاسب المطلقة لدى النيومؤسساتيين
المطلب الثاني: المؤسسة وشرعته الضوابط من منظور بنائي
1. سلطة تحديد مضمون المفاهيم المفاححة
2. سلطة فرض التصنيفات الاجتماعية
3. سلطة بلورة ضوابط قيمية
4. مدخل الأمانة ورسم أورور جديدة للمؤسسات الدولية

المطلب الثالث: فهم توكيني تناصي لعملية المؤسسة من منظور تأملي

1. منظفات التحليل ما بعد البنوي
2. تطبيق عملية التسييس للقرار المؤسسي وإطلاق مسارات التذوق
3. المدخل الجنalogجي لعملية المؤسسة
المطلب الرابع: مقومات التمايز "الباراديمي" وإمكانيات التركيب

الفصل الثالث: معضلات النقاش الرابع- التحول عن حل المشكلات إلى تفكك الأحادي

المبحث الأول: معضلة الأكسنولوجيا: الأرضية المحايدة لتقدير المسار المعرفي
المطلب الأول: محاذير المراجعات التاريخية-أطروحة "ميرتن"
المطلب الثاني: رصد التحولات الباراديمية ضعف الأسانيد التاريخية للنقاشات
المطلب الثالث: عيوب نظام التحكيم العلمي وعقبة التبعية لمسار
المطلب الرابع: نحو "عصر وسيط" جديد
المطلب الخامس: بين نهضة إنسانية جديدة ومخاطر التقهقر لعصر ظلمات آخر
المبحث الثاني: معضلة التيليلوجيا والتيليونوميا-المعنى البحثي بين الغائية ومصددة التمويل
المطلب الأول: البعد التيليلوجي للنقاش النظري الرابع
المطلب الثاني: تيليونوميا البحث ومسألة التمويل
المطلب الثالث: مخرج الفرونزيلا "فلوببيا"
المطلب الرابع: مساعي إصلاح المقل المعرفي ببريسنوفسكا علم السياسة
المبحث الثالث: الأسس التصورية لمخارج النقاش الرابع: نحو "بارادائم" التعقد
المطلب الأول: التحول من السعي لنظرية كبرى إلى البحث عن نظرية متماضكة
المطلب الثاني: نحو منطق هندسي جديد ذي تطبيقات سوسنولوجية: قانون الأشكال
المطلب الثالث: التحرر من الهيكلية التصورية: تمثيل العالم وفق شريط موبيوس
المطلب الرابع: سينيرنيطيكا المستوى الثاني
المطلب الخامس: مزايا السوسيو-سينيرنيطيكا الجديدة
المطلب السادس: مزايا المقاربة للعلاقات الدولية من منظور "التعقد"
خاتمة

مقدمة

مقدمة

تزود النظريات والنماذج النظرية التي تم تصميمها بهدف المقاربة للظواهر الدولية، دارسي تخصص العلاقات الدولية، بأدوات تحليلية تمكنهم من اختزال المادة الخام (الأحداث والظواهر الدولية) في مفاهيم وتصورات مفتاحية كخطوة نحو التفسير و/أو الفهم والاستشراف. ومع ذلك، فإن التعدد في الطر宦ات النظرية يشير إلى صعوبة الجسم في ماهية الأدوات التحليلية التي تمنحنا فهماً أفضل لأي من مواضيع البحث في الحقل المعرفي للعلاقات الدولية. لكن طالما أن طبيعة العلوم الاجتماعية ذاتها تنتهي على سعي مستمر نحو التحسن، فإن النقاشات النظرية الأربع الكبرى Great Four Debates في العلاقات الدولية كانت فرصة للسجال المعرفي البناء، والذي رسم خارطة طريق للحقل في فترات زمنية أعقبت احتدام هذه النقاشات.

وخلال هذا المسار الحاصل، خرجت الواقعية منتصرة من سجالها الأنطولوجي مع الليبرالية المثالية في فترة ما بين الحربين، في حين استطاعت كسب مجادلاتها المنهجية مع السلوكية بصعوبة في ظل النقاش النظري الثاني، أما خلال النقاش الثالث فقد اضطرت للمضي في اتجاه تركيب (أشبه بالتحالف) منظوراتي مع النيوليبرالية (التوليفة نيو-نيو). لكن الأمر أصبح مختلفاً عندما تعلق الأمر بالنقاش النظري الرابع، حيث أصبحت المقاربة الواقعية بكل اتجاهاتها النيوواقعية البنوية والواقعية النيوكلاسيكية البنوية مجرد طرف في معسكر الوضعيين العقلانيين في مواجهة جدال فكري أعمق وأخطر لأنه يهدد بالعودة إلى أسس التنوير لتقويضها وإعادة رسم خارطة معرفية مختلفة ترفض الوصاية الدوغمائية للوضعيين وللعقلانيين على المعرفة. هذه الوصاية التي تكرست من خلال فرض معايير معينة للصحة والصلاحية، والتي يعتبرها المعسكر التأملي مجرد إقصاء للاجتهادات المستلهمة من تقاليد بحثية أخرى غير تلك المنتمية للتقاليد البحثي الوضعي-العقلاني.

إذن فقد اتسم النقاش الرابع، أو على الأقل مع بداياته، بدخول استراتيجية بحثية تقويضية ميدان الجدال المعرفي، استهدفت "التوليفة نيو-نيو" في أسسها الفكرية. لكن ظهور التفكيرية والجندر وما أبداً به دارسي الحقل من أدوات تحليلية كشفت عن ضعف البنية التصورية للوضعية وسذاجة بعض من طروحتها. وفضلاً عن ذلك، فإن دخول المنظور السوسيولوجي من خلال البنائية كجزء من النقاش المنظوراتي أضعف من سطوة ما يعرف أكاديمياً بـ mainstream أو التقليد البحثي السائد (المهيمن) بشقيه دولاتي-التحول (الواقعية) ومتعدد-المرجعيات التحليلية (الليبرالية).

إمبريقيا، أكدت إخفاقات الإستراتيجية الأمريكية الكبرى، وإخفاقات مسعى إرساء الديمقراطية في الشرق الأوسط، ضرورة مراجعة معايير توزيع الثقل في الإطار النظري لدراسة العلاقات الدولية، لأن التقليد البحثي السائد لم يحقق في بلورة توصيات ملائمة للسياسة العامة analytical policy oriented recommendations بل أخفق حتى في تقديم توصيف دقيق description للواقع. وقد تجلى ذلك في عدم تزويده صناع السياسة أو الأوساط الأكademie بأدوات فعالة لفهم ومن ثمة استشراف المستقبل، ولأدل على ذلك من الإخفاق في التوقع لنهاية الحرب الباردة. وإذا راجعنا الجدل القائم بين دعاء الفعل الجماعي "النيومؤسسيين" ودعاة الفعل الأحادي الجانب "النيوواقعيين" فإن مأخذ عدة سجلت على الافتراضات النظرية للطرفين، فالتوظيف الانفرادي للفسر دون شرعيته في إطار المؤسسات الدولية أدى إلى استشراء الاضطرابات بدل ضبطها، أما المؤسسات الدولية ذاتها فقد أثبتت أهميتها في عالم يحتاج للضبط regulation وإلى حوكمة governance ترسى شراكة مع فواعل آخرين غير الدولة، ورغم ذلك ظل التمركز الأوروبي euro-centrism وعدم مراعاة السياسة القيميه شأنه تمس بالصلاحية الإمبريقيه للتوليفة "نيو-نيو" التي خرج بها النقاش النظري الثالث، ما وضعها في مركب النقاش المتعدد المستويات نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، وهو النقاش الذي يمتد إلى غاية الفترة الحالية بحسب المراجعات المختلفة للأديبيات في الحقل، والتي تم الاعتماد عليها في هذا البحث.

أسباب اختيار الموضوع:

يعتبر النقاش الرابع بين مقاربات العلاقات الدولية تحولاً جوهرياً في الحقل المعرفي ككل، حيث أنه يتضمن خاصية فريدة مقارنة بالنقاشات السابقة وهي: الانعتاق من الثنائية التي طبعت الفكر الإنساني بشكل عام، بالنظر لأنه أتاح الفرصة لمنافسة معرفية يصفها البعض باللامقاييسة: بين العقلانية والتأملية والبنائية، كما أن من المهم الانتباه إلى تضمن هذا النقاش لمستويات تنفس ابستيمولوجية، وأنطولوجية ومنهجية بشكل متزامن، يضاف إليها المستوى الأكسيولوجي الذي لم يكن حاضراً في النقاشات الثلاثة الأولى.

إن الأهمية الكبيرة التي يوليه الباحثون على مستوى مراكز مراجعة وتقدير وصناعة المعرفة في هذا الحقل، بالأساس مدرسة كوبنهاغن، مدرسة لندن للاقتصاد وعلم السياسة، وجامعة أبرسفيث بـ ويزل، فضلاً عن مدرسة البحث حول الحكومة بهارفارد تتبه إلى أن هذا النقاش في الأساس ما هو إلا مسيرة للتحولات المتتسارعة إمبريقياً. ومن هنا، فإن العديد من مراكز البحث تنظر باهتمام لمخرجات هذا النقاش وما قد تمد به صانعي القرار من استبصارات تساعدهم على تصور مخارج للانسداد الذي أوجده المشكلات المعقدة للعالم الرقمي في فترة ما بعد الحرب الباردة. إذن، يمكن تلخيص أسباب اختيار الموضوع في النقاط التالية:

- يعود اختيار هذا الموضوع إلى الرغبة في فهم أفضل للمقاربات النظرية السائدة في حقل العلاقات الدولية لأنها تزودنا بأدوات التحليل، وحيث أن التحكم في أدوات التحليل تعتبر أفضل طريقة لإنجاز أبحاث منهجية ومحكمة سيما وأن الكثير مما يكتب في التخصص يغلب عليه طابع التغطيات الصحفية؛
- وضع النقاش النظري الرابع في الإطار العام لتطور الحقل، إذ تمت الإشارة إلى النقاشات الثلاثة الأولى فضلاً عن التحولات الباراديمية الأساسية في علم السياسة؛
- تحين البحث مع التطورات المتتابعة في التخصص، والمساهمة في وضع تبيولوجيا محبنة باللغة العربية لأهم الأطر النظرية في العلاقات الدولية.

أهمية الدراسة:

تظهر مسوح الأدبيات تسامي عدد الدراسات التأصيلية في الحقل المعرفي للعلاقات الدولية ابتداءً من تسعينيات القرن العشرين، حيث تزامن ذلك مع تراجع التقليد البختي المهيمن (الوضعي) والذي يعزى بدوره لظهور أنماط سلوكية وظاهرة غير مألوفة خلال الفترة السابقة مثل: الحكومة العالمية الشبكية مقابل تراجع دور الدولة، العنف في صوره ما قبل الحادثية (التطهير الإثني) مقابل تراجع حدة الحروب بين الدول، خوصصة الاقتصاد (تحويل ملكية قطاعات واسعة) وخخصصة

السياسة الخارجية (التدخل الفاعل لمركز كارتر لدراسات السلام) ثم خوصصة الأمن (نموذج بلاك ووتر) تباعاً.

لاشك أن تزايد الاهتمام بالمواضيع الفلسفية التأصيلية، واللجوء إلى فلسفة المعرفة يعتبر منطقياً مع ظهور بوادر إخفاق التقليد البحثي المهيمن في تزويدنا بالفهم الملائم لديناميكيات التفاعلات بين الدول. ففي مثل هذه الفترات الحرجة ضمن أي حقل معرفي تزايد مستويات الغموض، حيث يصعب فهم مسار الأحداث. وتعود المشكلة في جزء هام منها إلى استعصار الظاهرة الدولية أمام أدوات التحليل المتاحة في سياق مسلمات الإطار الفكري الأوسع، المسمى لأغراض تحليلية "البارادایم". لقد كانت هذه سمة الفترة التي أعقبت نهاية الحرب الباردة، مما ساهم في منح مبررات كافية لإطلاق أجذنة بحث تدرس الخلفيات الاستيمولوجية لأفول برنامج البحث "العقلاني" ومدى صلاحية البديل "التأملي" من جهة، وصحة المزاعم القائلة بإمكان جسر الهوة بواسطة "البنائيين". كانت هذه بمثابة المبررات الأولية التي ساقتها مراكز بحث استطاعت الاستئثار بنصيب متزايد من ميزانية تمويل البحث العلمي، ففي بريطانيا على سبيل المثال بلغ حجم المخصصات الموجهة للبحوث الفلسفية عام 2008 إلى 10 مليارات دولار. وعموماً، فإن أهمية هذا البحث تكمن في:

- المساهمة في البحث - ضمن الأدبيات التي اعتمدت عليها الدراسة- عن آليات تحليلية لجسر الهوة بين النظرية والممارسة، وذلك عبر فحص عدد من الطروحات التي ترى بإمكانية تدليل عقبة اللامقايصة، والتي تمنع الاستقادة من الفهوم التي تمنحها لنا المقاربات المختلفة، وذلك لتفسيير/فهم الظاهرة الدولية الآيلة لتعقد متزايد، ما يحول يجعل مزاعم السعي لنظرية عامة في الحقل غير عملية،

- وضع خارطة طريق أولية قابلة للتنقيح تساعد باحثي العلاقات الدولية على فهم مسار تطور الحقل المعرفي للعلاقات الدولية، وتمهد الطريق لدراسات جينالوجية أعمق حول هذا الموضوع.

إشكالية البحث:

ينصب هذا البحث على مراجعة للأعمال التأريخية historiographical حول مسار تطور الحقل بشكل مقارن بالاعتماد على المداخل الاستيمولوجية والأنطولوجية والأكسيلوجية، وذلك بهدف البحث عن مخارج النقاش النظري الرابع حسب ما طرحته الأدبيات في هذا الموضوع، ومن هنا فإن البحث يعالج الإشكالية التالية: "هل ينطوي النقاش الرابع بين مقاربات العلاقات الدولية على خاصية لامقايضة incomensurability ضعيفة تمكن من تعاملها باراديمي في إطار العلم ما بعد "الكوني" post-Kuhnian وبالاعتماد على تصور التوليفة كما يقترحها علم التعقد complexity science ؟"

تعتمد الإجابة عن هذه الإشكالية على البحث المعمق في عدد من جوانب الموضوع والتي تشير عدداً من الأسلحة الفرعية:

- ما هي الفهوم التي تقدمها النظريات المفسرة للتقدم المعرفي بشأن تطور الحقل المعرفي للعلاقات الدولية؟ وإلى أي مدى تعتبر "التحولات الباراديمية الكونية" و"البرامج البحثية اللاقاتوشية" مجذبة في هذا الخصوص سيما بالنسبة للنقاش النظري الرابع؟
- ما هو مضمون أهم التحولات "الباراديمية" التي عرفها النقاش النظري الرابع؟ وكيف يمكن إسقاطها على قضية مأسسة التفاعلات الدولية؟
- كيف يساعدنا علم التعدد على البحث عن مخارج للنقاش النظري الرابع؟

ينطلق هذا البحث من فرضيتين أساسيتين:

- إن أيّاً من "الباراديمات" الثلاثة التي تعتبر طرفاً في النقاش النظري الرابع بين مقاربات العلاقات الدولية لن يتيسر لها الهيمنة على الحقل المعرفي، وبالتالي العودة إلى العلم العادي normal science، وهو ما يؤكد افتراضات "العلم ما بعد الكوني"، والتي تتطوّي أساساً على وجود خاصية لاماقيسة باراديمية ضعيفة، وما ينجر عنه من تعامل "باراديمي".
- إن مخارج النقاش النظري الرابع، ولتفادي العقبة الأكسيولوجية، تعتمد أساساً على سيرنيطيقا المستوى الثاني لللحظة التي يقترحها "باراديم التعدد".

منهجية البحث:

المدخل الاستيمولوجي/ الأنطولوجي/ الأكسيولوجي:

يهتم المدخل الاستيمولوجي epistemology بالطريقة التي يتم من خلالها المقاربة لموضوع المعرفة، أي الأدوات التي اعتمدنا عليها في ذلك والسبب الذي جعل اختيار الباحثين يميلون إليها تحديداً دون أخرى، وهو ما يسمح بفهم التباين القائم بين التقليد البحثي الوضعي وما بعد الوضعي باعتباره بعداً أساسياً للنقاش الرابع.

المدخل الأنطولوجي ontology وتركيزه على موضوع المعرفة في حد ذاته فهو ينصب على اختيار مرجعية معينة للتحليل، بطرح أسللة حول: ما هو الشيء الذي نريد المقاربة له بالتحديد ولماذا تختلف المقاربات في توقعها أنطولوجيا، بحيث تسلم كل منها بأن التحليل سيكون مجد فقط عندما يتم التركيز على بنية النظام الدولي مجسدة النزعة الكلانية holistic مقابل مقاربات أخرى تميل إلى الاعتقاد بالاختزالية أو حتى التشظي atomism.

المدخل الأكسيولوجي axiology يعتبر مهما جداً لفهم أبعاد النقاش النظري الرابع، ومن المهم الإشارة إلى أن النقاش في هذا المستوى التحليلي الفلسفى لم يكن وارداً خالل النقاش الثلاثة

السابقة بل هو مستوى أصيل في النقاش الرابع، وقد كان له تأثير في إعطاء هذه النقاشات الشكل الذي بدا عليه طيلة عقدين تقريباً، وذلك عبر حؤوله دون حسم إحدى "الباراديمات الثلاث" الجدال النظري لصالحها، فهو ينصب على التموضع القيمي أو البحث في إمكانية الحديث عن أرضية توافق بشأن منظومة أخلاقية ethical قيمية يتقاسمها الجميع أفراداً أو دولاً. على المستوى الأكاديمي، تتخذ المقاربات المختلفة موقفين من بعد الأكسيولوجي: الموقف الإدراكي cognitivist يرى بإمكانية الحديث عن أن اختيار القيم الأخلاقية ممكن بل وموضوعي وهو ما يعترض عليه أصحاب الموقف النسبي relativists والذين يرون بنسبيتها، وإذا ما تم جلب هذا المستوى التحليلي إلى النقاش، فإن هذا المدخل سيسمح بالنظر في إمكانية الحديث عن أرضية محايضة لتقييم المسار المعرفي فيما المسائل المرتبطة بالصحة (أي مزاعم العلمية تعتبر صحيحة) والصلاحية (أيها أكثر إفادة لصناعة سياسة عامة "بناءة").

مدخل سوسيولوجيا المعرفة sociology of knowledge: وذلك بإدراج بعد التليلولوجي والتليونومي للبحث في مجال العلاقات الدولية. ينصب هذا المدخل على فحص بعد الغائي لمعنى البحث عموماً، ومدى وجود ترابط بين المسار الذي تأخذه النقاشات والاستقطاب بين المقاربات النظرية، من جهة، وبين البيئة الاجتماعية التي تباشر فيها عملية البحث، فمن الطبيعي أن تطبق هذه البيئة ضغوطاً بحكم أن البنى الاجتماعية تمارس عنفاً بنرياً ضروري للاستقرار، لكن هذا الاستقرار يكون عادةً عبر التمكين لخطاب معين للهيمنة على حساب خطابات أخرى وبالتالي مصالح وهويات أخرى.

المدخل التاريخي للمعرفة historiography of knowledge: ينصب المدخل التاريخي على مراجعة الطرق التي يتم من خلالها رصد المسار التاريخي لنطورة الحقل المعرفي IR as a discipline، كما يساعدنا في الوقوف على جملة من المحاذير المرتبطة بقراءة التاريخ بعيون الحاضر، وبالتالي إعادة كتابة التاريخ بحسب موازين القوى السائدة في الحاضر. يمدنا هذا المدخل بفهم متبصر للسبب الذي أدى إلى تمسك الكثير من الدراسات التاريخية للحقل بطرح مفاده أن مسار تطور علم العلاقات الدولية ليس سلسلة من النقاشات النظرية المتتابعة، ومن جهة أخرى، فإنه يساعدنا على وضع معلم للتحولات الباراديمية إن وجدت، فهو لا يسلم بها بالمطلق. وبالتالي، فإن تاريخ المعرفة جنباً إلى جنب مع علم اجتماع المعرفة يزودان هذا البحث بأدوات فعالة تمكن من الذهاب إلى ما هو أبعد من الاستعراض الوصفي لنطورة الحقل وللنقاوش النظري الرابع باعتباره آخر حلقة في هذا التطور. يضع المدخل التاريخي النقاش في سياقه الأكاديمي الأوسع (مسألة التحكيم العلمي والوصاية المتأتية من الادعاء الباراديمي بامتلاك آليات الحصول على الحقيقة)، بينما يضعه مدخل علم اجتماع المعرفة في سياقه الاجتماعي (ارتباط الأجندة السياسية بالأجندة الأكاديمية عبر منفذ التمويل).

ولا شك أنتناول هذا الموضوع في حد ذاته فضلاً عن تبني إستراتيجية طموحة في البحث تعتمد هذه المداخل ستعترضه لا محالة عدد من الصعوبات الموضوعية.

الصعوبات التي واجهت البحث:

إن تقدم الدراسات الأنجلو-ساكسونية في حقل العلاقات الدولية عموماً وفي مجال الدراسات التأصيلية بشكل خاص حقيقة لا فتنة، وبالتالي، فإن عدم وجود مرجعية لغوية موحدة تتولى الجوانب الاصطلاحية في الترجمات من اللغة الإنجليزية وإلى حد ما اللغة الألمانية يعتبر مشكلة حقيقة، فأعلم ما اعترض سير عملية البحث والترجمة هو نحت اللفظة العربية التي تقابل اللفظة الإنجليزية، خاصة بالنسبة للمفاهيم الجديدة، والتي تندد مصادفتها في الأديبيات باللغة العربية. مع الإشارة إلى أنه تم تبني الترجمة الشائعة حيثما توفرت، إلا أن عدداً كبيراً من الترجمات تتباين بشكل واضح وتعطي مجالاً واسعاً للاختيار، بطريقة تربك عملية التحرير، بالنظر إلى أهمية انتقاء اللفظة المناسبة بالنسبة للمجموعة العلمية التي سيتم تداول البحث فيها.

وزيادة على مشكلة الترجمة، فإن ما أبطأ مسار البحث هو النسبة المتدنية للمراجع المحكمة في الموضوع، فمن خلال مراجعة دليل الدوريات المحكمة في العلاقات الدولية لكل من: "منشورات SAGE Pub" ، "منشورات بلاكويل" Blackwell و "منشورات ميت بريس" Mit Press ، وبالاعتماد على العينة التي تشملها الهيئات الثلاث والتي تتضمن أهم الدوريات في التخصص، فقد تبين أن عدد المقالات المحكمة التي تتناول الجوانب التأصيلية في العلاقات الدولية لا يزيد عن 04 % إلى 10 % تبعاً لاعتماد معيار صارم أو فضفاض بخصوص مفهوم "الجوانب التأصيلية" ، ومن بين هذه الدراسات النظرية على قلتها فإن نسبة 06 % منها تتناول بالتفصيل موضوع النقاشات النظرية في العلاقات الدولية، بل أن هذه النسبة لا تتجاوز 03 % إذا اعتمدنا معياراً صارماً بحيث تتحسب فقط تلك المقالات التي تجعل من النقاشات النظرية محور اهتماماتها. لكن مع ملاحظة أن هذه النسبة لم تكن لتحقق أساساً لولا الفترة الزمنية التي تمت من بداية التسعينيات إلى يومنا هذا، وذلك بفضل تنامي الاهتمام بهذا النوع من الدراسات خلال هذه الفترة.

أما بخصوص الصعوبات الأخرى فهي ناجمة أساساً من الالتزامات المتعلقة بشغل وظائف إدارية جنباً إلى جنب مع الالتزامات البيداغوجية والاهتمامات البحثية الأخرى، بحيث أبطأ ذلك عملية التحرير والمراجعة. وفي هذا الصدد، ولتنليل كل العقبات المشار إليها، أوصي الباحثين بالتسجيل مبكراً في الدكتوراه وبضرورة مباشرة عملية التحرير مبكراً تقادياً للضغط المتزايد مع اقتراب مواعيد الإيداع القانونية، سيما وأن ذلك يقترن عادة بظهور التزامات أكاديمية ومهنية أخرى.

مراجعة الأدبيات:

إن استخدام مصطلح النقاشات النظرية في توصيف تطور الحقل يعتبر في حد ذاته شيئاً جديداً، وأولى الدراسات التي نشرت في هذا المجال كانت دراسة "ري مانقرور" Ray Manghroor و"رامبيرغ بينيت" Ramberg Bennett (1982) "العلمية مقابل الواقعية: النقاش النظري الثالث في العلاقات الدولية". ورغم تعرضهما لمصطلح النقاش النظري في ذاته إلا أن المفهوم اكتسح لديهما نوعاً من الضبابية، فالنقاش الثالث أطلق على جزء مما تضمنته هذه المرحلة من التطور داخل الحقل.

لذا كانت دراسة "جون فاسكويز" و"مايكل بانكر" John Vasquez and Michael Banks (1985) بمثابة عمل مرجعي في هذا الخصوص، ففي كتاب بعنوان: "النقاش عبر المنظوراتي"، أشارا إلى أن مسار تطور الحقل المعرفي للعلاقات الدولية قد بلغ "النقاش الثالث"، وبأن هذه المرحلة تجمع باراديمات متعددة، يفرق بينها تموقعها الأيديولوجي.

وهو ما أكدته باحثان آخرين في أولى الكتب الأكademie الموجهة لدارسي التخصص، حيث أقر ذلك كل من: "أ. قروم" و"مارقوت لايت" A.J.R. Groom و Margot Light (1985) وكان عنوان مؤلفهما: "العلاقات الدولية: الدليل نحو النظرية الحالية". لكن لم يطر الأمر طويلاً حتى سبق "مايكل فاسكويز" (1985) عصره وتحدد صراحة عن مرحلة جديدة لم تتبلور بعد ميزتها التحدى ما بعد الوضعي، وقد نشر ذلك في مؤلف بعنوان: "النقاش ما بعد الوضعي". وفي خطوة مماثلة تتبأ "دايفيد كامبيل" بدخول الاستيمولوجيا البنائية على خط النقاش المنظوراتي في (1988) من خلال كتاب بعنوان: "التحولات الحديثة في النظرية الاجتماعية: تساولات بالنسبة للعلاقات الدولية".

إحدى النقاط الهمامة في هذا البحث تلك المتعلقة بطريقة التاريخ للحقل: فقد تحدث "ستيف سميث" Steve Smith (1995) في كتابه "الصور الذاتية لحقل العلاقات الدولية"، عن الصور النمطية التي غالباً ما يتم اللجوء إليها لاستعراض مسار تطور علم العلاقات الدولية، أما كين بووث" وآخرون Ken Booth et al (1998) فقد قاموا بمحاكاة صياغة "إدوارد كار" عبر مؤلف بعنوان: "ثمانون سنة من الأزمة: العلاقات الدولية بين 1919-1998"، وفيه يقدمون توصيفاً تعددياً لنماء الحقل خلافاً لـ"دونالد ج. بوشالا" Donald J. Pushala (1990) "بلاد يتامي الثورة العلمية" الذي يصر على عدم جدواً النقاش الثاني، وبأن هذا النقاش أضاع الوقت والجهد دون أن يكون له وقع على تطور العلاقات الدولية كـ"علم".

ومع أن بداية التاريخ للحقل بتوظيف تصور النقاشات النظرية المتعاقبة بطريقة استكشافية أبدت نوعاً من التوافق بين الباحثين، إلا أن وضع تبيولوجيا صارمة لم يتحقق، فبعض الباحثين يصرؤن حتى الآن على أننا لم نخرج أصلاً من النقاش النظري الثاني ("نافون" 2001)، أما البعض الآخر فيرى أن النقاش بين العقلانيين والتأمليين والبنائيين يجسد النقاش الثالث ("الابيد" 1989) مغلاً الفترة التي تمتد بين نهاية السبعينيات ونهاية الثمانينيات التي شهدت النقاش نيو-نيو فضلاً عن المرافعات "النيوماركسية" لصالح نظرية بنوية تبطن طرحاً معيارياً أو راديكالياً كما تسميه بعض الأديبيات (هوفمان 1987).

لكن في منشورات الباحث البارز في فلسفة علم العلاقات الدولية: "أول ويفر" Ole Wæver (1997) وبالذات في كتابه: "باحثون لامعون في العلاقات الدولية: تقديم الحقل المعرفي بالاعتماد على رواد النظرية بدل البارادایمات" ("ويفر" 1997، ص. 25) يبرز "ويفر" من ضمن أشد المناصرين للتقسيم الرباعي. وكذلك فإن "يورغ فريديريكس" Jörg Friedrichs (2004) في كتابه المعنون: "المقاربات الأوروبية للعلاقات الدولية" ("فريديريكس" 2004، ص. 11) يميل إلى وجهة النظر التي سبقه فيها "ويفر" ويعتبر أن التبيولوجيا الرباعية هي الأسلم لاتفاق ديناميكية التطور المعرفي لنظرية العلاقات الدولية.

إذا تجاوزنا مسألة وضع تبيولوجيا تافقية، فإن المسألة الأخرى الأكثر أهمية هي طريقة رصد التقدم المعرفي في التخصص، وخلافاً للأعمال الرائدة لفليسوف علم العلاقات الدولية "جون فاسكويز" تبرز الدراسات التي أشرف عليها "كولين إلمان" Colin Elman و"ميريام فينديوس إلمان" Meriam F. Elman سيما الدراسة التي نشرت في (1997) "تقييم التقدم في نظرية العلاقات الدولية"، حيث خلصت أغلبية الفصول إلى تبني برامج البحث اللاكتوشية كإطار لفهم هذا التقدم. بينما يعتبر مقال "كولين وايت" Colin Wight (1996) "اللامقايصة والاتصال عبر المنظوراتي في نظرية العلاقات الدولية"، سابقة مهمة في التعرض للإشكالية التي اعتمدتها هذه الأطروحة.

ولا تخلو الأديبيات في هذا الشأن من عدد من الطر宦ات المثيرة للجدل مثل: "أسطورة النقاش النظري الأول" لـ"بيتر ويلسن" Peter Wilson (1998) وفيه يشير بالدلال إلى أن هذا النقاش باعتباره مؤسساً للحقل لا يجد له قرائن تؤكد حدوثه فعلياً. لكن "فريديريك كراتوشفييل" Friedrich Kratochwil (2006) في مقاله: "التاريخ، الفعل والهوية: مراجعة للنقاش النظري الثاني وتقدير أهميته للنظرية الاجتماعية" يرفض إلغاء مراحل من تطور هذا التخصص، لكنه يدعى الباحثين إلى الاستفادة من تبصرات خرجت بها النقاشات السابقة لمساعدة النقاشات الحالية على حلحلة بعض المسائل الإبستيمولوجية أو الأنطولوجية. وبعيداً عن الإشكالات النظرية البحثة فإن دراسة قام بها "جوزيف ليقولد" Joseph Lepgold (2001) بعنوان "ما وراء القبة العاجية لنظرية العلاقات الدولية: مسألة ملائمة النظرية لصناعة السياسة"، تعتبر نموذجاً للدراسات التي ترى أنه من الأجدى الاهتمام بمدى ملائمة العلم لصناعة السياسة، لكن المشكلة مع هذه الدراسات هي أنها متوقعة ضمن دوغاًماً إبستيمولوجية وضعية أثبتت عقمها مع نهاية الحرب الباردة، سيما

في التعاطي مع المشكلات المستجدة، لذا فإن مفهوم الملائمة في حد ذاته يضعه النقاش النظري الرابع محل تساؤل: ملائمة أي من المنطلقات الأكسيولوجية (القيمية).

تبرير الخطأ:

للإجابة على إشكالية البحث واختبار الفرضيتين فقد تم اعتماد خطة من ثلاثة فصول. وقبل استعراض الجزئيات المرتبطة بكل فصل من المهم الإشارة إلى أن هذه الأطروحة تلافت الجوء إلى المداخل المفاهيمية، بمبرر أنها موجهة للباحثين الذين لديهم اهتمامات بالجوانب التأصيلية للعلاقات الدولية، ولذلك لم تتضمن خطة البحث أي إسهاب في المداخل المفاهيمية التي تضيع عادة الكثير من الجهد والوقت، في حين أن الأطروحات تتوجه بالأساس للمختصين.

يهتم الفصل الأول من الأطروحة بتفكي المسار الذي سلكه الحقل المعرفي للعلاقات الدولية قبل الوصول إلى هذه المرحلة، فوجود ثلاث نقاشات سابقة يطرح سؤالاً جوهرياً، ما الذي يحرك التقدم المعرفي أساساً، وكيف يمكن فهم ديناميكية الانتقال من نقاش إلى آخر في ظل وجود منظورات متعددة يرفض بعضها وصف النقاشات المتتابعة بالتقدم المعرفي. يتناول هذا الفصل الجوانب المتعلقة بالتحولات الباراديمية في شقها الاستيمولوجي، بدءاً بالتقسيرات التي قدمتها الدراسات التاريخية للعلم بخصوص العوامل التي تحرك التقدم المعرفي، ليتم التركيز بعدها على أهم ثلاث تصورات استطاعت رصد حركة العلم بطريقة مثيرة للاهتمام أي "الثورات المعرفية" لدى "كون"، و"البرامج البحثية" لدى "لاكتوش" و"الفوضى المنهجية" لدى "فابرآبنت".

في المبحث الثاني من الفصل الأول تم التركيز على التحولات الباراديمية في علم السياسة باعتباره الوعاء المعرفي لتخصص العلاقات الدولية، وذلك لوضع الموضوع في إطاره الأوسع، وبعد تناول التحولات الباراديمية الثلاث الأولى في العلاقات الدولية سيبتبن ما إذا كانت هناك تماثلات يمكن تسجيلها. أما في المبحث الثالث، وبعد وضع النقاشات النظرية في إطارها الأوسع أي في حقل العلاقات الدولية، فإن هذا المبحث يحاول رصد حركة التحولات الباراديمية، إن وجدت، في ما اصطلاح على تسميتها بالنقاشات النظرية الثلاث الكبرى والتي أرست لبارادايم عقلاني لاحقاً.

بالنسبة لالفصل الثاني من الأطروحة، وبعد استعراض الإطار المفاهيمي والتاريخي للمقاربة لموضوع النقاش الرابع، سيما النقاشات الثلاث المؤسسة للبارادايم العقلاني في العلاقات الدولية، فإن هذا الفصل ركز على التحولات الباراديمية الأساسية التي شهدتها النقاش الرابع ومن ذلك أن التوليفة الباراديمية العقلانية أصبحت تواجه تحدي تأملي-بنائي، بما أوجد وضعية فريدة في الفكر الإنساني تتلخص في التملص من مصدبة الثنائيات في تأثير framing "البارادايم" داخلياً في بنائه التصورية ورؤيته للعالم، وفي تأثير النقاش "البارادايمي"، أي أن هذه الوضعية أنسنت للعلم "ما بعد الكوني" والذي ينصب على تعايش "الباراديمات" وعلى رؤية مختلفة لمخارج النقاش ذاتها: فصل غير صارم لمستويي النقاش المعرفي الاستيمولوجي/الأنطولوجي (نظراً لنقاسيم البنائية انتمائها أنطولوجياً ببنائية وابستيمولوجياً وضعية) مضافاً إليها أيضاً مستوى ثالث أكسيلولوجي، لم يكن قائماً في حالة النقاشات الثلاثة السابقة. سيعالج هذا الفصل، ومن خلال مباحثين التحول نحو العلم "ما بعد الكوني" والتحول نحو البنائية، فضلاً عن تأثير النقاش فيما اصطلاح على تسميته بأرضية وسطية للمعرفة وللنقاوش النظري. أما المبحث الثاني فقد كرس لقضية حيوية بالنسبة لحق العلاقات الدولية: المأسسة، حيث تمت المقاربة له من خلال الرؤية العقلانية ومنظور البناء الاجتماعي إضافة إلى التناص التأملي.

أما الفصل الثالث والأخير من الأطروحة فقد انصب على استعراض بعض جوانب ما يعتبره البعض بمثابة النقاش النظري الخامس في العلاقات الدولية، في حين يرى آخرون أنه يعتبر توليفة تصورية تهدف إلى زيادة القوة التحليلية لنظرية العلاقات الدولية في مجملها وتجاوز مرحلة النقاش العقيم. وهكذا فقد استعرضت مباحث هذا الفصل الإشكاليات المرتبطة بالدراسات التاريخية للعلاقات الدولية، ومال الدراسات النظرية قياساً بالتطورات الميدانية التي أظهرت وجود حالة ارتباك في العلوم الاجتماعية نظراً للتطور غير المتوازن مقارنة بأصنعة أخرى. تتناول هذا الفصل أيضاً المعضلات التليولوجية والتيلينومية المرتبطة بالبحث في ميدان العلاقات الدولية ومخرج الفرونزيا المقترح من طرف فيلوبينا. كما اهتم الفصل الثالث بكيفية تأهيل نظرية الأشكال الرياضية لـ "سبنسر" و"براؤن" للتعاطي مع القضايا المنطقية في العلاقات الدولية ومع ظهور الدلالات في المقام الأول. وبعدها تم استعراض شريط موبوس كأدلة استكشافية تمثيلية لكن غير اختزالية للتفاعلات في الساحة الدولية. وفي المقام الأخير تم التفصيل في السيربرنيطيقا الجديدة والملاحظة من الدرجة الثانية والتي تحل أهم معضلة أكسيلولوجية: معضلة الأرضية المحايدة لتقدير مسار التطور المعرفي.

هذه الخطة المعتمدة تهدف بالأساس إلى تshireج النقاط الأساسية المنضوية تحت عنوان النقاش النظري والتفاعلات الباراديمية، وبالتالي فتح آفاق لمراجعات مفصلة بالنسبة لكل محور على حده، ومن جهة أخرى، فهي تهدف إلى إبراز مزايا الاستعانة بأدوات تحليلية من الحقول المعرفية الأخرى بما في ذلك الرياضيات والفيزياء لحل المعضلات النظرية في حق العلاقات الدولية.

الفصل الأول:

التحولات "الباراديمية" في العلاقات الدولية

ـ مدخل ابستيمولوجي تأريخي.

الفصل الأول: التحولات "الباراديمية" في العلاقات الدوليةـ مدخل ابستيمولوجي تأريخي.

إن دراسة النقاش النظري الرابع، يحيينا مباشرةً إلى تقفي المسار الذي سلكه الحقل المعرفي للعلاقات الدولية قبل الوصول إلى هذه المرحلة، فوجود ثلاث نقاشات سابقة يطرح سؤالاً جوهرياً، ما الذي يحرك التقدم المعرفي أساساً، وكيف يمكن فهم ديناميكية الانتقال من نقاش إلى آخر في ظل وجود منظورات متعددة يرفض بعضها وصف النقاشات المتتابعة بالتقدم المعرفي. يتناول هذا الفصل الجوانب المتعلقة بالتحولات الباراديمية في شقها الابستيمولوجي، بدءً بالتقسييرات التي قدمتها الدراسات التاريخية للعلم بخصوص العوامل التي تحرك التقدم المعرفي، ليتم التركيز بعدها على أهم ثلاث تصورات استطاعت رصد حركة العلم بطريقة مثيرة للاهتمام أي "الثورات المعرفية" لدى "كون"، و"البرامج البحثية" لدى "لاكتوش" و"الفوضى المنهجية" لدى "فاييرآبنت".

في المبحث التالي من هذا الفصل سيتم معالجة التحولات الباراديمية في علم السياسة باعتباره الوعاء المعرفي لتخصص العلاقات الدولية، ويهدف ذلك إلى وضع الموضوع في إطاره الأوسع، وبعد تناول التحولات الباراديمية الثلاث الأولى في العلاقات الدولية سيتبين ما إذا كانت هناك تماثلات يمكن تسجيلها بين هذين الميدانين المعرفيين، كما سيساعد ذلك على فحص التقسييرات المختلفة لحركة العلم (تطور/نقد/قطيعة/ثورة) فيما تورطت الكونية وبرامج البحث اللاكاتوشية.

المبحث الأول: الإطار الاستيمولوجي لدراسة التحولات المعرفية.

إن المقاربة للتحولات المعرفية يحتاج إلى تصورات تساعده على استيعاب جوانبها المتعددة، وهذا المبحث يستعرض أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي في إطارها الطبيعي: فلسفة المعرفة أو الاستيمولوجيا، مع التركيز على مفاهيم: "الثورات المعرفية"، "البرامج البحثية" و"الفوضى المنهجية". وقبل التطرق إلى هذه المحاور من المهم وضع هذه النظريات أيضاً في إطارها العام historiography of science عبر تصنيفين أساسيين يرددان في الأدب: أحدهما يسوقه الباحث "جون لوزي" John Losee، ترتكز تبيولوجيا "لوزي" على ثلاث فئات تدرج ضمنها النظريات المفسرة للتقدم العلمي هي:

- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يسير وفق منطق احتواء النظريات الجديدة للنظريات القديمة، وهي بذلك تسلم بمبدأ التراكمية؛
- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يحكمه منطق الثورة بحيث تأخذ النظريات الجديدة بعضاً من مكونات النظريات القديمة لكنها تنتقض ضد مسلماتها الأساسية وترسي أساساً جديدة للعلم؛
- وأخير النظريات التي تعتقد بأن نماء العلم يخضع لمنطق النماء العضوي "اللاخطي"، أي المتأرجح بين طرق عدّة للتقدم.

دراسة أخرى لـ "جيمس باتريك" James Patrick تقترح تبيولوجيا لا تختلف كثيراً عن تبيولوجيا "جون لوزي"، وهي ترى أن النظريات المفسرة للتقدم العلمي إما أنها تخضع لمنطق "البراغماتي"، أو "الثوري" أو "التطوري". وعموماً، ستساعد هذه التبيولوجيات، على الرغم من غموضها أحياناً، في استيعاب أفضل لتطور الأفكار بهذا الشأن.

المطلب الأول: أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي.

يعتبر "ويويل" Whewell أول باحث يقوم برصد مسار تطور العلم، حيث نشر أعماله في هذا الخصوص بين عامي 1837 و1857، لكن تأثيره بالنسبة للوضعية التي كانت في أوجها خلال القرن التاسع عشر جعلته يؤمن بأن العلم يرتقي بثبات نحو تحقيق مزيد من النجاحات، ففي كتابه: "تاريخ العلم الاستقرائي" يصر على الطابع الخطي للتقدم العلمي.¹ وقد تعرضت وجهة نظره هذه لانتقادات لاذعة من طرف معاصره "بروستر" Brewster، إذ يشير هذا الأخير إلى نقطة مهمة وهي تجاهل النموذج الذي يطرحه "ويويل" لكل مظاهر التقدم العلمي التي يعجز عن تكيفها مع مسلماته الاستقرائية.² لم يتوقف سيل الانتقادات التي واجهها "ويويل" عند هذا الحد، بل أن "جون ستิوارت ميل" نفسه توقف عند النقاش الموجود في تفسيرات "ويويل" للتقدم العلمي، ومن ذلك تمسكه بالاستقراء وبالنسبة للإمبريقية من جهة، ومن جهة أخرى، لجوءه إلى الملوك الحدسية في تفسير الاكتشافات العلمية رغم أنها تتم عن التعالي العقلي.³

رغم سلسلة الانتقادات التي طالت أعمال "ويويل" الرائدة في مجال التاريخ للعلم وتفسير التغيرات التي طرأت على مساره، إلا أنها لم تنقص من قيمة ما سعى لفهمه هذا العالم، وهو البحث في القانون الذي يحكم هذه التحولات والذي أصبح موضوعاً مهماً جداً من مواضيع فلسفة العلم الحالية وميداناً من ميدانها في إطار "تأريخ العلم" historiography of science. وقد تطلب الأمر قرناً كاملاً لتقديم طروحات أخرى في هذا الميدان، لكن أولاهما لم تكن لخرج عن المسار الذي رسمه "ويويل" وقبله "ديكارت" Descartes وهو مبدأ التراكمية في العلم، والاعتقاد بأن النظريات الجديدة تتولد عن القديمة وتكملها، وفي هذا الصدد جاءت نظرية "ارنست نيجل" Ernest Nagel في كتابه: "بنية العلم" (1961) لتأكيد على أن التقدم العلمي ليس سوى احتواء للمنظومة المعرفية القديمة في المنظومة الناشئة الأكثر دقة.⁴ وهو الطرح الذي أيده لاحقاً "كارل بوبر" الذي اعتبر التقدم بمثابة إطاحة بالمنظومة القديمة ودمجها في الجديدة، وبناء صرح علمي متعالٍ، قوامه قابلية النظريات للتكييف وقدرة الباحثين على الاستمرار في كشف مواطن الكذب في النظريات القديمة لتعزيز فهمنا بالعالم.⁵

يستند الطرح "البويري" في ذلك إلى نظرية العوالم الثلاث والتي تتفاعل بين بعضها البعض:⁶

- **العالم الأول:** ويحوي الأشياء المادية والكائنات البيولوجية كما يتضمن أيضاً الأحداث الاجتماعية المختلفة. إذن فهذا العالم يشتمل أساساً على مواضيع المعرفة أو الظواهر محل الدراسة؛
- **العالم الثاني:** ويشتمل على العمليات الإدراكية التي يقوم بها الدماغ وكل ما له صلة بالذات العارفة؛

¹ John Losee, 'Theories of Scientific Progress: An Introduction' (Routledge, Taylor and Francis Group, 2004), p. 7.

² Ibid., p. 17.

³ Ibid., p. 19.

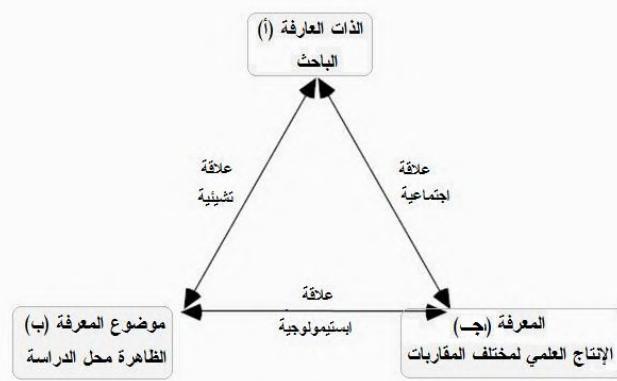
⁴ Ernest Nagel, "The Structure of Science" (New York: Harcourt, Brace & World), pp. 15-18.

⁵ كارل بوبر، ترجمة: أحمد مستجير، "بحثاً عن عالم أفضل" (مصر: سلسلة أعمال فكرية، 2001)، ص. 15.

⁶ Margaret Scottford Archer, 'Structure, agency and the internal conversation' (UK: Cambridge University Press, 2003), p. 36.

- العالم الثالث: ويشتمل على كل ما أنتجه الذات العارفة أو الدماغ البشري من معارف لدى سعيه لفهم العالم الأول، وبذلك فإن هذا العالم يتضمن، حسب "بوبير" كل النظريات العلمية والروايات والأساطير والأعمال الفنية والمؤسسات الاجتماعية وغيرها مما أنتجه العالم الثاني لدى تفاعلاته مع العالم الأول. وهكذا، فإن الموضوعية العلمية لدى "بوبير" ليست متيسرة إلا إذا سلمنا بوجود العالم الثالث في معادلة عوالم المعرفة، هذا العالم حيث يصب إنتاج العالم الثاني وبخضوع للتحميس والنقد، وربما التكذيب، وهو العامل الأكثر فاعلية في تقدم المعرفة ونمائها.

تمثيل بياني رقم 01 : يوضح مثال المعرفة استنادا إلى الطرح "البوبيري" Popper المتعلق بالعالم الثالث



المصدر:

Karl Maton, 'Reflexivity, Relationism & Research: Pierre Bourdieu and Epistemic Conditions of Social Scientific Knowledge', Space and Culture 32 (06) 2003, p. 57.

لكن هذا الطرح ووجه لاحقا بحجج مختلفة أهمها "اللامقايصة" في عديد الحالات بين البنية النظرية العتيبة والنائمة، بسبب استخدام تصورات بمضمون مختلف وأدوات قياس متباعدة. لذا فإن أكثر النظريات "الاحتوائية" incorporatist دقة في تفسير التقدم المعرفي، هي تلك المتعلقة ببرامج البحث اللاكتوشية والتي عمد من خلالها الباحث المجري "إمري لاكتوش" Imre Lakatos إلى تفسير التقدم في إطار برنامج بحث واحد عبر توسيع مجال النظرية لتضمين متغيرات جديدة، بحيث تصبح النظرية القديمة بمثابة نواة صلبة للنظرية الجديدة وهكذا دواليك، بما يكفل تحسين القوة التفسيرية للنظرية ولبرنامج البحث research program ككل.⁷ وفي حقل العلاقات الدولية يمكن إسقاط ذلك على النواة الصلبة للنظريات الواقعية التي أنت تبعاً، وهي التي تشكلت أساساً من الافتراضات التي استطاعت الصمود إمبريقياً للنظريات التي سبقتها. على سبيل المثال، تم التحول في النظرية البنوية لدى "ولتز" عن الأنطولوجيا التي تعتمد على عدائية الفرد

⁷ Imre Lakatos and A. Musgrave (eds.) **Criticism and the Growth of Knowledge** (Cambridge: Cambridge University Press, 1970), p. 115.

إلى عدائية الدول التي يفرضها "غياب التراتبية" anarchy في النظام الدولي، لكن جوهر الافتراض أي "العدائية" ظل ثابتاً.⁸

طلت التفسيرات الإحتوائية سائدة في ميدان تاريخ العلم إلى أن جاء "جوناثان كوهين" Jonathan L. Cohen (1973) بمفهوم الثورة المعرفية، لكن ما يعبّر على الطريقة التي طرح بها "الثورة" هو العمومية التي اتسم بها المفهوم لديه، حيث أصبح يلخص بأي فكرة جديدة حتى ولو لم تتمكن هذه الفكرة من تقويض أركان النظرية السائدة في مجال معين.⁹ المشكلة ذاتها وقع فيها "ستيفن تولمين" Stephen Toulmin عندما تحدث عن استبدال نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا أخفقت في مطابقة تصوراتها مع المسار الطبيعي للأحداث في العالم من حولنا، عندما تأخذ الأحداث مساراً لا تتلقّه النظرية السائدة وجب تعويضها. إذن، ومثل "كوهين" فقد أخفقت نظرية "تولمين" في وصف فترات التحول بدقة أو الدور الذي تلعبه النظريات الكلامية holistic قبل وخلال التحول.

بمجيء "توماس كون" أصبح لمفهوم الثورة مضموناً مقيداً ومنهجياً، حيث الوثبات المعرفية التي تنفذ تستطيع تقديم بدائل قياسية مختلفة، تساعد على استبطاط الفرضيات واختبارها وفق منطق جيد، فقط هذا النوع من الوثبات المعرفية يستحق وصف الثورة. يضيف "كون" أنه لدى الانتقال من نموذج قياسي إرشادي لآخر فإنه لا يمكن المقارنة بين الجديد والقديم لأنهما يستندان إلى جوهر مختلف ويوظفان أدوات مختلفة، فضلاً عن أنهما يرسمان أهدافاً متباعدة. وقد حدد كون مراحل الثورة في: مرحلة العلم العادي؛ مرحلة الأزمة بكثرة مواطن الشذوذ في النموذج السائد، ثم بعدها مرحلة الثورة لإرساء علم عادي قياسي جديد.¹⁰

ومع أهمية الطرح الذي ساقه "كون" إلا أنه تعرض لانتقادات عدّة، أهمها أن الثورة ذاتها مفهوم نسبي، والتحول قد لا يحدث بشكل جذري بل قد تقود مظاهر الخل في أداء النظرية السائدة، حسب "لاري لاودان" Larry Laudan، إلى القيام بتنقيحات تصورية عبر تفاعلها مع مكونين آخرين هما الأهداف الإدراكية (الباحث) والمبادئ المنهجية الشائعة وقد أسمى "لاودان" نموذجه بنموذج reticulational model.¹¹ وقد ذهب "نيكولاوس ريشر" Nicholas Rescher في الاتجاه ذاته، عبر أطروحته حول العلم باعتباره عملية إدراكية ذاتية. التقييم، تؤكد على مواطن القوة المنهجية وتضييف عليها بينما تستبعد الأخطاء ومواطن الضعف، وقد أهلت هذه الأطروحة للحصول على وصف المنهجية البراغماتية.¹²

لقد ساد هذا المنطق التفسيري للتقدم العلمي دون الإقرار بذلك صراحة، وهو المنطق الذي تعبّر عنه جملة "لاودان" بطريقة بارعة: "التقدم العلمي باعتباره تقرّباً مستمراً من الحقيقة". وكان "لاودان" قد أطلق هذه العبارة لدى ردّه على منتقديه، إذ عبر عن وجهة نظره بطريقة أكثر

⁸ Stephano Guzzini, "The Enduring Dilemmas of Realism in International Relations", *European Journal of International Relations* 10 (04) 2004, pp. 538-539.

⁹ John Losee, op cit., p. 65.

¹⁰ Ibid., p. 69.

¹¹ Ibid., p. 82.

¹² John Losee, op cit., p. 105.

وضوحاً، وهي أن التقدم ينصب على تحسين فعاليتنا في التعاطي مع المشكلات.¹³ لكن هذا الطرح متأثر بالوضعية إلى حد بعيد، فالبيئة التي يتعاطى معها العلم تطرح أحاجي لا مشكلات puzzles rather than problems الانقلال الكلاني من نموذج لأخر عقب تحسن فعالية حل المشكلات وربط ذلك بتحول علمي جزري، رغم أن ذلك ليس ضرورياً، ففي حالة العلم القياسي حسب الفهم "الكوني" فإن ذلك يتم تراكمياً في هذه المرحلة، وطالما أن ذلك يبدو غير ضروري [التحول الكلاني] فقد اقترح "كيشير" Kitcher ثلاثة مستويات متمايزة للتحول المعرفي: المستوى العملي (تحسين فعالية حل المشكلات المرتبطة بالعالم المادي)؛ المستوى التصوري (تحسين قدرتنا على تطوير تصورات متماسكة وذات قدرة تبسطية) وأخيراً، مستوى التفسير (زيادة الفعالية التفسيرية للنظريات المستخدمة). ومع الغموض الذي قد يثيره الاستعراض السابق، فإن التبيولوجيا التالية توضح لنا باختصار وفي سياق مقارن عدداً من التوجهات الرئيسية في مجال تفسير التقدم العلمي:¹⁴

1. **التراكمية لدى الاتجاه الاستقرائي Inductivism**: الذي تتضمنه تحت لوائه التجريبية المتطرفة والوضعية المنطقية، حيث يتحول التاريخ الداخلي للعلم إلى وقائع تجريبية صلبة تعقبها تعميمات استقرائية، لينمو العلم بذلك وفق منحى تراكمي؛

2. **الجمالية والتبسيط لدى الاتجاه الاصطلاحي Conventionalism والذرائعي Instrumentalism**: حيث يتحول تاريخ العلم إلى تشيد لأنساق مفتوحة، بما يكفل سيادة نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا استطاعت تقديم أبسط تفسير يتفق مع الملاحظات المتعلقة بالموضوع، فهذا النوع من التفسيرات هو الصحيح على الأرجح، وهو المفضل عن سواه. لقد كان معيار القدرة التبسطية parsimony pattern من مسلمات التفكير العلمي وفلسفة العلم بصفة عامة، إلا أنها تكتسب أهمية خاصة عند الاصطلاحين والذرائعيين، حيث تعني القدرة على تبسيط الظواهر التي تتسم بالتعقيد. وبالنسبة لهذين الاتجاهين فإنه وزيادة على المزايا الأخرى لهذه النزعية التبسطية، فإن للتبسيط مغزى جمالي أيضاً esthetic، إذن فالمفاضلة بين النظريات لديهم يتوقف على تلبية مطلبين: المنطقية والجمالية. لذلك فإن "لاكتوش" وفي مأخذه على هذا الاتجاه يقول أن تاريخ العلم معهم سوف يصبح تاريخ الانتصارات التي يحققها معيار البساطة.

3. **القابلية للتکذیب لدى الاتجاه البوبری Falsifiability**: حيث يصبح التاريخ الداخلي العقلاني للعلم عملية تقوم برصد الحدوس الابتكارية التي تكتسب مضامين أكثر ثراء بفضل خاصية التقويم الذاتي، والتقدير العلمي الذي يعتمد على ثورات مطردة عبر قابلية التفتيش التي تتمتع بها النظريات العلمية، لتفتح المجال لظهور نظريات أخرى بفضل حدوس أكثر جرأة وابتكارية تسمح بتحصيل معرفي أغزر. وهو ما تعرض للنقد لدى "كون" الذي قام بعقلنة الثورات، بحيث لم يعد معه كل إنتاج جديد بمثابة ثورة. لكن التحول الأهم عن القابلية للتکذیب لدى "بوبر" وثوراته المطردة جاءت بفضل "لاكتوش".

¹³ Ibid., p. 120.

¹⁴ يمنى طريف الخولي، "فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد والأفاق المستقبلية" (الكتاب: عالم المعرفة: 2000)، ص. 415-414.

٤. تناقض البرامج البحثية لدى الاتجاه اللالاكتوشى: وهو اتجاه يرى أن تاريخ العلم ليس تعاقباً لثورات متتالية بقدر ما هو رصد للبرامج المتنافسة، يأخذ بعضها منحى تقدماً في حين ينتكس البعض الآخر.

وسيتم التفصيل في أهم الطروحات السابقة عبر التركيز على التاريخ للعلم من منظور "الثورة"، ومن منظور "البرامج البحثية" وأخيراً من منظور "الفوضى المنهجية الخلاقة".

المطلب الثاني: منطق الثورة العلمية لدى "توماس كون".

يعد إصرار "توماس كون" (1922-1996) على مفهوم "الثورة المعرفية" من أهم الطروحات التي بثت حيوية غير معهودة في فلسفة العلم في القرن العشرين. بني "كون" تصوره على أعمال "كارل بوير" (1902-1994)، ويمكن تلخيص فهمه للثورة العلمية في كتاب: "بنية الثورات العلمية" باعتبارها انتقالاً من نموذج قياسي إرشادي Paradigm إلى آخر.¹⁵ ويعتبر "توماس كون" أحد أبرز المساهمين في استحضار الوعي بتاريخ العلم في صلب فلسفة العلم. بدأها بدراسة حول "دور التاريخ"، التي جعلها مقدمة لكتابه المرجعي "بنية الثورات العلمية"، يركز فيها على قضية مهمة وهي ضرورة تقادى النظر للتاريخ باعتباره مجرد سرد لأحداث متعاقبة، وحياتها سوف يحدث تاريخ العلم تغييراً جوهرياً في التصور السائد حول المسار الذي قطعه تطور العلم، لنحصل على صورة مختلفة تماماً سيما إذا تماشينا تقييم الماضي بمقاييس اليوم، أو أن تتوقع من تاريخ العلم الإجابة عن أسئلة تخص الماضي بمعايير الحاضر (وهي الملاحظة الذكية التي بني عليها مفهوم اللامقايصة أو اللاقافية).¹⁶

إن فلسفات العلم التي انفصلت عن النزعة التاريخية، بحسب "كون"، وتعاملت فقط مع المعطى الحالي غير مجدية لأن هناك تمايزات كبيرة بين القواعد، والمبادئ، والتصورات، والمفاهيم والأولويات التي توجه بحوث العلماء في كل مرحلة، وما يسلم به جيل من العلماء باعتباره بدبيها، قد ينظر إليه جيل آخر على أنه أسطورة أو قضية لا تستحق الاهتمام من الأساس.¹⁷

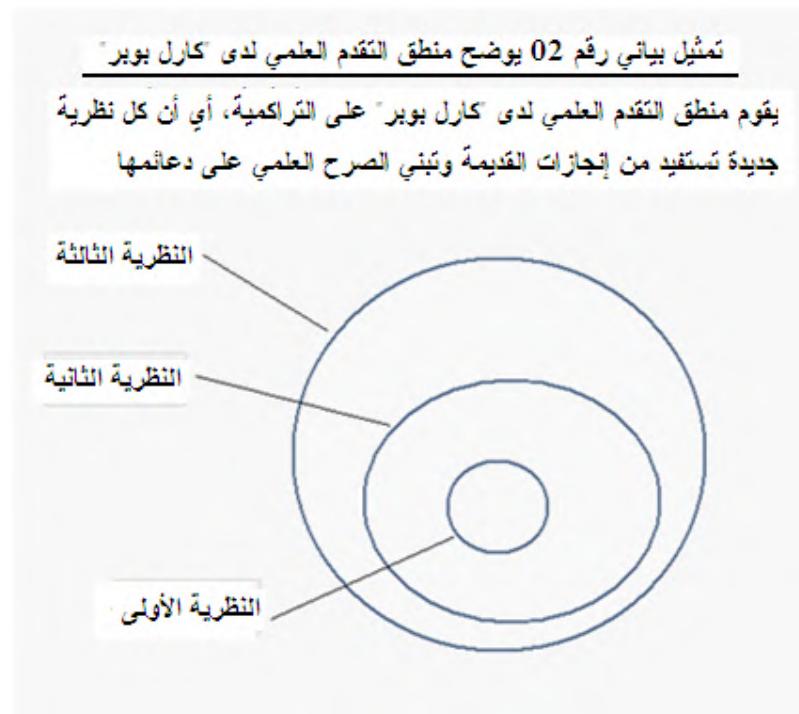
لقد دعا هذا الفيلسوف إلى ضرورة التسلح بالوعي التاريخي على أساس التمييز بين مرحلة العلم العادي normal science ومرحلتين مفصليتين هما مرحلة الأزمة ومرحلة الثورة. بالطبع "توماس كون" يسلم بكون العلم ماض في طريق التقدم المستمر، لكنه يتحدث عن خطأ الاعتقاد

¹⁵ "توماس كون" Thomas Kuhn (1922-1996) عالم فيزياء نظرية ومؤرخ للعلم، قام بتدريس تاريخ العلم في: "جامعة هارفارد" 1952-1956، جامعة "بيركلي" بكاليفورنيا، والمعهد التكنولوجي في "ماساتشوستس". أهم إسهام لهذا العالم هو إحداث التحول في اتجاه الوعي التاريخي بتطور العلم

¹⁶ Ronald N. Giere, 'Science without laws' (USA: University of Chicago Press, 1999), p. 36.

¹⁷ Ibid., p. 38.

السائد بأن هذا التقدم يأخذ منحى تراكمي في مسار خطى، فهذا المسار يسير بمنطق الدورة. ويبعد أن "كون" وخلافاً لسلفه "كارل بوبر" يتحفظ على وسم كل تطور بالثورة فهو يضع شروطاً قاسية لذلك¹⁸.



إذن تقوم فلسفة "توماس كون" على ضرورة التمييز في مسار العلم أو تقدمه بين مراحل العلم العادي الذي يسير في إطار النموذج القياسي الإرشادي السائد (البارادايم paradigm) وبين المراحل الانتقالية في إطار تقدم العلم من نموذج إرشادي إلى آخر: الثورة. يعتبر النموذج القياسي الإرشادي بمثابة النظرية العامة التي يتلزم بها المجتمع العلمي في مرحلة معينة، أما بلوغ هذه النظرية العامة منزلة "النموذج الإرشادي" أو "البارادايم" فيعني أنها أفضل من كل منافساتها، أي أنها الأقدر على الصمود لذا توجب التسليم بها، مع ما يتبع ذلك من التسليم بكل مسلماتها ومناهجها ومفاهيمها العلمية وأبعادها الماورائية Metatheory. المضامين التي ينطوي عليها ذلك على صعيد المجتمع العلمي تتمثل في أن النموذج القياسي المهيمن يؤثر في:

- تحديد المشكلات التي يجب دراستها وأنماط الحلول المطلوبة؛
- تحديد معايير الاختبار والتقييم وشروط التقييم والتعديل إن لزم الأمر.

التأثيرات العلمية التفصيلية الناجمة عن تبني "بارادايم" معين تتجلى في الخطوات التالية، فـ"البارادايم" يحدد:

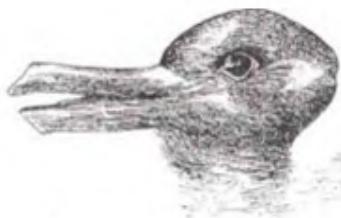
- ما الذي يجب ملاحظته؟

¹⁸ Ronald N. Giere, op cit., p. 38.

- ما هي الأسئلة التي يتعين طرحها؟
- كيف سيتم البحث في هذه التساؤلات، أي ما هي الأدوات التحليلية التي يجب الاعتماد عليها؟
- كيف يمكن قراءة وتأويل النتائج المتحصل عليها من خلال البحث.

ولعل أفضل تبرير استطاع من خلاله "كون" تسويق فكرة "البارادايم" هو الصورة أدناه، فهي تقرأ بكيفيتين: البعض قد يصر على أنها نوع من البط بينما قد يتمسك آخرون بأنها صورة لأرنب، ويمثل ذلك حالة المعطيات الإمبريقية المتاحة في العلم وفي العلاقات الدولية بشكل جلي.

الصورة رقم 01: تظهر صعوبة إعطاء قراءة موحدة لمعطى واحد ما يوضح فكرة "البارادايم" (الصورة يمكن اعتبارها بط أو أرنب)

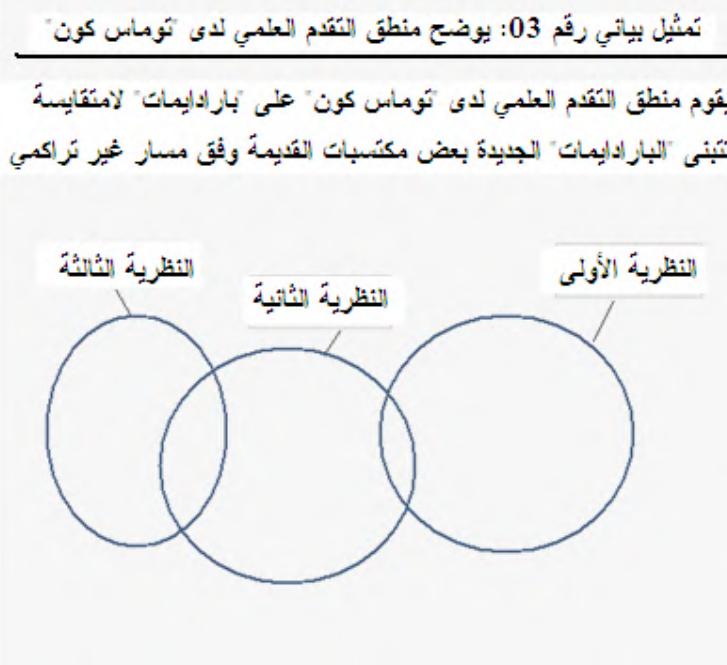


فالباحثون يعتمدون على المعطيات ذاتها بينما يقدمون لنا قراءات interpretations متبانية تعتبر صحيحة إذا ما قيست بمعايير المدرسة الفكرية التي أنتجتها أو الزاوية التي تنظر بها للأمور. ولذا نجد بعض الباحثين يوسمون مقالاتهم بـ: "علم واحد: مدارس متعددة" (ستيفن وولت)، بحيث يوضح فيه كيف أن القراءات المختلفة للأحداث والتنوع النظري قائم رغم أن جل هذه النظريات تزعم أنها تهم بدراسة الظاهرة ذاتها.¹⁹

يسلم "كون" بأن بعض الحقول المعرفية مثل الرياضيات والفيزياء تمكنت من صقل نموذج إرشادي وهي بذلك تعتبر مجتمعا علميا ناضجا. وميزة هذه المجتمعات العلمية "المستقرة" هو أنها تكف عن طرح إشكاليات كبرى (تلك التي تساهم في صقل "البارادايم" في الوهلة الأولى) لتدخل مرحلة العلم العادي الذي يشكل وعاء لطرح أسئلة عادية ومسائل تقنية. إن التسلیم بنموذج قياسي إرشادي يهب الباحثين لاختيار مشكلات يمكن الوصول إلى حل لها طالما استمر في البحث ضمن النموذج الإرشادي ذاته. إذن، لا يقوم الباحث خلال مرحلة العلم العادي باختبار النموذج الإرشادي الذي ينتمي إليه أو يحاول تكذيبه بحسب مفهوم "بوير" في تصوره: "القابلية للتكتيب" falsifiability، فالعلم ينمو في مراحله العادلة من خلال "تفكيك الأحجاج" puzzles التي يثيرها النموذج الإرشادي المسلم به، والمعرفة هنا تزداد دقة واتساعا وتستمر في تحقيق نجاحات تدل على

¹⁹ Stephen Walt, 'International Relations : One World, Many Theories', *Foreign Policy* (Spring) 1988, pp. 29-45.

نجاح المشروع العلمي برمته، لكنها تفتقد لأية ابتكارات جوهرية فلدي سيادة نموذج قياسي إرشادي فإن العلم يخضع للمنطق التراكمي.²⁰



يستمر المنحى التراكمي للعلم في مرحلته العادلة normal science إلى أن يظهر الشذوذ، أي أن تطفو إلى السطح ظاهرة لم تكن متوقعة في ظل النموذج الإرشادي السائد، لذا فإن الباحثين غير مهتمين للتعامل معها، ذلك أن "البارادایم" الذي ينتمون إليه لا يتيح لهم الأدوات الكفيلة بذلك، وهنا يشرع أعضاء المجتمع العلمي في البحث عن مخارج. هذه المخارج إما أن تكل بتعديل "البارادایم" وتنقيحه أو البحث عن "بارادایم" جديد. وبالنسبة لـ"كون" فإن "البارادایم" نفسه يحوي بذور أقوله، إذا لم يستطع وضع آلية "التصويب الذاتي"، والتي تمنحه القدرة على الصمود أمام الهزات الإمبريقية. لكن "كون" لا يؤيد فكرة التعديل المتكرر والمطرد فالبالغة في ذلك تعني أن "البارادایم" يعيش أزمة بمعنى أنه غير مجهز بشكل ملائم للتعاطي مع الظواهر المستجدة. ويمثل هذا الوضع ما وقعت فيه الواقعية خلال مسار تطورها وتطورها لحقل العلاقات الدولية، من التركيز على الطبيعة الإنسانية لدى الواقعيين الكلاسيكيين خلال النقاشين النظريين الأول والثاني، إلى التركيز على بنية النظام الدولي في سياق النيوواقعية (البنيوية والنيوكلاسيكية) خلال النقاشين النظريين الثالث والرابع. ومن الاكتفاء بالمتغير العسكري إلى تضمين المتغير الاقتصادي في التحليل خلال الوثبة التي ساهم فيها بالأساس "ولترز" Waltz و"رافي" Ruggie²¹.

في سياق التنقيح "الباراديمي" فإن التعديلات المستمرة تدفع أعضاء المجتمع العلمي للجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية، مما يجعل المسعي البحثي غير تراكمي، ولتوسيع الأمر نعود إلى

²⁰ Patrick James, 'International Relations and Scientific Progress: Structural Realism Reconsidered', (USA: Ohio State University Press, 2002), p. 81.

²¹ Patrick James, op cit., p. 128.

التصور "البوري": القابلية للتكييف. قوة النظرية تكمن في وجود آليات تسمح باختبارها، وعندما يتم اللجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية (نظريات، ومقاربات ونماذج) فإن الطابع الابتكاري ينسحب أيضاً على آليات الاختبار والتقييم وبالتالي التكييف من عدمه، وفي هذه الحالة فإن هذه الأدوات التحليلية الجديدة لا يمكن وضعها في سلة واحدة جنباً إلى جنب مع القديمة. بمفهوم "كون"، فإن المجتمع العلمي في هذه الحالة، على وشك تحقيق وثبة نحو نموذج قياسي إرشادي جديد وهو ما يسميه -في حال نجاحه- بـ التحول الباراديمي paradigm shift.²²

إمبريقيا يمكن محاكاة هذا المفهوم بعدد من التطورات أو بالأحرى الوثبات التي عرفتها الإنسانية، بعد تحقيق عدد من الإبداعات التقنية مثل:

- تحول واقع نقل المسافرين والبضائع بعد اختراع العجلة، ثم بعد اختراع المحرك البخاري الذي يعمل على الفحم، وبعدها дизيل والطائرة، والآن يتم العمل على المحرك النووي بهدف توظيفه في تسخير رحلات مأهولة إلى الفضاء ولمسافات طويلة.
- تحول واقع الحرب بعد تسخير البارود كسلاح للقتص والتغيير، وبعدها التحول الثوري الآخر الأكثر أهمية على الإطلاق أي عقب الحصول على السلاح النووي وقبل ذلك سلاح الطيران.
- العلاج الطبي بعد اختراع اللقاحات (الطب الوقائي) والليزر (عمليات جراحية دون شق الجسد) وحالياً يتم العمل على تكنولوجيا "النانو" لتطوير أجسام "روبو" مجهرية يكفل لها محاربة الأورام.

تبين لنا هذه الأمثلة بعض جوانب التحولات الباراديمية وأثرها في الحياة الإنسانية، وقد استهل بها شرح مفهوم التحول الباراديمي قبل الإحالة على المضامين الأكثر تجريداً عندما يتعلق الأمر بالثورة المعرفية، حيث يقول "كون" أن الخروج من سياق "العلم العادي" وتعديل النموذج سيحدث تحولاً في طبيعة المعرفة ذاتها لتصبح ثورية بعد أن كانت ترافقية، بمعنى التحول من المسار الخطي linear للتطور إلى مسار غير خطي non-linear.²³ في حقل "العلاقات الدولية"، يتجلّى ذلك في إخفاق "النيوواقفية" و"النيوليبرالية" في التبنّي بنهاية الحرب الباردة أو حتى تفسيرها وذلك رغم أنها نسخ منقحة عدة مرات عن التقليد البحثي "الوضعي"/"العقلاني" في هذا التخصص.

لقد أتاح ذلك الفرصة، ومنح الشرعية، لدخول نظريات جديدة خط المنافسة من أجل تقديم فهوم تتمتع بصلاحية إمبريقيّة أكبر، وهذه "الباراديمات" الجديدة بالأساس التأملية والبنائية لم تستنق أدواتها التحليلية من التقليد الوضعي السائد، ولا هي تبني نظرية للعالم worldview متوازنة مع تلك التي دأب التقليد البحثي السائد على تبنيها. إذن، فهي ستطرح أحاجي علمية مختلفة، وبالتالي فهي تقدم بديلاً متميزاً، كما أنها تمثل تطويراً نوعياً بل وربما قطبيعة معرفية بمفهوم "باشلار"

²² توماس كون، ترجمة: شوقي جلال، *ابنية الثورات العلمية* (الكويت: عالم المعرفة، 1992)، ص. 103.

²³ توماس كون، المرجع السابق، ص. 177.

²⁴ إذ أن "الباراديمات" البديلة أثبتت بعض التفوق في إعطائنا فهوما، وذلك حيث التزم "التقليد البحثي المهيمن" "الصمت" أو ما دأب "ستيف سميث" Steve Smith على تسميته بـsilences، فإن نصوصها اكتسبت شرعية كافية لملأ أجزاء هامة من صفحات الكتب الأكademie Textbooks. وإذا تغلبت إحدى هذه "الباراديمات" على منافساتها فإنها ستنهي على الحق في إطار ثورة معرفية مظفرة لصالحها.

عندما تحدث الأزمة المعرفية بظهور أعراض الإلحاد في الحصول على فهوم متبصرة للواقع باستعمال أدوات دأب التقليد البحثي المهيمن على تزويينا بها، وعندما يصعب التخفيف من حدة هذه الأزمة عبر تنقية "الباراديم" المهيمن، تحدث الثورة المعرفية ومفادها الانتقال إلى "نموذج قياسي إرشادي" (باراديم) جديد، والذي ينطوي أيضاً على تغيير في النظرة إلى العالم worldview. مما يجعل الحديث عن إمكانية مقارنة ما يزودنا به الباراديم الجديد والقديم غير متيسر، فكل منها يستعمل لغة مختلفة، أدوات تحليلية متمايزة ويطرح أحاجي علمية متميزة أيضاً، وهذه الوضعية يطلق عليها "كون" اللامقايصة Uncommensurability، فعندما تكون إزاء "نموذجين قياسيين إرشاديين" متعاقبين فإن النقاش غير ممكن لأنه لا جدوى من ذلك علمياً، فضلاً عن أن النظرية تقاس بالسياق الذي ظهرت فيه والظروف العلمية التي أنتجتها، فلكل نظرية مقاييسها الخاصة المستمدّة من "الباراديم" الذي تم تفعيلها فيه.²⁵

لكن ما يصعب تفسيره هو طول مدة الفترة الانتقالية من "باراديم" لآخر فهل يعني ذلك تعايش "الباراديمات"؟ أم أن هذه المنظورات perspectives (باستعمال مفهوم فضفاض) ليست مؤهلة لتحمل وصف "النموذج القياسي الإرشادي" (الباراديم) وبالتالي فهي ربما أقرب إلى برامج بحث لاكتوشية؟

المطلب الثالث: البرامج البحثية لدى "إمري لاكتوش".

إن اهتمام "إمري لاكتوش" (1922-1974) بمجال التاريخ للعلم يمكن فهمه باستحضار مقولته الشهيرة: "فلسفة العلم من دون تاريخه خواء، وتاريخ العلم من دون فلسفته عماء".²⁶ وهي المقوله التي صاغها عن طريق تعديل قول "إيمانويل كانط" المتواتر: "إن المدركات الحسية من دون تصورات عقلية عماء، والتصورات العقلية من دون مدركات حسية خواء"، وهنا يشبه وقائع

²⁴ لمزيد من التفصيل في مفهوم القطبيعة المعرفية لدى "باشلار" انظر: محمد عابد الجابري، 'مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي'، ط. 6 (لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006)، ص. 463.

²⁵ توماس كون، المرجع السابق، ص. 221.

²⁶ إمري لاكتوش Imre Lakatos (1922-1974) من بين أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين، وهو يهودي مجرى لقبه الأصلي "ليشوتز"، تحصل على دكتوراه في الفلسفة من جامعة كامبريدج.

تاریخ العلّم بأنّها محض مدرکات عمياء، ونظريات فلسفة العلّم محض تصوّرات عقليّة فارغة، فلا معنى ولا جدوى ولا قيمة لأحدّهما من دون الآخر.²⁷

تأثیر "لاکاتوش" في أعماله بفلسفه العلّم سیما نظریته في المنهج (المیثودولوجیا) لكنه منحها فعالية وحركية تاریخیة. غير أنّ أهم إسهاماته والتي تجسدت في مؤلفه: "میثودولوجیا برامج الأبحاث العلمیة"، فقد جاءت متاثرة بمفهوم "النماذج الإرشادیة" لدى "توماس کون" وأيضاً "الإستراتیجیات العقایلیة" عند "ستيفن تولمن".²⁸

ويعتبر الحديث عن البرامـج البـحثـية الـلاـکـاتـوشـية وأـهـمـ رـؤـى "لاـکـاتـوشـ" في هـذـاـ الشـأنـ منقوصـاـ قبلـ المرـورـ علىـ إـحـدـىـ المـفـاهـيمـ الـابـتكـاريـةـ التـيـ جاءـ بـهـاـ وـهـيـ:ـ تـكـنـيـبـ الفـروـضـ refutationـ،ـ حـيـثـ يـصـرـ "لاـکـاتـوشـ"ـ عـلـىـ اـعـتـارـاـتـاـ الخـاصـيـةـ الـمـمـيـزـةـ لـلـنـظـرـيـةـ الـعـلـمـیـةــ وـخـلـافـاـ لـمـاـ ذـهـبـ إـلـيـهـ "بوـيرـ"ــ فـانـ النـظـرـيـةـ الـعـلـمـیـةـ ماـ يـمـیـزـهـاـ لـیـسـ قـابـلـیـةـ التـكـنـیـبـ المـتـضـمـنـةـ فـیـهـاـ بـلـ الـأـصـحـ هوـ عـدـ إـمـکـانـیـةـ الـقـیـامـ بـذـلـکـ.

ولفهم ذلك لا بد من العودة إلى أطروحة "دوهیم-کواین" Duhem-Quine Thesis²⁹: تتصرّف هذه الأطروحة على نقطتين أساسيتين: أولاًهما أنه ولدى اختبار الفرضيات يجب الاستعانة عند تأويلها بالنسق العلمي الذي تولد فيه هذه الفرضيات؛ ثانيةهما، وهي النقطة الأهم، عدم تقويض أسس نظرية معينة في حال ثبتت القرائن الإمبريقية خطأً إحدى فرضياتها hypotheses، فالعلم لن يتمكن من خطوة خطوة إلى الأمام إذا ما اعتمد هذه الطريقة في التقييم والتقويم، ويقترح "دوهیم-کواین" بدلاً من ذلك تصوّراً آخر مفاده أن اختبار الفرضيات يجب ألا يتم بمعزل عن بعضها البعض، بل يجب وضعها في سلة من الفرضيات، وإذا ما تناقضت مع توقعات الباحث فيجب البحث عن الفرضية غير المتسقة مع البنية العامة للنظرية. المشكلة مع هذا الطرح هو السيناريو الذي يدحض فيه الاختبار مجمل الفرضيات، وهنا يتدخل "لاکاتوش" لتقديم الحل: حيث يقول أن البحث العلمي يجب أن يتم في إطار نسق معين يسميه "برنامج البحث" research program. يتشكّل هذا البرنامج من نواة صلبة hard core يحتوي على افتراضات الكلية التي تستند عليها النظرية assumptions، وهذه النواة لا يمكن تكثيفها بواسطة الاستراتيجيات المنهجية السائدة؛ يضاف إلى هذه الحلقة حلقة من افتراضات الأخرى التي تستخدمها النظرية لاستكشاف المزيد من الحقائق، تحسين قدرتها التحليلية، وتوسيع مجالها، وتكون هذه الحلقة بمثابة صمام أمان لحماية النواة الصلبة، وبالتالي، فإن دحضها بواسطة الشواهد الإمبريقية لا يمس النظرية. وفي الوقت ذاته، فإن تصور "برامـجـ الـبـحـثـ"ـ يـتـحـ لـلـنـظـرـيـةـ التـعـالـمـ بـإـيجـابـیـةـ معـ عـالـمـهاـ دونـ الخـشـیـةـ منـ أنـ تـنـهـارـ بـفـعلـ اختـبارـاتـ سـلـبـیـةـ.³⁰

²⁷ يعني طريف الخلوي، المرجع السابق، ص. 409.
²⁸ المرجع نفسه.

²⁹ Donald Gillies, 'Lakatos' Criticisms of Popper', in George Kampis et al. (eds.) 'Appraising Lakatos: Mathematics, Methodology, and the Man' (US: Springer, 2002), p. 15.

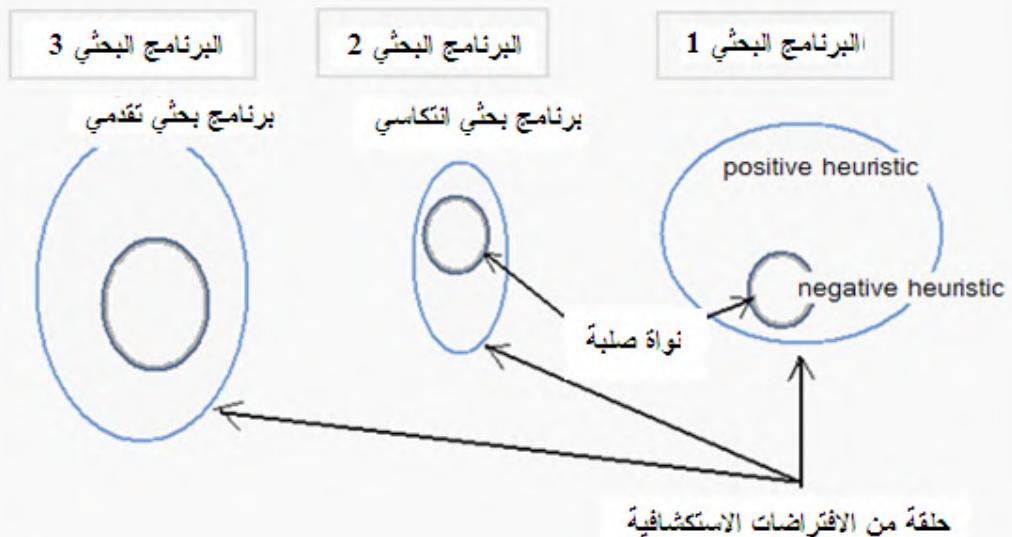
³⁰ Donald Gillies, op cit., p. 16.

في حقل العلاقات الدولية تمثل النواة الصلبة الافتراض الواقعي بأن: الدولة هي الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية وليس الفواعل فوق supra أو تحت sub الدولة، هذه النواة الصلبة محمية بما يسميه "اللاكتوش" negative heuristic أي أنها محسنة ضد محاولات استكشاف أو اختبار كل ما يتعلق بها طالما أن الباحثين المعندين يعبرون عن انتمائهم لهذا البرنامج البحثي، فذلك ما يمنح هذا البرنامج SRP هويته، إن هو غيرها، بفعل هشاشة النواة الصلبة أمام الاختبارات الإمبريقية، فإن جل الباحثين سيتعين عليهم الهجرة إلى برنامج بحثي جديد New SRP. أما الحلقة الدفاعية المنهجية للنظرية الواقعية، حسب المفهوم "اللاكتوشي"، أي صمام الأمان، فهو ينطوي على عدد من الافتراضات التي يمكن تعديلها وتكييفها حسب المعطيات الإمبريقية، كما أنها تلعب دور الأداة لتوسيع نطاق النظرية واستكشاف مجالات جديدة دون أن يعرض ذلك النواة الصلبة للخطر، ويمثل ذلك الواقعية الدفاعية (حيث الدولة تسعى لتعظيم القوة) والهجومية (حيث الدولة تسعى لتعظيم الأمن).³¹

³¹ Colin Elman and Miriam Fendius Elman, ‘Appraising Progress in International Relations Theory: An Introduction’, in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), **Progres in International Relations Theory** (UK: Mit Press, 2003), p. 19.

تمثيل بياني رقم 04: يوضح منطق التقدم العلمي لدى "إمري لاكتوش"

يقوم منطق التقدم العلمي لدى "لاكتوش" على افتراض مفاده أن البحث العلمي مهيكل في إطار برامج بحثية تكون من نواة صلبة محصنة ضد التكذيب وحلقة من الافتراضات الاستكشافية الخاضعة لمقياس الاختبار



البرنامج البحثي الذي توسيع حلقة افترضاته الاستكشافية يصبح تقدماً (الواقعية مثلا)
أما البرنامج البحثي الذي تضيق فيه هذه الحالات فتصبح انكاسي (النيوماركسية مثلا)

إذا أخفقت الفرضيات المنتمية إلى الحزام الدفاعي الملحق auxiliary belt، وهو ما لم يحدث بعد في حالة الحزام الدفاعي Offensive Realism / Defensive Realism "الهجومي" لدى الواقعيين، فإن النتيجة التي يفسر من خلالها "لاكتوش" بقاء البرنامج البحثي حيا هي تحول في المشكلات التي يعالجها البرنامج، حيث أن الباحثين المنتجين لهذا البرنامج ليسوا مضطربين إلى تغيير النظرية أو ربما تغيير "الباردائم" ككل كما يطرحه "كون". ويطلق "لاكتوش" على هذا التحول مصطلح "التحول نحو معالجة مشكلات أخرى" ضمن برنامج البحث ذاته intra-program problemshift و السقوط بشكل مزمن، بل لحماية البحث العلمي نفسه وضمان الحد الأدنى من التراكمية والتقدمية.

وهنا يوضح "لاكتوش" أن برامج البحث إما أنها تسير بمنطق تقدمي progressive [الواقعية] أو انتكاسي degenerative [الماركسية].³²

الفارق بين المنطق التقدمي والانتكاسي هو أن البرامج البحثية الانتكاسية أو المنسكسة تصبح عاجزة عن تفعيل الفرضيات المنتمية للحزام الدفاعي الملحق، وذلك للحصول على اكتشافات جديدة أي تحقيق وثبات باتجاه تحصيل المزيد ميدانياً، فالبرامج البحثية لا يعترف لها بخاصية الثبات ومراؤحة مكانها فـإما أنها تتقدم أو تنتكس، ويحدث ذلك عندما تخفت منهاجيتها الاستكشافية الإيجابية إزاء محيطها positive heuristic بما يجعل النواة الصلبة عرضة لتوظيف أدوات منهجية لتقويضها، وفي هذه الحالة تنهر النظرية لأن يفترض بها الحيز أن يكون بمنأى عن عملية الاستكشاف والفحص المنهجيين negative heuristic.³³

إذن، فـ"لاكتوش" يصور التقدم العلمي بمثابة انتقالات متواالية من برنامج بحث أصبح مننسكاً، إلى آخر يمتلك السمة التقدمية الواعدة، فالتأريخ للعلم توصل إلى أن فلسفة العلم ذاتها باعتبارها المرجعية الوحيدة لتقدير مسار التقدم: "لم تعد قواعد وطرق حل المشاكل العلمية كما كان يأمل فلاسفة القرن التاسع عشر، ولم تعد مجرد تبرير للمعرفة العلمية، إنما هي نظريات في العقلانية العلمية ومعايير لتمييز العلم وتعريفه، ومحكمات لقبول ورفض النظريات العلمية تحاول أن تعطي صياغة لنمو المعرفة العلمية الموضوعية، أي للتطور العقلي الخالص، لذلك كانت فلسفة العلم أو ميثولوجياته صياغة لعقلانية التقدم العلمي، أي نموه الإبستمولوجي الذي هو تطور عقلي خالص".³⁴

لقد حقق تصور "برامج البحث" لدى "لاكتوش" نجاحاً باهراً في الأوساط الأكademية، بينما الباحثين في مجال التأريخ للعلم historiography، حيث أصبحت المعالجات المختلفة لمسألة التقدم العلمي وتقديم تفسيرات مناسبة تعتمد على البرامج البحثية بشكل كبير نظراً للصعوبات التي اكتنفت محاولات وسمها بالثورات المعرفية "الكونية" Kuhnian، فذلك يفسر إلى حد بعيد وجود عدد معتبر من النظريات المتنافسة في العلاقات الدولية (النيوواقعية، النيوليبرالية، النيوماركسية، النيوكولونيالية، الجندر، البنائية،...). التعاليم، إن صح التعبير، بين هذه المقاربات يؤكد أن الفترة الانتقالية التي تحدث عنها "كون" والتي تفصل بين "بارادايم" المنسك أو المتقهر، وظهور أعراض إخفاق عدة مسلمات فيه وبين تعويضه بـ"بارادايم" آخر كانت طويلة جداً، فـإما أن منطق الثورة لدى "توماس كون" ليس دقيقاً بما يكفي لوصف التقدم العلمي في العلوم الاجتماعية، طالما أنه صيغ بالأساس لتفسير وفهم مسار التطور المعرفي في الفيزياء (من "كوبرنيكوس" وـ"فالبليو" إلى "النيويتنية" وصولاً إلى "النسبية" وأخيراً "ثورة الكوانتم" وهي المحطات التي بني على ضوئها "كون" نظريته).³⁵

³² Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.

³³ Ibid.

³⁴ يمنى طريف الخولي، المرجع السابق، ص. 414.

³⁵ John Vasquez, Kuhn versus Lakatos: The Case for Multiple Frames in Appraising International Relations Theory, in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), Progres in International Relations Theory (UK: Mit Press, 2003), pp. 420-422.

غير أن ذلك لم يكن حائلا دون تعرضه لانتقادات تخص الاتساق والدقة المنهجيتين. فمثلاً حديث "لاكتوش" عن البرامج البحثية الواحدة التقدمية التي تكتشف الجديد، مقابل البرامج البحثية الانتكاسية التي تراوح مكانها بل وتجد نفسها في موقع دفاعي، كان معياراً تصنفياً جيداً، إلا أن النقطة التي أخفق "لاكتوش" في شرحها هي: ما هو المعيار الذي يمكن أن نبني على أساسه الجدة، أي ما هي الأدوات الاتفاقية التي يمكن أن نحكم على صوتها بجدة طروحات نظرية لبرنامج بحثي معين. الإجابة عن هذا السؤال ليست متيسرة لدى "لاكتوش"، لكن يبدو أن صمود المقاربة النظرية أمام هزات إمبريقية متالية يعد كافياً للحكم عليه بالتقدمية.³⁶ غير أن المشكلة التي تظل مطروحة في المنظور اللاكتاشي للتحولات المعرفية تمثل في عجزه عن تقديم تفسيرات للتحولات الكلامية باتجاه مسلمات جديدة ونماذج قياسية ابتكارية لا ترتبطها علاقة بالنموذج السائد، النقطة التي أخفق أمامها "كون" و"لاكتوش" على حد سواء.

المطلب الرابع: "الفوضى المنهجية الخلاقة" لدى "باول فاييرآبنت".

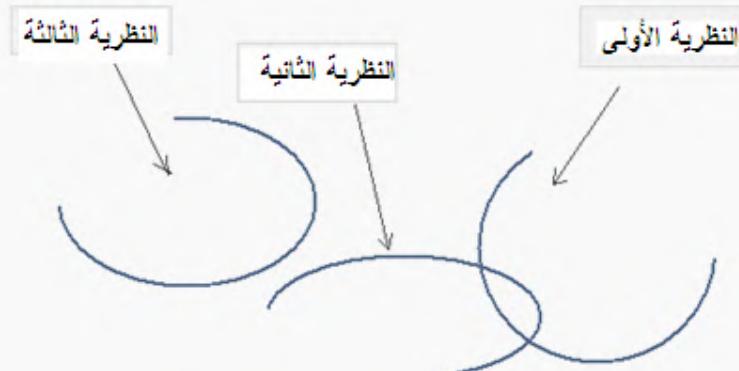
تعتمد بعض تفسيرات التحولات المعرفية على التراكمية كلية كانت أم جزئية، لكن مشكلة كبيرة تواجه هذه التفسيرات عندما يتعلق الأمر بثورة جذرية على المسلمات الشائعة، وهذه هي حالة النماذج التفسيرية التي طورت قبل ظهور فيلسوف العلم النمساوي "باول فاييرآبنت" Paul Feyerabend (1924-1994)، هذا الأخير أدخل "نزعته النسبية" في المقاربة للمسألة سنة 1975 لدى إصداره كتابه المثير للجدل: "ضد المنهج: مخطط تمهدٍ لنظرية فوضوية في المعرفة".³⁷

³⁶ Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.

³⁷ لفهم أعمق لمطارات فاييرآبنت، انظر بالأخص: باول فاييرآبنت، ترجمة: محمد أحمد السيد. "ثلاث محاورات في المعرفة" (الاسكندرية: منشأة المعارف، 1997).

تمثيل بياني رقم 5: يوضح منطق التقدم العلمي لدى باول فايرآينت

يقوم منطق التقدم العلمي لدى باول فايرآينت على افتراض مفاده ألا ضرورة لوجود مكونات قديمة في النظرية الجديدة، التقدم وفق مسار لا خطى.



لقد تضمن الكتاب قضايا مثيرة للجدل، من بينها أن التقيد بالمنهج لا ينطبق على الوضع التي كان/ويوجد/ وسيظل عليها العلم، فالعلم بالأساس يعتبر "مُسعي فوضوي" Anarchic ³⁸، إذ لا يجدي نفعا تقييده بسلطة منهجية لأن ذلك قد يحرمه من الابتكارية. Enterprise

وكانت أسانيد "فايرآينت" الأساسية تعتمد على فحص عدد من التحولات المعرفية الكبرى في تاريخ العلم، حيث حاول من خلالها أن يؤكد وجهة نظره الفائلة بأن الصرامة منهجية لم تقف وراء هذه الوثبات لأن ذلك يحول دون الإبداع. وإذا تمعنا جيدا في رؤى "فايرآينت" لا نجد لها داعية إلى الفوضى منهجية المطلقة كما يحاول بعض خصومه تصوير أطروحته، بل هو مناصري "التعديدية منهجية" methodological pluralism، لذا توسم فلسفته للعلم بالعقلانية الفوضوية بما يفيد رفضه تنصيب سلطة على المعرفة تنتهي بما يجوز من دونه منهجيا لدى مباشرة مسعى بحثي. فلا يجب أن نظفي على النسق المعرفي هالة من القدسية بحيث يمارس البحث العلمي وفق طقوس دوغمائية. لكن ورغم بساطة منطلقات "فايرآينت" على ظاهرها إلا أنها حملت الكثير للمعرفة، فهي تتطوّي على نظرة ديناميكية القيمة value، فلم يعد مضمونها بذلك ليقارب له كمعطى لا يمكن مناقشته، فالقيمة يعتبر اتخاذ موقف منها ضروريًا للحكم بالتقدمية أو الانكماش مثلا، لكن من منظور "فايرآينت" سيعين أولاً مراجعة المسلمات التقليدية وما نطلق عليه لفظة

³⁸ Donald J. Pushala, 'Woe to the Orphans of the Scientific Revolution', in Robert L. Rothstein and William T. R. Fox, 'The Evolution of Theory in International Relations: Essay in Honor of William T. R. Fox', (USA: University of South Carolina Press, 1992), pp. 44-47.

التقدم أو الانكasa، المعايير الاستاتيكية ذاتها مبنية على القيمة (البعد الأكسيولوجي للمدخل الفلسفي) وبذلك فإن مدلولاتها تخضع بدورها للمراجعة.³⁹

لقد ذهب "فابرآبنت" إلى أبعد من ذلك من خلال الدعوة إلى حماية المجتمع من العلم (أي العلم كما يسوقه الوضعيون)، تماماً مثلما نسهر على حمايته من هيمنة أيديولوجية واحدة ونصون التعديلية السياسية، فإنه يجب الحيلولة على أن يخضع العلم لوصاية نهج فكري معين، وقد انتقد "فابرآبنت" بشدة استمرار الوصاية التي تفرضها الدولة على العلم عبر التمويل، حيث شدد على ضرورة محاكاة عملية فصل الدين عن الدولة وذلك بفصل العلم عن الدولة أيضاً بالطريقة ذاتها. ذلك أن وصاية الدولة على العلم متجسد فعلياً عبر رعايتها لغالبية المؤسسات التعليمية مقابل تمييز المناهج، المناهج العلمية بالأساس مما قد يضيق مجال الإبداع. ومن هنا فإن الحل يمكن في علمنة للعلم تماماً مثل علمنة السياسة. إن الادعاء بأن المنظور العلمي وحده لديه شرعية امتلاك الحقيقة بدعوى أنها أفضل من يمثل العقلانية، متناسبية أنها مجرد نسخة واحدة للعقلانية، وهناك أنواع عدة للعقلانية لا يمكن الاستهانة بقدرها التحليلية، فضلاً عن أنها ليست خاطئة قياساً بمعايير تحديد الصحة والصلاحية الخاصة بها، ذلك أن "فابرآبنت" مثله مثل "كون" يؤمن بأن العقلانيات المختلفة أو الأنماط العقلانية المختلفة لامقاييسة *incommensurable*. ولهذا السبب، فإن عديد العقلانيات الموجودة في المشهد المعرفي لا يمكن المقارنة بينها ولا جمعها في توليفة تحليلية واحدة، فهي توظف تصورات متميزة في لعبة لغوية تحكم لقواعد متميزة. وهنا نجد "فابرآبنت" يستعين بفيلسوف نمساوي آخر هو "لودفيغ فيقنشتاين" Ludwig Wittgenstein (1889-1951) والذي اعتبر أشكال الحياة بناء تسهم فيه "لعبة اللغة" language game، ما يميز شكلها عن الآخر أو ما يميز لعبة عن الأخرى هو قدرة المفاهيم التي تبني عليها هذه اللغة على التعبير، وكما يقول "فيقنشتاين" فإننا عندما نعجز عن التعبير فإننا نلتزم الصمت، ولكن التزام الصمت إزاء قضايا عدة هو ما يمنح اللغة هوية معينة.

وبعد استعراض أهم ثلاثة طروحات تحاول تفسير التقدم العلمي، فإن المباحث التالية تهدف إلى رصد التحولات المعرفية في حقل علم السياسة وال العلاقات الدولية من منظور الثورات والبرامج والثبات المعرفية التي تم التفصيل فيها.

³⁹ Ibid., pp. 51-52.

المبحث الثاني: مسار تطور علم السياسة والتفسير "الكوني"- "اللاكتوشي".

يعتبر الحقل المعرفي لعلم السياسة الحاضن لشخص العلاقات الدولية، فأغلب الجامعات تقترح هذا التخصص عقب استيفاء الطالب لعام كامل أو عامين من دراسة أساسيات علم السياسة. ولذا كان من الضروري وضع التحولات الباراديمية في حقل العلاقات الدولية في سياقها المعرفي الأوسع، والنظر فيما إذا كان النقاشات النظرية في العلاقات الدولية مجرد انعكاس لمناقشات تمحورت حول المسائل ذاتها في علم السياسة، أم أن تطور حقل العلاقات الدولية كانت له هوية مستقلة ومتمنية.

لكن من المهم الإشارة إلى محاذير معينة لدى تاريخ علم السياسة، ذلك أن أغلب الباحثين الذين تناولوا الموضوع، حسب "إيلكا هيسكانن" Ilkka Heiskanen لم يخرجوا عن المقاصد ⁴⁰ التالية:

- محاولة شرعة الباراديم المهيمن على الحقل المعرفي؛
- السعي لإقناع المانحين بأهمية ودور علم السياسة؛
- التعرض لتاريخ تطور الحقل لدى تأليف كتاب دراسي موجه لطلبة علم السياسة؛
- دراسة نقدية تهدف إلى إعادة توجيه علم السياسة في منحي آخر؛
- إعطاء تأويلات جديدة لتاريخ الفكر السياسي؛
- عالم اجتماع يسعى لصياغة نظرية حول السياسة من خلال إعادة بناء أنماط التفكير المتأصلة في المجتمع في فترات تاريخية متعددة.

وفي سياق هذه المحاذير يحاول هذا المبحث الاستعانة برؤى مختلفة من أجل ترجمة التحولات الأساسية في علم السياسة.

المطلب الأول: إرساء علم السياسة وأهم محطات تطوره.

يعود الفصل في إرساء أسس علم السياسة كشخص أكاديمي يحظى بالاهتمام إلى 1903 عندما تم تأسيس "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" حيث ساهم ذلك في إعطاء هوية للحقل، ومنذ ذلك الوقت فقد مر مسار تطور هذا التخصص عبر خمس مراحل، تميزت كل واحدة منها بسعى إحدى التوجهات المعرفية للهيمنة عليه:⁴¹ مرحلة سيادة "النزعية الدولية" State-centred (التحول حول الدولة وجعلها مرجعية للتخليل)، وهي النزعة التي رافقت مسيرة هذا الحقل خلال بوادره لاكتساب المهنية؛ مرحلة سيادة "النزعية التعديدية" Pluralism وقد بُرِزَ هذا التوجه

⁴⁰ Ilkka Heiskanen, 'On the role of meta-analysis in political science: from legitimization, illusions and sous-realism to transrealism, disillusionism and delegitimation,' in Dag Anckar and Erkki Berndtson (eds.), **Political Science Between the Past and the Future** (Jyväskylä: Finnish Political Science Association, 1988). pp. 119-120.

⁴¹ John S. Dryzek, 'Revolutions Without Enemies: Key Transformations in Political Science', **American Political Science Review** 100 (04) 2006, p. 487.

مع نهاية العقد الثاني وبداية العقد الثالث من القرن العشرين مطالبًا باهتمام التحاليل السياسية بفاعل آخرين غير الدولة؛ مرحلة سيادة "النزعية السلوكية" Behavioralism (ظهرت منتصف القرن العشرين)؛ الاتجاه نحو إرساء "علم سياسة جديد" New Political Science (وذلك خلال نهاية السبعينيات وبداية التسعينيات)؛ التيار المعروف حديثًا بـ"بريسنرويكا علم السياسة" (تزامن ظهوره مع بدايات القرن الحادي والعشرين).

بالنسبة لـ"جون س. دريزك" John S. Dryzek فإنه ومن بين التوجهات المعرفية الخمس، وحدهما "التعديدية" وـ"السلوكية" استطاعنا إحداث تحول معرفي بالمفهوم "الكوني" Kuhnian ما يعني أن الاتجاهات الأخرى تمثل مجرد برامج بحثية بمفهوم "لاكتوش". ويجاج "دريزك" بأن سر نجاحها هو عدم تعارضهما لأية مقاومة داخل الأوساط الأكاديمية، على أنها تعرضت لاحقًا لانتقادات ومقاومة من قبل تيارات نظرية أخرى، لكن بعد أن كللت ثورتها المعرفية بالنجاح.⁴²

إن الهدف المتوازي من تأسيس مدرسة فكرية جديدة هو الهيمنة على المشهد العام للتخصص من خلال الادعاء بامتلاك فهوم متكاملة حول موضوع الدراسة والبحث لهذا التخصص، وذلك عبر صياغة أجندات جديدة للبحث على أنقاض الأجندات التي اعتمدها الحقل المعرفي عندما كانت مدرسة معرفية أخرى تهيمن عليه. وبالنسبة لـ"دريزك" فإن إطلاق الوصف المناسب على هذه المساعي مسألة مهمة، فبعضها كان بمثابة "ثورات معرفية كونية" استطاعت إحداث قطيعة مع واقع التخصص في السابق، أما البعض الآخر فقد كان مجرد "برامج بحثية لاكتوشية" مثل "الوظيفية البنوية" structural functionalism أو البيوسياسة bio-politics. يختلف "بيرسن" وـ"سكوكبول" Skocpol Pierson مع وجهة النظر هذه ويرتأن أن تطور الحقل عرف ظهور ثلاثة باراديمات كبرى لا أكثر وهي: "السلوكية" وـ"العقلانية" وـ"المؤسساتية".⁴³ لكن من حيث المبدأ يبدو أن هناك اتفاقاً ضمنياً بين الطرفين، فـ"دريزك" يتحدث عن نجاح مسعين لإحداث تحول "باراديمي" في الحقل وهما: الدولانية والسلوكية بمعنى أنهم يستبعدون نجاح المساعي من "أجل علم سياسة جديد" في تغيير أجندات الحقل بشكل كلي. والتواافق الضمني هنا يمكن في أن المؤسساتية امتداد للنزعية الدولانية بينما تنتهي الانتقادات على العقلانية. والجدول التالي يوضح بدقة أهم تطور علم السياسة من منظور "الثورات الباراديمية".

المطلب الثاني: دور الثورة المعرفية دولانية-التوجه في إرساء تخصص العلوم السياسية.

تمحور الخطاب العلمي لهذا الحقل المعرفي على الدولة ابتداءً من "فرانسيس ليبر" Francis Lieber، والذي عين كأول أستاذ لعلم السياسة بجامعة كولومبيا الأمريكية عام 1857،وصولاً إلى "وودروWilson" Woodrow Wilson وغيرهما من الباحثين، خلال هذه الفترة كانت المهمة الرئيسية لعلم السياسة إرساء "دولة قومية موحدة" وـ"مواطنة فاضلة".⁴⁴ وقد تبني

⁴² Ibid.

⁴³ David D. Laitin, 'The Political Science Discipline', in 'The Evolution of Political Knowledge: Theory and Inquiry in American Politics' (USA: Ohio State University Press, 2003), p. 16.

⁴⁴ John S. Dryzek, op cit., 487.

هذا الخطاب غاية معرفية مهمة هي البحث عن القوانيين التي تحكم توزيع السلطة بين مؤسسات النظام السياسي للدولة، وبذلك فقد انصب البحث على النصوص الدستورية وما تقوله بشأن التزامات الأفراد الذين يعينون في مراكز سلطوية وحدود صلاحياتهم. وهكذا هيمن تصور الدولة على أجندة علم السياسة في الولايات المتحدة مع نهاية القرن التاسع عشر، حيث ساهم في منح هذا الوزن للدولة وجوه أكاديمية تحولت إلى رموز لعلم السياسة الناشئ، بالأخص "ولتر باقو" Walter Baghot في بريطانيا و"ودورو ويلسون" في الولايات المتحدة.⁴⁵

إن اعتماد تصور الدولة وجعله محورا للنقاش في علم السياسة ليس بالشيء الجديد كليا، حيث سبق لما اصطلاح على تسميته بالمناقشات الدستورية بين "الفراليين" في الولايات المتحدة أن أولت عناية كبيرة بهذا الموضوع. كما أن "ويلسون" لم يكن وحيدا في تصويره لنظام سياسي تؤطره أحزاب سياسية منضبطة تقترح سياسات عقلانية معدة بعناية، لتأخين واعين بخياراتهم، وعلى ضوء نتائج الانتخابات، يقوم الكونغرس بإقرار السياسات التي تمت تزكيتها، لتفكر على تنفيذها بيروقراطية تتمتع بالخبرة وتطبق أفضل ما جاد به علم الإدارة. لقد صاحبت هذه الدعوة للفضيلة دراسات إمبريقية عدة أدبت على تحليل المؤسسات الأمريكية وكشف مختلف مظاهر الشرخ، والجهوية، والمحسوبيّة والفساد. هذا النوع من الأبحاث جسده مؤلف "ويلسون" نفسه المعون: "الحكومة البرلمانية" والذي صدر في 1885 أي في غمرة تأسيس الحقل.⁴⁶

إن تطور الحقل المعرفي لعلم السياسة في هذه الفترة -فترة التأسيس- انطوت على أهداف معيارية وبالذات السعي من أجل إقامة دولة قومية موحدة وأمة تمنع بالإرادة والقدرة لتحقيق هذا الهدف. وفي هذا الاتجاه أشار "فرانك قودناو" Frank Goodnow في معرض حديثه أمام "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" APSA، حول دور علم السياسة في تحقيق "إرادة الدولة": "أحياناً تنشأ التحالفات السياسية لهذا الغرض (تحقيق إرادة الدولة)، خاصة الحركة التقدمية، لكن الهدف الذي وجد من أجله هذا المشروع يتمثل بالأساس في مكافحة الفساد، الزبونية، الماكنة الحزبية، المحاباة، والجهوية، وهي المظاهر التي سعت النزعة الدوّلية إلى محاصرتها، تماماً مثلما عملت على إصلاح النظام الذي أرسى أسسه "توماس ماديسون"، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، هذا النظام أصبح غير ملائم للتحولات الاجتماعية الناجمة عن الثورة الصناعية".⁴⁷ يدعم ذلك وجهة نظر "دايفيد بوسطن" David Boston القائلة بأنه خلال هذه الفترة من تطور علم السياسة انتفت الخطوط الفاصلة بين أجندـة البحث وأجندـة الباحثـين ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى الفوضى التي كانت مستشرية على الصعيد المنهجي.⁴⁸

على الرغم من أن أصحاب النزعة الدوّلية [الدستورية] كانت لديهم مأخذ على الجانب المنهجي لأعمال من يصفونهم بـ"التعديدين" pluralists [المُنادين بـ"التنوع"] يتعدد الفواعل المشاركون في صناعة القرار السياسي وعدم حصر الفعل السياسي في المؤسسات السياسية الدستورية للدولة، فإن طلائع الثورة الموسومة بـ"التعديدية" pluralism الذين طالما وصف أتباعها بـ"الهواة" في

⁴⁵ David Boston, 'The Political Science in the United States: Past and Present', in David Easton et al. (eds.), 'The Development of Political Science: A Comparative Survey' (UK: Routledge, 1991), p. 276.

⁴⁶ John S. Dryzek, op cit., p. 488.

⁴⁷ Frank Goodnow as quoted in John S. Dryzek, op cit., p. 488.

⁴⁸ David Boston, op cit., p. 276.

مقابل "الدولاتيين" الذين أضفوا الطابع الانضباطي على الحق، لم يكونوا بأسوأ حالاً في هذا الجانب من "الدولاتيين المحترفين". منهجية البحث لدى هؤلاء جميعاً لم تكن تخضع لقواعد يمكن تقيي أثرها أو مراجعتها لأنها كانت تتطوّي ببساطة على عملية تجميع فوضوي للمعطيات وتقديمها بطريقة وصفية بحثة، وربما كان الوضع أفضل بقليل لدى ذوي النزعة التعددية، حيث أنهم استطاعوا الذهاب إلى ما هو أبعد من الوصف، بل وتمكنوا بفضل ذلك، من فهم بعض ديناميكيات الفعل السياسي بطريقة تفوق الفهم "الدولاتي"⁴⁹. State-based

لقد اتسمت منهجية في هذه الفترة -فترة التأسيس- التي يطلق عليها الباحث "دافيدين بوستن" وصف الفترة الكلاسيكية بأنها كانت مجالاً غير رسمي، وهو نوع من التناقض فـ"الدولاتية" ركزت أجندتها البحثية على الدولة والمؤسسات الرسمية لكنها اعتمدت في ذلك على أدوات لم تكن تكتسي الطابع الرسمي في العلوم الاجتماعية نهاية القرن التاسع عشر. ذلك أن منهجية لم تكن تطرح أية مشكلة بالنسبة للدولاتيين الكلاسيكيين "المحترفين" أو للتعدين الثوريين "الهواة"، لأن مجال البحث والتحليل للظواهر السياسية كان مفتوحاً للجميع سيما القادمين من حقول معرفية مجاورة لعلم السياسة. وقد ساهم ذلك في إبطاء تطور هذا الحقل المعرفي، لأنه وفي غياب منهجية واضحة لم يكن يتسع لأي كان تقييم الدراسات السابقة وبالتالي تقويم وتحسين الأدوات المنهجية، أهم عامل كان سيساهم في دفع هذا التخصص قدماً وفي وقت مبكر.⁵⁰

المشكلة الأخرى التي طرحت في هذه المرحلة وهي بطريقة ما تعتبر نتيجة منطقية للمشكلة الأولى (أي غياب منهجية واضحة)، تتمثل في اختراق القيم لأجندة البحث فالحقائق والقيم لم يكن من السهل التمييز بينهما في النصوص "العلمية" التي صدرت خلال نهاية القرن التاسع عشر وببداية القرن العشرين، كما لم يكن من السهل فهم ما إذا كان الباحثة يتحدثون عن خياراتهم الشخصية أم عن أولويات البحث أم حقيقة عمل المؤسسات الدستورية التي يزعمون دراستها، وهو مشكل ظل قائماً حتى مع ظهور تحدي "أنطولوجي" للدولاتيين يتمثل في النزعة التعددية.⁵¹

المطلب الثالث: أول تحدي باراديمي في حقل علم السياسة-البارادایم التعددی.

خلافاً لما قد يعتقد البعض، فإن ازدياد قوة التحدي المعرفي الذي واجهته النزعة الدلاوتية لم يكن مصدره باحثون من خارج هذا البارادایم بل من داخله، فـ"بيقهوت" وـ"ويلسن" كانوا أول من انتبه إلى أنه وخلف المؤسسات الرسمية للدولة كان هناك مؤسسات غير رسمية فاعلة وتمارس ضغطاً معتبراً على عملية صناعة القرار. ويضربون مثلاً على ذلك اللجان غير الرسمية في المؤسسة التشريعية وفي الأحزاب وعدد من مجموعات الضغط الناشئة.⁵²

وربما كانت طبيعة النظام السياسي الأمريكي هي ما ساهم في نمو التحاليل التي تأخذ بعين الاعتبار خاصية تعدد الفواعل، هذه الخاصية التي ورغم أن "الدولاتيين" يقررون بها إلا أنهم يعتبرونها مشكلة يتبع حلها لا وضعية ينبغي تشخيصها، هذه هي الحقيقة التي يشير إليها مؤلف "آرثر

⁴⁹ Ibid.

⁵⁰ David Boston, op cit., p. 276.

⁵¹ Ibid., p. 277.

⁵² Ibid.

بنتلي "Arthur Bently" المعون: "عملية الحكم" The Process of Government والذى يعتبره السلوكيون أحد رواد السلوكية التعددية. وفي كتاب آخر أصدره لاحقاً بعنوان: "صانوا القرار، المعنيون بالقرار والتحكمون في اللعبة السياسية" Makers, Users and Masters عبر "بنتلي" عن إدانته لهيمنة مجموعات المصالح على السياسة الأمريكية، وهو ما يتفق مع أحد أسلاف السلوكية "شارلز ميرياム" Charles Merriam والذي دعا في مؤلف نشره خلال العشرينات من القرن العشرين إلى تقوية الديمقراطية وتعزيز الحكم في العملية السياسية والرعاية الاجتماعية.⁵³

لكن ومع أن نظام الدولة المركزية قد تعرض للنفي مع فقدانه للحكم في العديد من الأجهزة، إلا أن تقييس الدولة استمر خلال العشرينات لأنها كانت تابيًّا تطلعات معيارية،⁵⁴ منها صعود التيارات القومية في أوروبا.

غير أن التعددية المعيارية أصبحت تحتل حيزاً متزايداً مع ظهور مؤلفات "هارولد لاسكي" Harold Laski (1917) و"ماري بيركيت فوليت" Mary Parket Follet (1918). كان كل من "لاسكي" و"فوليت" متأثرين بفلسفه "وليم جيمس" التي شددت على نبذ تحكم الدولة ومنحها حقاً حصرياً لإدارة شؤون الفرد، فهذا الأخير يمتلك طرفاً عدداً يمكن له من خلالها إدارة شؤونه. ومن هنا يمكن استشاف حقيقة أن مفهوم التعدد لدى ذوي النزعة التعددية لا يرتكز على تعدد المصالح بل على تعدد الوسائل. أما "فوليت" فقد كانت من دعاة تنظيم المجتمع في جماعات من القاعدة باتجاه القمة، معارضة بذلك الهندسة الاجتماعية التي كانت تعتمد على الاتجاه العسكري من القمة باتجاه القاعدة. وهي بذلك تختلف مع "الدولاتيين" في تقسيمهم لدور الوصاية التي تمارسها الدولة. لقد طرحت "فوليت" سؤالاً مهماً للدولاتيين: ما الذي يمكن عمله بالتعدد؟ لكن الدولاتيين قدمو إجابة بسيطة: "كل ما يجب فعله بالتعدد هو إزالتهم".⁵⁵

هذه النظرة الاستعلائية لـ"الدولاتيين" لم يكن لها ما يبررها إمبريقياً، لكن إخفاق "ذوي النزعة التعددية" كان منهجاً بالأساس، وإلا ل كانت دراسات من قبيل تلك التي قام بها "ميرل فينسود" Merle Fainsod عام 1940 ستحظى بالنجاح نظراً لثروريتها سيما تصوره المتعلق بالقوى المتباينة parallelogram of forces، وفيه يتحدث عن القوى التي تتجادب القرار قبل استصداره على مستوى الهيئات التشريعية أو الإدارية، حيث تخضع العملية برمتها لضغط من المجموعات المجتمعية ومجموعات الضغط والرأي العام، ويتم ذلك باستخدام مساومات وصناعة توافقات إلى أن يتم تحصيل التوازن المطلوب لاستصدار القرار، مثل هذه التحاليل يبدو أنها تجاوزت السياق الزمني الذي كتبت فيه بعقود.⁵⁶

لقد حاول "درزيك" فحص مدى ثورية الطرح التعددي فوجد أنه بالنسبة لبعض الباحثين، يعتبر صعود هذه "النزعة التعددية" في العشرينات بمثابة الثورة المعرفية الحقيقة الوحيدة التي

⁵³ John S. Dryzek, op cit., p. 488.

⁵⁴ Ibid.

⁵⁵ التعدد المقصود هنا (لدى رواد الاتجاه التعدديين) ليس التعددية الحرذية التي تعتبر ركيزة الديمقراطية الغربية بل التعدد في الآليات التي يمكن من خلالها حكم المجتمع بمعنى عدم الاكتفاء بالمؤسسات الحكومية طالما أن المجتمع الأمريكي ذي الخلفيات الإثنية والاجتماعية المتباينة لدى تجارب يكون قد استقدمها من مواطن أخرى، انظر: John S. Dryzek, op cit., p. 488.

⁵⁶ David Boston, op cit., p. 276.

شهدها علم السياسة في الولايات المتحدة، فـ "جورج كاتلين" George Catlin، أحد المدافعين عن "النزعية لتعديه" كان يرى أن التعدد يعود على اختلاف مصالح المجموعات المشكلة للنسيج الوطني، لا على تعدد تجارب هذه المجموعات (وسائلها)، وهو ما يتفق مع الافتراضات السلوكية، مما يؤكد على القول بأن التيار السلوكي لم يكن ثوريا بل مجرد استمرار لتحول النموذج الإرشادي الذي قاده "كاتلين" التعديي ينطوي على بعض الصحة.⁵⁷

لكن، وحسب "درزيزيك"، فإن التمعن في أعمال "كاتلين" يساعدنا على استشاف وجود تقارب كبيرا بينه وبين "الاتجاه الدولاتي" الذي كان بمثابة التقليد البحثي السائد خلال تلك الفترة، فـ "الدولاتيون" أنفسهم كانوا يعترفون بوجود التعديية باستثناء أنهم كانوا يرون فيها مشكلة يتعين حلها. ومن هنا يتضح أن الشيء الثوري الوحيد لدى التعدييين هو الشق المعياري لطرحهم. طرحوهم هذا لم يحضر بالقبول في علم السياسة إلا في خمسينيات القرن العشرين. وحينها فإن الصيغة المتبعة للتعدد هي تلك التي ترتكز على تعدد المصالح لا على تعدد القيم.⁵⁸

المطلب الرابع: التحول الباراديمي الأول في علم السياسة_السلوكية.

بعد قرابة نصف قرن من سيطرة "الباراديم الدولاتي"، ومع إخفاق "الباراديم التعديي" في تحويل أجندته البحث في علم السياسة عن اهتماماتها الأنطولوجية، فإن ظهور "الباراديم السلوكي" استطاع إحداث تحول جدي لكن على المستوى المنهجي، التي كانت بمثابة نقطة الضعف الرئيسية في "الباراديمات" السابقة. وهكذا فقد تبنى "الاتجاه السلوكي" نزعة علمية متطرفة موضوعها التعديية في شقها المتعلق بالمصالح لا القيم، أي ذلك التعدد الذي يقع تحت مظلة التوافق حول المنطلقات والأسس بين جل المصالح الاقتصادية المتعارضة. ولم يمر وقت طويل، أي مع نهاية السبعينيات فقط، ظهرت كتابات عديدة تشيد بانتصار السلوكي، وأعطى ذلك انطباعا بأن "السلوكية" ثورة تحصلت على رضا الأكاديميين بفضل نجاحها في إعادة صياغة أجenda البحث، كنتيجة لإسهامات المؤيدين والخصوم على حد سواء، وأبرزهم على الإطلاق العلماء الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية مثل "هانتس مورفنتهاو" Hanz Monrgenthau و"ليو شتراوس" Leo Strauss الذين أربكوا الأوساط الأكademie بانتقاداتهم اللاذعة لواقع التحليل السياسي في علم السياسة والذي يفتقد حسبهم للتأصيل النظري والتوجيه المنهجي.⁵⁹

لكن مع ذلك يحق لنا التساؤل: إذا كانت السلوكيّة ثورة معرفية، فضد من أعلنت هذه الثورة؟ كان خطاب الثوريين يتحدث عن توجيه ثورتهم المعرفية ضد "علم السياسة التقليدي" الذي يعتمد المنهج التاريخي والمغالي في واقعيته حسب "دايفيد إستون" David Easton؛ لكن من هم الباحثون الذين وسمت أعمالهم بـ "التقليدية"؟ ذلك سؤال لم يجب عنه السلوكيون الذين ظلوا صامتين

⁵⁷ John S. Dryzek, op cit., p. 488.

⁵⁸ Ibid.

⁵⁹ Robert Adcock, 'Interpreting Behavioralism', in Robert Adcock et al. (eds.), 'Modern Political Science: Anglo-American Exchanges Since 1880' (USA: Princeton University Press, 2007), p. 189.

إزاء هوية خصومهم، أو الأعمال والمؤلفات التي تمثل هذا "الاتجاه التقليدي" في علم السياسة، فكتاب Garceau (1953) الذي يتضمن مراجعة استعراضية يخلوا من أية إشارة سلبية كانت أم إيجابية لهوية خصوم السلوكية⁶⁰ وهو وضع يختلف كثيراً عن واقع الحال في العلاقات الدولية إبان ما اصطلح على تسميته بـ"النقاش النظري الثاني" second great debate، حيث كان خصوم النزعة العلمية السلوكية (الواقعيين الذين تمسكوا بنزعته المنهجية التاريخية) معروفين بل وأكثر نفوذاً في الأوساط الأكademie وفي أوساط صناعة القرار على حد سواء.⁶¹

بدأت ملامح الثورة السلوكية تتضح أكثر عبر صفحات المنشورات التي ظهرت بين عامي 1951-1952، حيث أكدت نقطتين أساسيتين: تبني التعددية كمنطلق أنطولوجي والتخلّي عن الأحادية الدولاتية، لكن مع تحول مهم وهو الاهتمام بسلوك الفواعل لا ببنائهم المؤسساتية؛ إعطاء أهمية أكبر لطريقة دراسة السلوك السياسي دون المجادلة بشأن من يستحق أن يكون بمثابة مرجعية للتحليل، وينطوي ذلك كله على البحث عن الأنماط النظمية systemic التي يمكن أن نخلص إليها عبر الدراسة المنهجية للسلوك السياسي.⁶²

يعتبر "دافيديد إيستون" من خلال كتابه المعروف: "النظام السياسي" والذي صدر في 1953، من أبرز منظري الاتجاه السلوكى، ويمكن استشفاف نعمته على الوضع القائم في الفصل الثاني من كتابه، والذي يتحدث فيه عن حالة عدم الرضا بين أخصائي علم السياسة، وقد أثار محتوى هذا الجزء من الكتاب سجالاً فكريّاً كبيراً، لكن المثير في الأمر هو أن حواشي الفصل التي يبلغ عددها 28 لا تشير إلى أي عالم سياسة أمريكي يمكن إدانته بالمعلاة في الاهتمام بالحقائق الإمبريقية Hyperfactualism على حساب الدراسة العلمية المتسبة وما نجم عنه من إخفاق في صياغة نظريات متسبة.⁶³

تأكيداً لتمسكه بموقفه أصدر "إيستون" سنة 1984 مؤلفاً آخر يقول فيه أن علم السياسة التقليدي ظهر خلال عشرينيات القرن العشرين، حيث تضمن في أجندته البحثية الاهتمام بالأحزاب ومجموعات الضغط على حساب الدولة، وكنموذج للتأكد على مزاعمه أشار إلى "بنتمي" و"بندلتون هيرينغ" مغفلاً حقيقة أن "بنتمي" احتفى من المشهد الأكاديمي في 1953، وقبل حدوث ذلك فإن "بنتمي" نفسه تحول إلى واحد من المתחمسين للسلوكية. أما "هيرينغ" ورغم أنه عاش حتى فترة صعود الاتجاه السلوكى في الخمسينيات، إلا أنه لم يعارض "السلوكيين" بل ساهم بشكل فاعل عام 1949 في تأسيس "لجنة السلوك السياسي" تحت مظلة "مجلس البحث في العلوم الاجتماعية"،

⁶⁰ John S. Dryzek, op cit., p. 489.

⁶¹ للحصول على مراجعة معاصرة للنقاش النظري الثاني وأهميته في العلاقات الدولية انظر: Friedrich Kratochwil, 'History, Action and Identity: Revisiting the Second' Great Debate and Assessing its Importance for Social Theory', *European Journal of International Relations* 12 (01) 2006. pp. 5-29.

⁶² Robert Adcock, op cit., p 189.

⁶³ تعتبر مسألة غياب خصوم للتراث المعرفية التي نجحت في تحويل أجندـة الحقل أهم نقطة ركز عليها "دريزيك" في مقاله ولتأكيد وجهة نظره هذه فهو يشير إلى أن "إيستون" في الفصل الثالث من كتابه: "النظام السياسي" حاول تقديم نموذج عن خصومه فأشـار إلى "جيمس برايس" James Bryce "لوجود منظري علم السياسة إلى تاريخ الفكر السياسي لكنه لم يجد من يدينـه بذلك سوى George Sabine. انظر: John S. Dryzek, op cit., p. 489.

والتي ترأسها هو شخصياً، وقد كانت هذه اللجنة المدخل الذي نفذ من خلاله "السلوكيون" إلى APSA، كما كان لها دور حيوي في تمويل الثورة السلوكية ورعايتها مؤسستياً.⁶⁴

لقد خلص "درزيك" في دراسته المتميزة إلى أنه لم يستطع إيجاد أي مصدر للخصومة بين "السلوكية" وأي خصم مفترض سواء المقاربة المؤسساتية القانونية باعتبارها نقيشا آخر لـ "النزعـة العلمـية" التي يدعـى "السلـوكيـون" الدـفاع عنـها أو أـية مقارـبة أـخـرى. فـميدـانياً وـعـلـى صـفـحـات الدـورـيات لم يكن هـنـاك باـحـث واحدـ في مـعـسـكـر "الـمنـاوـئـين لـالـنـزعـة الـعـلـمـية"، حيثـ أنـ مـثـلـ هـذـا التـوجـهـ كانـ عـلـى الدـوـامـ تـوجـهـاـ هـامـشـياـ فـيـ الحـقـلـ الـعـرـفـيـ لـعـلـمـ السـيـاسـةـ، وـهـوـ ماـ تـأـكـدـ قـبـلـ نـصـفـ قـرنـ منـ ظـهـورـ السـلـوـكـيـةـ نـفـسـهـاـ، أـيـ لـدـىـ تـأـسـيـسـ APSAـ عـامـ 1903ـ، حيثـ أـشـارـ مـؤـسـسـهـاـ إـلـىـ أـنـ أـحدـ أـهـدـافـ APSAـ هـوـ "تـشـجـيعـ الـدـرـاسـةـ الـعـلـمـيـةـ لـلـسـيـاسـةـ". وـطـالـماـ أـنـ السـلـوكـ، وـالـعـلـمـ، وـالـتـعـدـيـةـ وـالـنـظـامـ هـيـ أـهـمـ سـمـاتـ "الـسـلـوـكـيـةـ"، فإـنـهـ لـاـ مـبـرـرـ لـاـعـتـراـضـ الـتـقـلـيـدـيـنـ عـلـيـهـاـ، ذـلـكـ أـنـ بـحـوثـهـمـ لـطـالـمـاـ تـنـاوـلـتـ السـلـوكـ عـلـىـ الـمـسـتـوـىـ الـفـرـديـ سـيـمـاـ خـالـلـ الـثـلـاثـيـنـاتـ وـالـأـرـبعـيـنـاتـ. وـهـنـىـ الـبـاحـثـيـنـ الـذـيـنـ لـمـ يـدـرـسـواـ "الـسـلـوكـ"ـ لـمـ يـبـدـواـ اـعـتـراـضاـ عـلـىـ الـقـيـامـ بـذـلـكـ. لـقـدـ كـانـتـ "الـنـزعـةـ الـعـلـمـيـةـ"ـ قـائـمةـ حـتـىـ قـبـلـ مـجيـءـ "الـسـلـوـكـيـنـ"، إـذـنـ مـاـ الـجـدـيدـ الـذـيـ جـاءـتـ بـهـ السـلـوـكـيـةـ؟ـ فـحتـىـ تـصـورـ النـظـامـ السـيـاسـيـ الـذـيـ جـاءـ بـهـ "إـيـسـتنـ"ـ قـدـ مـصـطلـحـاتـ جـديـدةـ (ـالـمـدخـلاتـ inputsـ،ـ الـمـخـرـجـاتـ outputsـ،ـ وـالـارـتـدـادـ الـارـتـجـاعـيـ feedbackـ)،ـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـزـوـدـنـاـ بـنـظـرـيـةـ جـديـدةـ شـامـلـةـ لـعـلـمـ السـيـاسـةـ.ـ إـنـ الـجـدـيدـ الـذـيـ جـاءـتـ بـهـ السـلـوـكـيـةـ وـيـجـعـلـ مـنـهـاـ ثـوـرـةـ مـعـرـفـيـةـ غـيرـ مـسـبـوـقـةـ إـحـدـاثـهـاـ تـغـيـرـاتـ جـذـرـيـةـ فـيـ تـوـجـهـاتـ قـائـمةـ سـلـفـاـ فـيـ عـلـمـ السـيـاسـةـ،ـ هـذـهـ الـمـجـالـاتـ الـمـنـتـقـاـةـ هـيـ السـلـوكـ،ـ الـعـلـمـيـةـ،ـ الـتـعـدـيـةـ،ـ الـوـصـفـ مـقـابـلـ التـفـسـيرـ فـيـ الـجـوـانـبـ الـنـظـرـيـةـ.ـ بـدـءـ بـالـسـلـوكـ،ـ حـيـثـ اـعـتـمـدـ السـلـوـكـيـوـنـ عـلـىـ الـدـرـاسـاتـ الـمـسـحـيـةـ الـتـيـ تـسـتـنـدـ إـلـىـ مـجـتمـعـ إـحـصـائـيـ أـوـسـعـ،ـ كـمـاـ عـدـ إـلـىـ زـيـادـةـ وـتـيـرـةـ الـدـرـاسـاتـ الـكـمـيـةـ الـتـيـ تـصـدـرـتـ صـفـحـاتـ الدـورـياتـ الـعـلـمـيـةـ الرـئـيـسـةـ فـيـ التـخـصـصـ.⁶⁵

زيادة على التفوق المنهجي الذي أبداه السلوكيون، فإن عوامل أخرى موضوعية تكون قد ساهمت في إنجاح الثورة المعرفية لـ"الباراديم السلوكي" ومنها تبنيهم لـ"أسطورة" علم سياسة يتبنى الحياد إزاء القضايا السياسية، لكنهم بسيطرتهم على APSA فإن السلوكيين قدموا خدمة جليلة للنظام السياسي الأمريكي في عمرة الفوضى التي تختلط فيها نهاية السنتين، بسبب إخفاق التدخل العسكري في فيتنام، والتداعيات الداخلية لاغتيال "كينيدي" [22 نوفمبر 1963] و"مارتن لوثر كينغ" [04 أبريل 1968] وتصاعد حدة المطالبات النسوية، وفي غضون ذلك استفحال الخطاب المناوى لليبرالية لعدد من العلماء الألمان الذين هاجروا إلى أمريكا مثل "إيريك فولفين" "هانا

⁶⁴ في مؤلفه هذا جدد "إيستون" مأخذـهـ عـلـىـ التـقـلـيـدـيـنـ مـثـلـاـ خـلـطـهـ لـلـحـقـاقـ وـالـقـيـمـ،ـ وـاطـنـبـاهـمـ فـيـ وـصـفـ الـظـواـهـرـ السـيـاسـيـةـ دـوـنـ تـقـدـيمـ تـقـسـيـرـاتـ وـافـيـةـ،ـ يـضـافـ لـذـلـكـ كـلـهـ إـسـاهـمـهـ بـالـقـلـيلـ مـنـ النـظـريـاتـ الـفـضـاضـيـةـ،ـ وـانتـهـيـ "إـيـسـتونـ"ـ إـلـىـ اـعـتـارـ كـاتـبـ "الـقـوىـ الـمـتـواـزـيـةـ"ـ لـ "ميرـلـ فـينـسـودـ"ـ Merle Fainsodـ مـيـثـاـلـةـ النـظـرـيـةـ غـيرـ المـعـلـنةـ لـ "التـقـلـيـدـيـنـ".ـ وـمـعـرـفـ أـنـ فـينـسـودـ فـيـ كـاتـبـهـ هـذـاـ حـارـلـ تـقـسـيـرـ عـلـىـ صـنـعـ السـيـاسـةـ بـالـقـوـلـ أـنـهـ مـحـصـلـةـ تـقـاعـلـ قـوـىـ تـدـفـعـ فـيـ اـتـجـاهـاتـ مـخـتـلـفةـ،ـ وـإـذـ كـانـ هـذـاـ هـوـ جـوـهـرـ عـلـمـ السـيـاسـةـ التـقـلـيـدـيـ فـيـ هـذـهـ الـفـتـرـةـ،ـ فـلـاـ يـدـوـ هـنـاكـ أـيـ مـبـرـرـ إـذـ لـيـدـخـلـوـ فـيـ سـجـالـ مـعـ السـلـوـكـيـنـ،ـ وـأـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ فـانـ صـاحـبـ هـذـاـ الـمـؤـلـفـ (ـفـينـسـودـ)ـ أـصـبـحـ لـأـحـقـ رـئـيـسـاـ لـ APSAـ فـيـ ذـرـوةـ مـيـمـنـةـ السـلـوـكـيـنـ،ـ بـلـ وـسـاـهـمـ هـوـ نـفـسـهـ عـامـ 1968ـ فـيـ الـحـفـاظـ عـلـىـ اـنـتـصـارـ "الـبـارـادـيـمـ السـلـوـكـيـ بـصـفـتـهـ رـئـيـسـاـ لـ "الـجـمـعـيـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ لـ عـلـمـ السـيـاسـةـ"ـ APSAـ عـبـرـ تـضـيـيقـ الخـنـاقـ (ـبـطـرـيـقـةـ ذـكـيـةـ وـدـفـاعـيـةـ)ـ عـلـىـ "الـمـؤـتـمـرـ مـنـ أـحـلـ عـلـمـ سـيـاسـةـ جـديـدـ"ـ Caucus for a New Political Scienceـ منـ خـلـالـ وـضـعـ شـرـوطـ معـنـىـ للـمـشـارـكـةـ فـيـ الـمـؤـتـمـرـ السـنـوـيـ لـ APSAـ تـسـتـبـدـ الـمـنـخـرـطـيـنـ فـيـ مـسـعـيـ تـجـدـيدـ عـلـمـ السـيـاسـةـ،ـ اـنـظـرـ:

John S. Dryzek, op cit., p. 489.

⁶⁵ John S. Dryzek, op cit., p. 490.

أرن特" و"ليو شتراوس" وغيرهم. فإذا كانت APSA ترفض حشر علم السياسة في القضايا الساخنة لعصرها فإنها بذلك ليست محايدة قيميا كما تدعي بل إنها جعلت من علم السياسة أداة لحفظ على الوضع القائم.⁶⁶

لقد هيمنت "السلوكية" تدريجياً على التخصص، لكن ذلك لم يجعلها بمنأى عن الانتقادات التي تصاعدت حتها مطلع السبعينيات. هذه الانتقادات لم يكن لها من دور سوى تأكيد هيمنة "السلوكيين" ونجاحهم في إعادة صياغة أجندـة البحث في علم السياسة، وهو ما أقر به حتى المناوئين لهم والذين كانوا مهمشين في هذا الحقل المعرفي. غير أن النقد تجاهـم تـنامـيـ، لكن هذه المرة فإن مصدر النقد لم يكن من "التـقـليـديـين ذـويـ النـزـعـةـ التـارـيـخـيـةـ"، بل من باحـثـيـن يـطـالـون بـدورـ إيجـابـيـ لـعلمـ السـيـاسـةـ، من خـلـالـ إـعـطـائـهـ لـمسـةـ نـقـدـيـةـ وتـوجـيهـ اهـتمـامـاتـ الـبـاحـثـيـنـ نحوـ قـضاـياـ المـجـتمـعـ.

المطلب الخامس: التحدي البارادايمى الأول للسلوكية- "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد".

مع تصاعد حدة الانتقادات التي طالت السلوكية فقد جاء المؤتمر السنوي لـ"الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" سنة 1967 فرصة لمؤسسة الاتجاه الذي أصبح يعرف لاحقاً من طرف رواد السلوكية وعلى رأسهم "دايفيد إيسن" بـ"ما بعد السلوكية" post-behavioralists، غير أن المنتسبين إلى هذا الاتجاه النظري الصاعد يفضلون نعت أنفسهم بـ"المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" CNPS. بداية التصادم بينهم وبين المدافعين عن التقليد البحثي المهيمن آنذاك (السلوكيين) كان بسبب استحضار السلوكيين الذين ظلوا مسيطرین على أهم المناصب في APSA طيلة ستينيات، للمادة الثانية من دستور APSA⁶⁷، لمنع مناقشة قضايا السياسة العامة من زاوية اتخاذ مواقف بشأنها سيما حركة الحقوق المدنية للسود وحرب فييتNam. ورغم أن هذه المادة لا تنص على منع أعضاء APSA من مناقشة القضايا العامة إلا أن تكييفها كذلك من طرف السلوكيين الذين هيمروا على المناصب الإدارية للجمعية، أقنع مناهضيها بضرورة إيجاد إطار تنظيمي يحمي وجهات نظرهم من "السلط السلوكى". وفعلاً، فإنه وبالموازاة مع مؤتمر APSA عقد هؤلاء مؤتمرهم بحضور 225 حيث انتخبوا "تشارلز ماكوى" رئيساً CNPS.⁶⁸

وقد قدم المؤتمر مرشحا لرئاسة APSA وضم في صفوفه قائمة من أبرز باحثي علم السياسة آنذاك ولفترة طويلة مثل "سيمور مارتن ليبست" Seymour Martin Lipset، "بيتر باكراتش" Peter Bachrach، "كريستيان بي" Christian Bay، "تيودور لوبي" Theodore Lowi، "مايكيل برينت" Michael Brent، "شيلدون ولوين" Sheldon Wolin، كما تضمنت القائمة أيضا وجها بارزا في تخصص العلاقات الدولية: "هانس مورفنتهاو" Hans

⁶⁶ NPS Caucus, ‘History of the Caucus for a New Political Science’, **New Political Science** 29 (04) 2007, pp. 501-502.

⁶⁷ تشير المادة الثانية من دستور APSA إلى أن الجمعية: لا تلزم أعضائها باتخاذ مواقف إزاء قضايا السياسة العامة إذا كانت هذه القضايا لا تمس بشكل مباشر المقداد التي وجدت الجمعية من أجلها. هذه المادة تم تكييفها بطريقة غريبة من طرف مسيري APSA لمنع مناقشة قضايا السياسة العامة في مؤتمر اتهام السنوي.

⁶⁸ NPS Caucus, op cit., p. 502.

Morgenthau والذى كان من بين المعارضين للحرب فى فيتنام، فضلا عن "إدوارد سعيد"⁶⁹ و"نعمون تشومسكي" Noam Chomsky Edward Said.

تقاسم جميع هؤلاء قناعة مفادها أنه يجب جلب النقاشات والانتقادات حول الديمقراطية الليبرالية الأمريكية إلى قلب النقاشات الأكاديمية بعد أن كانت معزولة في محيط تخصص العلوم السياسية. وقد ضمنت آرائهم في كتاب صدر عقب أول مؤتمر لهم في 1967 بعنوان: "السياسة غير مسيسة: نقد الاتجاه السلوكى". ولتسويق طرفهم عمد أعضاء هذا "المؤتمر" إلى تعطية ما يرونـه جوانب قصور في "الاتجاه السلوكى": حيث توجهوا نحو الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والأزمات السياسية لتلك الفترة، كما طالبوا بعلم سياسة يتـخذ موقفاً جماعياً موحداً من القضايا السياسية المثيرة للجدل مثل: حرب فيتنام، التمييز العنصري، والفقـر، إضافة إلى قضايا البيئة والمرأة. ولاحقاً تمكـن هؤلاء من الحصول على تمويل يسمـح بإجراء بحوث حول قضايا ملحة أخرى مثل: الإيـز العلاقة بين حقوق الإنسان، والديمقراطـية والرأـسـالية، الحرب على العراق الجوانب العرقـية والجندـرـية والطبقـية لـلـسيـاسـة العامة.⁷⁰

لم يـيد هذا "البارادـaim" الصـاعد حـنـقاً تـجـاه "الـعلـمـيـة"، حيث رـكـز تـوصـياتـه على ضـرـورة إـعادـة تـرتـيب الأولـويـات لتـكون "الـعلـمـيـة" في المرتبـة الثـانـيـة بـعـد الـالتـزـام بـقـضاـياـ الـمـجـتمـعـ منـ جـهـةـ ومـدىـ الصـلـاحـيـةـ الإـمـبرـيقـيـةـ لـلـأـبـحـاثـ الـتـيـ تـجـرـىـ باـسـمـ الـسـيـاسـةـ. وـبـرـرـوـاـ مـوـقـفـهـ هـذـاـ بـكـونـ مـسـأـلةـ تـفـسـيرـ السـلـوكـ السـيـاسـيـ لـاـ تـشـكـلـ حـقـيقـةـ مـرـكـزـ النـقـلـ المـعـرـفـيـ فـيـ الـسـيـاسـةـ. وـلـأـجلـ ذـلـكـ سـخـرـ أـعـضـاءـ الـمـؤـتـمـرـ أـكـثـرـ جـهـودـهـ لـمـسـعـيـ إـصـلاحـ APSAـ، وـقـدـمـواـ مـرـشـحـينـ لـمـنـصـبـ الرـئـيسـ وـلـعـضـوـيـةـ مـجـلـسـ الـجـمـعـيـةـ، لـكـنـهـمـ أـخـفـقـوـاـ فـيـ الـحـصـولـ عـلـىـ الرـئـاسـةـ رـغـمـ نـجـاحـهـمـ فـيـ الـاستـحوـادـ عـلـىـ بـعـضـ الـمـقـاعـدـ فـيـ الـمـجـلـسـ. وـتـجـدـرـ الإـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ بـعـضـ روـادـ "الـمـؤـتـمـرـ" مـنـ أـمـثـالـ "تـيـوـدـورـ لـوـيـ"ـ، وـ"أـيـراـ كـاتـزـنـيلـسـنـ"ـ Theodore Lowiـ، وـ"أـيـراـ كـاتـزـنـيلـسـنـ"ـ Ira Katznelsonـ، تـمـكـنـواـ مـنـ الـحـصـولـ فـيـ فـترـاتـ لـاحـقةـ عـلـىـ مـنـصـبـ الرـئـاسـةـ باـعـتـبارـهـمـ مـرـشـحـينـ رـسـمـيـيـنـ.⁷¹

استطـاعـ السـلـوكـيـنـ إـلـىـ حدـ ماـ اـحـتوـاءـ نـقـمةـ التـيـارـ "ماـ بـعـدـ السـلـوكـيـ"ـ خـاصـةـ فـيـ النـقـطةـ المـتـعـلـقـةـ بـعـدـ مـيـلـ "الـمـؤـتـمـرـ"ـ مـنـ أـجـلـ عـلـمـ سـيـاسـةـ جـدـيدـ"ـ لـلـتـهـجـمـ عـلـىـ النـزـعـةـ الـعـلـمـيـةـ، حيث عملـ "دافـيدـ إـيـسـتونـ"ـ عـلـىـ التـخـفـيفـ مـنـ حـدـةـ التـوتـرـ بـيـنـ "الـسـلـوكـيـنـ"ـ وـ"الـمـؤـتـمـرـيـنـ"ـ مـنـ هـذـهـ الزـاوـيـةـ، إذـ خـلـالـ مـاـ دـاخـلـتـهـ لـهـ أـمـامـ APSAـ عـامـ 1969ـ بـصـفـتـهـ رـئـيـسـاـ لـلـجـمـعـيـةـ تـحـدـثـ عـنـ "ثـورـةـ جـديـدةـ فـيـ عـلـمـ السـيـاسـةـ"ـ، بـإـمـكـانـهـاـ أـنـ تـجـعـلـ التـقـنيـاتـ الـتـيـ طـورـهـاـ "الـسـلـوكـيـونـ"ـ وـ"نـظـريـتـهـ لـلـنـظـمـ"ـ عـلـىـ حدـ سـوـاءـ فـيـ خـدـمـةـ الـمـشـكـلـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ. لمـ يـنـجـحـ "إـيـسـتونـ"ـ فـيـ رـدـ الـهـوـةـ بـيـنـ الـمـعـسـكـرـيـنـ، إـلـاـ أـنـ نـجـحـ فـيـ إـرـسـاءـ تـخـصـصـ ثـانـوـيـ فـيـ عـلـمـ السـيـاسـةـ وـهـوـ السـيـاسـاتـ الـعـامـةـ. وـهـكـذـاـ ظـلـ السـلـوكـيـونـ فـيـ إـطـارـ APSAـ مـتـشـبـثـيـنـ بـمـقاـومـتـهـمـ لـلـتـغـيـيرـ الـذـيـ بـشـرـ بـهـ "الـمـؤـتـمـرـ"ـ مـنـ أـجـلـ عـلـمـ سـيـاسـةـ جـديـدةـ"ـ، إـلـاـ أـنـ ثـقـهـمـ فـيـ النـفـسـ قدـ تـرـزـعـتـ كـثـيرـاـ، وـهـمـ الـذـينـ اـسـتـمـانـواـ فـيـ مـقاـومـةـ تـسـبـيـسـ "ـحـقـلـ عـلـمـ السـيـاسـةـ"ـ، وـهـيـ

⁶⁹ Ibid.

⁷⁰ NPS Caucus, op cit., p. 503.

⁷¹ John S. Dryzek, op cit., p. 491.

النقطة التي أثارها "أويلاو" Eulaau في تقريره كرئيس لـ APSA عام 1972: "إننا لم ننظم أنفسنا في إطار APSA من أجل ممارسة السياسة أو لنشر وجهات نظر سياسة".⁷²

تختلف الآراء بشأن مدى نجاح "المؤتمر" في تغيير أجذدة البحث في علم السياسة، وبالتالي مدى نجاحه كثورة معرفية، فلدى التمتعن في محتويات الدوريات الأكاديمية الرئيسية يمكن لأي باحث أن يستشف تراجعاً نسبياً لكنه ثابت للأعمال العلمية التي تعتمد معايير المدرسة السلوكية فيما توظيف الأدوات الكمية. لكن وبال مقابل فإن "درزيك" يرى بأن "المؤتمر" وبدل أن يتوجه نحو تشديد روابط مع التيارات الاجتماعية والسياسية والتي تحمل ثقافة مناوئة له، فقد كرس جهوده على الصعيد المهني، مما دعا باحثاً آخر هو "لوبي" Lowi إلى تسميته بـ "المؤتمر من أجل جمعية جديدة لعلم السياسة"، ومع إخفاقه في الحصول على رئاسة الجمعية فقد تراجع طموح أعضاء "المؤتمر" وأصبح تنظيمهم مجرد قسم عادي ضمن أقسام APSA يعمل على تمويل لجان عمله بشكل ذاتياً، أما المجلة العلمية التي قام "المؤتمر" برعيتها (علم السياسة الجديد) New Political Science فقد ظل انتشارها محدوداً، ولم يظهر اسمها ضمن ترتيب أبرز 115 دورية علمية في التخصص. وقد جاء تيار "بريسترويكا علم السياسة" لاعطاء دفعه جديدة للجهود من أجل إرساء تحول "باراديمي" عميق يغطي نفائص "باراديم الخيار العقلاني" الذي تمثله السلوكية.

المطلب السادس: استعفاء التحول "الباراديسي" مستقبل بروسيترويكا علم السياسة

إن إخفاق ثورة "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" لم يكن إخفاقاً كلياً بل يجب الإقرار بأن عدم نجاحهم لا يعني بالمقابل نجاح "السلوكية" وهذه الأخيرة وإن استمرت إلا أنها استمرت وهي فاقدة لهويتها التي انطلقت بها وخاصة في الشق المتعلق بزعمها إمكان إرساء أسس علم محايده أو علم مجرد من القيم. فقد قدم هذا التيار تنازلات متتابعة على مستوى "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" التي تعتبر محرك التغيير "الباراديسي" الذي لا يمكن تجاهله.

تجسدت هذه التنازلات ببني دورية أكademie جديدة بعد ثورة "المؤتمريين" عام 1967 سميت السياسة وعلم السياسة Political Science and Politics PS وذلك اعتبر ضربة لـ American Review of Political Science التي احتكرت المجال الأكاديمي لفترة طويلة نظراً لصلاتها بـ APSA، هذه الدورية الجديدة أتاحت الفرصة لنشر أعمال علمية تتوجه أساساً نحو معالجة مشكلات المجتمع والقضايا الملحة في السياسة العامة للدولة الداخلية والخارجية.⁷³ ولاشك أن هذه الخطوة تعتبر ميزة أمريكية تستحق التنوية، حيث أن قوة المنظومة الأمريكية عموماً هي في قدرتها على احتواء ديناميكيات المجتمع عبر تعديلات بنوية جزئية تمنع تقويض النظام ككل في

⁷² John S. Dryzek, op cit., p. 491.

⁷³ NPS Caucus, op cit., p. 503.

حال إغفالها، لكن ذلك يحول دون استشفاف التغيرات العميقة التي تحدث على المستوى المجتمعي والعلمي على حد سواء حيث تمر تغيرات عميقة بطريقة هادئة، ومن هنا يمكن مراجعة الرأي القائل بأن الثورة المعرفية "المعيارية" أو "النقدية" لـ"المؤتمريين" قد فشلت أو أنها ليست ثورة على الإطلاق.

لقد تأكّدت قوّة التيارات الداعية إلى إعادة النظر في واقع الحال في الحقل المعرفي لعلم السياسة، عقب قيام مئات علماء السياسة الأميركيين بتأييد محتوى الرسالة الالكترونية التي صاغها وأرسلها مجهول سمي نفسه "السيد برو ويسترويكا" يدعو فيها إلى إصلاح البيت الداخلي لعلم السياسة عبر ضمان افتتاح الحقل على التعديدية المنهجية ورفع الوصاية التي فرضها "الكميون" عليه.⁷⁴

يقول "روجر سميث" Roger Smith بشأن الثورة التي حاول تيار "البرويسترويكا" شنها على التقليد البحثي السائد "باراديم الخيار العقلاني" rational choice paradigm، وعلاقته بتيار "المؤتمريين": "لقد جاءت الحركة من أجل برو ويسترويكا في علم السياسة في سياق مختلف عن الذي ظهر فيه "المؤتمر" Caucus حيث اتسم بصراعات داخلية حادة في الأوساط الأكademie حول قضايا مهنية لكن كلتا الحركتين تشتراكان في مسألة واحدة على الأقل وهي رغبتهما في إحداث تحولات عميقة في علم السياسة من أجل تسخيره لخدمة القضايا السياسية الملحة بدل المغالاة في المراجعات المنهجية التي لا تنتهي".⁷⁵

كعادتها، عملت APSA على احتواء الثورة المنهجية الكيفية qualitative vs quantitative الصاعدة، وذلك بإنشاء أقسام جديدة للبحث [أنظر الجدول في الصفحة التالية]، وكذلك عبر إنشاء دورية أكademie أخرى برعايتها هي "منظورات في السياسة" Perspectives on Politics لنشر الأعمال العلمية لهؤلاء الباحثين المنشقين عنها، رغم أن هؤلاء وغيرهم يتطلعون للدورية الأكثر نفوذا ARPS لا إلى إيجاد فضاءات يتم حشرهم فيها حتى لا يحدّثوا آثارا كبيرة في الحقل المعرفي وبالأساس لتغيير أجندة الحقل.⁷⁶ لكن هل بقي هناك "أجندة بحث" في "علم السياسة" ليتمكن إعادة صياغتها والثورة عليها بالمنطق "الكوني"، فنظرية خاطفة إلى الجدول التالي ستؤكّد مدى التضارب الذي وصلت إليه هذه الأجندة، فإذاً إنما إزاء برامج بحثية لا كاتوشية تحوي برامج قوية Strong Programs وأخرى ضعيفة Weak Programs الأولى تقدمية لديها فرصة الاستمرار بينما الثانية اننكاسية ستختفي كقسم من أقسام APSA كما ستحتّم أعمالها العلمية. بالنسبة لـ قابرييل الموند فإن الأمر قد لا ينطوي على برامج بحثية متنافسة لأن وضعية "علم السياسة" بلغت مرحلة الالتفاش، وبعبارة الشهيرة: "مدارس وطوائف في علم السياسة" يلخص هذا الباحث توصيفه لواقع الحقل المعرفي الذي لم يعد فيه أتباع المدارس المختلفة يهتمون أصلاً بما يكتبه ويقوله أتباع المدارس الأخرى.⁷⁷

⁷⁴ سيتم التفصيل في أبعد "حركة البرويسترويكا" في علم السياسة لدى الحديث عن معضلات النقاش الرابع.

⁷⁵ Roger Smith as quoted in : NPS Caucus, op cit., p. 505.

⁷⁶ Ibid.

⁷⁷ Gabriel Abraham Almond, 'Separate Tables: Schools and Sects in Political Science', PS 21 (04) 1990.

جدول رقم 01: أقسام البحث المعتمدة على مستوى "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة"
(يساهم اعتماد أي قسم من طرف APSA في إعطاء الشرعية للتخصص فيه وكذلك جلب التمويل للبحث فيه)

1. الاتصال السياسي 2. السياسة والتاريخ 3. الاقتصاد السياسي 4. علم السياسة الجديد 5. علم النفس السياسي 6. تدريس علم السياسة 7. السياسة والأدب والسينما 8. السياسة الخارجية 9. الانتخابات الرأي العام والسلوك الانتخابي 10. السياسة والدراسات العرقية والإثنية 11. السياسة والتاريخ العالمي 12. المقرطة من منظور مقارن 13. حقوق الإنسان 14. البحوث الكيفية والمتعددة المناهج 15. السياسة والقضايا الجنسية 16. السياسة الصحية 17. السياسة الكندية 21. القانون والقضاء 22. الدراسات التشريعية 23. السياسة العامة 24. التنظيم السياسي والأحزاب 25. الإدارة العامة 26. ديناميكيات النزاع 27. النظم التمثيلية والانتخابية 28. البحوث حول مؤسسة الرئاسة 29. المنهجية السياسية 30. السياسة والدين 31. السياسات العرقانية 32. العلم، التكنولوجيا والسياسة البيئية 33. المرأة والبحوث السياسية 34. أسس النظرية السياسية 35. السياسة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال 36. الأمان الدولي ونزع السلاح 37. السياسات المقارنة 38. السياسة والمجتمع في أوروبا 39. سياسة الدولة والسياسة العامة	1. الفدرالية والعلاقات بين الحكومات 2. القانون والقضاء 3. الدراسات التشريعية 4. السياسة العامة 5. التنظيم السياسي والأحزاب 6. الإدارة العامة 7. ديناميكيات النزاع 8. النظم التمثيلية والانتخابية 9. البحوث حول مؤسسة الرئاسة 10. المنهجية السياسية 11. السياسة والدين 12. السياسات العرقانية 13. العلم، التكنولوجيا والسياسة البيئية 14. المرأة والبحوث السياسية 15. أسس النظرية السياسية 16. السياسة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال 17. الأمان الدولي ونزع السلاح 18. السياسات المقارنة 19. السياسة والمجتمع في أوروبا 20. سياسة الدولة والسياسة العامة
---	--

المصدر: الموقع الرسمي للجمعية الأمريكية لعلم السياسة، تم دخول الموقع في: 15/01/2009.

<http://www.apsanet.org/content_4596.cfm>

هذا الوضع لا ينطبق على العلاقات الدولية حيث تعتبر النقاشات النظرية سمة أساسية لمسار تطور الحقل، لكن ومثلاً يوضحه التمثيل البياني التالي فإن طبيعة النقاشات التي سادت في هذا الحقل المعرفي لا تختلف عما عرفه علم السياسة عموماً الذي تعتبر العلاقات الدولية أحد ميادينه، فالبداية كانت عبر الأنطولوجيا كما في علم السياسة ككل، ثم المنهجية وسيادة النزعة السلوكية العلمية لفترة من الزمن، وبعدها ظهر التحدي النقيدي للمعياري. لكن مع بداية التسعينيات يبدو أن علم العلاقات الدولية قد اكتسبت هوية مستقلة حيث أنه استطاع تطوير نقاشات متعددة المستويات وكان له السبق أيضاً في البحث عن مخارج للمعضلة الوضعية/ما بعد الوضعية. لكن يجب التأني قبل التسليم بهذه الأحكام، كونها تحتاج إلى مزيد من التمحیص، وهو ما ستعالجه المباحث والفصول التالية.

المبحث الثالث: النقاشات الثلاثة المؤسسة للبارادایم العقلاني في العلاقات الدولية.

بعد وضع النقاشات النظرية في إطارها الأوسع أي في حقل العلاقات الدولية، فإن هذا المبحث يحاول رصد حركة التحولات البارادایمية إن وجدت في ما اصطلاح على تسميتها بالنقاشات النظرية الكبرى الثلاث والتي أرست لبارادایم عقلاني لاحقاً. ومن خلال ستة مطالب سيتم المقاربة للنقاش الأول من منظور أنه ينطوي على مقابلة لنظرتين أنطولوجيتين للطبيعة الإنسانية، أما النقاش الثاني فمن منظور أنه ينطوي على مقاربتين منهجيتين لطبيعة المعرفة الإنسانية، في حين يقارب هذا المبحث للنقاش الثالث باعتباره أرسى دعائم التوليفة نيو-نيو التي

أهلت البارادايم العقلاني لتقديم تصور متماشٍ إزاء العلاقات الدولية أكثر منه نقاشاً بينها مع النيوماركسية الوضعية.

المطلب الأول: "النقاش النظري الأول"-نظرتان أسطولوجيتان للطبيعة الإنسانية.

أهم ميزة للنقاش النظري الأول بين الواقعية والمثالية هو تركيزه على الأنطولوجيا، أي البحث في الوجود، بينما أن الوضع الذي آلت إليه العلاقات الدولية في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ترك استفهامات عميقة حول كيفية التعامل مع تحديات حقيقة للسلم والأمن الدوليين ومن ذلك الإجابة عن سؤال جوهري: هل تنطوي القومية الصاعدة في ألمانيا وإيطاليا على محصلات عدائية أم أنها ستظل تجليات لثقافة في الحكم لن تتجاوز حدود هاتين الدولتين. إذن فالتحليل على المستوى الأنطولوجي ينصب على البحث في طبيعة الكينونة أي إعطاء مبررات كافية لاختيار وحدة التحليل التي يتم تبنيها، وبالتالي الإجابة عن سؤال ما الذي نريد معرفته؟ ومن ثمة تحديد السمة المميزة لوحدة التحليل هذه عبر الإجابة على السؤال ما طبيعة وجوه ما ستتصبّ عليه تحليلاتنا. حول هذه الأسئلة دار نقاش مهم بين المثاليين الليبراليين والواقعيين بُرِزَ فيه "إدوارد هيوليت كار" Edward Halett Carr.

أخذ النقاش ملامحه الحقيقة عندما قام المؤرخ البريطاني "إدوارد هـ. كار" بنشر كتابه: "السنوات العشرون للأزمة" 1919-1939 The Twenty Years Crisis ، أي قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بشهور، وقد كان يود من خلاله أن يبرز جوانب القصور في الليبرالية الأوروبية بشكل عام، وفي الأساس الإيديولوجية لمعاهدة فرساي بشكل خاص، حيث أشار "كار" في

كتابه المنتشر عام 1943 بعنوان: "شروط السلام" إلى أن الليبرالية كأيديولوجية قد تجاوزتها الزمن، فالافتراض الفلسفى المتضمن في نظرية "آدم سميث" الاقتصادية يعبر عن مطامح مثالىة تعوزها الحقائق التي تدعمها، والمعروف أن هذه النظرية تقوم على افتراض أن الحرية الفردية هي أفضل ضمان للثروة الاقتصادية، وعلى افتراض آخر يقضي بأن اليد الخفية تحافظ على توازن السوق في ظل الاقتصاد الحر.⁷⁸

وفي الاتجاه ذاته، رفض "كار" التصورات الخاصة بـ "التوازن الطبيعي التقائى" وـ "التطور التاريخي الإيجابي" والميول الخيرة للإنسان، وأضاف "كار" أيضاً أن حركة التویر كانت ساذجة في نزعتها المتفائلة، وبأن "ليبرالية" "آدم سميث" وـ "مثالية" "كانط" يرمان إلى الفترة التي كانت أوربا خلالها تعيش مرحلة الطفولة، ويقترح تبعاً لذلك أن تتم العودة إلى الافتراضات الأكثر واقعية والتي برزت في بوادر الفكر السياسي الأوروبي الحديث ولاسيما في النظرية السياسية عند "ميكيافيلي" وـ "هوبز". ولم يتوقف "كار" عند نقد الليبرالية الاقتصادية "المثالية" "الكانطية"، بل كان هدفه النهائي هو إنتاج نظرية عقلانية للعلاقات الدولية مستلهمة من النزعة التاريخية الألمانية.⁷⁹

جسد تمرد "إدوارد هـ. كار" على الافتراضات الفلسفية للفكر التویرى، طموحه لإعادة إحياء نظرة رواد الفكر السياسي الحديث للعالم، ويجسد ذلك كله تأرجح المفكرين الأوروبيين بين تصورين اثنين للطبع الإنساني، ويمكن فهم هذا التأرجح كخلاف جوهري حول مسألة إن كان الإنسان يميل بالفطرة إلى الخير أم إلى الشر، وإلى أي مدى يمكن أن تتحسن أحوال البشرية. لقد سبق للفيلسوف والمؤرخ الإيطالي في القرن التاسع عشر، "جيامباتيستا فيكو"، أن وصف النقاش حول الطبيعة البشرية بأنه نقاش بين من ينظرون للإنسان "كما يجب أن يكون" ومن ينظرون إليه "كما هو"، هذا هو الخط الذي رسمه "فيكو" بين "المثاليين" وـ "الواقعيين"، أو بين "الثوريين" وـ "المحافظين"، فالإنسان بالنسبة للواقعيين (المحافظين) يميل إلى الشر بالفطرة ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل تغيير طبعه هذا، أما بالنسبة للمثاليين (أو الثوريين)، فيرون أن الميول الفطرية للإنسان إيجابية وأن شقاء البشرية يعود إلى ظلال البنى الاجتماعية والسياسية ورثها من ماض غامض.⁸⁰ إذن، فإن على المرء، من وجهة النظر المحافظة، أن يتقبل وأن يتكيف مع البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها، أما من وجهة النظر الثورية، فإن البيئة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هي ما يتوجب تكييفه وتحويله وفق إرادة وآمال الإنسان.⁸¹

هذا الخلاف بين "المثاليين" وـ "الواقعيين" يمكن تصسيله في الخلاف بين المفكرين الذين سبقو سقراط، فـ "بياس بربن" شدد على أن أغلب الناس أشرار. وفي الاتجاه ذاته، ارتأى "بارمنيدس" أن الطبع الإنساني لا يتغير. بالمقابل، كان "هيرافيتس" يؤمن بالتغيير المستمر وبإمكانية إحداث تغيرات في الطابع الإنسانية. وفي العصور القديمة أيضاً، نجد "كرينوفون"

⁷⁸ Charles A. Jones, 'E.H. Carr and international relations: a duty to lie' (UK: Cambridge University Press, 1998), p. 12.

⁷⁹ Charles A. Jones, op cit., p. 7.

⁸⁰ Emmanuel Navon, 'The 'Third Debate' Revisited', *Review of International Studies* 27 (04) 2001, p. 612.

⁸¹ Ibid., p. 613.

و"أرسطو" قد تبنيا النظرة الواقعية إزاء الطبع الإنساني. بينما تبني "أفلاطون"، و"أبيقر" و"ديوجين" من جهتهم النظرة المثالية: والتي تقضي بأن "الجوانب الخيرة" الموجودة في الإنسان ستعاد الظهور بمجرد أن تتخلص البشرية من القواعد والتقاليد التي تكتنفها المراوغة.

هذا النقاش بين المفكرين ما قبل "سقراط" و"المفكرين القدامى" بشكل عام استمر في كل مراحل التاريخ الأوروبي، حيث نجد في العصور الوسطى كل من "الأكونيني" و"أغسطين" قد ترجموا تعاليم الكنيسة حول الميلول الشريرة للإنسان إلى أفكار سياسية، بينما أسس المفكرون "المهرطقون" مثل "بوقوميل" و"توماس مونترز" و"جان بويكلسون" لمذاهب مسيحية تتحدى الافتراضات المتشائمة لتعاليم الكنيسة، أما المفكرون الأوروبيون الذين يعودون إلى بواكير العصر الحديث مثل "ميكيافيلي"، و"هوبز"، و"فيكو" فقد تبنوا نظرة واقعية حول الطبع الإنساني، وسار في الاتجاه نفسه، كل من "إيدموند بيرك" و"جوزيف دوميستر"، وذلك عقب الثورة الفرنسية.⁸²

وبمقابل هذا التيار الواقعي ظهر توبيريوا القرن 18 واشتراكيو القرن 19 ("فولتير"، "روسو"، "كانط"، "ماركس" وغيرهم) مؤسسين فلسفتهم على إدراكات مثالية حول الإنسان، وعلى الاعتقاد بأن هذا الطبع الإيجابي للبشر جنبا إلى جنب مع إحداث تحسينات في القواعد الاجتماعية والدولية فإنه سينتاج عنها الشروط الضرورية لتحقيق ثروة أعظمية وسلام أعظمي، وسعادة أعظمية ومثلما تظهره الأمثلة السابقة فإن الانقسام بين المثالية والواقعية تتوافق مع الخط التميزي الذي رسمه "فيكو" بين من يرون الإنسان "كما هو" ومن يصورونه على "ما يجب أن يكون عليه".

لقد انتقد الواقعيون بشدة انهماك المثاليين في وضع تصورات لكيفية بناء مؤسسات دولية تعمل على كبح النزعة العدائية لبعض الدول في النظام الدولي، حيث بالغ هؤلاء في وصفهم للتدابير والهيكلة المؤسساتية التي يمكن الاعتماد عليها لاجتناث أسباب الحروب بين الدول، صحيح أن النتائج المدمرة للحرب العالمية الأولى كانت ماثلة للجميع، لكن بالنسبة لـ "كار"، فإن اقتراحات الليبراليين آنذاك باعتبارهم يمثلون التقليد الباحثي المهيمن mainstream كانت طوباوية إلى حد بعيد.⁸³

ورغم أن الليبراليين ساهموا مع كل هذه المآخذ في التأسيس لعلم السياسة عبر فتح فرع العلاقات الدولية كتخصص مستقل عن العلوم السياسية في جامعة "أبريزيفيث" Aberywswyth بـ "ويلز" Wales، إلا أنهم وحسب الواقعيين، لم يتمكنوا من إضفاء العلمية على الدراسات في هذا الحقل المعرفي، فكل ما أنتجته المدرسة الليبرالية المثالية هو محض مقاربة مبطنة بالقيم وتعوزها النظمية، بل أن "كار" ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قارن بين الدراسات الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية وقال أنها كالفرق بين الكيمياء الحديثة المبنية على العلمية والكيمياء القديمة التي

⁸² Emmanuel Navon, op cit., p. 613.

⁸³ Charles A. Jones, op cit., p. 47.

ترتكز على خرافات من قبيل تحويل المعادن إلى ذهب، إنها خرافة أخرى يروج لها المثاليون وهي تحويل الدوافع الشريرة للناس إلى دوافع خيرة.⁸⁴

لقد حاول "إدوارد كار" أن يساهم في نقد الإدراكات "المثالية" للطبع الإنساني من خلال تقويض أساس الافتراضات الأيديولوجية "اللتوري" و"الليبرالية الاقتصادية"، ومن خلال تأسيس لنظرة جديدة عما يجب أن تكون عليه العلمية لدى دراسة "السياسة الدولية"، إلا أن نقهء هذا ووجه من طرف مفكرين أوربيين مرتبطين بالتقليد الليبرالي فقد وصفه "فريديريك فون هايك" بأنه واحد من "الشموليين" المنتشرين بيته، أما "ستانلي هوفرمان" فشدد على أن "وراء الإدعاء بالواقعية، تقبع رجعية طوباوية". وهو رأي يتفق معه إلى حد بعيد أحد أبرز منظري العلاقات الدولية في الوقت الحالي "برايان شميتس" Brian Schmidt.⁸⁵ ويحاول المطلب التالي أن يقف على أهم المأخذ ضد النظرة الواقعية الكلاسيكية في سياق النقاش النظري الأول.

المطلب الثاني: مأخذ الليبراليين ومؤرخي العلم على النقاش النظري الأول.

خلافاً لما تصوره الأدباء المهتمة بتاريخ الحقل المعرفي للعلاقات الدولية فإن "المثاليين" [حسب الوصف الواقعي] لم يستسلموا للانتقادات الواقعية بل أن ثلاثة من الليبراليين عموماً صاغوا ردوداً منهجية استهدفت الطرح الواقعي في العمق مثل "نورمان آنجل" Norman Angell "ليونارد وولف" Leonard Woolf [خاصة من خلال كتابه: الحرب من أجل السلام 1940] "ريتشارد كوفينترى" Richard Coventry وألفريد زيميرن Alfred Zimmern، كما تتجاهل هذه الأدباء أيضاً حقيقة أن "كار" تأثر كثيراً بهذه الانتقادات إلى درجة أن طروحاته سيما تلك التي ضمها كتابه: "القومية وما بعدها" Nationalism and After والذي صدر سنة 1945 جاءت أقرب إلى الأدباء الوظيفية التي تبلورت لاحقاً على يد "ميتراني" Mitrany حيث اعتبر هذا النهج بمثابة حل للمشكلات التي يعاني منها العالم.⁸⁶

ومن بين هذه الانتقادات والردود من المهم الإشارة إلى رد "أنجل" على انتقاد "كار" للمثاليين في كتابه المرجعي: "عشرون سنة من الأزمة" والذي يستهجن فيه الاعتماد على العمل الجماعي، حيث قال "أنجل" أن الخيار لم يكن بين العمل الجماعي وأداة أخرى أكثر فعالية بل بين اللا فعل وترك الدول الأخرى [في إشارة إلى ألمانيا وإيطاليا] تفعل ما تشاء في حين كان بالإمكان

⁸⁴ Milja Kurki and Colin Wight, 'International Relations and Social Science', in Timothy Dunne et al. (eds.), 'International Relations Theories: Discipline and Diversity' (UK: Oxford University Press, 2007), p. 16.

⁸⁵ Emmanuel Navon, op cit., p. 613.

⁸⁶ Lucian M. Ashworth, 'Did the Realist-Idealist Great Debate Really Happen? A Revisionist History of International Relations', *International Relations* 16 (01) 2002, p. 38.

توظيف قوة الجماعة لکجها. وفي واقع الأمر، فإن "كار" وعددًا من الواقعيين كانوا في معسكر التهدئة بينما كان عدد كبير من الليبراليين في معسكر "الصقور" حسب السياق الذي كان سائدا آنذاك.⁸⁷

في رده على الافتراضات الواقعية أشار وولف إلى نقطة أساسية من ضمن المسائل التي كانت مطروحة للنقاش آنذاك: وهي كيفية التعاطي مع المخاطر التي تهدد الأمن الدولي، إذ استعرض "لينارد وولف" ثلاثة استجابات ممكنة: الأولى تتمثل في ترك الأمور على حالها والسماح للطرف الأقوى بالهيمنة وهذا ما تعبّر عنه وجهة النظر الواقعية؛ الطريقة الثانية، وهي تعتمد على عصبة الأمم وتنطوي على تغيير الأوضاع التي قادت إلى الحرب في المقام الأول. أما الطريقة الثالثة فهي تعتمد على تغيير الأوضاع التي تقود عادة إلى ظهور الخلافات واحتدام الصراعات بين الدول، ويعتمد في شرح هذا الخيار الأخير على دعوة الباحثين لتخيل مشهد الأفراد وهم يهمنون للالتحاق بمنازلهم عبر "الباص" في وقت الذروة. هذا المشهد يحاكي تنافس الدول على الموارد النادرة، ويمكن حل هذه المعضلة عبر توفير عدد كبير من "الباصات"، لكن هذا خيار مثالي قلما تجمع الشروط لتحقيقه، ليبقى خيار وحيد يجسد طبيعة الأفراد المتحضرين، وهو الوقوف في طابور تكون الأولوية فيه لمن قدم مبكراً لموقف "الباص". إذا كان الواقعيون يقولون أن الاقتتال ظاهرة إنسانية فإن الطابور ظاهرة إنسانية أيضاً لكنه أكثر فعالية في حل المشكلات المتصلة بالندرة.⁸⁸

صحيح أن الواقعيين يبحثون دوماً عن واقع توزيع القوة وإعطائه الأولوية في تفسير الأحداث الدولية، لكن النقطة التي أهملوها هي أن الأفكار التي تقف وراء القوة أهم من القوة ذاتها. وللتوضيح ذلك يضرب "أنجل" مثلاً بالعيب، حيث يتساءل إن لم يكن العبيد واقعياً أكثر قوة من سادتهم، لكن الأفكار التي يحملونها هي ما يجعل منهم في وضع الضعف. وبالنسبة للواقع الدولي، فإن ذلك يؤكد على أهمية الاهتمام بمعالجة الأفكار التي تSEND التوظيف العدائى للقوة، وسيكون ذلك أكثر فعالية.⁸⁹

أما بالنسبة لأخذ مؤرخي العلم على النقاش النظري الأول، ومن بينهم "لوتشيان آسوروث" Lucian Ashworth⁹⁰، "جويل كويرك" Joel Quirk⁹¹ و"دارشان فيقنيسفاران دارشان فيجناسواران" Darshan Vigneswaran⁹²، "بيتر ويلسون" Peter Wilson⁹³ وهؤلاء يجمعون في مأخذهم بين الغموض الذي كان يشوب تسمية المثاليين والواقعيين، وبين غياب أية مؤشرات واضحة عن حدوث النقاش فعلياً أم أن "كار" اصطنع سجالاً خيالياً لبناء الحقل المعرفي لعلم

⁸⁷ Ibid.

⁸⁸ Lucian M. Ashworth, op cit., p. 40.

⁸⁹ Ibid., p. 41.

⁹⁰ Ibid.

⁹¹ Joel Quirk and Darshan Vigneswaran, 'The Construction of an Edifice: The Story of a First Great Debate', *Review of International Studies* (31) 2005, pp. 89-107.

⁹² Peter Wilson, 'The Myth of the "First Great Debate"', *Review of International Studies* (24) 1998, pp. 10-12.

السياسة وهو فعليا نجح في الثانية وأخفق في استثارة نقاش مهتم بالشكل الذي تصوره الكتب الأكاديمية حاليا.

بداية بعدم دقة تسمية المثاليين الليبراليين بـ "الطوباويين": كار نفسه لم يطلق لفظة مثالي بل كان يصف خصوصاته المزعومين بـ "الطوباويين" utopians، لكن إذا راجعنا كتاباته سنجد أنه يكتفي في النهاية بالإشارة إلى خصوصاته في حواشى كتابه، لكنه يجمع فيها عددا كبيرا من المؤلفين الذين يتقاسمون ميلهم الليبرالية في بوتقة واحدة رغم الاختلاف الواضح بينهم، فالليبرالية التي تحدث عنها "كار" ولاحقا "مورفينتو" تم تصورها على أنها تقاسم تقليدا بحثيا واحدا وتتصورا متطابقا وهذا ما لا نجده فعليا في التقليد الباحثي الليبرالي.⁹³

إن تصنيف الافتراضات "المثالية" بـ "الطوباوية" كان هناك الكثير من القرائن التي تدحضه، فهو لاء ساهموا من خلال العديد من الكتابات في الحفاظ على الوضع القائم في ميزان القوى، ولأجل على ذلك من وصفهم السفن الحربية والغواصات بأسلحة الضعف، وذلك ليس له سوى هدف واحد وهو تثبيط عزيمة الدول التي ترغب في تطوير ترسانتها الحربية عبر امتلاك هذه الأسلحة حفاظا على التفوق البريطاني والأمريكي. هذه الوضعية لا تختلف عن وصف الليبراليين في الوقت الحالي لغاز الأعصاب وغيره من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية بشتى النعوت السلبية رغم أن الدول الكبرى تمتلك أسلحة أكثر فتكا وهي الأسلحة النووية، وذلك ليس له تقسيم آخر غير حرمان الدول الفقيرة من امتلاك رادع أقل ثمنا. بل أن المثاليين في حالات معينة قدموا خدمات أفضل للواقعية السياسية Reapoltik من تلك التي قدمها الواقعيون كاتجاه نظري، فـ "نورمان أنجل" Norman Angell في كتابه "الوهم الكبير" Great Illusion الذي صدر في 1911 كان قد امتدح الاستعمار بطريقة ذكية من خلال القول بأنه ساهم وبسهامه في توثيق الروابط بين شعوب العالم، وبأنه عمل على تمدين مناطق من العالم كانت تقع في التخلف والظلم، ومن خلال قيامها بذلك فإن الدول الغربية الكبرى لا تتدخل في مسار تطور الحضارات الأخرى وإنما تساعدها على اختصار الوقت والحصول على مقومات التحضر.⁹⁴

هل كانت المسألة الأخلاقية مطروحة على الإطلاق في تلك المرحلة كما قد يتبادر إلى الأذهان عند استرجاع المقوله الشائعة: "المثاليون" يهتمون بما يجب أن يكون بينما يصر الواقعيون على النظر إلى ما هو كائن. الإجابة "لوتشيان آشورث" هي بالمعنى فالأدبيات التي تمثل الاتجاهين كانت مولعة بالنظر في أفضل طريقة لتوظيف توازن القوى من أجل الحفاظ على الاستقرار العالمي الهش وليس في أفضل الطرق للعيش على الكوكب.⁹⁵

إن ما يعرف بالنقاش النظري الأول بين "المثاليين" وـ "الواقعيين" في العلاقات الدولية هو جزء من نقاش فلسفى أوسع وأعمق انقسم حوله المفكرون الغربيون منذ ما قبل سقوط إمبراطورية أيامنا هذه. إذن فلننظر إلى العلاقات الدولية لم يبدؤوا هذا النقاش ولم ينهوه ولم يقدموا إسهاما أو إثراء ذاتى معنى.

⁹³ Lucian M. Ashworth, op cit., p. 36.

⁹⁴ Norman Angell as quoted in Lucian M. Ashworth, op cit., p. 37.

⁹⁵ Lucian M. Ashworth, op cit., p. 38.

ونخلص بذلك إلى أن "النقاش النظري الأول" لم ينته بعد، فهو نقاش فلسفى، بل ويعتبر مصدر الانقسام بين "اليمين" و"اليسار" في الديمقراطيات الحديثة. لكن يجب الإقرار بأن أسطورة النقاش النظري الأول، على حد تعبير "بيتر ويلسون" Peter Wilson هي ما ساهم في إثارة نقاط عدّة للجدل الفكري بما ساهم في ربط السياسة الدولية بالمارسة السياسية⁹⁶، إلا أن هذا التخصص الناشئ، ولدى بلوغه "مرحلة المراهقة" adolescent IR على حد تعبير "كولين وايت" Colin Wight، أضحت يبحث عن هويته الضائعة بين وصاية التاريخيين والطوباويين، فأغلبية باحثي العلاقات الدولية، بل المؤسسين للحقل أنفسهم قدموا من حقول معرفية مجاورة، بحيث حاولوا إعطائه صبغة معينة، وبحيث بدت التأثيرات الناجمة عن هذه الانتتماءات المتعددة في تدريس العلاقات الدولية عبر تقديم مزاج من الأديبيات غير المتسبة، فكان من الطبيعي أن يجلب بعض باحثيه أدوات "النزعية السلوكية" [العلمية] من أجل التمكين لدراسة نظرية وإيصال هذه التخصص مرحلة النضج. وكان ذلك بمثابة إذان لدخول "علم العلاقات الدولية" مرحلة النقاش النظري الثاني.⁹⁷

المطلب الثالث: "النقاش النظري الثاني" - نظرتان منهجيتان لطبيعة المعرفة.

يجمع "النقاش النظري الثاني" بين المقاربة "العلمية" للنظرية، من جهة والمقاربة "التاريخية"، من جهة أخرى. يعتقد أصحاب المقاربة "العلمية" في إمكانية اكتشاف القوانين العامة التي يزعمون أنها تحكم سلوك الدول، بينما يرتأى أصحاب المقاربة "التاريخية" أن كل ما يسعون إليه هو البحث عن أنماط أو تماثلات تقريبية في السلوك، والتي تعتمد صدقيتها الإمبريقية على توفر سياق تاريخي معين. وأكثر من ذلك، فيبينما تعتبر المقاربة "العلمية" مقاربة استقرائية تعتمد على تراكم المعطيات، فإن المقاربة "التاريخية" في الأغلب مقاربة استنباطية تقوم على البحث "التاريخي".

غير أن النقاش بين العلميين والتاريخيين جزء من طرح أوسع وأقدم، ذلك التنازع بين نظرتين تعكسان "التصور المقيد" و"التصور غير المقيد" للمعرفة. حيث أن لنظرية غير المقيدة تتوافق مع الاعتقاد القائل بأن العقل هو الطريق الوحيد للحقيقة؛ وبخلاف ذلك، فإن النظرية المقيدة ترتبط بالاعتقاد القاضي بأن العقل ليس الطريق الوحيد للحقيقة وبأن المعرفة الإنسانية لا يمكن لها أن تكون مطلقة. وفي هذا الصدد، تمثل العقلانية النظرة غير المقيدة للمعرفة، استخداماتها وتطبيقاتها في المجالين السياسي والاجتماعي، هو ما يدعوه "مايكل أوكتشوت" Michael Oakeshott العقلانية السياسية. فالعقلاني، وفق "أوكتشوت"، ليس من المناسب أبدا التشكيك في

⁹⁶ Peter Wilson, op cit., p. 12.

⁹⁷ Colin Wight, 'Philosophy of Social Science and International Relations', in Walter Warlsnaes et al. (eds.), 'Handbook of International Relations' (UK: SAGE Publications, 2002), p. 26.

قوة عقله [عندما يستخدمه بشكل سليم] في "تقدير قيمة الشيء، وصدق الرأي وصواب الفعل"، كما لا يمكنه أن يتصور نظاماً سياسياً لا ينطوي على "حل المشكلات"، ولا أن يتصور "مشكلة سياسية" لا تتوفر على أي "حل عقلاني".⁹⁸

إن هذا الانقسام بين العقلانية السياسية وما يمكن تسميته العقلانية المقيدة [أو المحدودة] تعود إلى العصور القديمة، حيث يصف "أفلاطون" المعرفة في مؤلفه "الجمهورية"- بأنها "المرحلة الكاملة والنهائية، وذلك عندما يقود العقل الفيلسوف من ظلمات الكهف إلى نور المعرفة الخالصة من أية خلقيات أو أفكار مسبقة، وحينها فإن عينا الفيلسوف تتأملان في حقائق ثابتة لا تتغير، إنه حيز [أي حيز المعرفة الخالصة] لا مجال فيه لـاللادuel والمعاناة، لأن كل شيء يخضع للعقل والنظام، وأن العقل يمكنه أن يبلغ المعرفة الكاملة، بحيث يتتيح ذلك للفيلسوف تصميم وتنظيم مجتمع كامل يقوم على دعائم عقلانية". وعلى النقيض من أستاده، لم يعتقد "أرسطو" أبداً في إمكان أن يقودنا العقل لـ"الكمال المعرفي"، كما رفض الفكرة القائلة بأن المجتمع يمكن تنظيمه وفق التصورات المجردة للفيلسوف، ولذا فإن على المجتمع -حسب أرسطو- أن يتبع القواعد التي تتبع منه فالممارسات والقوانين تتتنوع بحسب السياقات الاجتماعية والتاريخية، وفي حالة المنظمات السياسية المختلفة، فإنه من المستحيل تدوين كل شيء بدقة، فما يتم تدوينه يجب أن يتسم بالعمومية، غير أن الأفعال التي ترصدتها الملاحظات تتسم بالخصوصية.⁹⁹

اكتسب النقاش حول طبيعة وقدرة العقل نفحة جديدة أخرى في القرن 17 مع كتابات "ديكارت"، "باسكار" و"هيوم". إذ اعتقد "ديكارت" أن الحقيقة توجد في ذاته، وبأنه بصدر البحث عن المنهجية الصحيحة لبلوغ المعرفة بكل شيء. مطاراتات "ديكارت" الفلسفية قادته إلى نتيجة مفادها أن مصدر الأخلاق هو الفكر العقلي (يكفي أن تفكر جيداً لفعل ما هو صحيح)، وبأنه يجر البحث عن الحقيقة في العقل الإنساني وليس عن طريق التجربة ولهذا اختار ديكارت أن يكشف رسالته في المنهج بالفرنسية بدلاً من اللاتينية لأنه أراد أن يتوجه إلى الذين يستعملون فقط عقلاً المحسن والطبيعي في مقابل أولئك الذين لا يؤمنون سوى بالكتب القديمة.

وبعبارة أخرى، ارتى "ديكارت" أن الحقيقة توجد في عقول الأفراد الذين يعتمدون على عقلاهم المحسن، كما أن الفكر الاستباطي حسب اعتقاده يجب أن يشكل القاعدة للبحث العلمي، أما التعاليم القديمة والتجارب والاستقراء فهي لا تمثل مصدراً للمعرفة الصحيحة، لأنه وحده العقل يستطيع فتح منفذ للمعرفة. ذلك ما لخصه "هوركمایمر" بأن "العقلانية الديكارتية تدعى قدرة العقل على إنتاج المعرفة خارج العقل ذاته".¹⁰⁰

⁹⁸ Michael Oakeshott, 'On Human Conduct' (UK: Oxford University Press, 1990), p. 40.

⁹⁹ لقد امتد هذا الخلاف في الرؤى بين أفلاطون وأرسطو حول العلاقة بين "العقل" و"الحقيقة" وحول قدرة الفيلسوف على تنظيم المجتمع بناءً على دعائم عقلانية بحتة، إلى انقسام المفكرين الغربيين خلال كل المصور حول الخط ذاته. كما أخذ الانقسام نفسها جيداً بدخول مفهوم الوحي (المستلهم من الإنجيل) إلى الفكر الغربي مع انتشار المسيحية. يعبر "ليو شترواس" عن ذلك بكون "التاريخ الغربي كله يمكن النظر إليه كمحاولات متكررة لإيجاد صيغة توافقية أو تركيبية بين الإنجيل والفلسفة الإغريقية". هذه المحاولات التي لا تنتهي تتجسد بوضوح في البحوث الفلسفية لـ"الأكوبيني" وـ"أوغسطين"، وـ"ميونيدس"، أنظر:

Harold I. Brown, 'Rationality' (UK: Routledge, 1990), pp. 40-44.

¹⁰⁰ Harold I. Brown, op cit., p. 42.

تحدى "باسكار" و"هيوم" موقف "ديكارت"، وإن اختلفا في الأسباب، حيث أشار باسكار إلى أن رفض ديكارت الاحتكام إلى "الكتب المقدسة" والاعتماد على التفكير العقلاني يقود نحو الإلحاد (وهذا رغم أن ديكارت سبق وأن ادعى استناد نظامه الفلسفية إلى وجود الله) لقد أحسن "باسكار" بأن تقدم العلم (وخاصة الفلك) في عصره تركت الإنسان وحيداً في وجه السكون الأبدي للفضاء "اللامنهي" ، بحيث كان الإيمان بمثابة الرهان الممكّن عندما يعجز العقل عن الإجابة على الأسئلة الأساسية للقضية الإنسانية.

وهكذا رفض "باسكار" المنظور العقلاني لـ ديكارت بل وكتب بأنه لن يسامحه: "لا يمكنني أن أسماح ديكارت لأنه أراد من خلال كل فلسفته أن يتخلص من الله، في البدء كان بحاجة إلى الاستعانة بمبدأ وجود الله لوضع عالمه في السكة، إلا أنه بعد ذلك لم يعد محتاجاً إليه فعمد إلى التخلص منه في تحاليله، إن فكر ديكارت عقيم ومشكك". وأكثر من ذلك، قال باسكار أن الإنسان المثقف قد يكون منقسمًا بين ما يسميه روح الرياضيات (المنطق، العقل) وروح الذكاء (الحدس، الإيمان) وبأن البحث عن الحقيقة لا يمكن أن يعتمد على الروح الرياضية وحدها.¹⁰¹

من جانبه عمد "دايفيد هيوم" في مؤلفه "رسالة في الطبيعة الإنسانية" إلى دحض الافتراض الرئيسي لـ ديكارت القاضي بأنه يمكن استنباط الحقيقة من العقل الممحض، وذلك طالما أن الأفكار تستقى من التجربة. وبعبارة أخرى، فإن العقل الإنساني ليس بالخزان الأولي للحقيقة، بل أنه يتعلم من خلال الانطباعات والتجارب (كل أفكارنا البسيطة في مظهرها الأول تستقى من انطباعات بسيطة). واستطرد "هيوم" قائلاً أن الفلاسفة الذين ادعوا بوجود أفكار سابقة في الوجود أو بوجود ما يسمى بـ "العقل الممحض" (لدى "أفلاطون" و"ديكارت") لا يبرهنون بذلك سوى على شيء واحد وهو أن هذه الأفكار ذاتها مسبوقة بإدراكات أخرى تستقى منها وتعبر عنها. وبخلاف "ديكارت"، فقد كان "هيوم" أكثر حذراً في تمييزه بين العقل والأخلاق. إذ بينما ارتأى ديكارت بـ "أنه يكفي أن يفكر الإنسان بشكل جيد ليفعل ما هو صحيح"، إلا أن "هيوم" أشار إلى أن: "قواعد الأخلاق ليست استنتاجات عقلية". أدرك كانتن بأن "رسالة" "هيوم" تمثل تحدياً جدياً للفلسفة العقلانية، فحاول أن يعيد بناء قواعد صلبة للعقلانية، وذلك في مؤلفه "نقد العقل الممحض" Kritik der reinen Vernunft. قام "كانتن" بتحديد المجالات التي يعتبر فيها العقل قادراً على البحث عن الحقيقة، وأشار "إلى أنه طالما أن العقل الممحض يمتلك هذه القراءة، فإن الفرد قادر على الكشف عن الحقيقة عبر الاستنباط العقلاني وبعدها يجرِ الطبيعة على الإجابة عن أسئلته".¹⁰²

وهكذا يتبيّن أن الفلسفة الأوروبيّين في القرنين السابع عشر والثامن عشر جددوا فعلاً النقاش حول طبيعة وقدرة العقل: بالنسبة للعقلانيين، يمكن إيجاد الحقيقة في العقل الإنساني في وجهه النقي، أما بالنسبة للإمبريقيين، فإن الأفكار تعتبر ثمرة للتجربة، فالمسألة إذن هي بما إذا كان الإنسان يستقى معرفته من عقله أم من التجربة.

النقاش حول مصدر المعرفة ما فتئ ليتوسّع نحو مسألة ما إذا كان العقل وحده قادرًا على ترجمة وتفسير الأحداث التاريخية وتحسين أحوال المجتمع. وقد كان رد الكاريزيّين (أتباع

¹⁰¹ Harold I. Brown, op cit., p. 48.

¹⁰² Harold I. Brown, op cit., pp. 49-50.

ديكارت) العقلانيين بأنه يمكن تفسير التاريخ تفسيرا عقلانيا، وبأنه يمكن أيضا إعادة تنظيم المجتمع على أسس صحيحة بفضل الفكر العقلاني، وفي المقابل فإن جل الموروث الفكري للنزعه الإمبريالية الانجليزية يشدد على أهمية التقاليد في تحقيق سعادة المجتمع، ويتحدى المنظور الذي يدعى بوجود قانون يحكم مسار التاريخ.¹⁰³

هذا الطرح الفلسفى تجلى بوضوح خلال القرن 18 في الرؤى المتناقضة لكل من "روسو" و"بيرك"، ف"روسو" كان يؤمن بأن "الإنسان ولد حرا، لكنه مقيد بالأغلال في كل مكان، ومع ذلك فسوف يستعيد حريته الأصلية، عندما يعيد العقل تنظيم المجتمع ويحرره من التقاليد والمعتقدات التي قيدت حريته، والتي تراكمت عبر السنين بسبب الجهل والتعصب".

في حين عارض "بيرك" فكرة "روسو" التي تقضي بأن الحرية الإنسانية تتوافق مع "الحالة الطبيعية" ومن ثمة يمكن استعادتها بالاعتماد على العقل، بالنسبة لـ"بيرك"، تعتبر الحرية نتاجا للمجتمع المدني، وهو الإطار التقليدي الذي أرساه الناس في ظل سياق ثقافي وتاريخي معين بهدف مواجهة أخطار الطبيعة، لقد استمر المجتمع المدني بفضل تجارب أجيال متلاحقة لكنه يتعرض لمخاطر مستمرة من جانب الثوريين الذين يستخفون بالتجربة ويعتبرونها حكمة الأميين. هؤلاء الثوريون، ومن خلال محاولتهم إعادة تعريف الطبيعة الإنسانية عبر "العقل المحسن" وإعادة تنظيم المجتمع بالاعتماد على تصورات مجردة، انبهروا بنظرياتهم حول حقوق الإنسان بحيث نسوا تماما طبيعته.

يمكن اعتبار الرؤى المتعارضة بشكل جزئي بين "روسو" و"بيرك" حول مسألة الحرية وسعادة المجتمع بمثابة امتداد للنقاش العقلاني/الإمبريالي ليشمل مجال الفكر السياسي متحورا حول السؤال: فيما إذا كان الإنسان قادرا على إعادة اكتشاف حريته الفردية والعدالة الاجتماعية عبر تطبيق المبادئ العقلانية الخارجية التي تسقه في الوجود، أم أن الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية ذاتها تعتبر نتاجا للتطور التاريخي بحيث اكتسبها الإنسان بالتجربة ونتيجة لكافحه ضد الطبيعة؟

في القرن 19، أضاف العقلانيون السياسيون إلى ادعائهم الخاص بالتفصير العقلاني للتاريخ اعتقادا آخر بإمكانية إعادة تنظيم المجتمع على أسس عقلانية، حيث شدد كل من "كوندورسيه"، "فوربيه"، "سان سيمون" و"كونت" على أنهم اكتشفوا (عبر الاستبطاط العقلاني) قانونا علميا يحكم التطور التاريخي، وبأنهم قادرون على إعادة تنظيم المجتمع وفقا للمبادئ العقلانية بغية تحقيق مستويات يوتوبية من الثروة والسعادة.

وحتى "كارل ماركس" أرسى "اشتراكية العلمية" على قراءة علمية للتاريخ. وهكذا فإن التاريخية (التي تعنى الاعتقاد بوجود قانون يحكم الأحداث التاريخية بحسب تعريف "كارل بوبر") لطالما شكلت جوهر الافتراض الأيديولوجي للاشتراكية، والتي تعنى من جهةها الاعتقاد بأنه يمكن للمجتمع أن يبلغ المستويات الأمثل للثروة والعدل عبر التخطيط والتنظيم العقلانيين.¹⁰⁴

¹⁰³ Ibid.

¹⁰⁴ Emmanuel Navon, op cit., pp. 615-617.

في ظل هذا الصراع المبطن حول الطرف الذي يمتلك تعريفه للعلمية ولعلمية العلاقات الدولية الشرعية أثير النقاش النظري الثاني، وهذه المرة يبدو أن بعضًا من لازالوا يتبعون التقليد البحثي المثالي جنبا إلى جنب مع خصومهم الواقعين الكلاسيكيين، وجدوا أنفسهم في معسكر واحد في مواجهة مزاعم جديدة بامتلاك الطريقة المثلى لجعل العلاقات الدولية علمًا، وهي تلك المزاعم المستلهمة من الثورة السلوكية. وهو المعنى "الباراديمي" الذي تزعمه كل من "مورتن كابلان" Morton Kaplan و"ديفيد سينقر" David Singer، حيث وضحا أن الدافع من وراء مساعهم هو البحث في تشكيل منظومة معرفية نظمية عبر توظيف الأدوات المنهجية "العلمية"، لكن "العلمية" حسب المضامين التي يطعنها "الباراديم" الوضعي. إذن فقد حصر النقاش النظري الثاني الجدل القائم في الحقل مرة أخرى وهذه المرة ليس في جوهر الفرد (البعد الأنطولوجي)، لكن في المنهجية التي ستجعل من العلاقات الدولية علمًا.¹⁰⁵

المطلب الرابع: بوادر النقاش النظري الثاني في سياق نظرية واقعية معمورة

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، تجلّى النقاش بين المقاربات المنتسبة للتقليد البحثي-المنهجي العلمي/أوالتاريخي، وبشكل نموذجي، في وجهات النظر المتباعدة لكل من "ستانلي هوفمان" Stanley Hoffman و"مورتن كابلان" Morton Kaplan حول المسألة. في بينما كان "كابلان" واثقاً من أن تطبيق مناهج الاستقراء العقلاني في دراسة العلاقات الدولية سيتمكن نظرية العلاقات الدولية من تحديد الشروط التي يبقى في ظلها النظام الدولي مستقراً والشروط التي يتحول على إثرها هذا النظام، فضلاً عن الشكل الذي يأخذه مثل هذا التحول. أما هوفمان فقد دعا إلى مقاربة أكثر تشكيكاً وتوضعاً تستند إلى البحث التاريخي والتعميمات الاستقرائية. وهو بذلك يرفض بناء فرضيات تجريبية صرفة تقوم على عدد قليل من المسلمات.

ارتَأى "هوفمان" أنه يتعين على منظري العلاقات الدولية مباشرة مساعيهم البحثية استقرائيَا، وقبل أن يتوصلا إلى أية استنتاجات حول المسارات التي أخذها التاريخ، عليهم أن يلحوظوا إلى البحث التاريخي النظمي [القائم على تحليل النظم]، ذلك أن القوانين الخاصة بهذا الحقل المعرفي يمكن الحصول عليها من التاريخ، وليس عبر الاستنباط من فرضيات مجردة. إذن بخلاف "النيوواقعيين" و"السلوكيين" الأميركيين فإن "هوفمان" وأتباع "المدرسة التاريخية" لم يعتقدوا يوماً بأن نظرية العلاقات الدولية يمكن أن تصبح علمًا، ومن خلال تعليقاته على إخفاقات المقاربة "العلمية" الطموحة، خلص "ستانلي هوفمان" إلى أنه كان هناك أمل في أن يتحول هذا الحقل المعرفي إلى "علم"، وكان هناك أمل أيضاً في أن يكون هذا العلم "نافعاً"، لكن نتيجة كلا المسعين مخيبة للأمال.¹⁰⁶

ذلك فيما يتعلق برموز التقليد البحثي الليبرالي، أما بالنسبة للواقعي "كار" الذي يزعم تأسيس الحقل المعرفي للعلاقات الدولية عبر الأسطورة التي نجح في تسويقها بخصوص النقاش

¹⁰⁵ Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p.17.

¹⁰⁶ Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

"الوهبي" بين الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية، فقد كان من أتباع المدرسة التاريخية الألمانية، التي يمكن افتقاء آثارها لدى أشهر أعمال الفلسفة في القرن التاسع عشر: "هيفل" و"ماركس"، وهي التي ادعت إمكانية تحديد مسار التاريخ علمياً، ومن ثمة ضرورة الخضوع لقانون التطور التاريخي. لكن "كار" أيضاً كان اشتراكيًا يؤمن بالتبشير والتخطيط المركزيين وبالنهاية الوشيكة للرأسمالية، ففي حوار له مع مجلة اليسار الجديد أثني على الإنجازات الكبيرة للنظام السوفياتي، والتي تمكن من القيام بها من خلال نبذة لخاصيتين أساسيتين للإنتاج الرأسمالي وهما "الربح" و"قوانين السوق"، وتعويضهما بـتخطيط اقتصادي شامل يهدف إلى تعزيز الرفاه العام، وقد ذهب "كار" إلى أبعد من ذلك بالقول بأن الثورة البلشفية وال الحرب العالمية الأولى كانتا بمثابة بادرة لنهاية النظام الرأسمالي. لقد سار "كار" على خطى سلفيه "هيفل" و"ماركس" بتبنّيه الاعتقاد القائل بأن التاريخ يأخذ مسارات محددة سلفاً، وبأن الليبرالية والقومية تعتبر بمثابة تصورات مثالية تتناسب أكثر مع القرن التاسع عشر الذي انقضى، أما المرحلة النهاية من التاريخ الأوروبي فتتجسد في الاشتراكية والتخطيط المركزي، وهي الحقيقة التي لم تفهمها سوى ألمانيا النازية وروسيا السوفياتية.¹⁰⁷

كان السلام العالمي في طريقه للأفول، بينما انتصرت روسيا السوفياتية وألمانيا حسب "إدوارد كار". بالنسبة لألمانيا، لأنها كانت تبشر بمُثلٍ كانت حتى عهد قريب مثلاً عالمية مقبولة وتنتمل في المبدأ الرأسمالي "دعاه يعمل". لم تكتف ألمانيا بالتبشير بهذا المبدأ بل عملت على تجسيده. أما بالنسبة لروسيا السوفياتية، فقد جلبها المد إلى القرن العشرين، وقد كافحت من أجل بناء وحدات صناعية كبيرة في ظل التخطيط والإشراف المركزيين. ولم يكن يضاهي إعجاب "كار" بالاشراكية القومية الألمانية سوى مقته التقليد الليبرالي الانجليزي، وهو ما عبر عنه بشكل مباشر: "لا يمكن تحقيق النتائج المرجوة إلا من خلال إعادة تنظيم الحياة الأوروبية على طريقة هتلر".¹⁰⁸

لقد ارتأى "إدوارد كار" أن الواقعية تستند على عوامل القوة المادية لقوى الكبار، كما تلح على الطبائع التي تتسم بها التوجهات الفائمة والتي لا يمكن أن تحدّ عنّها، وفي هذا كله ترى الواقعية أن من الحكمة قبول هذا الوضع كما هو والتكييف مع هذه القوى والتوجهات. عندما صرّح "كار" بذلك، فإن أفكاره كانت تتبع من صميم المعنى التقليدي للواقعية السياسية من منظور عقلاني، رغم تسلیمنا بأن الواقعية عموماً تميل إلى المقاربة للعالم كما هو لا كما يجب أن يكون. وفعلاً، فإن جوانب القوة لقوى السائدة التي تحدث عنها "كار" تختلف عن "الطبائع الإنسانية التي لا تتغير"، مما الذي تعبّر عنه حسب طرح "كار": إنها تعبّر عن قوانين علمية مزعومة تحكم مسار التطور التاريخي، والتي يمكن إماطة اللثام عنها بالاعتماد على "العقل المحسّن المتحرر من أي تشوه أيديولوجي".

وبالاعتماد على هذه المسلمة، بني "كار" ادعائه بتأسيس "علم السياسة الدولية". إذ وبالاعتماد على كتابات "كار" يمكن تحديد مفهوم الواقعية السياسية بطريقتين. الأولى، ترى الواقعية السياسية بمثابة نظرية محافظة للعالم تقوم على تصور "هوبز" لحياة الإنسان باعتبارها

¹⁰⁷ Ibid.

¹⁰⁸ Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

تنسم بالوحدة، والفقر، والدنساء، والوحشية، وقصر العمر، وبذلك تكون وظيفة أي نظام سياسي (بما في ذلك النظام الدولي) هي لجم هذه البواعث الفطرية للأفراد حماية لهم من أنفسهم ومن بعضهم البعض. ويستطرد "كار" في هذا الشأن قائلاً أنه ليس علينا أن ننفي هذا الواقع كما هو وحسب، بل يتوجب علينا التسليم بأن هذا الواقع تحكمه قوانين تاريخية واجتماعية ثابتة يمكن اكتشافها بالاعتماد على "العقل المحسن". ومن هنا يمكن أن نستشف الفرق بين وجهي الواقعية السياسية، وبينما تعتبر الواقعية التقليدية منظوراً سياسياً محافظاً، فإن "الواقعية العلمية" تقوم على ابستيمولوجيا عقلانية مغمورة.¹⁰⁹

لم يكفل "كار" بمحاولة تمرير "نظرة معينة للعالم" بل عمد إلى تعزيز القراءة العقلانية للتاريخ وللعلاقات الدولية، وهو ما تجسّد في تهمته الشخصي على "كارل بوبر"، فتحت عنوان ما هو التاريخ؟ انتقد "كار" تجراً خصمه "بوبر" على انتقاد الفلسفات الحتمية المزعومة للتاريخ لدى كل من "هيغل" و"ماركس"، كما رثى حال المتفقين والمفكرين السياسيين في العالم الناطق بالإنجليزية بسبب ما أسماه تراجع إيمانهم بقدرة العقل. وكان "كار" يتوجه بكلامه إلى كل من "كارل بوبر" و"فريدرريك فون هايك" اللذان انتقدا تطبيق العقلانية الألمانية على أوروبا وهو ما عاد عليها بالوبال. لقد كان من المثير للحيرة، أن يشيد عالم بريطاني بالاشتراكية القومية في عز الصراع الأيديولوجي الذي قام خلال الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا النازية والعالم الحر، بينما نجد في غضون ذلك، مفكرين نمساويين ("بوبر" و"هايك") يدافعان عن مبادئ الليبرالية والحرية التي نشأت في إنجلترا.

بل أن "كار" سعى لإيجاد منفذ للعقلانية الألمانية إلى داخل بريطانيا، في الوقت الذي أخذت الفلسفة الألمانية منحى مغايراً ومتناوئاً للعقلانية بتأثير فلسفة "مارتن هайдيغر". لقد جسد هذا النقاش بين "كار" من جهة و"بوبر" و"هايك" من جهة أخرى صراعاً نموذجياً بين الواقعية السياسية والعقلانية المحدودة. في مؤلفه "فقر النزعة التاريخية"، وفي العنصر الذي تحدث فيه عن "المجتمع المفتح"، أشار "بوبر" إلى أن محاولات الكشف عن القوانين التي يسير وفقها التاريخ تتبع من التطلعات العقلانية الهدافة للتحكم في المجتمع، وفي التحولات التاريخية، وهي كلها محاولات تبوء بالفشل لأن ذوي النزعة التاريخية يريدون تحويل الاعتقاد الديني إلى معطى تاريخي، ومن ثمة إلى معرفة علمية، وذلك عبر استبدال [الله كمسبب وخالق لكل شيء] بـ التطور أو بالعقل أو بالطبيعة.¹¹⁰

وبحسب "بوبر" فإن التساؤل بشأن المضمون المحتمل أو الاتجاه المزعوم للتاريخ هو سؤال عقيم ولا يمكن الإجابة عنه لا بالاستنباط العقلي ولا بالبحث الإمبريقي. وبضيف "بوبر" أنه عندما يدعى الفلسفه العقلانيون (مثل أفلاطون وهيغل وماركس) أنهم اكتشفوا القوانين الناظمة للتاريخ، ومن ثمة يدعون بأنهم وتبعداً لذلك توصلوا لصياغة النظام الاجتماعي الأمثل، وحينها فإن أتباعهم

¹⁰⁹ Emmanuel Navon, op cit., p. 619.

¹¹⁰ Ibid.

سيعملون على تجسيد هذه النظم المثلى بالقوة، فإن ذلك إنما مهد لظهور الطغيان السياسي الذي شهد القرن العشرين أحد أطواره.¹¹¹

لقد كان رفض "بوبير" للتاريخانية بمثابة رد ضمني على "كار" وعلى علم السياسة الدولية الذي أسسه وطبيعي جداً إن لم يهضم "كار" الطريقة التي تعامل بها "بوبير" مع الفلسفة الحتمية المزعومة للتاريخ والتي طورها "هيقل" و"ماركس"، فمن منظور نظرية "بوبير" للصلاحية العلمية، تعتبر "التاريخانية" مثلها مثل "علم السياسة الدولية" دون قيمة علمية لأن النظرية التي يقومان عليها غير قابلة للمراجعة والتكييف على أساس عقلانية وهو ما يمكن التأكيد منه لدى فحص الافتراضات السبعة التي قامت عليها الواقعية الكلاسيكية والتي تضمنها كتاب "هانس مورفينتو" Hans Morgenthau، المعروف بـ "السياسة بين الأمم" Politics Among Nations (صدر سنة 1948).¹¹²

- يمكن تطوير نظرية عقلانية تعكس القوانين الموضوعية التي تسير وفقها السياسة طالما أنها تستند إلى الطبيعة الإنسانية غير الخيرة، فالإنسان يضمر الشر بطبيعته، حسب مورفينتو، وهذه الطبيعة ثابتة لا تتغير بأي حال من الأحوال؛
- المصلحة هي جوهر العمل السياسي، وهي تتحدد بمؤشر القوة، حيث أن القوة بالنسبة للواقعيين تعتبر وسيلة وهدف في الوقت نفسه، وتعرف القوة على أنها القدرة على التأثير في سلوك الآخرين أو تغييره وفق الاتجاه المرغوب به، من جهة، ومن جهة أخرى القدرة على مقاومة محاولات الآخرين للتاثير في السلوك؛
- يفترض الواقعيون أن المصلحة التي تتحدد بالقوة تعتبر مفهوماً موضوعياً يتمتع بصلاحية غير قابلة للجدل، ومع ذلك فإن مصامين المصلحة ليست ثابتة بالنسبة لكل الدول كما أنها ليست ثابتة على امتداد فترات تاريخية متعددة؛
- الواقعية ليست نظرية غير أخلاقية immoral، بل أنها فقط نظرية لا تبالى بالمعايير الأخلاقية على اختلافها amoral، وذلك لأنها وفي الوقت الذي تعي فيه التبعات الأخلاقية للعمل السياسي، فإنها واعية أيضاً بالتوتر الذي يمكن أن يحدث بين القيادة المتمسكة بالمصامين الأخلاقية وبين مقتضيات نجاح العمل السياسي؛
- ترفض الواقعية ادعاء دولة من الدول بأن قيمها الأخلاقية يجب أن تكون بمثابة قوانين كونية تستوجب خضوع الجميع لها. وبخلاف ذلك ترى أن المصلحة هي التصور الذي يتبوأ مكانة القانون الكوني لأنه يحول دون الإقدام على مغامرات سياسية نابعة من محاولة فرض المنظومة القيمية والأخلاقية لدولة معينة على الدول الأخرى، وكذلك لأن تحقيق المصلحة شيء مشترك يحظى بإجماع الكل؛
- السياسة من المنظور الواقعي حقل مستقل بذاته وللحصول على تحليل جيد يتوجب استبعاد أي مجال آخر من مجالات الاهتمام الإنساني.

¹¹¹ Emmanuel Navon, op cit., p. 619.

¹¹² Hans J. Morgenthau, **Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace**, 5th revised ed. (USA: New York: Alfred A. Knopf, 1978), pp. 4-15.

لقد نجحت هذه الافتراضات في التسويق لانتصار النزعة الواقعية ليس أكاديميا فحسب بل ميدانيا أيضا. لكن ذوي النزعة السلوكية العلمية انتقدوا كل افتراض من الافتراضات السابقة عبر منفذ واحد أساسي وهو غياب الصراحة المنهجية والاتساق التصوري في بلورة هذه الافتراضات:¹¹³

- بداية بعدم الدقة في استخدام المفاهيم المفتاحية، فمصطلح القوة الذي يبني عليه طرحة النظري يحمل مضامين عدّة، وفعلا فقد دأب الواقعيون لاحقا في ما اصطلاح على تسميته بالنسخة البنوية للواقعية لدى "ولتز" بإضافة الشق الاقتصادي للشق العسكري الذي تبنّه الواقعية الكلاسيكية؛
- أما تبريره قيام الحروب بالنزعة الشريرة للإنسان، فهي وحسب "السلوكيين" لا تتصمد كثيرا أمام الحالات العديدة لسيطرة منطق السلام والتعايش، وفي هذه النقطة بالذات يتساءل أتباع منظور السلام الديمقراطي إن كان الطرح الواقعي لا ينطبق على الدول الديمocrاطية التي لا تلجأ أبدا لاستخدام القوة ضد بعضها البعض حتى لو لم تكن مصالحها متناغمة؛
- النقطة الأخيرة التي تم انتقادها من طرف ذوي النزعة العلمية الوضعية تتعلق بمدى صلابة مفهوم الدولة كفاعل موحد، والذي يستند إليه الواقعيون لتبرير تمثيل ردود أفعال الدول تجاه البيئة الدولية، فالواقع يظهر أن الدولة هي مجموعة الفواعل الداخليين المشكلين لها، وبذلك فإن ردود أفعالها تتباين بحسب توجهات السياسة الداخلية التي تدخل ضمن مستوى تحليلي آخر غير المستوى النظمي، وهو المستوى الوطني.

صحّح أن الواقعية والليبرالية انحدرت أمام الانتقادات السلوكية، بل وتهافت لاحقا على توظيف التقنيات الكمية أو أنها استندت على الأقل إلى "بارادايم" صاعد في العلوم الاجتماعية: "الخيار العقلاني"، وصحّح أن النقاش حول ما يجب أن تكون عليه العلمية في العلاقات الدولية استمر لاحقا سيماء في إطار النقاش نيويورك، إلا أن النقطة المتعلقة بالدولة كفاعل موحد ووحيد في التفاعلات الدولية لم يعد لديه الكثير مما يسنده إمبريقيا ما فتح المجال للنقاش مجددا في هذه المسألة، وإضافة إلى ذلك فإن إفراط النزعة السلوكية في اهتمامها بإضفاء الاحترافية على دراسة العلاقات الدولية، من جهة، ومن جهة أخرى، مغالاة الواقعيين في واقعيتهم التي لا تبالي بالبعد الأخلاقي، أوجد كل ذلك منفذًا لدخول النقدين إلى حيز الجدل الفكري في التخصص، عبر إثارتهم استفهامات جادة حول جدوى هذا العلم الناشئ إن لم يكن سيهتم بانشغالات الأفراد والمجتمعات. وقد كانت هذه النقاط إحدى بوادر بداية النقاش النظري الثالث في العلاقات الدولية.

المطلب الخامس: النقاش النظري الثالث بين البارادایمات الثلاث.

¹¹³ Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p. 18.

عقب نجاح الثورة السلوكية في علم السياسة كما في العلاقات الدولية خلال فترة زمنية وجيزة نهاية الخمسينيات وبادية السبعينيات، ظهرت بوادر التحدي الباراديمي "البنيوي" و"النقيدي" بشكل متزامن في المجالين نهاية السبعينيات، رافضة سلبية النزعة العلمية في التعاطي مع الشؤون العالمية. وقد أطلق ذلك نقاشات نظرية اشتغلت في البداية على "باراديمات" ثلاثة كما اصطلح على تسمية هذه المرحلة من النقاشات النظرية بالنقاش المتعدد "الباراديمي" *interparadigm* اقتداء بالعمل المرجعي لأحد أبرز فلاسفة العلم في العلاقات الدولية "مايكيل بانكر" ¹¹⁴ Michael Banks.

انطلق النقاش النظري الثالث لدى تقهقر الرؤية القائلة بأن العلاقات الدولية تعتبر مجالاً للفعل وتدالو الخطابات السياسية بشكل مستقل عن النظرية السياسية، فهذه الرؤية فقدت الكثير من بريقها نهاية السبعينيات كما أنها لم تعد تجد دعماً كافياً في ظل الانتقادات الموجهة إليها بالتزام موقف محايدين سلبياً إزاء عالم مليء بالكوارث من شاكلة حرب فيبيتام ومخاطر حرب نووية بين القوتين العظميين. لقد تحول النقاش خلال هذه المرحلة من نقاش حول أكثر النظريات اتساقاً إلى البحث عن أفضل النظريات إذا ما قيست بالبيئة العالمية التي تحاول وصفها وتفسيرها. لكن الميزة هذه المرة هي أننا أمام نقاش من نوع آخر لا يعني بالمقابلة بين الافتراضات المتنافسة، بل بالمقابلة بين "الباراديمات" التي ترعاها¹¹⁵.

يصف "بانكر" هذا المشهد النظري الجديد بأن الباحثين في العلاقات الدولية أصبحوا يجدون أمامهم ثلاث صور عن العالم تمثل معتقدات مختلفة منذ البداية، وبالنسبة للنزعة الواحدية،¹¹⁶ لدى الواقعيين، يعتبر المجتمع الدولي نظاماً تفاعلاً فيه الدول وفق منطق "كرة البليارد" Billiard-ball (كل فعل يولد رد فعل يماثله في القوة بما ينشأ عنه فهم متميز للعلاقات الدولية باعتبارها علاقات صدام وقوه). في الطرف الآخر نجد النزعة التعددية pluralism والتي تعدد فواعل كثرين بجانب الدولة، هذه النزعة التي تدافع عنها المقاربة الليبرالية تتطلق من صورة مختلفة بحيث ترى أن العالم أشبه بشبكة عنكبوت cobweb model (حيث الترابط والاعتماد المتبادل بين أعضاء المجتمع الدولي سيجعلهم يميلون للتعاون لا الصراع). وأخيراً، الصورة التي يقدمها أصحاب النزعة البنوية Structuralism والتي تسمى في بعض الأدبيات "النزعة الراديكالية" وفي بعضها الآخر "النقدية"،¹¹⁷ هذه الصورة تمثل المشهد العالمي بأخطبوط متعدد

¹¹⁴ إن استخدام مصطلح "الباراديم" آنذاك كان شأنعاً بفعل الواقع الذي أحده عمل "توماس كون" على كل المجالات العلمية، لكن لاحقاً أي مع بداية النقاش النظري الرابع، أصبح هناك احجام عن إلقاء وصف النقاش بين الباراديمات على النقاش النظري الثالث لأن هذا الأخير انضوت تحته عدد من المقاربـات الوضعية والعقلانية والتي شكلت لاحقاً باراديم واحداً في مواجهة الباراديم التأملـي والباراديم البنائي، لكن يبدو من المناسب الاحتفاظ بهذا المصطلح لدى مراجعة حيـثيات النقاش الثالث، كون التباين في الافتراضات النظرية للمقاربـات الواقعية والتعددية (الليبرالية) والراديكالية (النقدية) يؤهلها لحمل وصف الباراديمات المتعارضة إذا ما اعتمدـنا تعريفـاً منـا لـلـبارادـيمـ، لـفـيمـ أـفضلـ لـبوـادرـ النقـاشـ الثـالـثـ، اـنـظـرـ:

Michael Banks, "The Inter-Paradigm Debate", in M. Light & A.J.R. Groom (eds.), **International Relations. A Handbook of current theory** (UK: Frances Pinter, 1985), p. 7.

¹¹⁵ Mark A. Neufeld, 'Restructuring of International Relations Theory' (UK: Cambridge University Press, 1995), p. 47.

¹¹⁶ أي أنها تجاجـ بـكونـ الـدولـةـ فـاعـلاـ موـحدـاـ وـوحـيدـاـ فـيـ العـلـاقـاتـ الدـولـيـةـ، منـطقـ الوـاحـديـ mono مقابل التـعدـديـ pluriـ فيـ رـصدـ النقـاعـلاتـ التيـ تـشـكـلـ السـيـاسـةـ الدـولـيـةـ حـسـبـ النـظـرـةـ الـأـولـىـ وـالـسـيـاسـةـ الـعـالـمـيـةـ حـسـبـ النـظـرـةـ الثـانـيـةـ.

¹¹⁷ تختلف أراء الباحثـينـ بهـذاـ الصـددـ فـمـنـهـمـ منـ يـرىـ أنـ النقـاشـ يتـضـمـنـ بـالـإـضـافـةـ إـلـيـ الـوـاقـعـيـةـ وـالـلـيـبـرـالـيـةـ عـدـدـاـ مـنـ المـقارـبـاتـ يـجـمـعـ بـيـنـهـاـ رـادـيكـالـيـةـ وـرـفـضـهـاـ لـلـعـالـمـ كـمـاـ هـوـ، ليـدـرـجـ كـلـاـ مـنـ النـقـديةـ لـ"ـكـوـكـسـ"ـ وـ"ـسـمـيرـ أـمـينـ".ـ أماـ الـبعـضـ الـآخـرـ مـثـلـ "ـماـركـ"

الرؤوس" Multiheaded Octopus [بلدان الشمال] يعمل على امتصاص ثروات بلدان المحيط الضعيف [بلدان الجنوب].¹¹⁸

إن ميزة المقاربات الثالث التي تم تطويرها على هذه الصور هي أنها متعدة داخلياً، أي أنه لا مجال لنقاش مستفيض بينها حول هذه المسألة، لكن من المحير أن مع ذلك تختلف كلية عن بعضها البعض في بناءاتها التصورية عندما يتعلق الأمر بالمكونات النظرية التالية: الفواعل؛ طبيعة الديناميكيات الدولية؛ المتغيرات التابعة؛ الحدود التي يجب رسمها للحقل المعرفي للعلاقات الدولية؛ وأخيراً حول مضامين بعض التصورات المفتاحية. إذن فقد كان طرح خاصية الامقايسة مستساغاً بالنظر إلى تفاوت واضح يمنع إجراء مقارنات معيارية. فالواعيون يرون أن وظيفة النظرية في العلاقات الدولية يجب أن تتحصر في تفسير ما تقوم به الدول؛ بينما تذهب التعددية الليبرالية إلى أبعد من ذلك بإناطتها دور تفسير كل الأحداث العالمية المهمة؛ أما "النقدية"/"البنيوية" فترى أن وظيفة النظرية هي إماطة اللثام عن الأسباب التي أدت إلى هذا الbon الشاسع بين الأغنياء والفقare.¹¹⁹

على المستوى الأنطولوجي ترى الواقعية أن حدود الحقل المعرفي ترسمها السلوكيات التي تقف ورائها الدول؛ بينما يتسع الحيز الأنطولوجي لدى ذوي النزعة التعددية ليشتمل على الشركات المتعددة، والأسواق والمجموعات الإثنية والقومية جنباً إلى جنب مع الدولة؛ أما لدى النزعة البنوية فإن مجال البحث يصبح شاسعاً وذلك لتمسكها بوحدة البنية الدولية على كل بما يكفل تحللاً عبر المستويات مع التركيز على الدور الذي تلعبه أنماط الإنماط الاقتصادية بما يجعل السياسة بين الدول مسألة سطحية وتحصيل حاصل لتفاعلات الداخلية. أما التباين في التصورات المفتاحية المستخدمة في كل منها فيتضح من خلال اعتماد الواقعيين على الردع والتحالف؛ في مقابل الإثنية والاعتماد المتبادل لدى التعدديين الليبراليين؛ وأخيراً الاستغلال والتبعية لدى البنويين.¹²⁰

بالنسبة لـ"نيكولاس ج. رينقر" Nicholas J. Rengger، يعتبر النقاش النظري الثالث أكثر النقاشات إهاراً للوقت دون قيمة مضافة لعلم العلاقات الدولية، فهو ورغم الطابع العلمي المحسن الذي يحاول الظهور به، إلا أنه لم يكن سوى انعكاس للصراع الأيديولوجي آنذاك وللأيديولوجيات الثلاث المسيطرة على المشهد السياسي، من حيث أن الثلاثية "الباراديمية" المزعومة: الواقعية/التعددية/البنيوية تقبلها ثلاثة أيدلوجية: المحافظة/الليبرالية/الاشتراكية. وزيادة على ذلك فقد ساهم هذا النقاش في إضفاء مزيد من العموض على مفهوم "الباراديم" الذي

هوفمان" فيرى أنها تتحصر في "النقدية". لمزيد من التوضيحات. وجهة نظر أخرى يسوقها "كارل هولستي" مفادها أن النقاش النظري الثالث جمع بين "التقليد الحثي الكلاسيكي"، ومقاربة "المجتمع العالمي" و"النيوماركسيّة".
حول هذه النقطة انظر:

Mark Hoffman, 'Critical Theory and the Inter-Paradigm debate', *Mellennium: Journal of International Studies* 16 (2) 1987, p. 231; Karl J. Holsti 'The Dividing Discipline. Hegemony and Diversity in International Theory' (London: Allen and Unwin, 1987); Michael Banks, op cit., pp. 7-15.

¹¹⁸ Michael Banks, op cit., p. 30.

¹¹⁹ Mark A. Neufeld, op cit., p. 47.

¹²⁰ Ibid.

أصبح يستخدم بطريقة عشوائية دون احترازات كافية.¹²¹ بل ويذهب باحث آخر وهو "مايكل تشارلز ويليامز" Michael Charles Williams إلى القول بأن النقاش الثالث كشف، وبشكل مفضوح، عن غياب أرضية معرفية محايدة لتقدير المخرجات المعرفية في العلاقات الدولية، بل وساهم في تنفيه **banalisation** مصطلح النقاشات النظرية لأن المرحلة الثالثة من هذه النقاشات على حد تعبيره لم تتضمن أية نقاشات تذكر في الواقع الأمر.¹²²

لكن "أول ويفر" Ole Waever يطرح فكرة مخالفة، فبالنسبة إليه، يحلينا النقاش النظري الأول في الورلة الأولى إلى مشكلة غير معهودة تمثل في وجود طروحات متباعدة في حقل العلاقات الدولية دون أن تتمكن من تطوير لغة مشتركة للحوار أو للتنافس فيما بين بعضها، لكن مع مرور الوقت استطعنا قراءة دروس مهمة من هذه المرحلة من تطور التخصص، حيث تراجعت الرؤى التي ترى بأن قوة التخصص في وحدته وانسجامه، حيث أثبتت مساعي الهيمنة خلال النقاشين الأولين أنها غير مجده عندما يتعلق الأمر بإثراء الحقل المعرفي بعدد كبير من التصورات التي ستمكننا من فهم أفضل لما يحدث في الساحة الدولية. خلال النقاش الأول تغلبت النظرة المتشائمة أنطولوجيا إزاء الطبيعة الإنسانية مما ساهم في إنتاج معرفي لا يساهم أحسن الأحوال إلا في الحفاظ على الوضع الراهن، ومعروف أن الوضع السائد بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن جيداً للجميع سيما مع اندلاع الحرب الباردة. أما في سياق النقاش الثاني فقد كانت تطغى النزعة العلمية والوضعية على الحقل رغم أن منظفاتها تمثل في فك الارتباط بالواقع وكانت السمة الغالبة هي السلبية. إذن، من المهم الانتباه إلى الخاصية الجديدة التي فرضها النقاش النظري الثالث على الحقل المعرفي: التعاليس بين برامج بحثية/أو باراديمات مختلفة كل منها تتلافى جزء من الظاهرة الدولية وتمثله نظرياً بشكل ملفت لأنها طورت منطقاً داخلياً وبناءً تصوريَاً يتناسب مع الجزء من الظاهرة الدولية الذي تتعاطى معه أنطولوجياً وباستخدام أدوات ابستيمولوجية وضعية.¹²³

المطلب السادس: الاتصال المنظوراتي نيونيو وإطلاق النقاش النظري الرابع.

لقد اتسم المشهد الأكاديمي خلال النقاش النظري الثالث بتمسك كل مقاربة من المقاربات الثلاث بقناعتها بأن منظومتها التصورية تزود باحثي العلاقات الدولية بتسقيفات لا يمكن دحضها إمبريقياً، كما أن الاتصال عبر المنظوراتي لم يول تركيباً بين المقاربات الثلاث، لكن مع بداية

¹²¹ Nicholas J. Rengger, 'International Relations, Political Theory, and the Problem of Order: Beyond International Relations Theory' (UK: Routledge, 2000), p. 30.

¹²² Michael Charles Williams, 'The Realist Tradition and the Limits of International Relations' (UK: Cambridge University Press, 2005), p. 141.

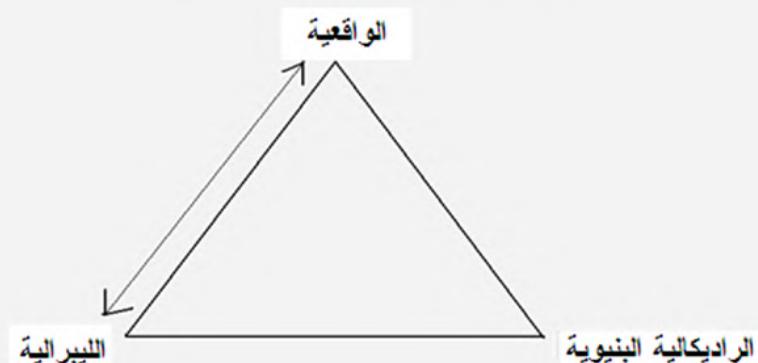
¹²³ Ole Waever, 'The Rise and Fall of Inter-paradigm Debate', in Richard Little and Michael Smith 'Perspectives on world politics' (UK: Routledge, 2006), pp. 435-437.

الثمانينيات وظهور بوادر تحدي باراديمي أخطر مستشف من النزعة ما بعد الوضعية، وجدت النيوواقعية والنيوليبرالية في حالة اتصال منظوراتي حاد أفضى إلى إعادة ترتيب التصورات العقلانية بما يتيح لها التصدي للانتقادات التي وجهت للـ"باراديم الوضعي" عموماً في الحقول المعرفية الأخرى، حيث كانت العلاقات الدولية آنذاك بمنأى عنها. إذن فقد كان أهم تحول "باراديمي" خلال السبعينيات والثمانينيات هو التحول عن الاعتقاد السائد بأن الاحترام والسمعة الأكademie للتخصص يمكن اكتسابهما عبر هيمنة "باراديم" واحد إلى قناعة مختلفة ترى أن هذه السمعة تكتسب عبر الحصول على فهوم متنوعة وثرية عبر التسلیم بقيمة المخرجات العلمية التي ينتجهما كل "باراديم" على حده.¹²⁴

تمثيل بياني رقم 08: يوضح أطراف النقاش النظري الثالث

مع التتبّع إلى الاتصال عبر المنظوراتي

بين الواقعية والنيوليبرالية خلال الثمانينيات



Ole Waever, 'The Rise and Fall of Inter-paradigm Debate', in Richard Little and Michael Smith 'Perspectives on world politics' (UK: Routledge, 2006), p. 436. المصدر:

لكن المشكلة التي تطرح نفسها بحدة في ظل هذا المشهد: ما جدوى إطلاق عبارة نقاش على وضع اتصالي لا يظهر أية أنماط تعاورية، وكل من المقاربات السابقة التي وصفت بالباراديمات من طرف فلاسفة العلم في ذلك الوقت تمتلك منطقاً خاصاً بها لإنجاح الحقيقة *truth*, ونظرًا لتبادر الأنماط المنطقية التي ترتكز عليها كل وحدة على حده فإنه لا يمكن استيمولوجيا القيام بمراجعة النسق الخاص بأي منها من قبل الأنماط الأخرى لأننا هنا أصبحنا بحاجة إلى نسق أعلى، لأن الرموز التي تم تطويرها في المجموعات العلمية لهذه "الباراديمات" الثلاث لا تستطيع تأكيد أو دحض مخرجات معرفية غير تلك التي طورتها فهي ذاتية الإحالة *self-referent*.¹²⁵ هذه المشكلة استمرت إلى غاية بدء النقاش الرابع ولم يتم التعامل معها بجدية إلا بفضل سيرينيطيقا

¹²⁴ Ole Waever, op cit., p. 236.

¹²⁵ Ole Waever, op cit., p. 236.

المستوى الثاني second order cybernetics لـ"فون فورستر"، والتي سيتم شرحها لدى التعرض لمخارج النقاش الرابع في الفصل الأخير من الأطروحة.

وإذ كان احترام التنوع النظري في حد ذاته مشكلة حسب الفهم الكلاسيكي فإنه يعتبر من زاوية معينة إحدى المكاسب المهمة بالنسبة للتخصص، حيث وبغض النظر عن تنوع الاستبصارات التي يمكن أن نحظى بها عندما تكون لدينا مقاربات عدّة، تمتلك كل منها جوانب قوة معينة، فإن تعقد المشكلات الدولية أكّد بما لا يدع مجالاً للشك أن التنوع فضيلة انتفع بها خلال النقاش الرابع، لكن إرساء هذا الاعتقاد يعود إلى السبعينيات وأوائل الثمانينيات أي خلال النقاش النظري الثالث. إذ أن ميزة هذا النقاش هي النزعة المحافظة والتحول الباراديمي الأساسي الذي أرسّيت أساسه هو التخلّي عن المنطق الثوري وعن منطق التحوّلات الباراديمية نفسه لصالح الفهم اللالاكتوشّي أي ببرامج بحثية بعضها تقدمي progressive والآخر تقهيري regressive.¹²⁶

يعتبر تبني مصطلح النقاش متعدد المنظورات ذاته مظلاً، لكنه ساعد على إضفاء المسحة المحافظة conservative لأنّه بذلك حال دون سيادة أسلوب النقد المتبادل بين المقاربات الثلاث، فقد أوجد أسواراً معرفية حصنَت هذه المقاربات ضد النقد عبر رفع شعار: لا تنتقدني، فنحن لا نتحدث لغة واحدة. إذن فأهم إنجاز للنقاش النظري الثالث هو شرعننة القليل البحثي المبني على برامج بحثية مجرّبة على تكييف افتراضاتها في كل مرة يبرز فيها خلل تصوري. لكن مواطن الخلل هذه تكشف عنها عادة أدبيات فلسفة العلوم، إذن فقد أصبح للنقاش أيضاً محتوى مختلف، وتم إيجاد المستوى الثاني لللاحظة وشرعنته فعلياً قبل أن يتم التّنظير له تصورياً باعتباره أحد مخارج النقاش الرابع.¹²⁷

إن فضل النقاش النظري الثالث على الرابع لا يتوقف عند هذا الحد، بل إحدى أهم إنجازاته متمثلة في النقاش الداخلي [أي ضمن الباراديم العقلاني نفسه] بين النيوواقعية والنيوليبرالية والذي أفضى إلى التوليفة نيويوركية ساهم في تقوية معسكر العقلانيين الذين أصبحوا يبحثون عن خصم نظري جديد وضعيف. ومعروف أن التوجه التركيبـي نيويوركـي كان بمثابة تحول معرفي غير متوقع، إذ أصبح تعدديو السبعينيات (الليبراليـين) في معظمهم نيوليبراليـين مؤسـسـاتـيين مع حدوث التـحـولـيـنـيـوـيـوـ، وكـانـواـ بـذـلـكـ قدـ اـقـتـرـبـواـ مـنـ الـنيـوـاقـعـيـنـ، فـكـلاـهـماـ يـسـلـمـ بالـفـوـضـيـ معـ فـارـقـ أنـ الـنيـوـاقـعـيـنـ يـعـقـدـونـ بـإـمـكـانـ مـسـاـهـمـةـ الـمـؤـسـسـاتـ الـدـولـيـةـ فـيـ التـخـفـيفـ مـنـ جـدـةـ الـفـوـضـيـ، كـمـاـ أـنـ كـلاـهـماـ يـسـلـمـ بـوـجـودـ ظـاهـرـةـ الرـكـبـةـ الـمـجـانـيـةـ free-riding patternـ وـالـتـيـ تـنـلـخـصـ فـيـ وـجـودـ دـوـلـ تـسـتـفـيدـ مـنـ مـزاـيـاـ التـعـاوـنـ دـوـنـ الـمـسـاـهـمـةـ فـيـ تـكـالـيفـ إـرـسـائـهـ.¹²⁸

ويرى "جوزيف قريكو" Joseph Grieco أن التمايز الرئيسي بين المقاربتين النيوواقعية والنيوليبرالية هو في نظرهما لمقاصد الدول من وراء التفاعل غير النزاعي، فمن

¹²⁶ Ibid., p. 237.

¹²⁷ Ole Waever, op cit., p. 236.

¹²⁸ كريس براون، ترجمة: مركز الخليج للأبحاث، "فهم العلاقات الدولية" (دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004)، ص. 56.

المنظور النيوواقعي فإن الدول تسعى نحو تحقيق مكاسب نسبية أي أنها تهتم بما تحصل عليه الدول الأخرى،¹²⁹ وبتعبير أكثر تبسيطًا فإنه لا يهم كثيرا الحصول على مكاسب كبيرة طالما أن دولا أخرى منافسة قد تحصل على مكاسب أكبر تهدد وضعها التنافي إن عسكريا أو اقتصاديا. أما منمنظور النيوواقعي فإن إدراك الدول بأنها في وضع لا يدعو للارتياح بوجود تحديات عدة، يجعلها تتلافي مقارنة مكاسبها مع الآخرين، لأن إرساء التعاون سيحقق لها مستوى معين من المكاسب، وذلك في حد ذاته كاف. وهكذا فقد اختلفت مكونات التوليفة نيو-نيو في بعض التفاصيل لكنهما توافقا بشأن عقلانية مساعي الدولة في بيئتها المتسمة بغياب التراتبية.

وبحسب "أول ويفر" فإن هذه التوليفة العقلانية يمكنهم من الهيمنة على الحق عابر مؤامرة يستبعد فيها خصمهم العقلاني التقليدي البنوية (النيوماركسية). ففي مداخلته الافتتاحية كرئيس لجمعية الدراسات الدولية، سنة 1988 قال "روبرت كيوهان" أن المشهد الأكاديمي حاليا يهيمن عليه برنامجين للبحث: برنامج البحث العقلاني *rationalist* الذي يتضمن التوليفة نيو-نيو، مقابل برنامج البحث التأملي *reflectivist* والذي يتضمن مقاربات مستلهمة من: الاتجاه ما بعد البنوي *poststructuralism* الفرنسي، و"الهيرمونيتيقا" *hermeneutics* و"الفيقنشاينية" [نسبة إلى Wittgenstein] الألمانيتين فضلا إلى البنائية الاجتماعية.¹³⁰

هذا التوصيف الذي قدمه "كيوهان" للمشهد الأكاديمي، والذي حظي باستحسان التقليد الباحثي المهيمن ومنظريه، ساهم في إعادة ترتيب الكتب الدراسية في التخصص لجعل "ما بعد الحداثة" عموما بمثابة التحدى الباراديمي الحقيقي للعقلانية. ونظرا لأن المقاربات التأمليه التي تحدث عنها "كيوهان" لم تكن أهلا لمنافسة التقليد الباحثي العقلاني آنذاك فقد استشف النيوماركسيون من هذه الخطوة أنها مؤامرة للهيمنة على الحق عبر تقديمهم كميدان خصومة نظرية مع مقاربات ضعيفة بينما يغض الطرف عن النيوماركسية، لأنها تتنبى بدورها ابستيمولوجيا وضعية، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن معايير النشر في الدوريات الأكاديمية تطغى عليها النزعة الوضعية فسوف يبدو الطرح النيوماركسي مؤسسا نسبيا.¹³¹

لكن وحتى إذا سلمنا بوجهة النظر هذه، فإن التحدى الباراديمي المتأتي من "التأمليه" لم يكن هينا في النهاية، لأنه ساهم في صقل "الباراديم البنائي" بداية التسعينيات مستقida من ثلاثة عوامل أساسية:¹³² أولى هذه العوامل، مغالاة التوليفة نيو-نيو في نزعتها العلمية بما أبعدها عن الاهتمام بالقضايا الجوهرية للحركة السياسية مع العلم أن الواقعية الكلاسيكية جنبا إلى جنب مع الليبرالية الكلاسيكية كانتا تتفقان هذه الحركة بشكل أفضل بتوظيف أدواتهما التحليلية التقليدية. ومن جانب آخر، فإن التأمليه وجدت نفسها رهينة النزعة التقويضية التي لا تقدم أية بدائل عملية نظرية أو ممارستية؛ ثانية العوامل التي أفادت البنائية تمثلت في صعوبة إرساء قنوات اتصال

¹²⁹ كريس براون، المرجع السابق، ص. 57.

¹³⁰ Ole Waever, op cit., p. 240.

¹³¹ Ole Waever, op cit., p. 439.

¹³² لفهم أفضل للميزة المقارنة للتحليل البنائي في العلاقات الدولية انظر:

Ted Hopf, 'The Promise of Constructivism in International Relations Theory', in Andrew Linklater, 'International Relations: Critical Concepts in Political Science' (UK Taylor & Francis, 2000), p. 1756.

منظوراتي بين العقلانية والتأملية بسبب انغلاقهما في ابستيمولوجيا ذات نسق معرفي متفرد أعاد طرح مشكلة الالمقاييسة من جديد في نظرية العلاقات الدولية. لكن العامل الأكثر أهمية ربما له علاقة بالتطورات الإمبريقية التي لم يسايرها أي من المنظورين السابقين: نهاية الحرب الباردة. وبالنسبة لهذه النقطة بالذات، وجدت العقلانية في مصيدة التبريرية للوضع القائم بحيث أخفقت في في التنبؤ لهذا الحدث البارز، أما التأملية فقد كانت غارقة في مطارحات مفاهيمية مثيرة للاهتمام لكن لم تصل بعد إلى درجة تزويدنا بنماذج عملية تحاكي الواقع وتستشرف له.

إذن فقد أصبح الحقل مرة أخرى في تضارب نظري يجمع ثلاثة بارادایمات [بكل ما تحمله الكلمة "بارادایم" من معنى] وذلك بعد أن بدا المشهد الأكاديمي مختزلاً في العقلانية والتأملية.

الفصل الثاني:

أهم التحولات الباراديمية في النقاش النظري الرابع.

الفصل الأول: التحولات "الباراديمية" في العلاقات الدولية-مدخل ابستيمولوجي تأريخي.

إن دراسة النقاش النظري الرابع، يحيلنا مباشرة إلى تقفي المسار الذي سلكه الحقل المعرفي للعلاقات الدولية قبل الوصول إلى هذه المرحلة، فوجود ثلاث نقاشات سابقة يطرح سؤالاً جوهرياً، ما الذي يحرك التقدم المعرفي أساساً، وكيف يمكن فهم ديناميكية الانتقال من نقاش إلى آخر في ظل وجود منظورات متعددة يرفض بعضها وصف النقاشات المتتابعة بالتقدم المعرفي. يتناول هذا الفصل الجوانب المتعلقة بالتحولات الباراديمية في شقها الابستيمولوجي، بدءاً بالتقسيرات التي قدمتها الدراسات التاريخية للعلم بخصوص العوامل التي تحرك التقدم المعرفي، ليتم التركيز بعدها على أهم ثلاثة تصورات استطاعت رصد حركة العلم بطريقة مثيرة للاهتمام أي "التراث المعرفية" لدى "كون"، و"البرامج البحثية" لدى "لاكتوش" و"الفوضى المنهجية" لدى "فاييرآبنت".

في المبحث التالي من هذا الفصل سيتم معالجة التحولات الباراديمية في علم السياسة باعتباره الوعاء المعرفي لشخص العلاقات الدولية، وبهدف ذلك إلى وضع الموضوع في إطاره الأوسع، وبعد تناول التحولات الباراديمية الثلاث الأولى في العلاقات الدولية سنتبين ما إذا كانت هناك تماثلات يمكن تسجيلها بين هذين الميدانين المعرفيين، كما سيساعد ذلك على فحص التفسيرات المختلفة لحركة العلم (تطور/تفهق/قطيعة/ثورة) فيما الثورات الكونية وبرامج البحث اللاماتوشية.

المبحث الأول: الإطار الاستيمولوجي لدراسة التحولات المعرفية.

إن المقاربة للتحولات المعرفية يحتاج إلى تصورات تساعد على استيعاب جوانبها المتعددة، وهذا المبحث يستعرض أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي في إطارها الطبيعي: فلسفة المعرفة أو الاستيمولوجيا، مع التركيز على مفاهيم: "الثورات المعرفية"، "البرامج البحثية" و"الفوضى المنهجية". وقبل التطرق إلى هذه المحاور من المهم وضع هذه النظريات أيضاً في إطارها العام historiography of science عبر تصنيفين أساسيين يرددان في الأدب: أحدهما يسوقه الباحث "جون لوزي" John Losee، ترتكز تبيولوجيا "لوزي" على ثلاث فئات تدرج ضمنها النظريات المفسرة للتقدم العلمي هي:

- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يسير وفق منطق احتواء النظريات الجديدة للنظريات القديمة، وهي بذلك تسلم بمبدأ التراكمية؛
- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يحكمه منطق الثورة بحيث تأخذ النظريات الجديدة بعضاً من مكونات النظريات القديمة لكنها تنقض ضد مسلماتها الأساسية وترسي أساساً جديدة للعلم؛
- وأخير النظريات التي تعتقد بأن نماء العلم يخضع لمنطق النماء العضوي "اللآخر"، أي المتأرجح بين طرق عدة للتقدم.

دراسة أخرى لـ "جيمس باتريك" James Patrick تقترح تبيولوجيا لا تختلف كثيراً عن تبيولوجيا "جون لوزي"، وهي ترى أن النظريات المفسرة للتقدم العلمي إما أنها تخضع لمنطق "البراغماتي"، أو "الثوري" أو "التطوري". وعموماً، ستساعد هذه التبيولوجيات، على الرغم من غموضها أحياناً، في استيعاب أفضل لتطور الأفكار بهذا الشأن.

المطلب الأول: أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي.

يعتبر "ويويل" Whewell أول باحث يقوم برصد مسار تطور العلم، حيث نشر أعماله في هذا الخصوص بين عامي 1837 و 1857، لكن تأثيره بالنزعنة الوضعية التي كانت في أوجها خلال القرن التاسع عشر جعلته يؤمن بأن العلم يرتقي بثبات نحو تحقيق مزيد من النجاحات، ففي كتابه: "تاريخ العلم الاستقرائي" يصر على الطابع الخطي للتقدم العلمي.¹³³ وقد تعرضت وجهة نظره هذه لانتقادات لاذعة من طرف معاصره "بروستر" Brewster، إذ يشير هذا الأخير إلى نقطة مهمة وهي تجاهل النموذج الذي يطرحه "ويويل" لكل مظاهر التقدم العلمي التي يعجز عن تكييفها مع مسلماته الاستقرائية.¹³⁴ لم يتوقف سيل الانتقادات التي واجهها "ويويل" عند هذا الحد، بل أن "جون ستิوارت ميل" نفسه توقف عند التناقض الموجود في تفسيرات "ويويل" للتقدم العلمي، ومن ذلك تمسكه بالاستقرار وبالنزعنة الإمبريقية من جهة، ومن جهة أخرى، لجوءه إلى الملوكات الحدسية في تفسير الاكتشافات العلمية رغم أنها تنم عن التعالي العقلي.¹³⁵

رغم سلسلة الانتقادات التي طالت أعمال "ويويل" الرائدة في مجال التاريخ للعلم وتفسير التغيرات التي طرأت على مساره، إلا أنها لم تنقص من قيمة ما سعى لفهمه هذا العالم، وهو البحث في القانون الذي يحكم هذه التحولات والذي أصبح موضوعاً مهماً جداً من مواضيع فلسفة العلم الحالية وميداناً من ميدانها في إطار "تاريخ العلم" historiography of science. وقد نطلب الأمر قرناً كاملاً لتقييم طروحات أخرى في هذا الميدان، لكن أولاً لها لم تكن لتخرج عن المسار الذي رسمه "ويويل" وقبله "ديكارت" Descartes وهو مبدأ التراكمية في العلم، والاعتقاد بأن النظريات الجديدة تتولد عن القديمة وتكلمتها، وفي هذا الصدد جاءت نظرية "أرنست نيجل" Ernest Nagel في كتابه: "بنية العلم" (1961) لتأكيد على أن التقدم العلمي ليس سوى احتواء للمنظومة المعرفية القديمة في المنظومة الناشئة الأكثر دقة.¹³⁶ وهو الطرح الذي أيده لاحقاً "كارل بوبر" الذي اعتبر التقدم بمثابة إطاحة بالمنظومة القديمة ودمجها في الجديدة، وبناء صرح علمي متعالي، قوامه قابلية النظريات للتكييف وقدرة الباحثين على الاستمرار في كشف مواطن الكذب في النظريات القديمة لتعزيز فهمنا بالعالم.¹³⁷

¹³³ John Losee, 'Theories of Scientific Progress: An Introduction' (Routledge, Taylor and Francis Group, 2004), p. 7.

¹³⁴ Ibid., p. 17.

¹³⁵ Ibid., p. 19.

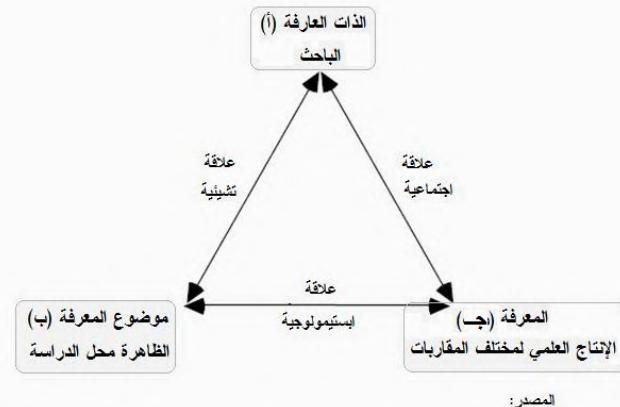
¹³⁶ Ernest Nagel, "The Structure of Science" (New York: Harcourt, Brace & World), pp. 15-18.

¹³⁷ كارل بوبر، ترجمة: أحمد مستجير، "بحث عن علم أفضل" (مصر: سلسلة أعمال فكرية، 2001)، ص. 15.

يستند الطرح "البوبري" في ذلك إلى نظرية العوالم الثلاث والتي تتفاعل بين بعضها البعض:¹³⁸

- **العالم الأول:** ويحوي الأشياء المادية والكائنات البيولوجية كما يتضمن أيضا الأحداث الاجتماعية المختلفة. إذن فهذا العالم يشتمل أساسا على مواضيع المعرفة أو الظواهر محل الدراسة؛
- **العالم الثاني:** ويشتمل على العمليات الإدراكية التي يقوم بها الدماغ وكل ما له صلة بالذات المعرفة؛
- **العالم الثالث:** ويشتمل على كل ما أنتجه الذات المعرفة أو الدماغ البشري من معرفة لدى سعيه لفهم العالم الأول، وبذلك فإن هذا العالم يتضمن، حسب "بوبير" كل النظريات العلمية والروايات والأساطير والأعمال الفنية والمؤسسات الاجتماعية وغيرها مما أنتجه العالم الثاني لدى تفاعلاته مع العالم الأول. وهكذا، فإن الموضوعية العلمية لدى "بوبير" ليست متيسرة إلا إذا سلمنا بوجود العالم الثالث في معادلة عوالم المعرفة، هذا العالم حيث يصب إنتاج العالم الثاني وخاضع للتحميس والنقد، وربما التكذيب، وهو العامل الأكثر فاعلية في تقدم المعرفة ونمائها.

تمثيل بياني رقم 01 : يوضح مثلث المعرفة استنادا إلى الطرح "البوبري" Popper' المتعلق بالعالم الثالث



المصدر:

Karl Maton, 'Reflexivity, Relationism & Research: Pierre Bourdieu and Epistemic Conditions of Social Scientific Knowledge', Space and Culture 32 (06) 2003, p. 57.

لكن هذا الطرح ووجه لاحقا بحجج مختلفة أهمها "اللامقايسة" في عديد الحالات بين البنية النظرية العتيدة والناشئة، بسبب استخدام تصورات بمضمون مختلف وأدوات قياس متباعدة. لذا فإن أكثر النظريات "الاحتوائية" incorporatist دقة في تفسير التقدم المعرفي، هي تلك المتعلقة ببرامج البحث اللاكتوشية والتي عمد من خلالها الباحث المجري "إمري لاكتوش" Imre Lakatos إلى تفسير التقدم في إطار برنامج بحث واحد عبر توسيع مجال النظرية لتتضمن

¹³⁸ Margaret Scottford Archer, 'Structure, agency and the internal conversation' (UK: Cambridge University Press, 2003), p. 36.

متغيرات جديدة، بحيث تصبح النظرية القديمة بمثابة نواة صلبة للنظرية الجديدة وهكذا دواليك، بما يكفل تحسين القوة التفسيرية للنظرية ولبرنامج البحث research program ككل.¹³⁹ وفي حقل العلاقات الدولية يمكن إسقاط ذلك على النواة الصلبة للنظريات الواقعية التي أنت تباعاً، وهي التي تشكلت أساساً من الافتراضات التي استطاعت الصمود إمبريقياً للنظريات التي سبقتها. على سبيل المثال، تم التحول في النظرية البنوية لدى "ولتز" عن الأنطولوجيا التي تعتمد على عدائية الفرد إلى عدائية الدول التي يفرضها "غياب التراتبية" anarchy في النظام الدولي، لكن جوهر الافتراض أي "العدائية" ظل ثابتاً.¹⁴⁰

طلت التفسيرات الإحتوائية سائدة في ميدان تاريخ العلم إلى أن جاء "جوناثان كوهين" Jonathan L. Cohen (1973) بمفهوم الثورة المعرفية، لكن ما يعاب على الطريقة التي طرح بها "الثورة" هو العمومية التي اتسم بها المفهوم لديه، حيث أصبح يلتصق بأي فكرة جديدة حتى ولو لم تتمكن هذه الفكرة من تقويض أركان النظرية السائدة في مجال معين.¹⁴¹ المشكلة ذاتها وقع فيها "ستيفن تولمين" Stephen Toulmin عندما تحدث عن استبدال نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا أخفقت في مطابقة تصوراتها مع المسار الطبيعي للأحداث في العالم من حولنا، عندما تأخذ الأحداث مساراً لا تتلقفه النظرية السائدة وجب تعويضها. إذن، ومثل "كوهين" فقد أخفقت نظرية "تولمين" في وصف فترات التحول بدقة أو الدور الذي تلعبه النظريات الكلانية holistic قبل وخلال التحول.

بمجيء "توماس كون" أصبح لمفهوم الثورة مضموناً مقيداً ومنهجياً، حيث الوثبات المعرفية التي تنفذ تستطيع تقديم بدائل قياسية مختلفة، تساعد على استبطاط الفرضيات واختبارها وفق منطق جديد، فقط هذا النوع من الوثبات المعرفية يستحق وصف الثورة. يضيف "كون" أنه لدى الانتقال من نموذج قياسي إرشادي لآخر فإنه لا يمكن المقارنة بين الجديد والقديم لأنهما يستندان إلى جوهر مختلف ويوظفان أدوات مختلفة، فضلاً عن أنهما يرسمان أهدافاً متباعدة. وقد حدد كون مراحل الثورة في: مرحلة العلم العادي؛ مرحلة الأزمة بكثرة مواطن الشذوذ في النموذج السائد، ثم بعدها مرحلة الثورة لإرساء علم عادي قياسي جديد.¹⁴²

ومع أهمية الطرح الذي ساقه "كون" إلا أنه تعرض لانتقادات عدّة، أهمها أن الثورة ذاتها مفهوم نسبي، والتحول قد لا يحدث بشكل جزئي بل قد تقود مظاهر الخل في أداء النظرية السائدة، حسب "لاري لاودان" Larry Laudan، إلى القيام بتنفيذات تصورية عبر تفاعليها مع مكونين آخرين هما الأهداف الإدراكية (للباحث) والمبادئ المنهجية الشائعة وقد أسمى "لاودان" نموذجه بنموذج reticulational model.¹⁴³ وقد ذهب "نيكولاوس ريسcher" Nicholas Rescher في الاتجاه ذاته، عبر أطروحته حول العلم باعتباره عملية إدراكية ذاتية-التقسيم، توكل على مواطن

¹³⁹ Imre Lakatos and A. Musgrave (eds.) **Criticism and the Growth of Knowledge** (Cambridge: Cambridge University Press, 1970), p. 115.

¹⁴⁰ Stephano Guzzini, "The Enduring Dilemmas of Realism in International Relations", **European Journal of International Relations** 10 (04) 2004, pp. 538-539.

¹⁴¹ John Losee, op cit., p. 65.

¹⁴² Ibid., p. 69.

¹⁴³ Ibid., p. 82.

القوة المنهجية وتضييف عليها بينما تستبعد الأخطاء ومواطن الضعف، وقد أهلت هذه الأطروحة للحصول على وصف المنهجية البراغماتية.¹⁴⁴

لقد ساد هذا المنطق التفسيري للتقدم العلمي دون الإقرار بذلك صراحة، وهو المنطق الذي تعبّر عنه جملة "لاودان" بطريقة بارعة: "التقدم العلمي باعتباره تقرّباً مستمراً من الحقيقة". وكان "لاودان" قد أطلق هذه العبارة لدى رده على منتقديه، إذ عبر عن وجهة نظره بطريقة أكثر وضوحاً، وهي أن التقدّم ينصبّ على تحسين فعاليتنا في التعاطي مع المشكلات.¹⁴⁵ لكن هذا الطرح متاثر بالوضعية إلى حد بعيد، فالبيئة التي يتعاطى معها العلم تطرح أحاجي لا مشكلات puzzles rather than problems، وهي سمة بارزة في ظل تشابك المصالح وتعقد المشكلات. ولتفادي الانقال الكلاني من نموذج لآخر عقب تحسن فعالية حل المشكلات وربط ذلك بتحول علمي جذري، رغم أن ذلك ليس ضروريّاً، ففي حالة العلم القياسي حسب الفهم "الكوني" فإن ذلك يتم تراكمياً في هذه المرحلة، وطالما أن ذلك يبدو غير ضروري [التحول الكلاني] فقد اقترح "كيتشر" Kitcher ثلاثة مستويات متمايزة للتحول المعرفي: المستوى العلمي (تحسين فعالية حل المشكلات المرتبطة بالعالم المادي)؛ المستوى التصوري (تحسين قدرتنا على تطوير تصورات متماسكة وذات قدرة تبسيطية) وأخيراً، مستوى التفسير (زيادة الفعالية التفسيرية للنظريات المستخدمة). ومع الغموض الذي قد يثيره الاستعراض السابق، فإن التبيولوجيا التالية توضح لنا باختصار وفي سياق مقارن عدداً من التوجهات الرئيسية في مجال تفسير التقدّم العلمي.¹⁴⁶

5. التراكمية لدى الاتجاه الاستقرائي Inductivism: الذي تتضوّي تحت لوائه التجريبية المتطرفة والوضعية المنطقية، حيث يتحول التاريخ الداخلي للعلم إلى وقائع تجريبية صلبة تعقبها تعميمات استقرائية، لينمو العلم بذلك وفق منحى تراكمي؛

6. الجمالية والتبسيط لدى الاتجاه الاصطلاحي Conventionalism والذرائعي Instrumentalism: حيث يتحول تاريخ العلم إلى تشبييد لأنساق مفتوحة، بما يكفل سيادة نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا استطاعت تقديم أبسط تفسير يتنقّل مع الملاحظات المتعلقة بالموضوع، فهذا النوع من التفسيرات هو الصحيح على الأرجح، وهو المفضل عن سواه. لقد كان معيار القدرة التبسيطية parsimony pattern من مسلمات التفكير العلمي وفلسفة العلم بصفة عامّة، إلا أنها تكتسب أهمية خاصة عند الاصطلاحين والذرائعيين، حيث تعني القدرة على تبسيط الظواهر التي تتسم بالتعقيد. وبالنسبة لهذين الاتجاهين فإنه وزيادة على المزايا الأخرى لهذه النزعة التبسيطية، فإن للتبسيط مغزى جمالي أيضاً esthetic، إذن فالمفاضلة بين النظريات لديهم يتوقف على تلبية مطلبين: المنطقية والجمالية. لذلك فإن "لاكتوش" وفي مأخذته على هذا الاتجاه يقول أن تاريخ العلم معهم سوف يصبح تاريخ الانتصارات التي يتحققها معيار البساطة.

¹⁴⁴ John Losee, op cit., p. 105.

¹⁴⁵ Ibid., p. 120.

¹⁴⁶ يمنى طريف الخولي، "فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد والآفاق المستقبلية" (الكويت: عالم المعرفة: 2000)، ص. 415-414.

7. القابلية للتكييف لدى الاتجاه البويري- Falsifiability: حيث يصبح التاريخ الداخلي العقلاني للعلم عملية تقوم برصد الحدود الابتكارية التي تكتسب مضامين أكثر ثراء بفضل خاصية التقويم الذاتي، والتقدم العلمي الذي يعتمد على ثورات مطردة عبر قابلية التفتيش التي تتمتع بها النظريات العلمية، لتفتح المجال لظهور نظريات أخرى بفضل حدود أكثر جرأة وابتكاريه تسمح بتحصيل معرفي أغزر. وهو ما تعرض للنقد لدى "كون" الذي قام بعقلنة الثورات، بحيث لم يعد معه كل إنتاج جديد بمثابة ثورة. لكن التحول الأهم عن القابلية للتكييف لدى "بوبر" وثوراته المطردة جاءت بفضل "اللاكتوش".

8. تنافس البرامج البحثية لدى الاتجاه اللاكتوش: وهو اتجاه يرى أن تاريخ العلم ليس تعاقباً لثورات متتالية بقدر ما هو رصد للبرامج المتنافسة، يأخذ بعضها منحى تقدماً في حين ينتكس البعض الآخر.

وسيتم التفصيل في أهم الطرóرات السابقة عبر التركيز على التاريخ للعلم من منظور "الثورة"، ومن منظور "البرامج البحثية" وأخيراً من منظور "الفرضي المنهجية الخلاقة".

المطلب الثاني: منطق الثورة العلمية لدى "توماس كون".

يعد إصرار "توماس كون" (1922-1996) على مفهوم "الثورة المعرفية" من أهم الطرóرات التي بثت حيوية غير معهودة في فلسفة العلم في القرن العشرين. بنى "كون" تصوّره على أعمال "كارل بوبر" (1902-1994)، ويمكن تلخيص فهمه للثورة العلمية في كتاب: "بنية الثورات العلمية" باعتبارها انتقالاً من نموذج فياسي إرشادي Paradigm إلى آخر.¹⁴⁷ ويعتبر "توماس كون" أحد أبرز المساهمين في استحضار الوعي بتاريخ العلم في صلب فلسفة العلم. بدأها بدراسة حول "دور التاريخ"، التي جعلها مقدمة لكتابه المرجعي "بنية الثورات العلمية"، يركز فيها على قضية مهمة وهي ضرورة تقاديم النظر للتاريخ باعتباره مجرد سرد لأحداث متعاقبة، وحينها سوف يحدث تاريخ العلم تغييراً جوهرياً في التصور السائد حول المسار الذي قطعه تطور العلم، لنحصل على صورة مختلفة تماماً سيما إذا تناولنا تقييم الماضي بمقاييس اليوم، أو أن تتوقع من تاريخ العلم الإجابة عن أسئلة تخص الماضي بمعايير الحاضر (وهي الملاحظة الذكية التي بنى عليها مفهوم الالماقيسة أو الالقياسية).¹⁴⁸

إن فلسفات العلم التي انفصلت عن النزعة التاريخية، بحسب "كون"، وتعاملت فقط مع المعنى الحالي غير مجده لأن هناك تمايزات كبيرة بين القواعد، والمبادئ، والتصورات،

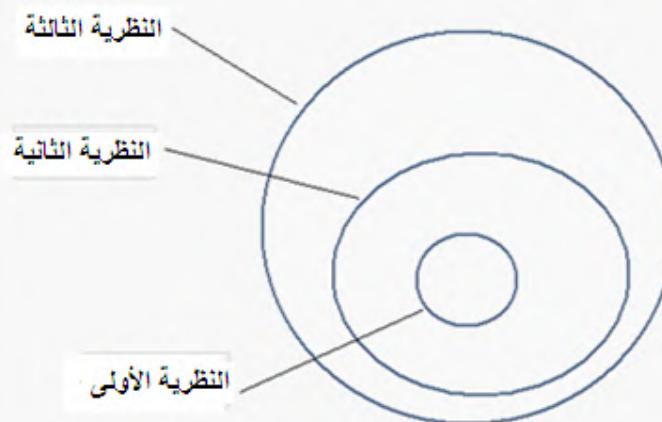
¹⁴⁷ "توماس كون" Thomas Kuhn (1922-1996) عالم فيزياء نظرية ومؤرخ للعلم، قام بتدريس تاريخ العلم في: "جامعة هارفارد" (1952-1956)، جامعة "بيركلي" بفاليفورنيا، والمعهد التكنولوجي في "ماساشوستس". أهم إسهام لهذا العالم هو إحداث التحول في اتجاه الوعي التاريخي بتطور العلم.

¹⁴⁸ Ronald N. Giere, 'Science without laws' (USA: University of Chicago Press, 1999), p. 36.

والمفاهيم والأولويات التي توجه بحوث العلماء في كل مرحلة، وما يسلم به جيل من العلماء باعتباره بدريها، قد ينظر إليه جيل آخر على أنه أسطورة أو قضية لا تستحق الاهتمام من الأساس.¹⁴⁹

لقد دعا هذا الفيلسوف إلى ضرورة التسلح بالوعي التاريخي على أساس التمييز بين مرحلة العلم العادي normal science ومرحلتين مفصليتين هما مرحلة الأزمة ومرحلة الثورة. بالطبع "توماس كون" يسلم بكون العلم ماض في طريق التقدم المستمر، لكنه يتحدث عن خطأ الاعتقاد السائد بأن هذا التقدم يأخذ منحى تراكمي في مسار خطي، فهذا المسار يسير بمنطق الدورة. ويبدو أن "كون" وخلافاً لسلفه "كارل بوبر" يتحفظ على وسم كل تطور بالثورة فهو يضع شروطاً قاسية لذلك.¹⁵⁰

تمثيل بياني رقم 02 يوضح منطق التقدم العلمي لدى كارل بوبر
 يقوم منطق التقدم العلمي لدى كارل بوبر على التراكمية، أي أن كل نظرية جديدة تستفيق من إنجازات القديمة وتبني الصرح العلمي على دعائمه



إذن تقوم فلسفة "توماس كون" على ضرورة التمييز في مسار العلم أو تقدمه بين مراحل العلم العادي الذي يسير في إطار النموذج القياسي الإرشادي السائد (البارادايم paradigm) وبين المراحل الانتقالية في إطار تقدم العلم من نموذج إرشادي إلى آخر: الثورة. يعتبر النموذج القياسي الإرشادي بمثابة النظرية العامة التي يتلزم بها المجتمع العلمي في مرحلة معينة، أما بلوغ هذه النظرية العامة منزلة "النموذج الإرشادي" أو "البارادايم" فيعني أنها أفضل من كل منافساتها، أي أنها الأقدر على الصمود لذا توجب التسليم بها، مع ما يتبع ذلك من التسليم بكل مسلماتها ومناهجها ومفاهيمها العلمية وأبعادها الماورائية Metatheory. المضامين التي ينطوي عليها ذلك على صعيد المجتمع العلمي تتمثل في أن النموذج القياسي المهيمن يؤثر في:

¹⁴⁹ Ibid., p. 38.

¹⁵⁰ Ronald N. Giere, op cit., p. 38.

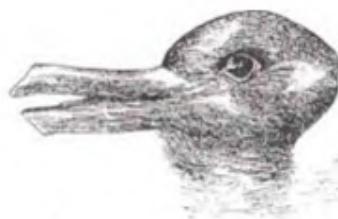
- تحديد المشكلات التي يجب دراستها وأنماط الحلول المطلوبة؛
- تحديد معايير الاختبار والتقييم وشروط التنفيذ والتعديل إن لزم الأمر.

التأثيرات العلمية التفصيلية الناجمة عن تبني "بارادايم" معين تتجلى في الخطوات التالية، فـ"البارادايم" يحدد:

- ما الذي يجب ملاحظته؟
- ما هي الأسئلة التي يتبعن طرحها؟
- كيف سيتم البحث في هذه التساؤلات، أي ما هي الأدوات التحليلية التي يجب الاعتماد عليها؟
- كيف يمكن قراءة وتلقي النتائج المتحصل عليها من خلال البحث.

ولعل أفضل تبرير استطاع من خلاله "كون" تسويق فكرة "البارادايم" هو الصورة أدناه، فهي تقرأ بكيفيتين: البعض قد يصر على أنها نوع من البط بينما قد يتمسك آخرون بأنها صورة لأربب، ويمثل ذلك حالة المعطيات الإمبريقية المتاحة في العلم وفي العلاقات الدولية بشكل جلي.

الصورة رقم 01: تظهر صعوبة إعطاء قراءة موحدة لمعطى واحد ما يوضح فكرة "البارادايم" (الصورة يمكن اعتبارها بط أو أربب)

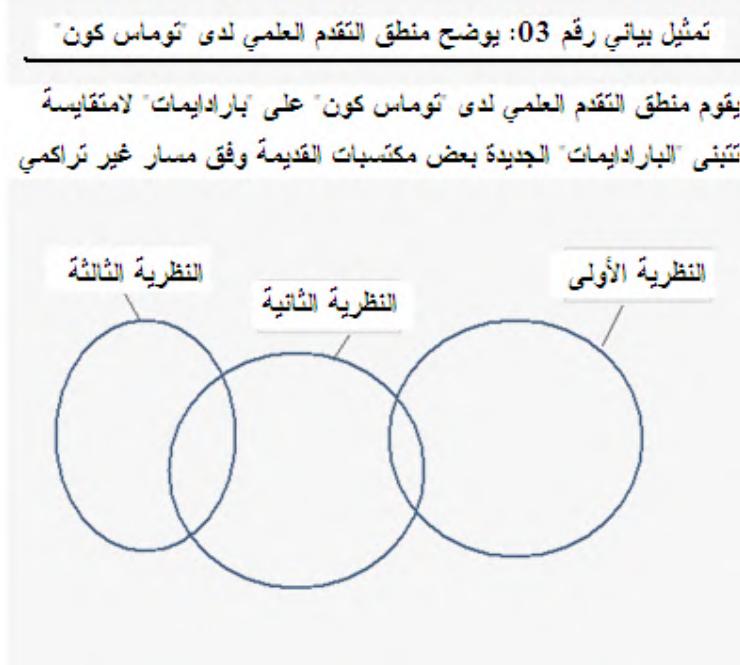


فالباحثون يعتمدون على المعطيات ذاتها بينما يقدمون لنا قراءات interpretations متباعدة تعتبر صحيحة إذا ما قيست بمعايير المدرسة الفكرية التي أنتجتها أو الزاوية التي تنظر بها للأمور. ولذا نجد بعض الباحثين يوسمون مقالاتهم بـ: "علم واحد: مدارس متعددة" (ستيفن وولت)، بحيث يوضح فيه كيف أن القراءات المختلفة للأحداث والتنوع النظري قائم رغم أن جل هذه النظريات تزعم أنها تهتم بدراسة الظاهرة ذاتها.¹⁵¹

يسلم "كون" بأن بعض الحقول المعرفية مثل الرياضيات والفيزياء تمكنت من صقل نموذج إرشادي وهي بذلك تعتبر مجتمعا علميا ناضجا. وميزة هذه المجتمعات العلمية "المستقرة" هو أنها تكف عن طرح إشكاليات كبرى (تلك التي تساهم في صقل "البارادايم" في الولهة الأولى) لتدخل مرحلة العلم العادي الذي يشكل وعاء لطرح أسئلة عادية ومسائل تقنية. إن التسلیم بنموذج قياسي إرشادي يهيئ الباحثين لاختيار مشكلات يمكن الوصول إلى حل لها طالما استمر في البحث ضمن

¹⁵¹ Stephen Walt, 'International Relations : One World, Many Theories', *Foreign Policy* (Spring) 1988, pp. 29-45.

النموذج الإرشادي ذاته. إذن، لا يقوم الباحث خلال مرحلة العلم العادي باختبار النموذج الإرشادي الذي ينتمي إليه أو يحاول تكذيبه بحسب مفهوم "بوبر" في تصوره: "القابلية للتكتيب" falsifiability، فالعلم ينمو في مراحله العادلة من خلال "فكك الأحجاج puzzles" التي يثيرها النموذج الإرشادي المسلم به، والمعرفة هنا تزداد دقة واتساعاً وتستمر في تحقيق نجاحات تدل على نجاح المشروع العلمي برمتها، لكنها تقنق لأية ابتكارات جوهيرية فلدي سيادة نموذج قياسي إرشادي فإن العلم يخضع للمنطق التراكمي.¹⁵²



يستمر المنحى التراكمي للعلم في مرحلته العادلة normal science إلى أن يظهر الشذوذ، أي أن تطفو إلى السطح ظاهرة لم تكن متوقعة في ظل النموذج الإرشادي السائد، لذا فإن الباحثين غير مهيئين للتعامل معها، ذلك أن "البارادایم" الذي ينتمون إليه لا يتيح لهم الأدوات الكفيلة بذلك، وهنا يشرع أعضاء المجتمع العلمي في البحث عن مخارج. هذه المخارج إما أن تكل بتعديل "البارادایم" وتنقيحه أو البحث عن "بارادایم" جديد. وبالنسبة لـ"كون" فإن "البارادایم" نفسه يحوي بذور أقوله، إذا لم يستطع وضع آلية "التصويب الذاتي"، والتي تمنحه القدرة على الصمود أمام الهزات الإمبريقية. لكن "كون" لا يؤيد فكرة التعديل المتكرر والمطرد فالمبالغة في ذلك تعني أن "البارادایم" يعيش أزمة بمعنى أنه غير مجهز بشكل ملائم للتعاطي مع الظواهر المستجدة. ويماثل هذا الوضع ما وقعت فيه الواقعية خلال مسار تطورها وتطويرها لحل العلاقات الدولية، من التركيز على الطبيعة الإنسانية لدى الواقعيين الكلاسيكيين خلال النقاشين النظريين الأول والثاني، إلى التركيز على بنية النظام الدولي في سياق النيوواقعية (البنيوية والنيوكلاسيكية) خلال

¹⁵² Patrick James, 'International Relations and Scientific Progress: Structural Realism Reconsidered', (USA: Ohio State University Press, 2002), p. 81.

النقاشين النظريين الثالث والرابع. ومن الاكتفاء بالمتغير العسكري إلى تضمين المتغير الاقتصادي في التحليل خلال الوثبة التي ساهم فيها بالأساس "ولتز" Waltz و"راقي" Ruggie.¹⁵³

في سياق التقيح "الباراديمي" فإن التعديلات المستمرة تدفع أعضاء المجتمع العلمي للجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية، مما يجعل المسعى البحثي غير تراكمي، ولتوسيع الأمر نعود إلى التصور "اللوبيري": القابلية للتكييف. قوة النظرية تكمن في وجود آليات تسمح باختبارها، وعندما يتم اللجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية (نظريات، ومقاربات ونماذج) فإن الطابع الابتكاري ينسحب أيضاً على آليات الاختبار والتقييم وبالتالي التكييف من عدمه، وفي هذه الحالة فإن هذه الأدوات التحليلية الجديدة لا يمكن وضعها في سلة واحدة جنباً إلى جنب مع القديمة. بمفهوم "كون"، فإن المجتمع العلمي في هذه الحالة، على وشك تحقيق وثبة نحو نموذج قياسي إرشادي جديد وهو ما يسميه -في حال نجاحه- بـ التحول الباراديمي paradigm shift¹⁵⁴.

إمبريقيا يمكن محاكاة هذا المفهوم بعدد من التطورات أو بالأحرى الوثبات التي عرفتها الإنسانية، بعد تحقيق عدد من الإبداعات التقنية مثل:

- تحول واقع نقل المسافرين والبضائع بعد اختراع العجلة، ثم بعد اختراع المحرك البخاري الذي يعمل على الفحم، وبعدها дизيل والطائرة، والآن يتم العمل على المحرك النووي بهدف توظيفه في تسخير رحلات مأهولة إلى الفضاء ولمسافات طويلة.
- تحول واقع الحرب بعد تسخير البارود كسلاح للقص والتغيير، وبعدها التحول الثوري الآخر الأكثر أهمية على الإطلاق أي عقب الحصول على السلاح النووي وقبل ذلك سلاح الطيران.
- العلاج الطبي بعد اختراع اللقاحات (الطب الوقائي) والليزر (عمليات جراحية دون شق الجسد) وحالياً يتم العمل على تكنولوجيا "النانو" لتطوير أجسام "روبو" مجهرية يكفل لها محاربة الأورام.

تبين لنا هذه الأمثلة بعض جوانب التحولات الباراديمية وأثرها في الحياة الإنسانية، وقد استهل بها شرح مفهوم التحول الباراديمي قبل الإحالة على المضامين الأكثر تجريداً عندما يتعلق الأمر بالثورة المعرفية، حيث يقول "كون" أن الخروج من سياق "العلم العادي" وتعديل النموذج سيحدث تحولاً في طبيعة المعرفة ذاتها لتصبح ثورية بعد أن كانت تراكمية، بمعنى التحول من المسار الخطي linear للتطور إلى مسار غير خطي non-linear.¹⁵⁵ في حقل "العلاقات الدولية"، يتجلّى ذلك في إخفاق "النيوواقعية" و"النيوليبرالية" في التنبؤ بنهاية الحرب الباردة أو حتى تفسيرها وذلك رغم أنهما نسخ منقحة عدة مرات عن التقليد البحثي "الوضعي"/"العقلاني" في هذا التخصص.

¹⁵³ Patrick James, op cit., p. 128.

¹⁵⁴ توماس كون، ترجمة: شوقي جلال، *بنية الثورات العلمية* (الكويت: عالم المعرفة، 1992)، ص. 103.

¹⁵⁵ توماس كون، المرجع السابق، ص. 177.

لقد أتاحت ذلك الفرصة، ومنح الشرعية، لدخول نظريات جديدة خط المنافسة من أجل تقديم فهوم تنتفع بصلاحية إمبريقية أكبر، وهذه "الباراديمات" الجديدة بالأساس التأملية والبنائية لم تستنق أدواتها التحليلية من التقليد الوضعي السائد، ولا هي تبنت نظرية العالم worldview متوائمة مع تلك التي دأب التقليد البحثي السائد على تبنيها. إذن، فهي ستطرح أحاجي علمية مختلفة، وبالتالي فهي تقدم بديلاً متميزاً، كما أنها تمثل تطوراً نوعياً بل وربما قطبيعة معرفية بمفهوم "باشلار" Bachelard¹⁵⁶. إذ أن "الباراديمات" البديلة أثبتت بعض التفوق في إعطائنا فهوماً، وذلك حيث التزم "التقليد البحثي المهيمن" "الصمت" أو ما دأب "ستيف سميث" Steve Smith على تسميته بـ silences، فإن نصوصها اكتسبت شرعية كافية لملأ أجزاء هامة من صفحات الكتب الأكademie Textbooks. وإذا تغلبت إحدى هذه "الباراديمات" على منافساتها فإنها ستنهي على الحقل في إطار ثورة معرفية مظفرة لصالحها.

عندما تحدث الأزمة المعرفية بظهور أعراض الإلحاد في الحصول على فهوم متبصرة للواقع باستعمال أدوات دأب التقليد البحثي المهيمن على تزويينا بها، وعندما يصعب التخفيف من حدة هذه الأزمة عبر تنقيح "الباراديم" المهيمن، تحدث الثورة المعرفية ومفادها الانتقال إلى "نموذج قياسي إرشادي" (باراديم) جديد، والذي ينطوي أيضاً على تغيير في النظرة إلى العالم worldview. مما يجعل الحديث عن إمكانية مقارنة ما يزودنا به الباراديم الجديد والقديم غير متيسر، فكل منهما يستعمل لغة مختلفة، أدوات تحليلية متمايزة ويطرح أحاجي علمية متميزة أيضاً، وهذه الوضعية يطلق عليها "كون" اللامقاييسة Uncommensurability، فعندما تكون إزاء "نموذجين قياسيين إرشاديين" متعاقبين فإن النقاش غير ممكن لأنه لا جدوى من ذلك علمياً، فضلاً عن أن النظرية تقاس بالسيق الذي ظهرت فيه والظروف العلمية التي أنتجتها، فكل نظرية مقاييسها الخاصة المستمدة من "الباراديم" الذي تم تفعيلها فيه.¹⁵⁷

لكن ما يصعب تفسيره هو طول مدة الفترة الانتقالية من "باراديم" لآخر فهل يعني ذلك تعايش "الباراديمات"؟ أم أن هذه المنظورات perspectives (باستعمال مفهوم فضفاض) ليست مؤهلة لتحمل وصف "النموذج القياسي الإرشادي" (باراديم) وبالتالي فهي ربما أقرب إلى برامج بحث لاكتوشية؟

المطلب الثالث: البرامج البحثية لدى "إمري لاكتوش".

¹⁵⁶ لمزيد من التفصيل في مفهوم القطبيعة المعرفية لدى "باشلار" أنظر: محمد عابد الجابري، 'مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي'، ط. 6 (لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006)، ص. 463.

¹⁵⁷ توماس كون، المرجع السابق، ص. 221.

إن اهتمام "إمري لاكتوش" (1922-1974) بمجال التاريخ للعلم يمكن فهمه باستحضار مقولته الشهيرة: "فلسفة العلم من دون تاريخه خواء، وتاريخ العلم من دون فلسفته عماء".¹⁵⁸ وهي المقوله التي صاغها عن طريق تعديل قول "إمانويل كانط" المعاوثر: "إن المدركات الحسية من دون تصورات عقلية عماء، والتصورات العقلية من دون مدركات حسية خواء"، وهنا يشبه وقائع تاريخ العلم بأنها محض مدركات عمياء، ونظريات فلسفة العلم محض تصورات عقلية فارغة، فلا معنى ولا جدوى ولا قيمة لأحد هما من دون الآخر.¹⁵⁹

تأثر "لاكتوش" في أعماله بفلسفة العلم سيما نظريته في المنهج (الميثودولوجيا) لكنه منحها فعالية وحركية تاريخية. غير أن أهم إسهاماته والتي تجسدت في مؤلفه: "ميثودولوجيا برامج الأبحاث العلمية"، فقد جاءت متأثرة بمفهوم "النماذج الإرشادية" لدى "توماس كون" وأيضاً "الإستراتيجيات العقلية" عند "ستيفن تولمن".¹⁶⁰

ويعتبر الحديث عن البرامج البحثية اللاكتوشية وأهم رؤى "لاكتوش" في هذا الشأن منقوصاً قبل المرور على إحدى المفاهيم الابتكارية التي جاء بها وهي: تكذيب الفروض refutation، حيث يصر "لاكتوش" على اعتبارها الخاصة المميزة للنظرية العلمية -وخلالاً لما ذهب إليه "بوبر"- فإن النظرية العلمية ما يميزها ليس قابلية التكذيب المتضمنة فيها بل الأصح هو عدم إمكانية القيام بذلك.

ولفهم ذلك لا بد من العودة إلى أطروحة "دوهيم-كواين" Duhem-Quine Thesis¹⁶¹: تنص هذه الأطروحة على نقطتين أساسيتين: أولاًهما أنه ولدى اختبار الفرضيات يجب الاستعانة عند تأويتها بالنسق العلمي الذي تولدت فيه هذه الفرضيات؛ ثانيةً، وهي النقطة الأهم، عدم تقويض أسس نظرية معينة في حال ثبتت القرائن الإمبريقية خطأً إحدى فرضياتها hypotheses، فالعلم لن يتمكن من خطوة أية خطوة إلى الأمام إذا ما اعتمد هذه الطريقة في التقييم والتقويم، ويقترح "دوهيم-كواين" بدلاً من ذلك تصوراً آخر مفاده أن اختبار الفرضيات يجب ألا يتم بمعزل عن بعضها البعض، بل يجب وضعها في سلة من الفرضيات، وإذا ما تناقضت مع توقعات الباحث فيجب البحث عن الفرضية غير المتنسقة مع البنية العامة للنظرية. المشكلة مع هذا الطرح هو السيناريو الذي يدحض فيه الاختبار مجمل الفرضيات، وهنا يتدخل "لاكتوش" لتقديم الحل: حيث يقول أن البحث العلمي يجب أن يتم في إطار نسق معين يسميه "برنامج البحث" research program. يتشكل هذا البرنامج من نواة صلبة hard core يحتوي الافتراضات الكلية التي تستند عليها النظرية assumptions، وهذه النواة لا يمكن تكذيبها بواسطة الإستراتيجيات المنهجية السائدة؛ يضاف إلى هذه الحلقة حلقة من الافتراضات الأخرى التي تستخدمها النظرية لاستكشاف المزيد من الحقائق، تحسين قدرتها التحليلية، وتوسيع مجالها، وتكون هذه الحلقة بمثابة صمام أمان

¹⁵⁸ إمري لاكتوش Imre Lakatos (1922-1974) من بين أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين، وهو يهودي مجرى لقبه الأصلي "ليشوتز"، تحصل على دكتوراه في الفلسفة من جامعة كامبريدج.

¹⁵⁹ يمنى طريف الخولي، المرجع السابق، ص. 409.

¹⁶⁰ المرجع نفسه.

¹⁶¹ Donald Gillies, 'Lakatos' Criticisms of Popper', in George Kampis et al. (eds.) 'Appraising Lakatos: Mathematics, Methodology, and the Man' (US: Springer, 2002), p. 15.

لحماية النواة الصلبة، وبالتالي، فإن دحضها بواسطة الشواهد الإمبريقية لا يمس النظرية. وفي الوقت ذاته، فإن تصور "برامج البحث" يتبع للنظرية التعامل بإيجابية مع عالمها دون الخشية من أن تنهار بفعل اختبارات سلبية.¹⁶²

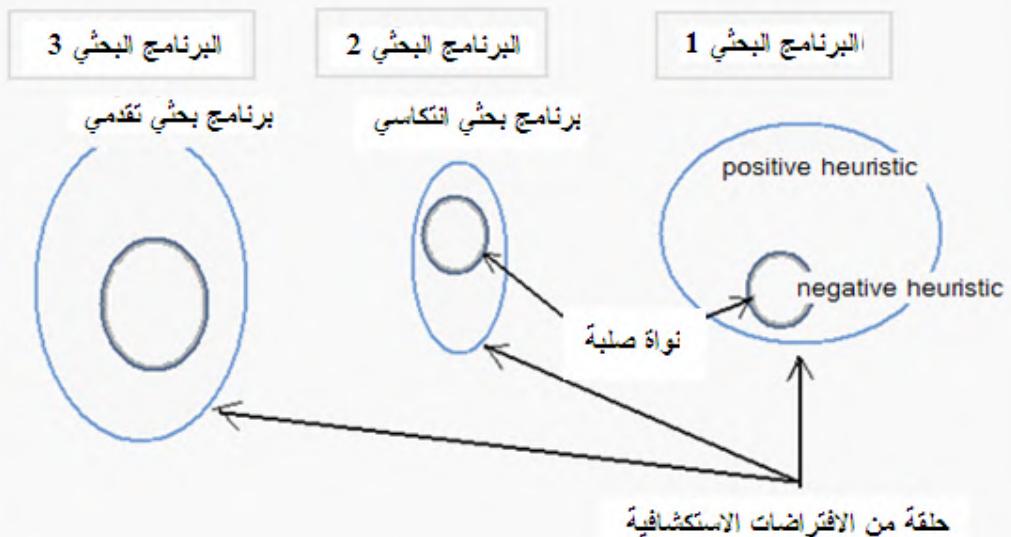
في حقل العلاقات الدولية تمثل النواة الصلبة الافتراض الواقعي بأن: الدولة هي الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية وليس الفواعل فوق supra أو تحت sub الدولة، هذه النواة الصلبة محمية بما يسميه "لاكتوش" negative heuristic أي أنها محسنة ضد محاولات استكشاف أو اختبار كل ما يتعلق بها طالما أن الباحثين المعنيين يعبرون عن انتمائهم لهذا البرنامج البحثي Scientific Research Program، فذلك ما يمنح هذا البرنامج SRP هويته، إن هو غيرها، بفعل هشاشة النواة الصلبة أمام الاختبارات الإمبريقية، فإن جل الباحثين سيتعين عليهم الهجرة إلى برنامج بحثي جديد New SRP. أما الحلقة الدفاعية المنهجية للنظرية الواقعية، حسب المفهوم "اللاكتوشي"، أي صمام الأمان، فهو ينطوي على عدد من الافتراضات التي يمكن تعديليها وتكييفها حسب المعطيات الإمبريقية، كما أنها تلعب دور الأداة لتوسيع نطاق النظرية واستكشاف مجالات جديدة دون أن يعرض ذلك النواة الصلبة للخطر، ويماثل ذلك الواقعية الدفاعية (حيث الدولة تسعى لتعظيم القوة) والهجومية (حيث الدولة تسعى لتعظيم الأمن).¹⁶³

¹⁶² Donald Gillies, op cit., p. 16.

¹⁶³ Colin Elman and Miriam Fendius Elman, ‘Appraising Progress in International Relations Theory: An Introduction’, in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), *Progres in International Relations Theory* (UK: Mit Press, 2003), p. 19.

تمثيل بياني رقم 04: يوضح منطق التقدم العلمي لدى "إمري لاكتوش"

يقوم منطق التقدم العلمي لدى "لاكتوش" على افتراض مفاده أن البحث العلمي مهيكل في إطار برامج بحثية تكون من نواة صلبة محصنة ضد التكذيب وحلقة من الافتراضات الاستكشافية الخاضعة لمقياس الاختبار



البرنامج البحثي الذي تتسع حلقة افتراضاته الاستكشافية يصبح تقدماً (الواقعية مثلا)
أما البرنامج البحثي الذي تضيق فيه هذه الحالات فتصبح انكاسي (النيوماركسية مثلا)

إذا أخفقت الفرضيات المنتمية إلى الحزام الدفاعي الملحق auxiliary belt، وهو ما لم يحدث بعد في حالة الحزام الدفاعي Offensive Realism / Defensive Realism "الهجومي" لدى الواقعيين، فإن النتيجة التي يفسر من خلالها "لاكتوش" بقاء البرنامج البحثي حيا هي تحول في المشكلات التي يعالجها البرنامج، حيث أن الباحثين المنتجين لهذا البرنامج ليسوا مضطربين إلى تغيير النظرية أو ربما تغيير "الباردائم" ككل كما يطرحه "كون". ويطلق "لاكتوش" على هذا التحول مصطلح "التحول نحو معالجة مشكلات أخرى" ضمن برنامج البحث ذاته intra-program problemshift والسقوط بشكل مزمن، بل لحماية البحث العلمي نفسه وضمان الحد الأدنى من التراكمية والتقدمية.

وهنا يوضح "لاكتوش" أن برامج البحث إما أنها تسير بمنطق تقدمي progressive [الواقعية] أو انتكاسي degenerative [الماركسية].¹⁶⁴

الفارق بين المنطق التقدمي والانتكاسي هو أن البرامج البحثية الانتكاسية أو المنسكسة تصبح عاجزة عن تفعيل الفرضيات المنتمية للحازم الداعي الملحق، وذلك للحصول على اكتشافات جديدة أي تحقيق وثبات باتجاه تحصيل المزيد ميدانياً، فالبرامج البحثية لا يعترف لها بخاصية الثبات ومراؤحة مكانها فـإما أنها تتقدم أو تنتكس، ويحدث ذلك عندما تخفت منهاجيتها الاستكشافية الإيجابية إزاء محيطها positive heuristic بما يجعل النواة الصلبة عرضة لتوظيف أدوات منهجية لتقويضها، وفي هذه الحالة تنهر النظرية لأنه يفترض بهذا الحيز أن يكون بمنأى عن عملية الاستكشاف والفحص المنهجيين negative heuristic.¹⁶⁵

إذن، فـ"لاكتوش" يصور التقدم العلمي بمثابة انتقالات متواالية من برنامج بحث أصبح منتسكاً، إلى آخر يمتلك السمة التقدمية الواعدة، فالتأريخ للعلم توصل إلى أن فلسفة العلم ذاتها باعتبارها المرجعية الوحيدة لتقدير مسار التقدم: "لم تعد قواعد وطرق حل المشاكل العلمية كما كان يأمل فلاسفة القرن التاسع عشر، ولم تعد مجرد تبرير للمعرفة العلمية، إنما هي نظريات في العقلانية العلمية ومعايير لتمييز العلم وتعريفه، ومحكمات لقبول ورفض النظريات العلمية تحاول أن تعطي صياغة لنمو المعرفة العلمية الموضوعية، أي للتطور العقلي الخالص، لذلك كانت فلسفة العلم أو ميثولوجياته صياغة لعقلانية التقدم العلمي، أي نموه الإبستمولوجي الذي هو تطور عقلي خالص".¹⁶⁶

لقد حقق تصور "برامج البحث" لدى "لاكتوش" نجاحاً باهراً في الأوساط الأكademية، بينما الباحثين في مجال التأريخ للعلم historiography، حيث أصبحت المعالجات المختلفة لمسألة التقدم العلمي وتقديم تفسيرات مناسبة تعتمد على البرامج البحثية بشكل كبير نظراً للصعوبات التي اكتنفت محاولات وسمها بالثورات المعرفية "الكونية" Kuhnian، فذلك يفسر إلى حد بعيد وجود عدد معتبر من النظريات المتنافسة في العلاقات الدولية (النيوواقعية، النيوليبرالية، النيوماركسية، النيوكولونيالية، الجندر، البنائية،...). التعاليم، إن صح التعبير، بين هذه المقاربات يؤكد أن الفترة الانتقالية التي تحدث عنها "كون" والتي تفصل بين "بارادايم" المنتكس أو المتقهقر، وظهور أعراض إخفاق عدة مسلمات فيه وبين تعويضه بـ"بارادايم" آخر كانت طويلة جداً، فـإما أن منطق الثورة لدى "توماس كون" ليس دقيقاً بما يكفي لوصف التقدم العلمي في العلوم الاجتماعية، طالما أنه صيغ بالأساس لتفسير وفهم مسار التطور المعرفي في الفيزياء (من "كوبرنيكوس" وـ"فالبليو" إلى "النيويتنية" وصولاً إلى "النسبية" وأخيراً "ثورة الكوانتم" وهي المحطات التي بني على ضوئها "كون" نظريته).¹⁶⁷

¹⁶⁴ Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.

¹⁶⁵ Ibid.

¹⁶⁶ يعني طريف الخلوي، المرجع السابق، ص. 414

¹⁶⁷ John Vasquez, Kuhn versus Lakatos: The Case for Multiple Frames in Appraising International Relations Theory, in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), Progres in International Relations Theory (UK: Mit Press, 2003), pp. 420-422.

غير أن ذلك لم يكن حائلا دون تعرضه لانتقادات تخص الاتساق والدقة المنهجيتين. فمثلاً حديث "لاكتوش" عن البرامج البحثية الواحدة النقدمية التي تكتشف الجديد، مقابل البرامج البحثية الانتكاسية التي تراوح مكانها بل وتجد نفسها في موقع دفاعي، كان معياراً تصنفياً جيداً، إلا أن النقطة التي أخفق "لاكتوش" في شرحها هي: ما هو المعيار الذي يمكن أن نبني على أساسه الجدة، أي ما هي الأدوات الاتفاقية التي يمكن أن نحكم على صوتها بجدة طروحات نظرية لبرنامج بحثي معين. الإجابة عن هذا السؤال ليست متيسرة لدى "لاكتوش"، لكن يبدو أن صمود المقاربة النظرية أمام هزات إمبريقية متالية يعد كافياً للحكم عليه بالتقدمية.¹⁶⁸ غير أن المشكلة التي تظل مطروحة في المنظور اللاكتاشي للتحولات المعرفية تمثل في عجزه عن تقديم تفسيرات للتحولات الكلامية باتجاه مسلمات جديدة ونماذج قياسية ابتكارية لا تربطها علاقة بالنموذج السائد، النقطة التي أخفق أمامها "كون" و"لاكتوش" على حد سواء.

المطلب الرابع: "الفوضى المنهجية الخلاقة" لدى "باول فاييرآبنت".

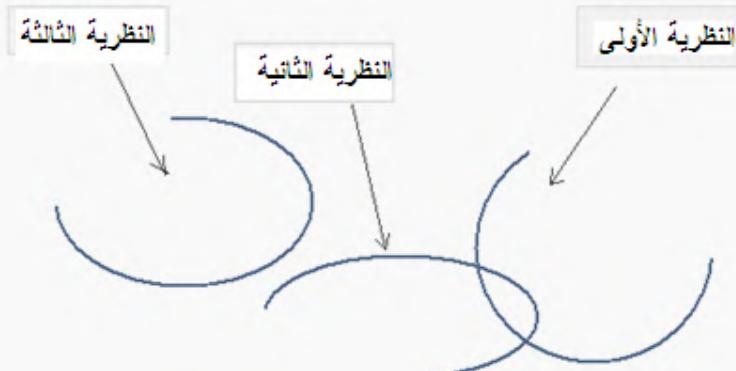
تعتمد بعض تفسيرات التحولات المعرفية على التراكمية كلية كانت أم جزئية، لكن مشكلة كبيرة تواجه هذه التفسيرات عندما يتعلق الأمر بثورة جذرية على المسلمات الشائعة، وهذه هي حالة النماذج التفسيرية التي طورت قبل ظهور فيلسوف العلم النمساوي "باول فاييرآبنت" Paul Feyerabend (1924-1994)، هذا الأخير أدخل "نزعته النسبية" في المقاربة للمسألة سنة 1975 لدى إصداره كتابه المثير للجدل: "ضد المنهج: مخطط تمهدٍ لنظرية فوضوية في المعرفة".¹⁶⁹

¹⁶⁸ Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.

¹⁶⁹ لهم أعمق لمطارحات فاييرآبنت، انظر بالأخص: باول فاييرآبنت، ترجمة: محمد أحمد السيد. "ثلاث محاورات في المعرفة" (الاسكندرية: منشأة المعارف، 1997).

تمثيل بياني رقم 5: يوضح منطق التقدم العلمي لدى باول فايرآينت

يقوم منطق التقدم العلمي لدى باول فايرآينت على افتراض مفاده ألا ضرورة لوجود مكونات قديمة في النظرية الجديدة، التقدم وفق مسار لا خطى.



لقد تضمن الكتاب قضايا مثيرة للجدل، من بينها أن التقيد بالمنهج لا ينطبق على الوضع التي كان/ويوجد/ وسيظل عليها العلم، فالعلم بالأساس يعتبر "مُسعي فوضوي" Anarchic Enterprise، إذ لا يجدي نفعاً تقييده بسلطة منهجية لأن ذلك قد يحرمه من الابتكارية.¹⁷⁰

وكانت أسانيد "فايرآينت" الأساسية تعتمد على فحص عدد من التحولات المعرفية الكبرى في تاريخ العلم، حيث حاول من خلالها أن يؤكد وجهة نظره الفائلة بأن الصرامة منهجية لم تقف وراء هذه الوثبات لأن ذلك يحول دون الإبداع. وإذا تمعنا جيداً في رؤى "فايرآينت" لا نجد لها داعية إلى الفوضى منهجية المطلقة كما يحاول بعض خصومه تصوير أطروحته، بل هو مناصري "التعديدية منهجية" methodological pluralism، لذا توسم فلسفته للعلم بالعقلانية الفوضوية بما يفيد رفضه تنصيب سلطة على المعرفة تنتهي بما يجوز من دونه منهجياً لدى مباشرة مسعى بحثي. فلا يجب أن نظفي على النسق المعرفي هالة من القدسية بحيث يمارس البحث العلمي وفق طقوس دوغمائية. لكن ورغم بساطة منطلقات "فايرآينت" على ظاهرها إلا أنها حملت الكثير للمعرفة، فهي تتطوّي على نظرة ديناميكية القيمة value، فلم يعد مضمونها بذلك ليقارب له كمعطى لا يمكن مناقشته، فالقيمة يعتبر اتخاذ موقف منها ضروريًا للحكم بالتقدمية أو الانكماش مثلاً، لكن من منظور "فايرآينت" سيعين أولاً مراجعة المسلمات التقليدية وما نطلق عليه لفظة

¹⁷⁰ Donald J. Pushala, 'Woe to the Orphans of the Scientific Revolution', in Robert L. Rothstein and William T. R. Fox, 'The Evolution of Theory in International Relations: Essay in Honor of William T. R. Fox', (USA: University of South Carolina Press, 1992), pp. 44-47.

التقدم أو الانكasa، المعايير الاستاتيكية ذاتها مبنية على القيمة (البعد الأكسيولوجي للمدخل الفلسفي) وبذلك فإن مدلولاتها تخضع بدورها للمراجعة.¹⁷¹

لقد ذهب "فابرآبنت" إلى أبعد من ذلك من خلال الدعوة إلى حماية المجتمع من العلم (أي العلم كما يسوقه الوضعيون)، تماماً مثلما نسهر على حمايته من هيمنة أيديولوجية واحدة ونصون التعديدية السياسية، فإنه يجب الحيلولة على أن يخضع العلم لوصاية نهج فكري معين، وقد انتقد "فابرآبنت" بشدة استمرار الوصاية التي تفرضها الدولة على العلم عبر التمويل، حيث شدد على ضرورة محاكاة عملية فصل الدين عن الدولة وذلك بفصل العلم عن الدولة أيضاً بالطريقة ذاتها. ذلك أن وصاية الدولة على العلم متجسد فعلياً عبر رعايتها لغالبية المؤسسات التعليمية مقابل تمييز المناهج، المناهج العلمية بالأساس مما قد يضيق مجال الإبداع. ومن هنا فإن الحل يمكن في علمنة للعلم تماماً مثل علمنة السياسة. إن الادعاء بأن المنظور العلمي وحده لديه شرعية امتلاك الحقيقة بدعوى أنها أفضل من يمثل العقلانية، متناسبية أنها مجرد نسخة واحدة للعقلانية، وهناك أنواع عدة للعقلانية لا يمكن الاستهانة بقدرها التحليلية، فضلاً عن أنها ليست خاطئة قياساً بمعايير تحديد الصحة والصلاحية الخاصة بها، ذلك أن "فابرآبنت" مثله مثل "كون" يؤمن بأن العقلانيات المختلفة أو الأنماط العقلانية المختلفة لامقاييسة incommensurable. ولهذا السبب، فإن عديد العقلانيات الموجودة في المشهد المعرفي لا يمكن المقارنة بينها ولا جمعها في توليفة تحليلية واحدة، فهي توظف تصورات متميزة في لعبة لغوية تحكم لقواعد متميزة. وهنا نجد "فابرآبنت" يستعين بفيلسوف نمساوي آخر هو "لودفيغ فيقنشتاين" Ludwig Wittgenstein (1889-1951) والذي اعتبر أشكال الحياة بناء تسهم فيه "لعبة اللغة" language game، ما يميز شكلها عن الآخر أو ما يميز لعبة عن الأخرى هو قدرة المفاهيم التي تبني عليها هذه اللغة على التعبير، وكما يقول "فيقنشتاين" فإننا عندما نعجز عن التعبير فإننا نلتزم الصمت، ولكن التزام الصمت إزاء قضايا عدة هو ما يمنح اللغة هوية معينة.

وبعد استعراض أهم ثلاثة طروحات تحاول تفسير التقدم العلمي، فإن المباحث التالية تهدف إلى رصد التحولات المعرفية في حقل علم السياسة والعلاقات الدولية من منظور الثورات والبرامج والثبات المعرفية التي تم التفصيل فيها.

¹⁷¹ Ibid., pp. 51-52.

المبحث الثاني: مسار تطور علم السياسة والتفسير "الكوني"- "اللاكتوشي".

يعتبر الحقل المعرفي لعلم السياسة الحاضن لشخص العلاقات الدولية، فأغلب الجامعات تقترح هذا التخصص عقب استيفاء الطالب لعام كامل أو عامين من دراسة أساسيات علم السياسة. ولذا كان من الضروري وضع التحولات الباراديمية في حقل العلاقات الدولية في سياقها المعرفي الأوسع، والنظر فيما إذا كان النقاشات النظرية في العلاقات الدولية مجرد انعكاس لمناقشات تمحورت حول المسائل ذاتها في علم السياسة، أم أن تطور حقل العلاقات الدولية كانت له هوية مستقلة ومتمنية.

لكن من المهم الإشارة إلى محاذير معينة لدى تاريخ علم السياسة، ذلك أن أغلب الباحثين الذين تناولوا الموضوع، حسب "إيلكا هيسكانن" Ilkka Heiskanen لم يخرجوا عن المقاصد ¹⁷² التالية:

- محاولة شرعة الباراديم المهيمن على الحقل المعرفي؛
- السعي لإقناع المانحين بأهمية ودور علم السياسة؛
- التعرض لتاريخ تطور الحقل لدى تأليف كتاب دراسي موجه لطلبة علم السياسة؛
- دراسة نقدية تهدف إلى إعادة توجيه علم السياسة في منحي آخر؛
- إعطاء تأويلات جديدة لتاريخ الفكر السياسي؛
- عالم اجتماع يسعى لصياغة نظرية حول السياسة من خلال إعادة بناء أنماط التفكير المتأصلة في المجتمع في فترات تاريخية متعدبة.

وفي سياق هذه المحاذير يحاول هذا المبحث الاستعانة برؤى مختلفة من أجل ترجمة التحولات الأساسية في علم السياسة.

المطلب الأول: إرساء علم السياسة وأهم محطات تطوره.

يعود الفصل في إرساء أسس علم السياسة كشخص أكاديمي يحظى بالاهتمام إلى 1903 عندما تم تأسيس "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" حيث ساهم ذلك في إعطاء هوية للحقل، ومنذ ذلك الوقت فقد مر مسار تطور هذا التخصص عبر خمس مراحل، تميزت كل واحدة منها بمعنى إحدى التوجهات المعرفية للهيمنة عليه:¹⁷³ مرحلة سيادة "النزعية الدولية" State-centred (التحول حول الدولة وجعلها مرجعية للتخليل)، وهي النزعة التي رافقت مسيرة هذا الحقل خلال بوادره لاكتساب المهنية؛ مرحلة سيادة "النزعية التعديدية" Pluralism وقد بُرِزَ هذا التوجه

¹⁷² Ilkka Heiskanen, 'On the role of meta-analysis in political science: from legitimization, illusions and sous-realism to transrealism, disillusionism and delegitimation,' in Dag Anckar and Erkki Berndtson (eds.), **Political Science Between the Past and the Future** (Jyväskylä: Finnish Political Science Association, 1988). pp. 119-120.

¹⁷³ John S. Dryzek, 'Revolutions Without Enemies: Key Transformations in Political Science', **American Political Science Review** 100 (04) 2006, p. 487.

مع نهاية العقد الثاني وبداية العقد الثالث من القرن العشرين مطالبًا باهتمام التحاليل السياسية بفاعل آخرين غير الدولة؛ مرحلة سيادة "النزعية السلوكية" Behavioralism (ظهرت منتصف القرن العشرين)؛ الاتجاه نحو إرساء "علم سياسة جديد" New Political Science (وذلك خلال نهاية السبعينيات وبداية التسعينيات)؛ التيار المعروف حديثًا بـ"بريسترويكا علم السياسة" (تزامن ظهوره مع بدايات القرن الحادي والعشرين).

بالنسبة لـ"جون س. دريزك" John S. Dryzek فإنه ومن بين التوجهات المعرفية الخمس، وحدهما "التعديدية" وـ"السلوكية" استطاعنا إحداث تحول معرفي بالمفهوم "الكوني" Kuhnian ما يعني أن الاتجاهات الأخرى تمثل مجرد برامج بحثية بمفهوم "لاكتوش". ويجاج "دريزك" بأن سر نجاحها هو عدم تعارضهما لأية مقاومة داخل الأوساط الأكاديمية، على أنها تعرضت لاحقًا لانتقادات ومقاومة من قبل تيارات نظرية أخرى، لكن بعد أن كللت ثورتها المعرفية بالنجاح.¹⁷⁴

إن الهدف المتوازي من تأسيس مدرسة فكرية جديدة هو الهيمنة على المشهد العام للتخصص من خلال الادعاء بامتلاك فهوم متكاملة حول موضوع الدراسة والبحث لهذا التخصص، وذلك عبر صياغة أجندات جديدة للبحث على أنقاض الأجندات التي اعتمدها الحقل المعرفي عندما كانت مدرسة معرفية أخرى تهيمن عليه. وبالنسبة لـ"دريزك" فإن إطلاق الوصف المناسب على هذه المساعي مسألة مهمة، فبعضها كان بمثابة "ثورات معرفية كونية" استطاعت إحداث قطيعة مع واقع التخصص في السابق، أما البعض الآخر فقد كان مجرد "برامج بحثية لاكتوشية" مثل "الوظيفية البنوية" structural functionalism أو البيوسياسة bio-politics. يختلف "بيرسن" وـ"سكوكبول" Skocpol Pierson مع وجهة النظر هذه ويرتأن أن تطور الحقل عرف ظهور ثلاثة باراديمات كبرى لا أكثر وهي: "السلوكية" وـ"العقلانية" وـ"المؤسساتية".¹⁷⁵ لكن من حيث المبدأ يبدو أن هناك اتفاقاً ضمنياً بين الطرفين، فـ"دريزك" يتحدث عن نجاح مسعين لإحداث تحول "باراديمي" في الحقل وهما: الدولانية والسلوكية بمعنى أنهم يستبعدون نجاح المساعي من "أجل علم سياسة جديد" في تغيير أجندات الحقل بشكل كلي. والتواافق الضمني هنا يمكن في أن المؤسساتية امتداد للنزعية الدولانية بينما تنتهي الانتقادات على العقلانية. والجدول التالي يوضح بدقة أهم تطور علم السياسة من منظور "الثورات الباراديمية".

المطلب الثاني: دور الثورة المعرفية دولانية-التوجه في إرساء تخصص العلوم السياسية.

تمحور الخطاب العلمي لهذا الحقل المعرفي على الدولة ابتداءً من "فرانسيس ليبر" Francis Lieber، والذي عين كأول أستاذ لعلم السياسة بجامعة كولومبيا الأمريكية عام 1857،وصولاً إلى "وودروWilson" Woodrow Wilson وغيرهما من الباحثين، خلال هذه الفترة كانت المهمة الرئيسية لعلم السياسة إرساء "دولة قومية موحدة" وـ"مواطنة فاضلة".¹⁷⁶ وقد تبني

¹⁷⁴ Ibid.

¹⁷⁵ David D. Laitin, 'The Political Science Discipline', in 'The Evolution of Political Knowledge: Theory and Inquiry in American Politics' (USA: Ohio State University Press, 2003), p. 16.

¹⁷⁶ John S. Dryzek, op cit., 487.

هذا الخطاب غاية معرفية مهمة هي البحث عن القوانيين التي تحكم توزيع السلطة بين مؤسسات النظام السياسي للدولة، وبذلك فقد انصب البحث على النصوص الدستورية وما تقوله بشأن التزامات الأفراد الذين يعينون في مراكز سلطوية وحدود صلاحياتهم. وهكذا هيمن تصور الدولة على أجندة علم السياسة في الولايات المتحدة مع نهاية القرن التاسع عشر، حيث ساهم في منح هذا الوزن للدولة وجوه أكademie تحولت إلى رموز لعلم السياسة الناشئ، بالأخص "ولتر باقو" Walter Baghot في بريطانيا و"ودورو ويلسون" في الولايات المتحدة.¹⁷⁷

إن اعتماد تصور الدولة وجعله محورا للنقاش في علم السياسة ليس بالشيء الجديد كليا، حيث سبق لما اصطلاح على تسميته بالمناقشات الدستورية بين "الفراليين" في الولايات المتحدة أن أولت عناية كبيرة بهذا الموضوع. كما أن "ويلسون" لم يكن وحيدا في تصويره لنظام سياسي تؤطره أحزاب سياسية منضبطة تقترح سياسات عقلانية معدة بعناية، لتأخين واعين بخياراتهم، وعلى ضوء نتائج الانتخابات، يقوم الكونغرس بإقرار السياسات التي تمت تزكيتها، لتفكر على تنفيذها بيروقراطية تتمتع بالخبرة وتطبق أفضل ما جاد به علم الإدارة. لقد صاحبت هذه الدعوة للفضيلة دراسات إمبريقية عدة أدبت على تحليل المؤسسات الأمريكية وكشف مختلف مظاهر الشرخ، والجهوية، والمحسوبيّة والفساد. هذا النوع من الأبحاث جسده مؤلف "ويلسون" نفسه المعون: "الحكومة البرلمانية" والذي صدر في 1885 أي في غمرة تأسيس الحقل.¹⁷⁸

إن تطور الحقل المعرفي لعلم السياسة في هذه الفترة فترة التأسيس- انطوت على أهداف معيارية وبالذات السعي من أجل إقامة دولة قومية موحدة وأمة تمنع بالإرادة والقدرة لتحقيق هذا الهدف. وفي هذا الاتجاه أشار "فرانك قودناو" Frank Goodnow في معرض حديثه أمام "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" APSA، حول دور علم السياسة في تحقيق "إرادة الدولة": "أحياناً تنشأ التحالفات السياسية لهذا الغرض (تحقيق إرادة الدولة)، خاصة الحركة التقدمية، لكن الهدف الذي وجد من أجله هذا المشروع يتمثل بالأساس في مكافحة الفساد، الزبونية، الماكنة الحزبية، المحاباة، والجهوية، وهي المظاهر التي سعت النزعة الدوّلية إلى محاصرتها، تماماً مثلما عملت على إصلاح النظام الذي أرسى أسسه "توماس ماديسون"، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، هذا النظام أصبح غير ملائم للتحولات الاجتماعية الناجمة عن الثورة الصناعية".¹⁷⁹ يدعم ذلك وجهة نظر "دايفيد بوسطن" David Boston القائلة بأنه خلال هذه الفترة من تطور علم السياسة انتفت الخطوط الفاصلة بين أجندـة البحث وأجندـة الباحثـين ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى الفوضى التي كانت مستشرية على الصعيد المنهجي.¹⁸⁰

على الرغم من أن أصحاب النزعة الدوّلية [الدستورية] كانت لديهم مأخذ على الجانب المنهجي لأعمال من يصفونهم بـ "التعديدين" pluralists [المُنادين بـ متعدد الفواعل المشاركون في صناعة القرار السياسي وعدم حصر الفعل السياسي في المؤسسات السياسية الدستورية للدولة]، فإن طلائع الثورة الموسومة بـ "التعديدية" pluralism الذين طلما وصف أتباعها بـ "الهواة" في

¹⁷⁷ David Boston, 'The Political Science in the United States: Past and Present', in David Easton et al. (eds.), 'The Development of Political Science: A Comparative Survey' (UK: Routledge, 1991), p. 276.

¹⁷⁸ John S. Dryzek, op cit., p. 488.

¹⁷⁹ Frank Goodnow as quoted in John S. Dryzek, op cit., p. 488.

¹⁸⁰ David Boston, op cit., p. 276.

مقابل "الدولتين" الذين أضفوا الطابع الانضباطي على الحق، لم يكونوا بأسوأ حالاً في هذا الجانب من "الدولتين المحترفين". منهجية البحث لدى هؤلاء جميعاً لم تكن تخضع لقواعد يمكن تقيي أثرها أو مراجعتها لأنها كانت تتطوّي ببساطة على عملية تجميع فوضوي للمعطيات وتقديمها بطريقة وصفية بحثة، وربما كان الوضع أفضل بقليل لدى ذوي النزعة التعددية، حيث أنهم استطاعوا الذهاب إلى ما هو أبعد من الوصف، بل وتمكنوا بفضل ذلك، من فهم بعض ديناميكيات الفعل السياسي بطريقة تفوق الفهم "الدولي" ¹⁸¹. State-based

لقد اتسمت منهجية في هذه الفترة -فترة التأسيس- التي يطلق عليها الباحث "دليفيد بوستن" وصف الفترة الكلاسيكية بأنها كانت مجالاً غير رسمي، وهو نوع من التناقض في "الدولية" ركزت أجندتها البحثية على الدولة والمؤسسات الرسمية لكنها اعتمدت في ذلك على أدوات لم تكن تكتسي الطابع الرسمي في العلوم الاجتماعية نهاية القرن التاسع عشر. ذلك أن منهجية لم تكن تطرح أية مشكلة بالنسبة للدولتين الكلاسيكيتين "المحترفين" أو للتعدين الثوريين "الهواة"، لأن مجال البحث والتحليل للظواهر السياسية كان مفتوحاً للجميع سيما القادمين من حقول معرفية مجاورة لعلم السياسة. وقد ساهم ذلك في إبطاء تطور هذا الحقل المعرفي، لأنه وفي غياب منهجية واضحة لم يكن يتسع لأي كان تقييم الدراسات السابقة وبالتالي تقويم وتحسين الأدوات المنهجية، أهم عامل كان سيساهم في دفع هذا التخصص قدماً وفي وقت مبكر. ¹⁸²

المشكلة الأخرى التي طرحت في هذه المرحلة وهي بطريقة ما تعتبر نتيجة منطقية للمشكلة الأولى (أي غياب منهجية واضحة)، تتمثل في اختراق القيم لأجندة البحث فالحقائق والقيم لم يكن من السهل التمييز بينهما في النصوص "العلمية" التي صدرت خلال نهاية القرن التاسع عشر وببداية القرن العشرين، كما لم يكن من السهل فهم ما إذا كان الباحثة يتحدثون عن خياراتهم الشخصية أم عن أولويات البحث أم حقيقة عمل المؤسسات الدستورية التي يزعمون دراستها، وهو مشكل ظل قائماً حتى مع ظهور تحدي "أنطولوجي" للدولتين يتمثل في النزعة التعددية. ¹⁸³

المطلب الثالث: أول تحدي باراديمي في حقل علم السياسة-البارادایم التعددی.

خلافاً لما قد يعتقد البعض، فإن ازدياد قوة التحدي المعرفي الذي واجهته النزعة الدلاؤتية لم يكن مصدره باحثون من خارج هذا البارادایم بل من داخله، فـ "بيقهوت" وـ "ويلسن" كانوا أول من انتبه إلى أنه وخلف المؤسسات الرسمية للدولة كان هناك مؤسسات غير رسمية فاعلة وتمارس ضغطاً معتبراً على عملية صناعة القرار. ويضربون مثلاً على ذلك اللجان غير الرسمية في المؤسسة التشريعية وفي الأحزاب وعدد من مجموعات الضغط الناشئة. ¹⁸⁴

وربما كانت طبيعة النظام السياسي الأمريكي هي ما ساهم في نمو التحاليل التي تأخذ بعين الاعتبار خاصية تعدد الفواعل، هذه الخاصية التي ورغم أن "الدولتين" يقررون بها إلا أنهم يعتبرونها مشكلة يتبع حلها لا وضعية ينبغي تشخيصها، هذه هي الحقيقة التي يشير إليها مؤلف "آرثر

¹⁸¹ Ibid.

¹⁸² David Boston, op cit., p. 276.

¹⁸³ Ibid., p. 277.

¹⁸⁴ Ibid.

بنتلي "Arthur Bently" المعون: "عملية الحكم" The Process of Government والذى يعتبره السلوكيون أحد رواد السلوكية التعددية. وفي كتاب آخر أصدره لاحقاً بعنوان: "صانوا القرار، المعنيون بالقرار والمتتحكمون في اللعبة السياسية" Makers, Users and Masters عبر "بنتلي" عن إدانته لهيمنة مجموعات المصالح على السياسة الأمريكية، وهو ما يتفق مع أحد أسلاف السلوكية "شارلز ميرياム" Charles Merriam والذي دعا في مؤلف نشره خلال العشرينيات من القرن العشرين إلى تقوية الديمقراطية وتعزيز الحكم في العملية السياسية والرعاية الاجتماعية.¹⁸⁵

لكن ومع أن نظام الدولة المركزية قد تعرض للنفي مع فقدانه للحكم في العديد من الأجهزة، إلا أن تقدس الدولة استمر خلال العشرينيات لأنها كانت تلبى تطلعات معيارية،¹⁸⁶ منها صعود التيارات القومية في أوروبا.

غير أن التعددية المعيارية أصبحت تحتل حيزاً متزايداً مع ظهور مؤلفات "هارولد لاسكي" Harold Laski (1917) و"ماري بيركيت فوليت" Mary Parket Follet (1918). كان كل من "لاسكي" و"فوليت" متأثرين بفلسفه "وليم جيمس" التي شددت على نبذ تحكم الدولة ومنحها حقاً حصرياً لإدارة شؤون الفرد، فهذا الأخير يمتلك طرفاً عدداً يمكن له من خلالها إدارة شؤونه. ومن هنا يمكن استشاف حقيقة أن مفهوم التعدد لدى ذوي النزعة التعددية لا يرتكز على تعدد المصالح بل على تعدد الوسائل. أما "فوليت" فقد كانت من دعاة تنظيم المجتمع في جماعات من القاعدة باتجاه القمة، معارضة بذلك الهندسة الاجتماعية التي كانت تعتمد على الاتجاه العكسي من القمة باتجاه القاعدة. وهي بذلك تختلف مع "الدولتين" في تقسيمهما لدور الوصاية التي تمارسها الدولة. لقد طرحت "فوليت" سؤالاً مهماً للدولتين: ما الذي يمكن عمله بالتعدد؟ لكن الدولتين قدموا إجابة بسيطة: "كل ما يجب فعله بالتعدد هو إزالته".¹⁸⁷

هذه النظرة الاستعلائية لـ"الدولتين" لم يكن لها ما يبررها إمبريقياً، لكن إخفاق "ذوي النزعة التعددية" كان منهجاً بالأساس، وإلا كانت دراسات من قبيل تلك التي قام بها "ميرل فينسود" Merle Fainsod عام 1940 ستحظى بالنجاح نظراً لثروريتها سيما تصوره المتعلق بالقوى المتباينة parallelogram of forces، وفيه يتحدث عن القوى التي تتجادب القرار قبل استصداره على مستوى الهيئات التشريعية أو الإدارية، حيث تخضع العملية برمتها لضغط من المجموعات المجتمعية ومجموعات الضغط والرأي العام، ويتم ذلك باستخدام مساومات وصناعة توافقات إلى أن يتم تحصيل التوازن المطلوب لاستصدار القرار، مثل هذه التحاليل يبدو أنها تجاوزت السياق الزمني الذي كتبت فيه بعقود.¹⁸⁸

لقد حاول "درزيك" فحص مدى ثورية الطرح التعددي فوجد أنه بالنسبة لبعض الباحثين، يعتبر صعود هذه "النزعة التعددية" في العشرينيات بمثابة الثورة المعرفية الحقيقة الوحيدة التي

¹⁸⁵ John S. Dryzek, op cit., p. 488.

¹⁸⁶ Ibid.

¹⁸⁷ التعدد المقصود هنا (لدى رواد الاتجاه التعدديين) ليس التعددية الحزبية التي تعتبر ركيزة الديمقراطية الغربية بل التعدد في الآليات التي يمكن من خلالها حكم المجتمع بمعنى عدم الالتفاء بالمؤسسات الحكومية طالما أن المجتمع الأمريكي ذي الخلفيات الإثنية والاجتماعية المتباينة لدى تجارب يكون قد استقدمها من مواطن أخرى، انظر: John S. Dryzek, op cit., p. 488.

¹⁸⁸ David Boston, op cit., p. 276.

شهدها علم السياسة في الولايات المتحدة، فـ "جورج كاتلين" George Catlin، أحد المدافعين عن "النزعية لتعديه" كان يرى أن التعدد يعود على اختلاف مصالح المجموعات المشكلة للنسيج الوطني، لا على تعدد تجارب هذه المجموعات (وسائلها)، وهو ما يتفق مع الافتراضات السلوكية، مما يؤكد على القول بأن التيار السلوكي لم يكن ثوريا بل مجرد استمرار لتحول النموذج الإرشادي الذي قاده "كاتلين" التعديي ينطوي على بعض الصحة.¹⁸⁹

لكن، وحسب "درزيزيك"، فإن التمعن في أعمال "كاتلين" يساعدنا على استشاف وجود تقارب كبيرا بينه وبين "الاتجاه الدولاتي" الذي كان بمثابة التقليد البحثي السائد خلال تلك الفترة، فـ "الدولاتيون" أنفسهم كانوا يعترفون بوجود التعديية باستثناء أنهم كانوا يرون فيها مشكلة يتعين حلها. ومن هنا يتضح أن الشيء الثوري الوحيد لدى التعدييين هو الشق المعياري لطرحهم. طرحهم هذا لم يحضر بالقبول في علم السياسة إلا في خمسينيات القرن العشرين. وحينها فإن الصيغة المتبعة للتعدد هي تلك التي ترتكز على تعدد المصالح لا على تعدد القيم.¹⁹⁰

المطلب الرابع: التحول الباراديمي الأول في علم السياسة_السلوكية.

بعد قرابة نصف قرن من سيطرة "الباراديم الدولاتي"، ومع إخفاق "الباراديم التعديي" في تحويل أجندته البحث في علم السياسة عن اهتماماتها الأنطولوجية، فإن ظهور "الباراديم السلوكي" استطاع إحداث تحول جدي لكن على المستوى المنهجي، التي كانت بمثابة نقطة الضعف الرئيسية في "الباراديمات" السابقة. وهكذا فقد تبني "الاتجاه السلوكي" نزعة علمية متطرفة موضوعها التعديية في شقها المتعلق بالمصالح لا القيم، أي ذلك التعدد الذي يقع تحت مظلة التوافق حول المنطلقات والأسس بين جل المصالح الاقتصادية المتعارضة. ولم يمر وقت طويل، أي مع نهاية السبعينيات فقط، ظهرت كتابات عديدة تشيد بانتصار السلوكي، وأعطى ذلك انطباعا بأن "السلوكية" ثورة تحصلت على رضا الأكاديميين بفضل نجاحها في إعادة صياغة أجenda البحث، كنتيجة لإسهامات المؤيدين والخصوم على حد سواء، وأبرزهم على الإطلاق العلماء الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية مثل "هانتس مورفنتهاو" Hanz Monrgenthau و"ليو شتراوس" Leo Strauss الذين أربكوا الأوساط الأكاديمية بانتقادتهم اللاذعة لواقع التحليل السياسي في علم السياسة والذي يفتقد حسبهم للتأصيل النظري والتوجيه المنهجي.¹⁹¹

لكن مع ذلك يحق لنا التساؤل: إذا كانت السلوكيّة ثورة معرفية، فضد من أعلنت هذه الثورة؟ كان خطاب الثوريين يتحدث عن توجيه ثورتهم المعرفية ضد "علم السياسة التقليدي" الذي يعتمد المنهج التاريخي والمغالي في واقعيته حسب "دايفيد إستون" David Easton؛ لكن من هم الباحثون الذين وسمت أعمالهم بـ "التقليدية"؟ ذلك سؤال لم يجب عنه السلوكيون الذين ظلوا صامتين

¹⁸⁹ John S. Dryzek, op cit., p. 488.

¹⁹⁰ Ibid.

¹⁹¹ Robert Adcock, 'Interpreting Behavioralism', in Robert Adcock et al. (eds.), 'Modern Political Science: Anglo-American Exchanges Since 1880' (USA: Princeton University Press, 2007), p. 189.

إزاء هوية خصومهم، أو الأعمال والمؤلفات التي تمثل هذا "الاتجاه التقليدي" في علم السياسة، فكتاب Garceau (1953) الذي يتضمن مراجعة استعراضية يخلو من أية إشارة سلبية كانت أم إيجابية لهوية خصوم السلوكية¹⁹² وهو وضع يختلف كثيراً عن واقع الحال في العلاقات الدولية إبان ما اصطلاح على تسميته بـ"النقاش النظري الثاني" second great debate، حيث كان خصوم النزعة العلمية السلوكية (الواقعيين الذين تمسكوا بنزعته المنهجية التاريخية) معروفين بل وأكثر نفوذاً في الأوساط الأكاديمية وفي أوساط صناعة القرار على حد سواء.¹⁹³

بدأت ملامح الثورة السلوكية تتضح أكثر عبر صفحات المنشورات التي ظهرت بين عامي 1951-1952، حيث أكدت نقطتين أساسيتين: تبني التعديلية كمنطلق أنطولوجي والتخلّي عن الأحادية الدولاتية، لكن مع تحول مهم وهو الاهتمام بسلوك الفواعل لا ببنائهم المؤسساتية؛ إعطاء أهمية أكبر لطريقة دراسة السلوك السياسي دون المجادلة بشأن من يستحق أن يكون بمثابة مرجعية للتحليل، وينطوي ذلك كله على البحث عن الأنماط النظمية systemic التي يمكن أن نخلص إليها عبر الدراسة المنهجية للسلوك السياسي.¹⁹⁴

يعتبر "دايفيد إيستون" من خلال كتابه المعروف: "النظام السياسي" والذي صدر في 1953، من أبرز منظري الاتجاه السلوكى، ويمكن استشفاف نعمته على الوضع القائم في الفصل الثاني من كتابه، والذي يتحدث فيه عن حالة عدم الرضا بين أخصائي علم السياسة، وقد أثار محتوى هذا الجزء من الكتاب سجالاً فكريّاً كبيراً، لكن المثير في الأمر هو أن حواشي الفصل التي يبلغ عددها 28 لا تشير إلى أي عالم سياسة أمريكي يمكن إدانته بالمعلاة في الاهتمام بالحقائق الإمبريقية Hyperfactualism على حساب الدراسة العلمية المتسبة وما نجم عنه من إخفاق في صياغة نظريات متسبة.¹⁹⁵

تأكيداً لتمسكه بموقفه أصدر "إيستون" سنة 1984 مؤلفاً آخر يقول فيه أن علم السياسة التقليدي ظهر خلال عشرينيات القرن العشرين، حيث تضمن في أجندته البحثية الاهتمام بالأحزاب ومجموعات الضغط على حساب الدولة، وكنموذج للتأكد على مزاعمه أشار إلى "بنتمي" و"بندلتون هيرينغ" مغفلاً حقيقة أن "بنتمي" احتفى من المشهد الأكاديمي في 1953، وقبل حدوث ذلك فإن "بنتمي" نفسه تحول إلى واحد من المתחمسين للسلوكية. أما "هيرينغ" ورغم أنه عاش حتى فترة صعود الاتجاه السلوكى في الخمسينيات، إلا أنه لم يعارض "السلوكيين" بل ساهم بشكل فاعل عام 1949 في تأسيس "لجنة السلوك السياسي" تحت مظلة "مجلس البحث في العلوم الاجتماعية"،

¹⁹² John S. Dryzek, op cit., p. 489.

¹⁹³ للحصول على مراجعة معاصرة للنقاش النظري الثاني وأهميته في العلاقات الدولية انظر: Friedrich Kratochwil, 'History, Action and Identity: Revisiting the Second' Great Debate and Assessing its Importance for Social Theory', *European Journal of International Relations* 12 (01) 2006. pp. 5-29.

¹⁹⁴ Robert Adcock, op cit., p 189.

¹⁹⁵ تعتبر مسألة غياب خصوم للثورات المعرفية التي نجحت في تحويل أجندـة الحقل أهم نقطة رکز عليها "درزيك" في مقاله وتأكيـد وجهة نظرـه هذه فهو يشير إلى أن "إيستون" في الفصل الثالث من كتابه، "النظام السياسي" حاول تقديم نموذج عن خصومـه فأشـار إلى "جيمس برايس" James Bryce "لـجوء منظري علم السياسة إلى تاريخ الفكر السياسي لكنه لم يجد من يدينـه بذلك سوى جـورج سـابـين George Sabine. انظر: John S. Dryzek, op cit., p. 489.

والتي ترأسها هو شخصياً، وقد كانت هذه اللجنة المدخل الذي نفذ من خلاله "السلوكيون" إلى APSA، كما كان لها دور حيوي في تمويل الثورة السلوكية ورعايتها مؤسستياً¹⁹⁶.

لقد خلص "درزيك" في دراسته المتميزة إلى أنه لم يستطع إيجاد أي مصدر للخصومة بين "السلوكية" وأي خصم مفترض سواء المقاربة المؤسساتية القانونية باعتبارها نقيشا آخر لـ "النزعـة العلمـية" التي يدعـى "السلـوكيـون" الدـفاع عنـها أو أـية مقارـبة أـخـرى. فـميدـانياً وـعـلـى صـفـحـات الدـورـيات لم يكن هـنـاك باـحـث واحد فـي مـعـسـكـر "الـمنـاوـئـين لـالـنـزعـة الـعـلـمـية"، حيث أنـ مثل هـذـا التـوجـه كانـ عـلـى الدـوـام تـوجـهاـ هـامـشـياـ فـي الحـقـلـ الـعـرـفـي لـعـلـمـ السـيـاسـةـ، وـهـوـ ماـ تـأـكـدـ قـبـلـ نـصـفـ قـرنـ منـ ظـهـورـ السـلـوـكـيـةـ نـفـسـهـاـ، أـيـ لـدىـ تـأـسـيـسـ APSAـ عـامـ 1903ـ، حيثـ أـشـارـ مـؤـسـسـهـاـ إـلـىـ أـنـ أـحدـ أـهـدـافـ APSAـ هوـ: "تـشـجـيعـ الـدـرـاسـةـ الـعـلـمـيـةـ لـلـسـيـاسـةـ". وـطـالـماـ أـنـ السـلـوكـ، وـالـعـلـمـ، وـالـتـعـدـيـةـ وـالـنـظـامـ هـيـ أـهـمـ سـمـاتـ "الـسـلـوـكـيـةـ"ـ، فـإـنـهـ لـاـ مـبـرـرـ لـاـعـتـراـضـ الـتـقـلـيـدـيـنـ عـلـيـهـاـ، ذـلـكـ أـنـ بـحـوثـهـمـ لـطـالـمـاـ تـنـاوـلـتـ السـلـوكـ عـلـىـ الـمـسـتـوىـ الـفـرـديـ سـيـمـاـ خـالـلـ الـثـلـاثـيـاتـ وـالـأـرـبـعـيـاتـ. وـهـنـىـ الـبـاحـثـيـنـ الـذـيـنـ لـمـ يـدـرـسـواـ "الـسـلـوكـ"ـ لـمـ يـبـدـواـ اـعـتـراـضاـ عـلـىـ الـقـيـامـ بـذـلـكـ. لـقـدـ كـانـتـ "الـنـزعـةـ الـعـلـمـيـةـ"ـ قـائـمةـ حـتـىـ قـبـلـ مـجيـءـ "الـسـلـوـكـيـنـ"ـ، إـذـنـ مـاـ الـجـدـيدـ الـذـيـ جـاءـتـ بـهـ السـلـوـكـيـةـ؟ـ فـحـتـىـ تـصـورـ النـظـامـ السـيـاسـيـ الـذـيـ جـاءـ بـهـ "إـيـسـتنـ"ـ قـدـ مـصـطلـحـاتـ جـديـدةـ (ـالـمـدخـلاتـ inputsـ، الـمـخـرـجـاتـ outputsـ، وـالـارـتـدـادـ الـارـتـجـاعـيـ feedbackـ)، وـلـكـنـهـ لـمـ يـزـوـدـنـاـ بـنـظـريـةـ جـديـدةـ شـامـلـةـ لـعـلـمـ السـيـاسـةـ. إـنـ الـجـدـيدـ الـذـيـ جـاءـتـ بـهـ السـلـوـكـيـةـ وـيـجـعـلـ مـنـهـاـ ثـورـةـ مـعـرـفـيـةـ غـيرـ مـسـبـوـقـةـ إـحـدـاثـهـاـ تـغـيـرـاتـ جـذـرـيـةـ فـيـ تـوـجـهـاتـ قـائـمةـ سـلـفـاـ فـيـ عـلـمـ السـيـاسـةـ، هـذـهـ الـمـجـالـاتـ الـمـنـتـقـاـةـ هـيـ السـلـوكـ، الـعـلـمـيـةـ، الـتـعـدـيـةـ، الـوـصـفـ مـقـابـلـ الـتـفـسـيرـ فـيـ الـجـوـانـبـ الـنـظـرـيـةـ. بـدـءـ بـالـسـلـوكـ، حيثـ اـعـتـمـدـ السـلـوـكـيـوـنـ عـلـىـ الـدـرـاسـاتـ الـمـسـحـيـةـ الـتـيـ تـسـتـنـدـ إـلـىـ مـجـتمـعـ إـحـصـائـيـ أـوـسـعـ، كـماـ عـدـمـ إـلـىـ زـيـادـةـ وـتـيـرـةـ الـدـرـاسـاتـ الـكـمـيـةـ الـتـيـ تـصـدـرـتـ صـفـحـاتـ الدـورـياتـ الـعـلـمـيـةـ الرـئـيـسـةـ فـيـ التـخـصـصـ.

¹⁹⁷

زيادة على التفوق المنهجي الذي أبداه السلوكيون، فإن عوامل أخرى موضوعية تكون قد ساهمت في إنجاح الثورة المعرفية لـ"الباراديم السلوكي" ومنها تبنيهم لـ"أسطورة" علم سياسة يتبنى الحياد إزاء القضايا السياسية، لكنهم بسيطرتهم على APSA فإن السلوكيين قدموا خدمة جليلة للنظام السياسي الأمريكي في عمرة الفوضى التي تختلط فيها نهاية السنتين، بسبب إخفاق التدخل العسكري في فيتنام، والتداعيات الداخلية لاغتيال "كينيدي" [22 نوفمبر 1963] و"مارتن لوثر كينغ" [04 أبريل 1968] وتصاعد حدة المطالبات النسوية، وفي غضون ذلك استفحال الخطاب المناوئ للبيروالية لعدد من العلماء الألمان الذين هاجروا إلى أمريكا مثل "إيريك فولفين" "هانا

¹⁹⁶ في مؤلفه هذا جدد "إيستون" مأخذة على التقليديين مثيراً خلطهم للحقائق والتقييم، وإطنابهم في وصف الظواهر السياسية دون تقديم تفسيرات وافية، يضاف لذلك كله إسهامهم بالقليل من النظريات الفوضائية، وانتهى "إيستون" إلى اعتبار كتاب "القوى المتوازية" لـ"ميرل فينسوند" Merle Fainsod بمثابة النظرية غير المعنة لـ"التقليديين". ومعروف أن فينسوند في كتابه هذا حاول تفسير عملية صنع السياسة بالقول أنها محصلة تفاعل قوى تدفع في اتجاهات مختلفة، وإذا كان هذا هو جوهر علم السياسة التقليدي في هذه الفترة، فلا يبدو هناك أي مبرر إذن ليدخلوا في سجال مع السلوكيين، وأكثر من ذلك فإن صاحب هذا المؤلف (فينسوند) أصبح لاحقاً رئيساً لـAPSA في ذروة هيمنة السلوكيين، بل وساهم هو نفسه عام 1968 في الحفاظ على انتصار "الباراديم" السلوكي بصفته رئيساً لـ"الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" APSA عبر تضييق الخناق (بطريقة ذكية ودفاعية) على "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" Caucus for a New Political Science من خلال وضع شروط معينة للمشاركة في المؤتمر السنوي لـAPSA تستبعد المنخرطين في مسعى تجديد علم السياسة، انظر:

John S. Dryzek, op cit., p. 489.

¹⁹⁷ John S. Dryzek, op cit., p. 490.

"أرنت" و"ليو شتراوس" وغيرهم. فإذا كانت APSA ترفض حشر علم السياسة في القضايا الساخنة لعصرها فإنها بذلك ليست محابية قيميا كما تدعى بل إنها جعلت من علم السياسة أداة لحفظ على الوضع القائم *status quo*.¹⁹⁸

لقد هيمنت "السلوكية" تدريجيا على التخصص، لكن ذلك لم يجعلها بمنأى عن الانتقادات التي تصاعدت حدتها مطلع السبعينيات. هذه الانتقادات لم يكن لها من دور سوى تأكيد هيمنة "السلوكيين" ونجاحهم في إعادة صياغة أجندـة البحث في علم السياسة، وهو ما أقر به حتى المناوئـين لهم والذين كانوا مهمشـين في هذا الحقل المعرفي. غير أن النقد تجاهم تـامـاً، لكن هذه المرة فإن مصدر النقد لم يكن من "التقليديـن ذوي النزعة التاريخـية"، بل من باحثـين يطالبـون بدور إيجابـي لعلم السياسـة، من خـلال إعطـائه لـمسـة نقـدية وـتوجيه اهـتمـامـات البـاحـثـين نحو قـضاـيا المجتمع.

المطلب الخامس: التحدـي الـباراديـمي الأول للـسلوكـيةـ."ـالمـؤـتمر من أجل علم سيـاسـة جـديـدـ".

مع تصـاعد حـدة الـانتـقـادـات التي طـالتـ السـلـوكـيةـ فقد جاءـ المؤـتمرـ السنـويـ لــالـجـمـعـيـةـ الأمريكيةـ لــعلمـ السـيـاسـةـ سـنةـ 1967ـ فـرـصـةـ لــمـأسـسـةـ الـاتـجـاهـ الـذـيـ أـصـبـحـ يـعـرـفـ لــاحـقاـ منـ طـرفـ روـادـ السـلـوكـيةـ وـعـلـىـ رـأـسـهـمـ "ـدـافـيـدـ إـيـسـتنـ"ـ بــ"ـماـ بــعـدـ السـلـوكـيةـ"ـ post-behavioralistsـ،ـ غيرـ أنـ المـنـتـسـبـينـ إـلـىـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ الـنظـريـ الصـاعـدـ يـفـضـلـونـ نـعـتـ أـنـفـسـهـمـ بــ"ـالمـؤـتمرـ منـ أجلـ علمـ سـيـاسـةـ جـديـدـ"ـ CNPSـ.ـ بــدـايـةـ التـصادـمـ بــيـنـهـمـ وـبــيـنـ المـدـافـعـيـنـ عـنـ التـقـلـيدـ الـبـحـثـيـ الـمـهـيـمـ آـنـذـاكـ (ـالـسـلـوكـيـنـ)ـ كـانـ بــسـبـبـ اـسـتـخـضـارـ السـلـوكـيـنـ الـذـينـ ظـلـواـ مـسـطـرـيـنـ عـلـىـ أـهـمـ الـمـنـاصـبـ فيـ AP~SAـ طـيـلةـ السـيـنـيـاتـ،ـ الـمـادـةـ الثـانـيـةـ مـنـ دـسـتـورـ AP~SAـ،ـ 199ـ لــمـعـ منـاقـشـةـ قـضاـياـ السـيـاسـةـ الـعـامـةـ مـنـ زـاوـيـةـ اـتـخـاذـ موـاـقـعـ بــشـائـهاـ سـيـماـ حـرـكةـ الـحـقـوقـ الـمـدنـيـةـ لــلـسـودـ وـحـربـ فـيـيـنـاـمـ.ـ وـرـغـمـ أـنـ هـذـهـ المـادـةـ لــاـ تـنـصـ عـلـىـ منـعـ أـعـضـاءـ AP~SAـ مـنـ مـنـاقـشـةـ قـضاـياـ السـيـاسـةـ الـعـامـةـ إـلـاـ أـنـ تـكـيـيفـهـاـ كـذـلـكـ مـنـ طـرفـ السـلـوكـيـنـ الـذـينـ هـيـمـنـواـ عـلـىـ الـمـنـاصـبـ الـإـدارـيـةـ لــالـجـمـعـيـةـ،ـ أـقـنـعـ مـنـاهـضـيـهاـ بــضـرـورـةـ إـيـجادـ إـطـارـ تـنـظـيمـيـ يـحـمـيـ وـجـهـاتـ نـظـرـهـمـ مـنـ "ـالـتـسـلـطـ السـلـوكـيـ"ـ.ـ وـفـعـلاـ،ـ فـإـنـهـ وـبــالـمـواـزـاـةـ مـعـ مـؤـتمرـ AP~SAـ عـقـدـ هـؤـلـاءـ مـؤـتمرـهـمـ بــحـضـورـ 225ـ حـيـثـ اـنـتـخـبـواـ "ـتـشـارـلـزـ مـاـكـوـيـ"ـ رـئـيـساـلـ CNPSـ.²⁰⁰

وـقـدـ قـدـمـ المـؤـتمرـ مـرـشـحاـ لــرـئـاسـةـ AP~SAـ وـضـمـ فـيـ صـفـوفـهـ قـائـمةـ مـنـ أـبـرـزـ باـحـثـيـ علمـ السـيـاسـةـ آـنـذـاكـ وـلـفـتـرـةـ طـوـيـلـةـ مـثـلـ "ـسـيمـورـ مـارـتنـ لــيـبـيـسـتـ"ـ Seymour Martin Lipsetـ،ـ "ـبــيـترـ باـكـراـشـ"ـ Peter Bachrachـ،ـ "ـكـريـستـيانـ بيـ"ـ Christian Bayـ،ـ "ـتـيـودـورـ لوـيـ"ـ Theodore Lowiـ،ـ "ـمـاـيـكـلـ بــرـيـنـتـ"ـ Michael Brentـ،ـ "ـشـيلـدونـ وـولـينـ"ـ Sheldon Wolinـ،ـ كـمـاـ تـضـمـنـتـ الـقـائـمةـ أـيـضـاـ وـجـهـاـ بــارـزاـ فـيـ تـخـصـصـ الـعـلـاقـاتـ الـدـولـيـةـ:ـ "ـهـانـتسـ مـورـقـنـهـاـوـ"ـ Hanzـ

¹⁹⁸ NPS Caucus, 'History of the Caucus for a New Political Science', *New Political Science* 29 (04) 2007, pp. 501-502.

¹⁹⁹ تـشيرـ المـادـةـ الثـانـيـةـ مـنـ دـسـتـورـ AP~SAـ إـلـىـ أـنـ الجـمـعـيـةـ:ـ لــاـ تـلـزمـ أـعـضـاءـهـ بــاتـخـاذـ موـاـقـعـ إـزـاءـ قـضاـياـ السـيـاسـةـ الـعـامـةـ إـذـ كـانـتـ هـذـهـ الـقـضاـياـ لــاـ تـمـسـ بــشـكـلـ مـباـشـرـ المـاقـاصـدـ الـتـيـ وـجـدـتـ الـجـمـعـيـةـ مـنـ أـجـلـهـاـ.ـ هـذـهـ المـادـةـ تـكـيـيفـهـاـ بــطـرـيـقـةـ غـرـبيـةـ مـنـ طـرفـ مـسـيـريـ AP~SAـ لــمـعـ منـاقـشـةـ قـضاـياـ السـيـاسـةـ الـعـامـةـ فـيـ مـؤـتمرـهـمـ السـنـوـيـةـ.

²⁰⁰ NPS Caucus, op cit., p. 502.

Morgenthau والذى كان من بين المعارضين للحرب فى فيتنام، فضلا عن "إدوارد سعيد"²⁰¹ و"نعمون تشومسكي" Noam Chomsky Edward Said.

تقاسم جميع هؤلاء قناعة مفادها أنه يجب جلب النقاشات والانتقادات حول الديمقراطية الليبرالية الأمريكية إلى قلب النقاشات الأكاديمية بعد أن كانت معزولة في محيط تخصص العلوم السياسية. وقد ضمنت آرائهم في كتاب صدر عقب أول مؤتمر لهم في 1967 بعنوان: "السياسة غير مسيسة: نقد الاتجاه السلوكى". ولتسويق طرفهم عمد أعضاء هذا "المؤتمر" إلى تعطية ما يرونها جوانب قصور في "الاتجاه السلوكى": حيث توجهوا نحو الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والأزمات السياسية لتلك الفترة، كما طالبوا بعلم سياسة يتخذ موقفاً جماعياً موحداً من القضايا السياسية المثيرة للجدل مثل: حرب فيتنام، التمييز العنصري، والفقير، إضافة إلى قضايا البيئة والمرأة. ولاحقاً تمكّن هؤلاء من الحصول على تمويل يسمح بإجراء بحوث حول قضايا ملحة أخرى مثل: الإيدز العلاقة بين حقوق الإنسان، والديمقراطية والرأسمالية، الحرب على العراق الجوانب العرقية والجندرية والطبقية للسياسة العامة.²⁰²

لم يبد هذا "البارادايم" الصاعد حتى تجاه "العلمية"، حيث أنه ركز توصياته على ضرورة إعادة ترتيب الأولويات لتكون "العلمية" في المرتبة الثانية بعد الالتزام بقضايا المجتمع من جهة ومدى الصلاحية الإمبريقية للأبحاث التي تجري باسم علم السياسة. وبرروا موقفهم هذا بكون مسألة تفسير السلوك السياسي لا تشكل حقيقة مركز النقل المعرفي في علم السياسة. ولأجل ذلك سخر أعضاء المؤتمر أكثر جهودهم لمسعى إصلاح APSA، وقدموا مرشحين لمنصب الرئيس ولعضووية مجلس الجمعية، لكنهم أخفقوا في الحصول على الرئاسة رغم نجاحهم في الاستحواذ على بعض المقاعد في المجلس. وتتجذر الإشارة إلى أن بعض رواد "المؤتمر" من أمثال "تيودور لوبي" Theodore Lowi، وأيرا كاتزنيلسن Ira Katznelson، تمكّنوا من الحصول في فترات لاحقة على منصب الرئاسة باعتبارهم مرشحين رسميين.²⁰³

استطاع السلوكيين إلى حد ما احتواء نقمة التيار "ما بعد السلوكى" خاصة في النقطة المتعلقة بعدم ميل "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" للتهجم على النزعنة العلمية، حيث عمل "دافيد إيستون" على التخفيف من حدة التوتر بين "السلوكيين" و"المؤتمريين" من هذه الزاوية، إذ خلال مداخلته له أمام APSA عام 1969 بصفته رئيساً للجمعية تحدث عن "ثورة جديدة في علم السياسة"، بإمكانها أن تجعل التقنيات التي طورها "السلوكيون" و"نظرياته للنظم" على حد سواء في خدمة المشكلات الاجتماعية. لم ينجح "إيستون" في ردم الهوة بين المعسكرين، إلا أنه نجح في إرساء تخصص ثانوي في علم السياسة وهو السياسات العامة. وهكذا ظل السلوكيون في إطار APSA متسبّلين بمقاومتهم للتغيير الذي بشر به "المؤتمر من أجل علم سياسة جديدة"، إلا أن ثقفهم في النفس قد تزرعّت كثيراً، وهم الذين استمانتوا في مقاومة تسييس "حقل علم السياسة"، وهي

²⁰¹ Ibid.

²⁰² NPS Caucus, op cit., p. 503.

²⁰³ John S. Dryzek, op cit., p. 491.

النقطة التي أثارها "أويلاو" Eulaau في تقريره كرئيس لـ APSA عام 1972: "إننا لم ننظم أنفسنا في إطار APSA من أجل ممارسة السياسة أو لنشر وجهات نظر سياسة".²⁰⁴

تختلف الآراء بشأن مدى نجاح "المؤتمر" في تغيير أجندـة البحث في علم السياسة، وبالتالي مدى نجاحـه كثورة معرفـية، فلدى التمـعن في محتـويات الدورـيات الأكـاديمـية الرئـيسـية يمكن لأـي باـحـثـ أنـ يـسـتشـفـ تـرـاجـعاـ نـسـبيـاـ لـكـنهـ ثـابـتـ لـلـأـعـمـالـ الـعـلـمـيـةـ الـتـيـ تعـتمـدـ مـعـايـرـ المـدـرسـيـةـ السـلـوكـيـةـ سـيـماـ توـظـيفـ الـأـدـوـاـتـ الـكـمـيـةـ لـكـنـ وـبـالـمـقـابـلـ فـإـنـ "دـريـزـيـكـ" يـرىـ بـأـنـ "المـؤـتـمـرـ" وـبـدـلـ أـنـ يـتـوجهـ نحوـ تـشـيـيدـ روـابـطـ مـعـ التـيـارـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـالـتـيـ تـحـمـلـ ثـقـافـةـ مـنـاوـئـةـ لـهـ، فـقـدـ كـرـسـ جـهـودـهـ عـلـىـ الصـعـيـدـ الـمـهـنـيـ، مـمـاـ دـعـاـ باـحـثـاـ آخـرـ هوـ "لوـيـ" Lowi إـلـىـ تـسـمـيـتـهـ بـ"المـؤـتـمـرـ" بـجـدـيـدةـ لـعـلـمـ السـيـاسـةـ"ـ، وـمـعـ إـخـفـاقـهـ فـيـ الـحـصـولـ عـلـىـ رـئـاسـةـ الـجـمـعـيـةـ فـقـدـ تـرـاجـعـ طـموـحـ أـعـضـاءـ "المـؤـتـمـرـ"ـ وـأـصـبـحـ تـنـظـيمـهـ مـجـرـدـ قـسـمـ عـادـيـ ضـمـنـ أـقـسـامـ APSAـ يـعـملـ عـلـىـ تـوـيـلـ لـجـانـ عـلـمـهـ بـشـكـلـ ذـاتـيـاـ، أـمـاـ الـمـجـلـةـ الـعـلـمـيـةـ الـتـيـ قـامـ "المـؤـتـمـرـ"ـ بـرـاعـيـتـهـ (علمـ السـيـاسـةـ الـجـدـيـدـ)ـ New Political Scienceـ فـقـدـ ظـلـ اـنـتـشـارـهـاـ مـحـدـودـ، وـلـمـ يـظـهـرـ اـسـمـهـاـ ضـمـنـ تـرـتـيبـ أـبـرـزـ 115ـ دـوـرـيـةـ عـلـمـيـةـ فـيـ التـخـصـصـ. وـقـدـ جـاءـ تـيـارـ "برـيـسـتـروـيـكاـ عـلـمـ السـيـاسـةـ"ـ لـأـعـطـاءـ دـفـعـةـ جـدـيـدةـ لـلـجـهـودـ مـنـ أـجـلـ إـرـسـاءـ تـحـولـ "بارـادـايـميـ"ـ عـمـيقـ يـغـطـيـ نـقـائـصـ "بارـادـايـمـ الـخـيـارـ الـعـقـلـانـيـ"ـ الـذـيـ تـمـثـلـهـ السـلـوكـيـةـ.

المطلب السادس: استعصاء التحول "الباراديسي" مستقبل بروستروفيكا علم السياسة

إن إخفاق ثورة "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" لم يكن إخفاقاً كلياً بل يجب الإقرار بأن عدم نجاحـهم لا يعني بالـ مقابلـ نـجـاحـ "الـسـلـوكـيـةـ"ـ فـهـذـهـ الـأـخـيـرـةـ وـإـنـ اـسـتـمـرـتـ وـهـيـ فـاقـدـةـ لـهـويـتـهاـ الـتـيـ اـنـطـلـقـتـ بـهـاـ وـخـاصـةـ فـيـ الشـقـ المـتـعـلـقـ بـزـعـمـهـاـ إـمـكـانـ إـرـسـاءـ أـسـسـ عـلـمـ مـحـاـيدـ أوـ عـلـمـ مـجـرـدـ مـنـ الـقـيـمـ. فـقـدـ قـدـمـ هـذـاـ تـيـارـ تـنـازـلـاتـ مـتـابـعـةـ عـلـىـ مـسـتـوىـ "الـجـمـعـيـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ لـعـلـمـ السـيـاسـةـ"ـ الـتـيـ تـعـتـبـرـ مـحـركـ التـغـيـيرـ "الـبـارـادـايـميـ"ـ الـذـيـ لـاـ يـمـكـنـ تـجـاهـلـهـ.

تجسدـ هـذـهـ التـنـازـلـاتـ بـتـبـنيـ دـوـرـيـةـ أـكـادـيمـيـةـ جـدـيـدةـ بـعـدـ ثـورـةـ "المـؤـتـمـرـيـنـ"ـ عـامـ 1967ـ سـمـيتـ السـيـاسـةـ وـعـلـمـ السـيـاسـةـ PS: Political Science and Politicsـ وـذـلـكـ اـعـتـبـرـ ضـرـبةـ لـ American Review of Political Scienceـ الـتـيـ اـحـتـكـرـتـ الـمـجـالـ الـأـكـادـيمـيـ لـفـقـرـةـ طـوـيلـةـ نـظـراـ لـصـلـاتـهـ بـ APSAـ، هـذـهـ دـوـرـيـةـ الـجـدـيـدةـ أـتـاحـتـ الفـرـصـةـ لـنـشـرـ أـعـمـالـ عـلـمـيـةـ تـنـوـجـهـ أـسـاسـاـ نـحـوـ معـالـجـةـ مـشـكـلـاتـ الـمـجـتمـعـ وـالـقـضـائـاـ الـمـلـحةـ فـيـ السـيـاسـةـ الـعـامـةـ لـلـدـوـلـةـ الدـاخـلـيـةـ وـالـخـارـجـيـةـ.²⁰⁵ـ وـلـاشـكـ أـنـ هـذـهـ الخـطـوةـ تـعـتـبـرـ مـيـزةـ أـمـرـيـكـيـةـ تـسـتـحـقـ التـنـوـيـهـ، حـيـثـ أـنـ قـوـةـ الـمـنـظـومـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ عـمـومـاـ هـيـ فـيـ قـدـرـتـهـاـ عـلـىـ اـحـتوـاءـ دـيـنـاميـكيـاتـ الـمـجـتمـعـ بـعـدـ تـعـديـلـاتـ بـنـيـوـيـةـ جـزـئـيـةـ تـمـنـعـ تـقـويـضـ النـظـامـ كـلـ فـيـ

²⁰⁴ John S. Dryzek, op cit., p. 491.

²⁰⁵ NPS Caucus, op cit., p. 503.

حال إغفالها، لكن ذلك يحول دون استشفاف التغيرات العميقة التي تحدث على المستوى المجتمعي والعلمي على حد سواء حيث تمر تغيرات عميقة بطريقة هادئة، ومن هنا يمكن مراجعة الرأي القائل بأن الثورة المعرفية "المعيارية" أو "النقدية" لـ"المؤتمريين" قد فشلت أو أنها ليست ثورة على الإطلاق.

لقد تأكّدت قوّة التيارات الداعية إلى إعادة النظر في واقع الحال في الحقل المعرفي لعلم السياسة، عقب قيام مئات علماء السياسة الأميركيين بتأييد محتوى الرسالة الالكترونية التي صاغها وأرسلها مجهول سمي نفسه "السيد بروبيسترويكا" يدعو فيها إلى إصلاح البيت الداخلي لعلم السياسة عبر ضمان افتتاح الحقل على التعديدية المنهجية ورفع الوصاية التي فرضها "الكميون" عليه.²⁰⁶

يقول "روجر سميث" Roger Smith بشأن الثورة التي حاول تيار "البروبيسترويكا" شنها على التقليد البحثي السائد "باراديم الخيار العقلاني" rational choice paradigm، وعلاقته بتيار "المؤتمريين": "لقد جاءت الحركة من أجل بروبيسترويكا في علم السياسة في سياق مختلف عن الذي ظهر فيه "المؤتمر" Caucus حيث اتسم بصراعات داخلية حادة في الأوساط الأكademie حول قضايا مهنية لكن كلتا الحركتين تشتراكان في مسألة واحدة على الأقل وهي رغبتهما في إحداث تحولات عميقة في علم السياسة من أجل تسخيره لخدمة القضايا السياسية الملحة بدل المغالاة في المراجعات المنهجية التي لا تنتهي".²⁰⁷

كعادتها، عملت APSA على احتواء الثورة المنهجية الكيفية qualitative vs quantitative الصاعدة، وذلك بإنشاء أقسام جديدة للبحث [أنظر الجدول في الصفحة التالية]، وكذلك عبر إنشاء دورية أكademie أخرى برعايتها هي "منظورات في السياسة" Perspectives on Politics لنشر الأعمال العلمية لهؤلاء الباحثين المنشقين عنها، رغم أن هؤلاء وغيرهم يتطلعون للدورية الأكثر نفوذا ARPS لا إلى إيجاد فضاءات يتم حشرهم فيها حتى لا يحدّثوا آثارا كبيرة في الحقل المعرفي وبالأساس لتغيير أجندته الحقل.²⁰⁸ لكن هل بقي هناك "أجندّة بحث" في "علم السياسة" ليتمكن إعادة صياغتها والثورة عليها بالمنطق "الكوني"، فنظرية خاطفة إلى الجدول التالي ستؤكّد مدى التضارب الذي وصلت إليه هذه الأجندّة، فإذاً إننا إزاء برامج بحثية لاكتوشية تحوي برامج قوية Strong Programs وأخرى ضعيفة Weak Programs الأولى تقدمية لديها فرصة الاستمرار بينما الثانية اننكاسية ستختفي كقسم من أقسام APSA كما ستحتّم أعمالها العلمية. بالنسبة لـ قابرييل الموند فإن الأمر قد لا ينطوي على برامج بحثية متنافسة لأن وضعية "علم السياسة" بلغت مرحلة الالتفاش، وبعبارة الشهيرة: "مدارس وطوائف في علم السياسة" يلخص هذا الباحث توصيفه لواقع الحقل المعرفي الذي لم يعد فيه أتباع المدارس المختلفة يهتمون أصلاً بما يكتبه ويقوله أتباع المدارس الأخرى.²⁰⁹

²⁰⁶ سيتم التفصيل في أبعد "حركة البروبيسترويكا" في علم السياسة لدى الحديث عن مضلات النقاش الرابع.

²⁰⁷ Roger Smith as quoted in : NPS Caucus, op cit., p. 505.

²⁰⁸ Ibid.

²⁰⁹ Gabriel Abraham Almond, 'Separate Tables: Schools and Sects in Political Science', PS 21 (04) 1990.

جدول رقم 01: أقسام البحث المعتمدة على مستوى "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة"
(يساهم اعتماد أي قسم من طرف APSA في إعطاء الشرعية للتخصص فيه وكذلك جلب التمويل للبحث فيه)

58. الاتصال السياسي 59. السياسة والتاريخ 60. الاقتصاد السياسي 61. علم السياسة الجديد 62. علم النفس السياسي 63. تدريس علم السياسة 64. السياسة والأدب والسينما 65. السياسة الخارجية 66. الانتخابات الرأي العام والسلوك الانتخابي 67. السياسة والدراسات العرقية والإثنية 68. السياسة والتاريخ العالمي 69. المقرطة من منظور مقارن 70. حقوق الإنسان 71. البحوث الكيفية والمتحدة المنهجية 72. السياسة والقضايا الجنسية 73. السياسة الصحية 74. السياسة الكندية	38. الفدرالية والعلاقات بين الحكومات 39. القانون والقضاء 40. الدراسات التشريعية 41. السياسة العامة 42. التنظيم السياسي والأحزاب 43. الإدارة العامة 44. ديناميكيات النزاع 45. النظم التمثيلية والانتخابية 46. البحوث حول مؤسسة الرئاسة 47. المنهجية السياسية 48. السياسة والدين 49. السياسات العرقانية 50. العلم، التكنولوجيا والسياسة البيئية 51. المرأة والبحوث السياسية 52. أسس النظرية السياسية 53. السياسة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال 54. الأمن الدولي ونزع السلاح 55. السياسات المقارنة 56. السياسة والمجتمع في أوروبا 57. سياسة الدولة والسياسة العامة
---	--

المصدر: الموقع الرسمي للجمعية الأمريكية لعلم السياسة، تم دخول الموقع في: 15/01/2009.

http://www.apsanet.org/content_4596.cfm

هذا الوضع لا ينطبق على العلاقات الدولية حيث تعتبر النقاشات النظرية سمة أساسية لمسار تطور الحقل، لكن ومثلاً يوضحه التمثيل البياني التالي فإن طبيعة النقاشات التي سادت في هذا الحقل المعرفي لا تختلف عما عرفه علم السياسة عموماً الذي تعتبر العلاقات الدولية أحد ميادينه، فالبداية كانت عبر الأنطولوجيا كما في علم السياسة ككل، ثم المنهجية وسيادة النزعة السلوكية العلمية لفترة من الزمن، وبعدها ظهر التحدي النقيدي للمعياري. لكن مع بداية التسعينيات يبدو أن علم العلاقات الدولية قد اكتسبت هوية مستقلة حيث أنه استطاع تطوير نقاشات متعددة المستويات وكان له السبق أيضاً في البحث عن مخارج للمعضلة الوضعية/ما بعد الوضعية. لكن يجب التأني قبل التسليم بهذه الأحكام، كونها تحتاج إلى مزيد من التمحیص، وهو ما ستعالجه المباحث والفصول التالية.

المبحث الثالث: النقاشات الثلاثة المؤسسة للبارادایم العقلاني في العلاقات الدولية.

بعد وضع النقاشات النظرية في إطارها الأوسع أي في حقل العلاقات الدولية، فإن هذا المبحث يحاول رصد حركة التحولات البارادایمية إن وجدت في ما اصطلاح على تسميتها بالنقاشات النظرية الكبرى الثلاث والتي أرست لبارادایم عقلاني لاحقاً. ومن خلال ستة مطالب سيتم المقاربة للنقاش الأول من منظور أنه ينطوي على مقابلة لنظرتين أنطولوجيتين للطبيعة الإنسانية، أما النقاش الثاني فمن منظور أنه ينطوي على مقاربتين منهجيتين لطبيعة المعرفة الإنسانية، في حين يقارب هذا المبحث للنقاش الثالث باعتباره أرسى دعائم التوليفة نيو-نيو التي

أهلت البارادايم العقلاني لتقديم تصور متماشٍ إزاء العلاقات الدولية أكثر منه نقاشاً بينها مع النيوماركسية الوضعية.

المطلب الأول: "النقاش النظري الأول"-نظرتان أسطولوجيتان للطبيعة الإنسانية.

أهم ميزة للنقاش النظري الأول بين الواقعية والمثالية هو تركيزه على الأنطولوجيا، أي البحث في الوجود، بينما أن الوضع الذي آلت إليه العلاقات الدولية في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ترك استفهامات عميقة حول كيفية التعامل مع تحديات حقيقة للسلم والأمن الدوليين ومن ذلك الإجابة عن سؤال جوهري: هل تنطوي القومية الصاعدة في ألمانيا وإيطاليا على محصلات عدائية أم أنها ستظل تجليات لثقافة في الحكم لن تتجاوز حدود هاتين الدولتين. إذن فالتحليل على المستوى الأنطولوجي ينصب على البحث في طبيعة الكينونة أي إعطاء مبررات كافية لاختيار وحدة التحليل التي يتم تبنيها، وبالتالي الإجابة عن سؤال ما الذي نريد معرفته؟ ومن ثمة تحديد السمة المميزة لوحدة التحليل هذه عبر الإجابة على السؤال ما طبيعة وجوهر ما ستنصب عليه تحليلاتنا. حول هذه الأسئلة دار نقاش مهم بين المثاليين الليبراليين والواقعيين بُرِزَ فيه "إدوارد هيوليت كار" Edward Halett Carr.

أخذ النقاش ملامحه الحقيقة عندما قام المؤرخ البريطاني "إدوارد هـ. كار" بنشر كتابه: "السنوات العشرون للأزمة" 1919-1939 The Twenty Years Crisis ، أي قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بشهور، وقد كان يود من خلاله أن يبرز جوانب القصور في الليبرالية الأوروبية بشكل عام، وفي الأساس الإيديولوجية لمعاهدة فرساي بشكل خاص، حيث أشار "كار" في

كتابه المنتشر عام 1943 بعنوان: "شروط السلام" إلى أن الليبرالية كأيديولوجية قد تجاوزها الزمن، فالافتراض الفلسفى المتضمن في نظرية "آدم سميث" الاقتصادية يعبر عن مطامح مثالية تعوزها الحقائق التي تدعمها، والمعروف أن هذه النظرية تقوم على افتراض أن الحرية الفردية هي أفضل ضمان للثروة الاقتصادية، وعلى افتراض آخر يقضي بأن اليد الخفية تحافظ على توازن السوق في ظل الاقتصاد الحر.²¹⁰

وفي الاتجاه ذاته، رفض "كار" التصورات الخاصة بـ "التوازن الطبيعي التقائى" وـ "التطور التاريخي الإيجابي" والميول الخيرة للإنسان، وأضاف "كار" أيضاً أن حركة التویر كانت ساذجة في نزعتها المتفائلة، وبأن "ليبرالية" "آدم سميث" وـ "مثالية" "كانط" يرمان إلى الفترة التي كانت أوربا خلالها تعيش مرحلة الطفولة، ويقترح تبعاً لذلك أن تتم العودة إلى الافتراضات الأكثر واقعية والتي برزت في بوادر الفكر السياسي الأوروبي الحديث ولاسيما في النظرية السياسية عند "ميكيافيلي" وـ "هوبز". ولم يتوقف "كار" عند نقد الليبرالية الاقتصادية "المثالية" "الكانطية"، بل كان هدفه النهائي هو إنتاج نظرية عقلانية للعلاقات الدولية مستلهمة من النزعة التاريخية الألمانية.²¹¹

جسد تمرد "إدوارد هـ. كار" على الافتراضات الفلسفية للفكر التویرى، طموحه لإعادة إحياء نظرة رواد الفكر السياسي الحديث للعالم، ويجسد ذلك كله تأرجح المفكرين الأوروبيين بين تصورين اثنين للطبع الإنساني، ويمكن فهم هذا التأرجح كخلاف جوهري حول مسألة إن كان الإنسان يميل بالفطرة إلى الخير أم إلى الشر، وإلى أي مدى يمكن أن تتحسن أحوال البشرية. لقد سبق للفيلسوف والمؤرخ الإيطالي في القرن التاسع عشر، "جيامباتيستا فيكو"، أن وصف النقاش حول الطبيعة البشرية بأنه نقاش بين من ينظرون للإنسان "كما يجب أن يكون" ومن ينظرون إليه "كما هو"، هذا هو الخط الذي رسمه "فيكو" بين "المثاليين" وـ "الواقعيين"، أو بين "الثوريين" وـ "المحافظين"، فالإنسان بالنسبة للواقعيين (المحافظين) يميل إلى الشر بالفطرة ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل تغيير طبعه هذا، أما بالنسبة للمثاليين (أو الثوريين)، فيرون أن الميول الفطرية للإنسان إيجابية وأن شقاء البشرية يعود إلى ظلال البني الاجتماعية والسياسية ورثها من ماض غامض.²¹² إذن، فإن على المرء، من وجة النظر المحافظة، أن يتقبل وأن يتكيف مع البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها، أما من وجة النظر الثورية، فإن البيئة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هي ما يتوجب تكييفه وتحويله وفق إرادة وآمال الإنسان.²¹³

هذا الخلاف بين "المثاليين" وـ "الواقعيين" يمكن تأصيله في الخلاف بين المفكرين الذين سبقو سقراط، فـ "بياس بربن" شدد على أن أغلب الناس أشرار. وفي الاتجاه ذاته، ارتأى "بارمنيدس" أن الطبع الإنساني لا يتغير. بالمقابل، كان "هيراقليطس" يؤمن بالتغيير المستمر وبإمكانية إحداث تغيرات في الطابع الإنسانية. وفي العصور القديمة أيضاً، نجد "كرينوفون"

²¹⁰ Charles A. Jones, 'E.H. Carr and international relations: a duty to lie' (UK: Cambridge University Press, 1998), p. 12.

²¹¹ Charles A. Jones, op cit., p. 7.

²¹² Emmanuel Navon, 'The 'Third Debate' Revisited', *Review of International Studies* 27 (04) 2001, p. 612.

²¹³ Ibid., p. 613.

و"أرسطو" قد تبنيا النظرة الواقعية إزاء الطبع الإنساني. بينما تبني "أفلاطون"، و"أبيقر" و"ديوجين" من جهتهم النظرية المثالية: والتي تقضي بأن "الجوانب الخيرة" الموجودة في الإنسان ستتعاون الظهور بمجرد أن تتخلص البشرية من القواعد والتقاليد التي تكتنفها المراوغة.

هذا النقاش بين المفكرين ما قبل "سقراط" و"المفكرين القدماء" بشكل عام استمر في كل مراحل التاريخ الأوروبي، حيث نجد في العصور الوسطى كل من "الأكونيني" و"أغسطين" قد ترجموا تعاليم الكنيسة حول الميلول الشريرة للإنسان إلى أفكار سياسية، بينما أسس المفكرون "المهرطقون" مثل "بوقوميل" و"توماس مونترز" و"جان بويكلسون" لمذاهب مسيحية تتحدى الافتراضات المتشائمة لتعاليم الكنيسة، أما المفكرون الأوروبيون الذين يعودون إلى بواكير العصر الحديث مثل "ميكيافيلي"، و"هوبز"، و"فيكو" فقد تبنوا نظرة واقعية حول الطبع الإنساني، وسار في الاتجاه نفسه، كل من "إيدموند بيرك" و"جوزيف دوميستر"، وذلك عقب الثورة الفرنسية.²¹⁴

وبمقابل هذا التيار الواقعي ظهر توبيريوا القرن 18 واشتراكيو القرن 19 ("فولتير"، "روسو"، "كانط"، "ماركس" وغيرهم) مؤسسين فلسفتهم على إدراكات مثالية حول الإنسان، وعلى الاعتقاد بأن هذا الطبع الإيجابي للبشر جنبا إلى جنب مع إحداث تحسينات في القواعد الاجتماعية والدولية فإنه سينتاج عنها الشروط الضرورية لتحقيق ثروة أعظمية وسلام أعظمي، وسعادة أعظمية ومثلما تظهره الأمثلة السابقة فإن الانقسام بين المثالية والواقعية تتوافق مع الخط التميزي الذي رسمه "فيكو" بين من يرون الإنسان "كما هو" ومن يصورونه على "ما يجب أن يكون عليه".

لقد انتقد الواقعيون بشدة انهم المثاليين في وضع تصورات لكيفية بناء مؤسسات دولية تعمل على كبح النزعة العدائية لبعض الدول في النظام الدولي، حيث بالغ هؤلاء في وصفهم للتدابير والهيكلة المؤسساتية التي يمكن الاعتماد عليها لاجتناث أسباب الحروب بين الدول، صحيح أن النتائج المدمرة للحرب العالمية الأولى كانت ماثلة للجميع، لكن بالنسبة لـ "كار"، فإن اقتراحات الليبراليين آنذاك باعتبارهم يمثلون التقليد الباحثي المهيمن mainstream كانت طوباوية إلى حد بعيد.²¹⁵

ورغم أن الليبراليين ساهموا مع كل هذه المآخذ في التأسيس لعلم السياسة عبر فتح فرع العلاقات الدولية كتخصص مستقل عن العلوم السياسية في جامعة "أبريزيفيث" Aberystwyth بـ "ويلز" Wales، إلا أنهم وحسب الواقعيين، لم يتمكنوا من إضفاء العلمية على الدراسات في هذا الحقل المعرفي، فكل ما أنتجته المدرسة الليبرالية المثالية هو محض مقاربة مبطنة بالقيم وتعوزها النظمية، بل أن "كار" ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قارن بين الدراسات الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية وقال أنها كالفرق بين الكيمياء الحديثة المبنية على العلمية والكيمياء القديمة التي

²¹⁴ Emmanuel Navon, op cit., p. 613.

²¹⁵ Charles A. Jones, op cit., p. 47.

ترتكز على خرافات من قبيل تحويل المعادن إلى ذهب، إنها خرافة أخرى يروج لها المثاليون وهي تحويل الدوافع الشريرة للناس إلى دوافع خيرة.²¹⁶

لقد حاول "إدوارد كار" أن يساهم في نقد الإدراكات "المثالية" للطبع الإنساني من خلال تقويض أساس الافتراضات الأيديولوجية "اللتوير" و"الليبرالية الاقتصادية"، ومن خلال تأسيس لنظرة جديدة عما يجب أن تكون عليه العلمية لدى دراسة "السياسة الدولية"، إلا أن نقه هذا ووجه من طرف مفكرين أوربيين مرتبطين بالتقليد الليبرالي فقد وصفه "فريديريك فون هايك" بأنه واحد من "الشموليين" المنتشرين بيته، أما "ستانلي هوفرمان" فشدد على أن "وراء الإدعاء بالواقعية، تقبع رجعية طوباوية". وهو رأي يتفق معه إلى حد بعيد أحد أبرز منظري العلاقات الدولية في الوقت الحالي "بريان شميدت" Brian Schmidt²¹⁷ ويحاول المطلب التالي أن يقف على أهم المأخذ ضد النظرة الواقعية الكلاسيكية في سياق النقاش النظري الأول.

المطلب الثاني: مأخذ الليبراليين ومؤرخي العلم على النقاش النظري الأول.

خلافاً لما تصوره الأدباء المهمة بتاريخ الحقل المعرفي للعلاقات الدولية فإن "المثاليين" [حسب الوصف الواقعي] لم يستسلموا للانتقادات الواقعية بل أن ثلاثة من الليبراليين عموماً صاغوا ردوداً منهجية استهدفت الطرح الواقعي في العمق مثل "نورمان آنجل" Norman Angell و"ليونارد وولف" Leonard Woolf [خاصة من خلال كتابه: الحرب من أجل السلام 1940] و"ريتشارد كوفينترى" Richard Coventry وألفريد زيمرن Alfred Zimmern، كما تتجاهل هذه الأدباء أيضاً حقيقة أن "كار" تأثر كثيراً بهذه الانتقادات إلى درجة أن طروحاته سيما تلك التي ضمها كتابه: "القومية وما بعدها" Nationalism and After والذي صدر سنة 1945 جاءت أقرب إلى الأدباء الوظيفية التي تبلورت لاحقاً على يد "ميتراني" Mitrany حيث اعتبر هذا النهج بمثابة حل للمشكلات التي يعاني منها العالم.²¹⁸

ومن بين هذه الانتقادات والردود من المهم الإشارة إلى رد "أنجل" على انتقاد "كار" للمثاليين في كتابه المرجعي: "عشرون سنة من الأزمة" والذي يستهجن فيه الاعتماد على العمل الجماعي، حيث قال "أنجل" أن الخيار لم يكن بين العمل الجماعي وأداة أخرى أكثر فعالية بل بين اللا فعل وترك الدول الأخرى [في إشارة إلى ألمانيا وإيطاليا] تفعل ما تشاء في حين كان بالإمكان

²¹⁶ Milja Kurki and Colin Wight, 'International Relations and Social Science', in Timothy Dunne et al. (eds.), 'International Relations Theories: Discipline and Diversity' (UK: Oxford University Press, 2007), p. 16.

²¹⁷ Emmanuel Navon, op cit., p. 613.

²¹⁸ Lucian M. Ashworth, 'Did the Realist-Idealist Great Debate Really Happen? A Revisionist History of International Relations', *International Relations* 16 (01) 2002, p. 38.

توظيف قوة الجماعة لكيجها. وفي واقع الأمر، فإن "كار" وعددا من الواقعيين كانوا في معسكر التهدئة بينما كان عدد كبير من الليبراليين في معسكر "الصقور" حسب السياق الذي كان سائدا آنذاك.²¹⁹

في رده على الافتراضات الواقعية أشار وولف إلى نقطة أساسية من ضمن المسائل التي كانت مطروحة للنقاش آنذاك: وهي كيفية التعاطي مع المخاطر التي تهدد الأمن الدولي، إذ استعرض "لينارد وولف" ثلاثة استجابات ممكنة: الأولى تتمثل في ترك الأمور على حالها والسماح للطرف الأقوى بالهيمنة وهذا ما تعبّر عنه وجهة النظر الواقعية؛ الطريقة الثانية، وهي تعتمد على عصبة الأمم وتنطوي على تغيير الأوضاع التي قادت إلى الحرب في المقام الأول. أما الطريقة الثالثة فهي تعتمد على تغيير الأوضاع التي تقود عادة إلى ظهور الخلافات واحتدام الصراعات بين الدول، ويعتمد في شرح هذا الخيار الأخير على دعوة الباحثين لتخيل مشهد الأفراد وهم يهمنون للالتحاق بمنازلهم عبر "الباص" في وقت الذروة. هذا المشهد يحاكي تنافس الدول على الموارد النادرة، ويمكن حل هذه المعضلة عبر توفير عدد كبير من "الباصات"، لكن هذا خيار مثالي قلما تجمع الشروط لتحقيقه، ليبقى خيار وحيد يجسد طبيعة الأفراد المتحضرين، وهو الوقوف في طابور تكون الأولوية فيه لمن قدم مبكراً لموقف "الباص". إذا كان الواقعيون يقولون أن الاقتتال ظاهرة إنسانية فإن الطابور ظاهرة إنسانية أيضاً لكنه أكثر فعالية في حل المشكلات المتصلة بالندرة.²²⁰

صحيح أن الواقعيين يبحثون دوماً عن واقع توزيع القوة وإعطائه الأولوية في تفسير الأحداث الدولية، لكن النقطة التي أهملوها هي أن الأفكار التي تقف وراء القوة أهم من القوة ذاتها. وللتوضيح ذلك يضرب "أنجل" مثلاً بالعيب، حيث يتساءل إن لم يكن العبيد واقعياً أكثر قوة من سادتهم، لكن الأفكار التي يحملونها هي ما يجعل منهم في وضع الضعف. وبالنسبة للواقع الدولي، فإن ذلك يؤكد على أهمية الاهتمام بمعالجة الأفكار التي تSEND التوظيف العدائى للقوة، وسيكون ذلك أكثر فعالية.²²¹

أما بالنسبة لأخذ مؤرخي العلم على النقاش النظري الأول، ومن بينهم "لوتشيان آسوروث" Lucian Ashworth²²²، "جويل كويرك" Joel Quirk²²³ و"دارشان فيقنيسفاران Peter Wilson Vigneswaran"²²⁴، حيث يشوب تسمية المثاليين والواقعيين، وبين غياب أية مؤشرات واضحة عن حدوث النقاش فعلياً أم أن "كار" اصطنع سجالاً خيالياً لبناء الحقل المعرفي لعلم

²¹⁹ Ibid.

²²⁰ Lucian M. Ashworth, op cit., p .40.

²²¹ Ibid., p .41.

²²² Ibid.

²²³ Joel Quirk and Darshan Vigneswaran, 'The Construction of an Edifice: The Story of a First Great Debate', *Review of International Studies* (31) 2005, pp. 89-107.

²²⁴ Peter Wilson, 'The Myth of the "First Great Debate"', *Review of International Studies* (24) 1998, pp. 10-12.

السياسة وهو فعليا نجح في الثانية وأخفق في استثارة نقاش مهتم بالشكل الذي تصوره الكتب الأكاديمية حاليا.

بداية بعدم دقة تسمية المثاليين الليبراليين بـ "الطوباويين": كار نفسه لم يطلق لفظة مثالي بل كان يصف خصوصاته المزعومين بـ "الطوباويين" utopians، لكن إذا راجعنا كتاباته سنجد أنه يكتفي في النهاية بالإشارة إلى خصوصاته في حواشى كتابه، لكنه يجمع فيها عددا كبيرا من المؤلفين الذين يتقاسمون ميلهم الليبرالية في بوتقة واحدة رغم الاختلاف الواضح بينهم، فالليبرالية التي تحدث عنها "كار" ولاحقا "مورفينتو" تم تصورها على أنها تقاسم تقليدا بحثيا واحدا وتتصورا متطابقا وهذا ما لا نجده فعليا في التقليد الباحثي الليبرالي.²²⁵

إن تصنيف الافتراضات "المثالية" بـ "الطوباوية" كان هناك الكثير من القرائن التي تدحضه، فهو لاء ساهموا من خلال العديد من الكتابات في الحفاظ على الوضع القائم في ميزان القوى، ولأجل على ذلك من وصفهم السفن الحربية والغواصات بأسلحة الضعف، وذلك ليس له سوى هدف واحد وهو تثبيط عزيمة الدول التي ترغب في تطوير ترسانتها الحربية عبر امتلاك هذه الأسلحة حفاظا على التفوق البريطاني والأمريكي. هذه الوضعية لا تختلف عن وصف الليبراليين في الوقت الحالي لغاز الأعصاب وغيره من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية بشتى النعوت السلبية رغم أن الدول الكبرى تمتلك أسلحة أكثر فتكا وهي الأسلحة النووية، وذلك ليس له تقسيم آخر غير حرمان الدول الفقيرة من امتلاك رادع أقل ثمنا. بل أن المثاليين في حالات معينة قدموا خدمات أفضل للواقعية السياسية Reapoltik من تلك التي قدمها الواقعيون كاتجاه نظري، فـ "نورمان أنجل" Norman Angell في كتابه "الوهم الكبير" Great Illusion الذي صدر في 1911 كان قد امتدح الاستعمار بطريقة ذكية من خلال القول بأنه ساهم وبسهام في توثيق الروابط بين شعوب العالم، وبأنه عمل على تمدين مناطق من العالم كانت تقع في التخلف والظلم، ومن خلال قيامها بذلك فإن الدول الغربية الكبرى لا تتدخل في مسار تطور الحضارات الأخرى وإنما تساعدها على اختصار الوقت والحصول على مقومات التحضر.²²⁶

هل كانت المسألة الأخلاقية مطروحة على الإطلاق في تلك المرحلة كما قد يتبادر إلى الأذهان عند استرجاع المقوله الشائعة: "المثاليون" يهتمون بما يجب أن يكون بينما يصر الواقعيون على النظر إلى ما هو كائن. الإجابة "لوتشيان آشورث" هي بالمعنى فالأدبيات التي تمثل الاتجاهين كانت مولعة بالنظر في أفضل طريقة لتوظيف توازن القوى من أجل الحفاظ على الاستقرار العالمي الهش وليس في أفضل الطرق للعيش على الكوكب.²²⁷

إن ما يعرف بالنقاش النظري الأول بين "المثاليين" وـ "الواقعيين" في العلاقات الدولية هو جزء من نقاش فلسفى أوسع وأعمق انقسم حوله المفكرون الغربيون منذ ما قبل سقوط إمبراطورية أيامنا هذه. إذن فلننظر إلى العلاقات الدولية لم يبدؤوا هذا النقاش ولم ينهوه ولم يقدموا إسهاما أو إثراء ذاتى معنى.

²²⁵ Lucian M. Ashworth, op cit., p. 36.

²²⁶ Norman Angell as quoted in Lucian M. Ashworth, op cit., p. 37.

²²⁷ Lucian M. Ashworth, op cit., p. 38.

ونخلص بذلك إلى أن "النقاش النظري الأول" لم ينته بعد، فهو نقاش فلسفى، بل ويعتبر مصدر الانقسام بين "اليمين" و"اليسار" في الديمقراطيات الحديثة. لكن يجب الإقرار بأن أسطورة النقاش النظري الأول، على حد تعبير "بيتر ويلسون" Peter Wilson هي ما ساهم في إثارة نقاط عد للجدل الفكري بما ساهم في ربط السياسة الدولية بالمارسة السياسية²²⁸ إلا أن هذا التخصص الناشئ، ولدى بلوغه "مرحلة المراهقة" adolescent IR على حد تعبير "كولين وايت" Colin Wight، أضحت يبحث عن هويته الضائعة بين وصاية التاريخيين والطوباويين، فأغلبية باحثي العلاقات الدولية، بل المؤسسين للحقل أنفسهم قدموا من حقول معرفية مجاورة، بحيث حاولوا إعطائه صبغة معينة، وبحيث بدت التأثيرات الناجمة عن هذه الانتتماءات المتعددة في تدريس العلاقات الدولية عبر تقديم مزج من الأدبيات غير المتسقة، فكان من الطبيعي أن يجلب بعض باحثيه أدوات "النزعية السلوكية" [العلمية] من أجل التمكين لدراسة نظرية وإيصال هذه التخصص مرحلة النضج. وكان ذلك بمثابة إيدان لدخول "علم العلاقات الدولية" مرحلة النقاش النظري الثاني.²²⁹

المطلب الثالث: "النقاش النظري الثاني" - نظرتان منهجيتان لطبيعة المعرفة.

يجمع "النقاش النظري الثاني" بين المقاربة "العلمية" للنظرية، من جهة والمقاربة "التاريخية"، من جهة أخرى. يعتقد أصحاب المقاربة "العلمية" في إمكانية اكتشاف القوانين العامة التي يزعمون أنها تحكم سلوك الدول، بينما يرتأى أصحاب المقاربة "التاريخية" أن كل ما يسعون إليه هو البحث عن أنماط أو تماثلات تقريبية في السلوك، والتي تعتمد صدقيتها الإمبريقية على توفر سياق تاريخي معين. وأكثر من ذلك، فيبينما تعتبر المقاربة "العلمية" مقاربة استقرائية تعتمد على تراكم المعطيات، فإن المقاربة "التاريخية" في الأغلب مقاربة استنباطية تقوم على البحث "التاريخي".

غير أن النقاش بين العلميين والتاريخيين جزء من طرح أوسع وأقدم، ذلك التنازع بين نظرتين تعكسان "التصور المقيد" و"التصور غير المقيد" للمعرفة. حيث أن لنظرية غير المقيدة تتوافق مع الاعتقاد القائل بأن العقل هو الطريق الوحيد للحقيقة؛ وبخلاف ذلك، فإن النظرية المقيدة ترتبط بالاعتقاد القاضي بأن العقل ليس الطريق الوحيد للحقيقة وبأن المعرفة الإنسانية لا يمكن لها أن تكون مطلقة. وفي هذا الصدد، تمثل العقلانية النظرة غير المقيدة للمعرفة، استخداماتها وتطبيقاتها في المجالين السياسي والاجتماعي، هو ما يدعوه "مايكل أوكتشوت" Michael Oakeshott العقلانية السياسية. فالعقلاني، وفق "أوكتشوت"، ليس من المناسب أبدا التشكيك في

²²⁸ Peter Wilson, op cit., p. 12.

²²⁹ Colin Wight, 'Philosophy of Social Science and International Relations', in Walter Warlsnaes et al. (eds.), 'Handbook of International Relations' (UK: SAGE Publications, 2002), p. 26.

قوة عقله [عندما يستخدمه بشكل سليم] في "تقدير قيمة الشيء، وصدق الرأي وصواب الفعل"، كما لا يمكنه أن يتصور نظاماً سياسياً لا ينطوي على "حل المشكلات"، ولا أن يتصور "مشكلة سياسية" لا تتوفر على أي "حل عقلاني".²³⁰

إن هذا الانقسام بين العقلانية السياسية وما يمكن تسميته العقلانية المقيدة [أو المحدودة] تعود إلى العصور القديمة، حيث يصف "أفلاطون" المعرفة في مؤلفه "الجمهورية"- بأنها "المرحلة الكاملة والنهائية، وذلك عندما يقود العقل الفيلسوف من ظلمات الكهف إلى نور المعرفة الخالصة من أية خلقيات أو أفكار مسبقة، وحينها فإن عينا الفيلسوف تتأملان في حقائق ثابتة لا تتغير، إنه حيز [أي حيز المعرفة الخالصة] لا مجال فيه لـاللادuel والمعاناة، لأن كل شيء يخضع للعقل والنظام، وأن العقل يمكنه أن يبلغ المعرفة الكاملة، بحيث يتتيح ذلك للفيلسوف تصميم وتنظيم مجتمع كامل يقوم على دعائم عقلانية". وعلى النقيض من أستاده، لم يعتقد "أرسطو" أبداً في إمكان أن يقودنا العقل لـ"الكمال المعرفي"، كما رفض الفكرة القائلة بأن المجتمع يمكن تنظيمه وفق التصورات المجردة للفيلسوف، ولذا فإن على المجتمع -حسب أرسطو- أن يتبع القواعد التي تتبع منه فالممارسات والقوانين تتتنوع بحسب السياقات الاجتماعية والتاريخية، وفي حالة المنظمات السياسية المختلفة، فإنه من المستحيل تدوين كل شيء بدقة، فما يتم تدوينه يجب أن يتسم بالعمومية، غير أن الأفعال التي ترصدتها الملاحظات تتسم بالخصوصية.²³¹

اكتسب النقاش حول طبيعة وقدرة العقل نفحة جديدة أخرى في القرن 17 مع كتابات "ديكارت"، "باسكار" و"هيوم". إذ اعتقد "ديكارت" أن الحقيقة توجد في ذاته، وبأنه بصدر البحث عن المنهجية الصحيحة لبلوغ المعرفة بكل شيء. مطاراتات "ديكارت" الفلسفية قادته إلى نتيجة مفادها أن مصدر الأخلاق هو الفكر العقلي (يكفي أن تفكر جيداً لفعل ما هو صحيح)، وبأنه يجرد البحث عن الحقيقة في العقل الإنساني وليس عن طريق التجربة ولهذا اختار ديكارت أن يكشف رسالته في المنهج بالفرنسية بدلاً من اللاتينية لأنه أراد أن يتوجه إلى الذين يستعملون فقط عقلاً المحسن والطبيعي في مقابل أولئك الذين لا يؤمنون سوى بالكتب القديمة.

وبعبارة أخرى، ارتى "ديكارت" أن الحقيقة توجد في عقول الأفراد الذين يعتمدون على عقلاهم المحسن، كما أن الفكر الاستباطي حسب اعتقاده يجب أن يشكل القاعدة للبحث العلمي، أما التعليم القديمة والتجارب والاستقراء فهي لا تمثل مصدراً للمعرفة الصحيحة، لأنه وحده العقل يستطيع فتح منفذ للمعرفة. ذلك ما لخصه "هوركمایمر" بأن "العقلانية الديكارتية تدعى قدرة العقل على إنتاج المعرفة خارج العقل ذاته".²³²

²³⁰ Michael Oakeshott, 'On Human Conduct' (UK: Oxford University Press, 1990), p. 40.

²³¹ لقد امتد هذا الخلاف في الرؤى بين أفلاطون وأرسطو حول العلاقة بين "العقل" و"الحقيقة" وحول قدرة الفيلسوف على تنظيم المجتمع بناءً على دعائم عقلانية بحتة، إلى انقسام المفكرين الغربيين خلال كل المصور حول الخط ذاته. كما أخذ الانقسام نفسها جيداً بدخول مفهوم الوحي (المستثنى من الإنجيل) إلى الفكر الغربي مع انتشار المسيحية. يعبر "ليو شترواس" عن ذلك بكون "التاريخ الغربي كله يمكن النظر إليه كمحاولات متكررة لإيجاد صيغة توافقية أو تركيبية بين الإنجيل والفلسفة الإغريقية". هذه المحاولات التي لا تنتهي تتجسد بوضوح في البحوث الفلسفية لـ"الأكوبيني" وـ"أوغسطين"، وـ"ميونيدس"، أنظر:

Harold I. Brown, 'Rationality' (UK: Routledge, 1990), pp. 40-44.

²³² Harold I. Brown, op cit., p. 42.

تحدى "باسكار" و"هيوم" موقف "ديكارت"، وإن اختلفا في الأسباب، حيث أشار باسكار إلى أن رفض ديكارت الاحتكام إلى "الكتب المقدسة" والاعتماد على التفكير العقلاني يقود نحو الإلحاد (وهذا رغم أن ديكارت سبق وأن ادعى استناد نظامه الفلسفية إلى وجود الله) لقد أحسن "باسكار" بأن تقدم العلم (وخاصة الفلك) في عصره تركت الإنسان وحيداً في وجه السكون الأبدي للفضاء "اللامنهي" ، بحيث كان الإيمان بمثابة الرهان الممكّن عندما يعجز العقل عن الإجابة على الأسئلة الأساسية للقضية الإنسانية.

وهكذا رفض "باسكار" المنظور العقلاني لـ ديكارت بل وكتب بأنه لن يسامحه: "لا يمكنني أن أسماح ديكارت لأنه أراد من خلال كل فلسفته أن يتخلص من الله، في البدء كان بحاجة إلى الاستعانة بمبدأ وجود الله لوضع عالمه في السكة، إلا أنه بعد ذلك لم يعد محتاجاً إليه فعمد إلى التخلص منه في تحاليله، إن فكر ديكارت عقيم ومشكك". وأكثر من ذلك، قال باسكار أن الإنسان المثقف قد يكون منقسمًا بين ما يسميه روح الرياضيات (المنطق، العقل) وروح الذكاء (الحدس، الإيمان) وبأن البحث عن الحقيقة لا يمكن أن يعتمد على الروح الرياضية وحدها.²³³

من جانبه عمد "دايفيد هيوم" في مؤلفه "رسالة في الطبيعة الإنسانية" إلى دحض الافتراض الرئيسي لـ ديكارت القاضي بأنه يمكن استنباط الحقيقة من العقل الممحض، وذلك طالما أن الأفكار تستقى من التجربة. وبعبارة أخرى، فإن العقل الإنساني ليس بالخزان الأولي للحقيقة، بل أنه يتعلم من خلال الانطباعات والتجارب (كل أفكارنا البسيطة في مظهرها الأول تستقى من انطباعات بسيطة). واستطرد "هيوم" قائلاً أن الفلاسفة الذين ادعوا بوجود أفكار سابقة في الوجود أو بوجود ما يسمى بـ "العقل الممحض" (لدى "أفلاطون" و"ديكارت") لا يبرهنون بذلك سوى على شيء واحد وهو أن هذه الأفكار ذاتها مسبوقة بإدراكات أخرى تستقى منها وتعبر عنها. وبخلاف "ديكارت"، فقد كان "هيوم" أكثر حذراً في تمييزه بين العقل والأخلاق. إذ بينما ارتأى ديكارت بـ "أنه يكفي أن يفكر الإنسان بشكل جيد ليفعل ما هو صحيح"، إلا أن "هيوم" أشار إلى أن: "قواعد الأخلاق ليست استنتاجات عقلية". أدرك كانتن بأن "رسالة" "هيوم" تمثل تحدياً جدياً للفلسفة العقلانية، فحاول أن يعيد بناء قواعد صلبة للعقلانية، وذلك في مؤلفه "نقد العقل الممحض" Kritik der reinen Vernunft. قام "كانتن" بتحديد المجالات التي يعتبر فيها العقل قادراً على البحث عن الحقيقة، وأشار "إلى أنه طالما أن العقل الممحض يمتلك هذه القراءة، فإن الفرد قادر على الكشف عن الحقيقة عبر الاستنباط العقلاني وبعدها يجرِ الطبيعة على الإجابة عن أسئلته".²³⁴

وهكذا يتبيّن أن الفلسفة الأوروبيّين في القرنين السابع عشر والثامن عشر جددوا فعلاً النقاش حول طبيعة وقدرة العقل: بالنسبة للعقلانيين، يمكن إيجاد الحقيقة في العقل الإنساني في وجهه النقي، أما بالنسبة للإمبريقيين، فإن الأفكار تعتبر ثمرة للتجربة، فالمسألة إذن هي بما إذا كان الإنسان يستقى معرفته من عقله أم من التجربة.

النقاش حول مصدر المعرفة ما فتئ ليتوسّع نحو مسألة ما إذا كان العقل وحده قادرًا على ترجمة وتفسير الأحداث التاريخية وتحسين أحوال المجتمع. وقد كان رد الكاريزيّين (أتباع

²³³ Harold I. Brown, op cit., p. 48.

²³⁴ Harold I. Brown, op cit., pp. 49-50.

ديكارت) العقلانيين بأنه يمكن تفسير التاريخ تفسيرا عقلانيا، وبأنه يمكن أيضا إعادة تنظيم المجتمع على أسس صحيحة بفضل الفكر العقلاني، وفي المقابل فإن جل الموروث الفكري للنزعه الإمبريالية الانجليزية يشدد على أهمية التقاليد في تحقيق سعادة المجتمع، ويتحدى المنظور الذي يدعى بوجود قانون يحكم مسار التاريخ.²³⁵

هذا الطرح الفلسفى تجلى بوضوح خلال القرن 18 في الرؤى المتناقضة لكل من "روسو" و"بيرك"، ف"روسو" كان يؤمن بأن "الإنسان ولد حرا، لكنه مقيد بالأغلال في كل مكان، ومع ذلك فسوف يستعيد حريته الأصلية، عندما يعيد العقل تنظيم المجتمع ويحرره من التقاليد والمعتقدات التي قيدت حريته، والتي تراكمت عبر السنين بسبب الجهل والتعصب".

في حين عارض "بيرك" فكرة "روسو" التي تقضي بأن الحرية الإنسانية تتواافق مع "الحالة الطبيعية" ومن ثمة يمكن استعادتها بالاعتماد على العقل، بالنسبة لـ"بيرك"، تعتبر الحرية نتاجا للمجتمع المدني، وهو الإطار التقليدي الذي أرساه الناس في ظل سياق ثقافي وتاريخي معين بهدف مواجهة أخطار الطبيعة، لقد استمر المجتمع المدني بفضل تجارب أجيال متلاحقة لكنه يتعرض لمخاطر مستمرة من جانب الثوريين الذين يستخون بالتجربة ويعتبرونها حكمة الأميين. هؤلاء الثوريون، ومن خلال محاولتهم إعادة تعريف الطبيعة الإنسانية عبر "العقل المحسن" وإعادة تنظيم المجتمع بالاعتماد على تصورات مجردة، انبهروا بنظرياتهم حول حقوق الإنسان بحيث نسوا تماما طبيعته.

يمكن اعتبار الرؤى المتعارضة بشكل جزئي بين "روسو" و"بيرك" حول مسألة الحرية وسعادة المجتمع بمثابة امتداد للنقاش العقلاني/الإمبريالي ليشمل مجال الفكر السياسي متحورا حول السؤال: فيما إذا كان الإنسان قادرا على إعادة اكتشاف حريته الفردية والعدالة الاجتماعية عبر تطبيق المبادئ العقلانية الخارجية التي تسقه في الوجود، أم أن الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية ذاتها تعتبر نتاجا للتطور التاريخي بحيث اكتسبها الإنسان بالتجربة ونتيجة لكافحه ضد الطبيعة؟

في القرن 19، أضاف العقلانيون السياسيون إلى ادعائهم الخاص بالتفصير العقلاني للتاريخ اعتقادا آخر بإمكانية إعادة تنظيم المجتمع على أسس عقلانية، حيث شدد كل من "كوندورسيه"، "فوربيه"، "سان سيمون" و"كونت" على أنهم اكتشفوا (عبر الاستبطاط العقلاني) قانونا علميا يحكم التطور التاريخي، وبأنهم قادرون على إعادة تنظيم المجتمع وفقا للمبادئ العقلانية بغية تحقيق مستويات يوتوبية من الثروة والسعادة.

وحتى "كارل ماركس" أرسى "اشتراكية العلمية" على قراءة علمية للتاريخ. وهكذا فإن التاريخية (التي تعنى الاعتقاد بوجود قانون يحكم الأحداث التاريخية بحسب تعريف "كارل بوبر") لطالما شكلت جوهر الافتراض الأيديولوجي للاشتراكية، والتي تعنى من جهةها الاعتقاد بأنه يمكن للمجتمع أن يبلغ المستويات الأمثل للثروة والعدل عبر التخطيط والتنظيم العقلانيين.²³⁶

²³⁵ Ibid.

²³⁶ Emmanuel Navon, op cit., pp. 615-617.

في ظل هذا الصراع المبطن حول الطرف الذي يمتلك تعريفه للعلمية ولعلمية العلاقات الدولية الشرعية أثير النقاش النظري الثاني، وهذه المرة يبدو أن بعضًا من لازالوا يتبعون التقليد البحثي المثالي جنبا إلى جنب مع خصومهم الواقعين الكلاسيكيين، وجدوا أنفسهم في معسكر واحد في مواجهة مزاعم جديدة بامتلاك الطريقة المثلى لجعل العلاقات الدولية علمًا، وهي تلك المزاعم المستلهمة من الثورة السلوكية. وهو المعنى "الباراديمي" الذي تزعمه كل من "مورتن كابلان" Morton Kaplan و"ديفيد سينقر" David Singer، حيث وضحا أن الدافع من وراء مساعهم هو البحث في تشكيل منظومة معرفية نظمية عبر توظيف الأدوات المنهجية "العلمية"، لكن "العلمية" حسب المضامين التي يطعنها "الباراديم" الوضعي. إذن فقد حصر النقاش النظري الثاني الجدل القائم في الحقل مرة أخرى وهذه المرة ليس في جوهر الفرد (البعد الأنطولوجي)، لكن في المنهجية التي ستجعل من العلاقات الدولية علمًا.²³⁷

المطلب الرابع: بوادر النقاش النظري الثاني في سياق نظرية واقعية معمورة

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، تجلّى النقاش بين المقاربات المنتسبة للتقليد البحثي-المنهجي العلمي/أوالتاريخي، وبشكل نموذجي، في وجهات النظر المتباعدة لكل من "ستانلي هوفمان" Stanley Hoffman و"مورتن كابلان" Morton Kaplan حول المسألة. في بينما كان "كابلان" واثقاً من أن تطبيق مناهج الاستقراء العقلاني في دراسة العلاقات الدولية سيتمكن نظرية العلاقات الدولية من تحديد الشروط التي يبقى في ظلها النظام الدولي مستقراً والشروط التي يتحول على إثرها هذا النظام، فضلاً عن الشكل الذي يأخذه مثل هذا التحول. أما هوفمان فقد دعا إلى مقاربة أكثر تشكيكاً وتوضعاً تستند إلى البحث التاريخي والتعميمات الاستقرائية. وهو بذلك يرفض بناء فرضيات تجريبية صرفة تقوم على عدد قليل من المسلمات.

ارتَأى "هوفمان" أنه يتعين على منظري العلاقات الدولية مباشرة مساعيهم البحثية استقرائيَا، وقبل أن يتوصلا إلى أية استنتاجات حول المسارات التي أخذها التاريخ، عليهم أن يلحوظوا إلى البحث التاريخي النظمي [القائم على تحليل النظم]، ذلك أن القوانين الخاصة بهذا الحقل المعرفي يمكن الحصول عليها من التاريخ، وليس عبر الاستنباط من فرضيات مجردة. إذن بخلاف "النيوواقعيين" و"السلوكيين" الأميركيين فإن "هوفمان" وأتباع "المدرسة التاريخية" لم يعتقدوا يوماً بأن نظرية العلاقات الدولية يمكن أن تصبح علمًا، ومن خلال تعليقاته على إخفاقات المقاربة "العلمية" الطموحة، خلص "ستانلي هوفمان" إلى أنه كان هناك أمل في أن يتحول هذا الحقل المعرفي إلى "علم"، وكان هناك أمل أيضاً في أن يكون هذا العلم "نافعاً"، لكن نتيجة كلا المسعين مخيبة للأمال.²³⁸

ذلك فيما يتعلق برموز التقليد البحثي الليبرالي، أما بالنسبة للواقعي "كار" الذي يزعم تأسيس الحقل المعرفي للعلاقات الدولية عبر الأسطورة التي نجح في تسويقها بخصوص النقاش

²³⁷ Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p.17.

²³⁸ Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

"الوهبي" بين الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية، فقد كان من أتباع المدرسة التاريخية الألمانية، التي يمكن افتقاء آثارها لدى أشهر أعمال الفلسفة في القرن التاسع عشر: "هيفل" و"ماركس"، وهي التي ادعت إمكانية تحديد مسار التاريخ علمياً، ومن ثمة ضرورة الخضوع لقانون التطور التاريخي. لكن "كار" أيضاً كان اشتراكيًا يؤمن بالتبشير والتخطيط المركزيين وبالنهاية الوشيكة للرأسمالية، ففي حوار له مع مجلة اليسار الجديد أثني على الإنجازات الكبيرة للنظام السوفياتي، والتي تمكن من القيام بها من خلال نبذة لخاصيتين أساسيتين للإنتاج الرأسمالي وهما "الربح" و"قوانين السوق"، وتعويضهما بـتخطيط اقتصادي شامل يهدف إلى تعزيز الرفاه العام، وقد ذهب "كار" إلى أبعد من ذلك بالقول بأن الثورة البلشفية وال الحرب العالمية الأولى كانتا بمثابة بادرة لنهاية النظام الرأسمالي. لقد سار "كار" على خطى سلفيه "هيفل" و"ماركس" بتبنّيه الاعتقاد القائل بأن التاريخ يأخذ مسارات محددة سلفاً، وبأن الليبرالية والقومية تعتبر بمثابة تصورات مثالية تتناسب أكثر مع القرن التاسع عشر الذي انقضى، أما المرحلة النهاية من التاريخ الأوروبي فتتجسد في الاشتراكية والتخطيط المركزي، وهي الحقيقة التي لم تفهمها سوى ألمانيا النازية وروسيا السوفياتية.²³⁹

كان السلام العالمي في طريقه للأفول، بينما انتصرت روسيا السوفياتية وألمانيا حسب "إدوارد كار". بالنسبة لألمانيا، لأنها كانت تبشر بمُثلٍ كانت حتى عهد قريب مثلاً عالمية مقبولة وتنتمل في المبدأ الرأسمالي "دعاه يعمل". لم تكتف ألمانيا بالتبشير بهذا المبدأ بل عملت على تجسيده. أما بالنسبة لروسيا السوفياتية، فقد جلبها المد إلى القرن العشرين، وقد كافحت من أجل بناء وحدات صناعية كبيرة في ظل التخطيط والإشراف المركزيين. ولم يكن يضاهي إعجاب "كار" بالاشراكية القومية الألمانية سوى مقته التقليد الليبرالي الانجليزي، وهو ما عبر عنه بشكل مباشر: "لا يمكن تحقيق النتائج المرجوة إلا من خلال إعادة تنظيم الحياة الأوروبية على طريقة هتلر".²⁴⁰

لقد ارتأى "إدوارد كار" أن الواقعية تستند على عوامل القوة المادية لقوى الكبار، كما تلح على الطبائع التي تتسم بها التوجهات الفائمة والتي لا يمكن أن تحدّ عنّها، وفي هذا كله ترى الواقعية أن من الحكمة قبول هذا الوضع كما هو والتكييف مع هذه القوى والتوجهات. عندما صرّح "كار" بذلك، فإن أفكاره كانت تتبع من صميم المعنى التقليدي للواقعية السياسية من منظور عقلاني، رغم تسلیمنا بأن الواقعية عموماً تميل إلى المقاربة للعالم كما هو لا كما يجب أن يكون. وفعلاً، فإن جوانب القوة لقوى السائدة التي تحدث عنها "كار" تختلف عن "الطبائع الإنسانية التي لا تتغير"، مما الذي تعبّر عنه حسب طرح "كار": إنها تعبّر عن قوانين علمية مزعومة تحكم مسار التطور التاريخي، والتي يمكن إماطة اللثام عنها بالاعتماد على "العقل المحسّن المتحرر من أي تشوه أيديولوجي".

وبالاعتماد على هذه المسلمة، بني "كار" ادعائه بتأسيس "علم السياسة الدولية". إذ وبالاعتماد على كتابات "كار" يمكن تحديد مفهوم الواقعية السياسية بطريقتين. الأولى، ترى الواقعية السياسية بمثابة نظرية محافظة للعالم تقوم على تصور "هوبيز" لحياة الإنسان باعتبارها

²³⁹ Ibid.

²⁴⁰ Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

تنسم بالوحدة، والفقر، والدنساء، والوحشية، وقصر العمر، وبذلك تكون وظيفة أي نظام سياسي (بما في ذلك النظام الدولي) هي لجم هذه البواعث الفطرية للأفراد حماية لهم من أنفسهم ومن بعضهم البعض. ويستطرد "كار" في هذا الشأن قائلاً أنه ليس علينا أن ننفي هذا الواقع كما هو وحسب، بل يتوجب علينا التسليم بأن هذا الواقع تحكمه قوانين تاريخية واجتماعية ثابتة يمكن اكتشافها بالاعتماد على "العقل المحسن". ومن هنا يمكن أن نستشف الفرق بين وجهي الواقعية السياسية، وبينما تعتبر الواقعية التقليدية منظوراً سياسياً محافظاً، فإن "الواقعية العلمية" تقوم على ابستيمولوجيا عقلانية مغمورة.²⁴¹

لم يكفل "كار" بمحاولة تمرير "نظرة معينة للعالم" بل عمد إلى تعزيز القراءة العقلانية للتاريخ وللعلاقات الدولية، وهو ما تجسّد في تهمّمه الشخصي على "كارل بوبر"، فتحت عنوان ما هو التاريخ؟ انتقد "كار" تجراً خصمه "بوبر" على انتقاد الفلسفات الحتمية المزعومة للتاريخ لدى كل من "هيغل" و"ماركس"، كما رثى حال المتفقين والمفكرين السياسيين في العالم الناطق بالإنجليزية بسبب ما أسماه تراجع إيمانهم بقدرة العقل. وكان "كار" يتوجه بكلامه إلى كل من "كارل بوبر" و"فريدرريك فون هايك" اللذان انتقدا تطبيق العقلانية الألمانية على أوروبا وهو ما عاد عليها بالوبال. لقد كان من المثير للحيرة، أن يشيد عالم بريطاني بالاشتراكية القومية في عز الصراع الأيديولوجي الذي قام خلال الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا النازية والعالم الحر، بينما نجد في غضون ذلك، مفكرين نمساويين ("بوبر" و"هايك") يدافعان عن مبادئ الليبرالية والحرية التي نشأت في إنجلترا.

بل أن "كار" سعى لإيجاد منفذ للعقلانية الألمانية إلى داخل بريطانيا، في الوقت الذي أخذت الفلسفة الألمانية منحى مغايراً ومتناوئاً للعقلانية بتأثير فلسفة "مارتن هайдيغرس". لقد جسد هذا النقاش بين "كار" من جهة و"بوبر" و"هايك" من جهة أخرى صراعاً نموذجياً بين الواقعية السياسية والعقلانية المحدودة. في مؤلفه "فقر النزعة التاريخية"، وفي العنصر الذي تحدث فيه عن "المجتمع المفتح"، أشار "بوبر" إلى أن محاولات الكشف عن القوانين التي يسير وفقها التاريخ تتبع من التطلعات العقلانية الهدافة للتحكم في المجتمع، وفي التحولات التاريخية، وهي كلها محاولات تبوء بالفشل لأن ذوي النزعة التاريخية يريدون تحويل الاعتقاد الديني إلى معطى تاريخي، ومن ثمة إلى معرفة علمية، وذلك عبر استبدال [الله كمسبب وخالق لكل شيء] بـ التطور أو بالعقل أو بالطبيعة.²⁴²

وبحسب "بوبر" فإن التساؤل بشأن المضمون المحتمل أو الاتجاه المزعوم للتاريخ هو سؤال عقيم ولا يمكن الإجابة عنه لا بالاستنباط العقلي ولا بالبحث الإمبريقي. وبضيف "بوبر" أنه عندما يدعى الفلسفه العقلانيون (مثل أفلاطون وهيغل وماركس) أنهم اكتشفوا القوانين الناظمة للتاريخ، ومن ثمة يدعون بأنهم وتبعداً لذلك توصلوا لصياغة النظام الاجتماعي الأمثل، وحينها فإن أتباعهم

²⁴¹ Emmanuel Navon, op cit., p. 619.

²⁴² Ibid.

سيعملون على تجسيد هذه النظم المثلى بالقوة، فإن ذلك إنما مهد لظهور الطغيان السياسي الذي شهد القرن العشرين أحد أطواره.²⁴³

لقد كان رفض "بوبير" للتاريخانية بمثابة رد ضمني على "كار" وعلى علم السياسة الدولية الذي أسسه وطبيعي جداً إن لم يهضم "كار" الطريقة التي تعامل بها "بوبير" مع الفلسفة الحتمية المزعومة للتاريخ والتي طورها "هيقل" و"ماركس"، فمن منظور نظرية "بوبير" للصلاحية العلمية، تعتبر "التاريخانية" مثلها مثل "علم السياسة الدولية" دون قيمة علمية لأن النظرية التي يقومان عليها غير قابلة للمراجعة والتكييف على أساس عقلانية وهو ما يمكن التأكيد منه لدى فحص الافتراضات السبعة التي قامت عليها الواقعية الكلاسيكية والتي تضمنها كتاب "هانس مورفينتو" Hans Morgenthau، المعروف بـ "السياسة بين الأمم" Politics Among Nations (صدر سنة 1948):²⁴⁴

- يمكن تطوير نظرية عقلانية تعكس القوانين الموضوعية التي تسير وفقها السياسة طالما أنها تستند إلى الطبيعة الإنسانية غير الخيرة، فالإنسان يضمر الشر بطبيعته، حسب مورفينتو، وهذه الطبيعة ثابتة لا تتغير بأي حال من الأحوال؛
- المصلحة هي جوهر العمل السياسي، وهي تتحدد بمؤشر القوة، حيث أن القوة بالنسبة للواقعيين تعتبر وسيلة وهدف في الوقت نفسه، وتعرف القوة على أنها القدرة على التأثير في سلوك الآخرين أو تغييره وفق الاتجاه المرغوب به، من جهة، ومن جهة أخرى القدرة على مقاومة محاولات الآخرين للتاثير في السلوك؛
- يفترض الواقعيون أن المصلحة التي تتحدد بالقوة تعتبر مفهوماً موضوعياً يتمتع بصلاحية غير قابلة للجدل، ومع ذلك فإن مصامين المصلحة ليست ثابتة بالنسبة لكل الدول كما أنها ليست ثابتة على امتداد فترات تاريخية متعددة؛
- الواقعية ليست نظرية غير أخلاقية immoral، بل أنها فقط نظرية لا تبالى بالمعايير الأخلاقية على اختلافها amoral، وذلك لأنها وفي الوقت الذي تعي فيه التبعات الأخلاقية للعمل السياسي، فإنها واعية أيضاً بالتوتر الذي يمكن أن يحدث بين القيادة المتمسكة بالمصامين الأخلاقية وبين مقتضيات نجاح العمل السياسي؛
- ترفض الواقعية ادعاء دولة من الدول بأن قيمها الأخلاقية يجب أن تكون بمثابة قوانين كونية تستوجب خضوع الجميع لها. وبخلاف ذلك ترى أن المصلحة هي التصور الذي يتبوأ مكانة القانون الكوني لأنه يحول دون الإقدام على مغامرات سياسية نابعة من محاولة فرض المنظومة القيمية والأخلاقية لدولة معينة على الدول الأخرى، وكذلك لأن تحقيق المصلحة شيء مشترك يحظى بإجماع الكل؛
- السياسة من المنظور الواقعي حقل مستقل بذاته وللحصول على تحليل جيد يتوجب استبعاد أي مجال آخر من مجالات الاهتمام الإنساني.

²⁴³ Emmanuel Navon, op cit., p. 619.

²⁴⁴ Hans J. Morgenthau, **Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace**, 5th revised ed. (USA: New York: Alfred A. Knopf, 1978), pp. 4-15.

لقد نجحت هذه الافتراضات في التسويق لانتصار النزعة الواقعية ليس أكاديميا فحسب بل ميدانيا أيضا. لكن ذوي النزعة السلوكية العلمية انتقدوا كل افتراض من الافتراضات السابقة عبر منفذ واحد أساسي وهو غياب الصراحة المنهجية والاتساق التصوري في بلورة هذه الافتراضات:²⁴⁵

- بداية بعدم الدقة في استخدام المفاهيم المفتاحية، فمصطلح القوة الذي يبني عليه طرحة النظري يحمل مضامين عدّة، وفعلا فقد دأب الواقعيون لاحقا في ما اصطلاح على تسميته بالنسخة البنوية للواقعية لدى "ولتز" بإضافة الشق الاقتصادي للشق العسكري الذي تبنّه الواقعية الكلاسيكية؛
- أما تبريره قيام الحروب بالنزعة الشريرة للإنسان، فهي وحسب "السلوكيين" لا تتصمد كثيرا أمام الحالات العديدة لسيطرة منطق السلام والتعايش، وفي هذه النقطة بالذات يتساءل أتباع منظور السلام الديمقراطي إن كان الطرح الواقعي لا ينطبق على الدول الديمocrاطية التي لا تلجأ أبدا لاستخدام القوة ضد بعضها البعض حتى لو لم تكن مصالحها متناغمة؛
- النقطة الأخيرة التي تم انتقادها من طرف ذوي النزعة العلمية الوضعية تتعلق بمدى صلابة مفهوم الدولة كفاعل موحد، والذي يستند إليه الواقعيون لتبرير تمثيل ردود أفعال الدول تجاه البيئة الدولية، فالواقع يظهر أن الدولة هي مجموعة الفواعل الداخليين المشكلين لها، وبذلك فإن ردود أفعالها تتباين بحسب توجهات السياسة الداخلية التي تدخل ضمن مستوى تحليلي آخر غير المستوى النظمي، وهو المستوى الوطني.

صحّح أن الواقعية والليبرالية انحدرت أمام الانتقادات السلوكية، بل وتهافت لاحقا على توظيف التقنيات الكمية أو أنها استندت على الأقل إلى "بارادايم" صاعد في العلوم الاجتماعية: "الخيار العقلاني"، وصحّح أن النقاش حول ما يجب أن تكون عليه العلمية في العلاقات الدولية استمر لاحقا سيمما في إطار النقاش نيويورك، إلا أن النقطة المتعلقة بالدولة كفاعل موحد ووحيد في التفاعلات الدولية لم يعد لديه الكثير مما يسنده إمبريقيا ما فتح المجال للنقاش مجددا في هذه المسألة، وإضافة إلى ذلك فإن إفراط النزعة السلوكية في اهتمامها بإضفاء الاحترافية على دراسة العلاقات الدولية، من جهة، ومن جهة أخرى، مغالاة الواقعيين في واقعيتهم التي لا تبالي بالبعد الأخلاقي، أوجد كل ذلك منفذًا لدخول النقادين إلى حيز الجدل الفكري في التخصص، عبر إثارتهم استفهامات جادة حول جدوى هذا العلم الناشئ إن لم يكن سيهتم بانشغالات الأفراد والمجتمعات. وقد كانت هذه النقاط إحدى بوادر بداية النقاش النظري الثالث في العلاقات الدولية.

المطلب الخامس: النقاش النظري الثالث بين البارادایمات الثلاث.

²⁴⁵ Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p. 18.

عقب نجاح الثورة السلوكية في علم السياسة كما في العلاقات الدولية خلال فترة زمنية وجيزة نهاية الخمسينيات وبادية السبعينيات، ظهرت بوادر التحدي الباراديمي "البنيوي" و"النقيدي" بشكل متزامن في المجالين نهاية السبعينيات، رافضة سلبية النزعة العلمية في التعاطي مع الشؤون العالمية. وقد أطلق ذلك نقاشات نظرية اشتغلت في البداية على "باراديمات" ثلاثة كما اصطلح على تسمية هذه المرحلة من النقاشات النظرية بالنقاش المتعدد "الباراديمي" interparadigm اقتداء بالعمل المرجعي لأحد أبرز فلاسفة العلم في العلاقات الدولية "مايكيل بانكر" 246 Michael Banks

انطلق النقاش النظري الثالث لدى تقهقر الرؤية القائلة بأن العلاقات الدولية تعتبر مجالاً للفعل وتدالو الخطابات السياسية بشكل مستقل عن النظرية السياسية، فهذه الرؤية فقدت الكثير من بريقها نهاية السبعينيات كما أنها لم تعد تجد دعماً كافياً في ظل الانتقادات الموجهة إليها بالتزام موقف محايدين سلبياً إزاء عالم مليء بالكوارث من شاكلة حرب فيبيتام ومخاطر حرب نووية بين القوتين العظميين. لقد تحول النقاش خلال هذه المرحلة من نقاش حول أكثر النظريات اتساقاً إلى البحث عن أفضل النظريات إذا ما قيست بالبيئة العالمية التي تحاول وصفها وتفسيرها. لكن الميزة هذه المرة هي أننا أمام نقاش من نوع آخر لا يعني بالمقابلة بين الافتراضات المتنافسة، بل بالمقابلة بين "الباراديمات" التي ترعاها 247.

يصف "بانكر" هذا المشهد النظري الجديد بأن الباحثين في العلاقات الدولية أصبحوا يجدون أمامهم ثلاث صور عن العالم تمثل مدلولات مختلفة منذ البداية، وبالنسبة للنزعة الواحدية، 248 لدى الواقعين، يعتبر المجتمع الدولي نظاماً تفاعلاً فيه الدول وفق منطق "كرة البليارد" Billiard-ball (كل فعل يولد رد فعل يماثله في القوة بما ينشأ عنه فهم متميز للعلاقات الدولية باعتبارها علاقات صدام وقوه). في الطرف الآخر نجد النزعة التعددية pluralism والتي تعدد فواعل كثرين بجانب الدولة، هذه النزعة التي تدافع عنها المقاربة الليبرالية تتطلق من صورة مختلفة بحيث ترى أن العالم أشبه بشبكة عنكبوت cobweb model (حيث الترابط والاعتماد المتبادل بين أعضاء المجتمع الدولي سيجعلهم يميلون للتعاون لا الصراع). وأخيراً، الصورة التي يقدمها أصحاب النزعة البنوية Structuralism والتي تسمى في بعض الأدبيات "النزعة الراديكالية" وفي بعضها الآخر "النقدية"، 249 هذه الصورة تمثل المشهد العالمي بأخطبوط متعدد

²⁴⁶ إن استخدام مصطلح "الباراديم" آنذاك كان شأنعاً بفعل الواقع الذي أحده عمل "توماس كون" على كل المجالات العلمية، لكن لاحقاً أي مع بداية النقاش النظري الرابع، أصبح هناك احجام عن إلقاء وصف النقاش بين الباراديمات على النقاش النظري الثالث لأن هذا الأخير انضوت تحته عدد من المقاربات الوضعية والعقلانية والتي شكلت لاحقاً باراديم واحداً في مواجهة الباراديم التأملاني والباراديم البنائي، لكن يبدو من المناسب الاحتفاظ بهذا المصطلح لدى مراجعة حيثيات النقاش الثالث، كون التباين في الافتراضات النظرية للمقاربات الواقعية والتعددية (الليبرالية) والراديكالية (النقدية) يؤهلها لحمل وصف الباراديمات المتعارضة إذا ما اعتمدنا تعريفاً منا للباراديم، لفهم أفضل لبوادر النقاش الثالث، انظر:

Michael Banks, "The Inter-Paradigm Debate", in M. Light & A.J.R. Groom (eds.), **International Relations. A Handbook of current theory** (UK: Frances Pinter, 1985), p. 7.

²⁴⁷ Mark A. Neufeld, 'Restructuring of International Relations Theory' (UK: Cambridge University Press, 1995), p. 47.

²⁴⁸ أي أنها تجاج بكون الدولة فاعلاً موحداً ووحيداً في العلاقات الدولية، منطق الوحدة mono مقابل التعددية pluri في رد المقاولات التي تشكل السياسة الدولية حسب النظرة الأولى والسياسة العالمية حسب النظرة الثانية.

²⁴⁹ تختلف أراء الباحثين بهذا الصدد فمنهم من يرى أن النقاش يتضمن بالإضافة إلى الواقعية والليبرالية عدداً من المقاربات يجمع بينها راديكاليتها ورفضها للعالم كما هو، ليدرج كلاماً من النقدية لـ "كوكس" والتابعة لـ "كاردوسو" وـ "سمير أمين". أما البعض الآخر مثل "مارك

الرؤوس" Multiheaded Octopus [بلدان الشمال] يعمل على امتصاص ثروات بلدان المحيط الضعيف [بلدان الجنوب].²⁵⁰

إن ميزة المقاربات الثالث التي تم تطويرها على هذه الصور هي أنها متعدة داخلياً، أي أنه لا مجال لنقاش مستفيض بينها حول هذه المسألة، لكن من المحير أن مع ذلك تختلف كلية عن بعضها البعض في بناءاتها التصورية عندما يتعلق الأمر بالمكونات النظرية التالية: الفواعل؛ طبيعة الديناميكيات الدولية؛ المتغيرات التابعة؛ الحدود التي يجب رسمها للحقل المعرفي للعلاقات الدولية؛ وأخيراً حول مضامين بعض التصورات المفتاحية. إذن فقد كان طرح خاصية الامقايسة مستساغاً بالنظر إلى تفاوت واضح يمنع إجراء مقارنات معيارية. فالواعيون يرون أن وظيفة النظرية في العلاقات الدولية يجب أن تتحصر في تفسير ما تقوم به الدول؛ بينما تذهب التعددية الليبرالية إلى أبعد من ذلك بإناطتها دور تفسير كل الأحداث العالمية المهمة؛ أما "النقدية"/"البنيوية" فترى أن وظيفة النظرية هي إماطة اللثام عن الأسباب التي أدت إلى هذا الbon الشاسع بين الأغنياء والفقراء.²⁵¹

على المستوى الأنطولوجي ترى الواقعية أن حدود الحقل المعرفي ترسمها السلوكيات التي تقف ورائها الدول؛ بينما يتسع الحيز الأنطولوجي لدى ذوي النزعة التعددية ليشتمل على الشركات المتعددة، والأسواق والمجموعات الإثنية والقومية جنباً إلى جنب مع الدولة؛ أما لدى النزعة البنوية فإن مجال البحث يصبح شاسعاً وذلك لتمسكها بوحدة البنية الدولية على كل بما يكفل تحللاً عبر المستويات مع التركيز على الدور الذي تلعبه أنماط الإنتاج الاقتصادية بما يجعل السياسة بين الدول مسألة سطحية وتحصيل حاصل لتفاعلات الداخلية. أما التباين في التصورات المفتاحية المستخدمة في كل منها فيتضح من خلال اعتماد الواقعيين على الردع والتحالف؛ في مقابل الإثنية والاعتماد المتبادل لدى التعدديين الليبراليين؛ وأخيراً الاستغلال والتبعية لدى البنويين.²⁵²

بالنسبة لـ"نيكولاس ج. رينقر" Nicholas J. Rengger، يعتبر النقاش النظري الثالث أكثر النقاشات إهاراً للوقت دون قيمة مضافة لعلم العلاقات الدولية، فهو ورغم الطابع العلمي المحسن الذي يحاول الظهور به، إلا أنه لم يكن سوى انعكاس للصراع الأيديولوجي آنذاك وللأيديولوجيات الثلاث المسيطرة على المشهد السياسي، من حيث أن الثلاثية "الباراديمية" المزعومة: الواقعية/التعددية/البنيوية تقبلها ثلاثة أيدلوجية: المحافظة/الليبرالية/الاشتراكية. وزيادة على ذلك فقد ساهم هذا النقاش في إضفاء مزيد من العموض على مفهوم "الباراديم" الذي

هوفمان" فيرى أنها تنحصر في "النقدية". لمزيد من التوضيحات. وجهة نظر أخرى يسوقها "كارل هولستي" مفادها أن النقاش النظري الثالث جمع بين "التقاليد الحثى الكلاسيكي"، ومقاربة "المجتمع العالمي" و"النيوماركسيّة".
حول هذه النقطة انظر:

Mark Hoffman, 'Critical Theory and the Inter-Paradigm debate', *Mellennium: Journal of International Studies* 16 (2) 1987, p. 231; Karl J. Holsti 'The Dividing Discipline. Hegemony and Diversity in International Theory' (London: Allen and Unwin, 1987); Michael Banks, op cit., pp. 7-15.

²⁵⁰ Michael Banks, op cit., p. 30.

²⁵¹ Mark A. Neufeld, op cit., p. 47.

²⁵² Ibid.

أصبح يستخدم بطريقة عشوائية دون احترازات كافية²⁵³ بل ويذهب باحث آخر وهو "مايكل تشارلز ويليامز" Michael Charles Williams إلى القول بأن النقاش الثالث كشف، وبشكل مفضوح، عن غياب أرضية معرفية محايدة لتقدير المخرجات المعرفية في العلاقات الدولية، بل وساهم في تنفيه **banalisation** مصطلح النقاشات النظرية لأن المرحلة الثالثة من هذه النقاشات على حد تعبيره لم تتضمن أية نقاشات تذكر في واقع الأمر.²⁵⁴

لكن "أول ويفر" Ole Waever يطرح فكرة مخالفة، فبالنسبة إليه، يحلينا النقاش النظري الأول في الولهة الأولى إلى مشكلة غير معهودة تمثل في وجود طروحات متباعدة في حقل العلاقات الدولية دون أن تتمكن من تطوير لغة مشتركة للحوار أو للتنافس فيما بين بعضها، لكن مع مرور الوقت استطعنا قراءة دروس مهمة من هذه المرحلة من تطور التخصص، حيث تراجعت الرؤى التي ترى بأن قوة التخصص في وحدته وانسجامه، حيث أثبتت مساعي الهيمنة خلال النقاشين الأولين أنها غير مجده عندما يتعلق الأمر بإثراء الحقل المعرفي بعدد كبير من التصورات التي ستمكننا من فهم أفضل لما يحدث في الساحة الدولية. خلال النقاش الأول تغلبت النظرة المتشائمة أنطولوجيا إزاء الطبيعة الإنسانية مما ساهم في إنتاج معرفي لا يساهم أحسن الأحوال إلا في الحفاظ على الوضع الراهن، ومعروف أن الوضع السائد بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن جيداً للجميع سيما مع اندلاع الحرب الباردة. أما في سياق النقاش الثاني فقد كادت تطغى النزعة العلمية والوضعية على الحقل رغم أن منطاقاتها تمثل في فك الارتباط بالواقع فكانت السمة الغالبة هي السلبية. إذن، من المهم الانتباه إلى الخاصية الجديدة التي فرضها النقاش النظري الثالث على الحقل المعرفي: التعالیش بين برامج بحثية/أو بارادایمات مختلفة كل منها تتلافى جزء من الظاهرة الدولية وتمثله نظرياً بشكل ملفت لأنها طورت منطقاً داخلياً وبناءً تصوريّاً يتناسب مع الجزء من الظاهرة الدولية الذي تتعاطى معه أنطولوجياً وباستخدام أدوات ابستيمولوجية وضعية.²⁵⁵

المطلب السادس: الاتصال المنظوراتي نيونيو وإطلاق النقاش النظري الرابع.

لقد اتسم المشهد الأكاديمي خلال النقاش النظري الثالث بتمسك كل مقاربة من المقاربات الثلاث بقناعتها بأن منظومتها التصورية تزود باحثي العلاقات الدولية بتسقيفات لا يمكن دحضها إمبريقياً، كما أن الاتصال عبر المنظوراتي لم يولد تركيباً بين المقاربات الثلاث، لكن مع بداية

²⁵³ Nicholas J. Rengger, 'International Relations, Political Theory, and the Problem of Order: Beyond International Relations Theory' (UK: Routledge, 2000), p. 30.

²⁵⁴ Michael Charles Williams, 'The Realist Tradition and the Limits of International Relations' (UK: Cambridge University Press, 2005), p. 141.

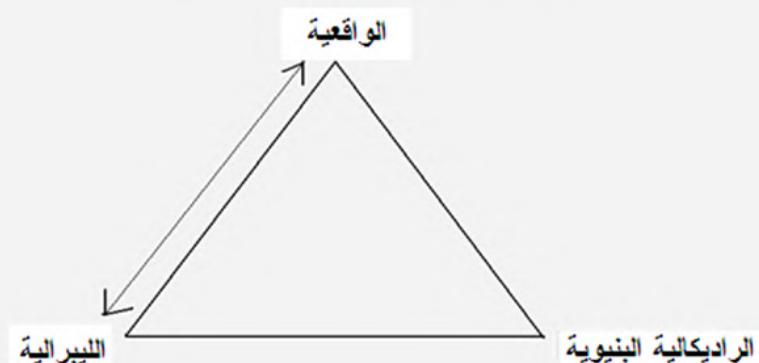
²⁵⁵ Ole Waever, 'The Rise and Fall of Inter-paradigm Debate', in Richard Little and Michael Smith 'Perspectives on world politics' (UK: Routledge, 2006), pp. 435-437.

الثمانينيات وظهور بوادر تحدي باراديمي أخطر مستشف من النزعة ما بعد الوضعية، وجدت النيوواقعية والنيوليبرالية في حالة اتصال منظوراتي حاد أفضى إلى إعادة ترتيب التصورات العقلانية بما يتيح لها التصدي للانتقادات التي وجهت للـ"باراديم الوضعي" عموماً في الحقول المعرفية الأخرى، حيث كانت العلاقات الدولية آنذاك بمنأى عنها. إذن فقد كان أهم تحول "باراديمي" خلال السبعينيات والثمانينيات هو التحول عن الاعتقاد السائد بأن الاحترام والسمعة الأكademie للتخصص يمكن اكتسابهما عبر هيمنة "باراديم" واحد إلى قناعة مختلفة ترى أن هذه السمعة تكتسب عبر الحصول على فهوم متنوعة وثرية عبر التسلیم بقيمة المخرجات العلمية التي ينتجهما كل "باراديم" على حده.²⁵⁶

تمثيل بياني رقم 08: يوضح أطراف النقاش النظري الثالث

مع التتبّع إلى الاتصال عبر المنظوراتي

بين الواقعية والنيوليبرالية خلال الثمانينيات



Ole Waever, 'The Rise and Fall of Inter-paradigm Debate', in Richard Little and Michael Smith 'Perspectives on world politics' (UK: Routledge, 2006), p. 436. المصدر:

لكن المشكلة التي تطرح نفسها بحدة في ظل هذا المشهد: ما جدوى إطلاق عبارة نقاش على وضع اتصالي لا يظهر أية أنماط تعاورية، وكل من المقاربات السابقة التي وصفت بالباراديمات من طرف فلاسفة العلم في ذلك الوقت تمتلك منطقاً خاصاً بها لإنجاح الحقيقة *truth*, ونظرًا لتبادر الأنماط المنطقية التي ترتكز عليها كل وحدة على حده فإنه لا يمكن استيمولوجيا القيام بمراجعة النسق الخاص بأي منها من قبل الأنماط الأخرى لأننا هنا أصبحنا بحاجة إلى نسق أعلى، لأن الرموز التي تم تطويرها في المجموعات العلمية لهذه "الباراديمات" الثلاث لا تستطيع تأكيد أو دحض مخرجات معرفية غير تلك التي طورتها فهي ذاتية الإحالة *self-referent*.²⁵⁷ هذه المشكلة استمرت إلى غاية بدء النقاش الرابع ولم يتم التعامل معها بجدية إلا بفضل سيرينيطيقا

²⁵⁶ Ole Waever, op cit., p. 236.

²⁵⁷ Ole Waever, op cit., p. 236.

المستوى الثاني second order cybernetics لـ"فون فورستر"، والتي سيتم شرحها لدى التعرض لمخارج النقاش الرابع في الفصل الأخير من الأطروحة.

وإذ كان احترام التنوع النظري في حد ذاته مشكلة حسب الفهم الكلاسيكي فإنه يعتبر من زاوية معينة إحدى المكاسب المهمة بالنسبة للتخصص، حيث وبغض النظر عن تنوع الاستبصارات التي يمكن أن نحظى بها عندما تكون لدينا مقاربات عدّة، تمتلك كل منها جوانب قوة معينة، فإن تعقد المشكلات الدولية أكّد بما لا يدع مجالاً للشك أن التنوع فضيلة انتفع بها خلال النقاش الرابع، لكن إرساء هذا الاعتقاد يعود إلى السبعينيات وأوائل الثمانينيات أي خلال النقاش النظري الثالث. إذ أن ميزة هذا النقاش هي النزعة المحافظة والتحول الباراديمي الأساسي الذي أرسّيت أساسه هو التخلّي عن المنطق الثوري وعن منطق التحوّلات الباراديمية نفسه لصالح الفهم اللالاكتوشّي أي ببرامج بحثية بعضها تقدمي progressive والآخر تقهّري regressive.²⁵⁸

يعتبر تبني مصطلح النقاش متعدد المنظورات ذاته مظلاً، لكنه ساعد على إضفاء المسحة المحافظة conservative لأنّه بذلك حال دون سيادة أسلوب النقد المتبادل بين المقاربات الثلاث، فقد أوجد أسواراً معرفية حصنَت هذه المقاربات ضد النقد عبر رفع شعار: لا تنتقدني، فنحن لا نتحدث لغة واحدة. إذن فأهم إنجاز للنقاش النظري الثالث هو شرعننة القليل البحثي المبني على برامج بحثية مجبرة على تكييف افتراضاتها في كل مرة يبرز فيها خلل تصوري. لكن مواطن الخلل هذه تكشف عنها عادة أدبيات فلسفة العلوم، إذن فقد أصبح للنقاش أيضاً محتوى مختلف، وتم إيجاد المستوى الثاني لللاحظة وشرعنته فعلياً قبل أن يتم التّنظير له تصورياً باعتباره أحد مخارج النقاش الرابع.²⁵⁹

إن فضل النقاش النظري الثالث على الرابع لا يتوقف عند هذا الحد، بل إحدى أهم إنجازاته متمثلة في النقاش الداخلي [أي ضمن الباراديم العقلاني نفسه] بين النيوواقعية والنيوليبرالية والذي أفضى إلى التوليفة نيوي-نيو ساهم في تقوية معسكر العقلانيين الذين أصبحوا يبحثون عن خصم نظري جديد وضعيف. ومعروف أن التوجه الترکيبي نيوي-نيو كان بمثابة تحول معرفي غير متوقع، إذ أصبح تعدديو السبعينيات (الليبراليين) في معظمهم نيوليبراليين مؤسّساتيين مع حدوث التحول نيوي-نيو، وكانوا بذلك قد اقتربوا من النيواعقبيين، فكلاهما يسلم بالفوضى مع فارق أن النيواعقبيين يعتقدون بإمكان مساهمة المؤسسات الدولية في التخفيف من جدة الفوضى، كما أن كلاهما يسلم بوجود ظاهرة الركبة المجانية free-riding pattern والتي تتلخص في وجود دول تستفيد من مزايا التعاون دون المساهمة في تكاليف إرئائه.²⁶⁰

ويرى "جوزيف قريكو" Joseph Grieco أن التمايز الرئيسي بين المقاربتين النيوواقعية والنيوليبرالية هو في نظرتهما لمقاصد الدول من وراء التفاعل غير النزاعي، فمن

²⁵⁸ Ibid., p. 237.

²⁵⁹ Ole Waever, op cit., p. 236.

²⁶⁰ كريس براون، ترجمة: مركز الخليج للأبحاث، "فهم العلاقات الدولية" (دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004)، ص. 56.

المنظور النيوواقعي فإن الدول تسعى نحو تحقيق مكاسب نسبية أي أنها تهتم بما تحصل عليه الدول الأخرى،²⁶¹ وبتعبير أكثر تبسيطًا فإنه لا يهم كثيرا الحصول على مكاسب كبيرة طالما أن دولا أخرى منافسة قد تحصل على مكاسب أكبر تهدد وضعها التناصفي إن عسكريا أو اقتصاديا. أما منمنظور النيوواقعي فإن إدراك الدول بأنها في وضع لا يدعو للارتياح بوجود تحديات عدة، يجعلها تتلافي مقارنة مكاسبها مع الآخرين، لأن إرساء التعاون سيحقق لها مستوى معين من المكاسب، وذلك في حد ذاته كاف. وهكذا فقد اختلفت مكونات التوليفة نيو-نيو في بعض التفاصيل لكنهما توافقا بشأن عقلانية مساعي الدولة في بيئتها المتسمة بغياب التراتبية.

وبحسب "أول ويفر" فإن هذه التوليفة العقلانية يمكنهم من الهيمنة على الحق عابر مؤامرة يستبعد فيها خصمهم العقلاني التقليدي البنيوية (النيوماركسية). ففي مداخلته الافتتاحية كرئيس لجمعية الدراسات الدولية، سنة 1988 قال "روبرت كيوهان" أن المشهد الأكاديمي حاليا يهيمن عليه برنامجين للبحث: برنامج البحث العقلاني *rationalist* الذي يتضمن التوليفة نيو-نيو، مقابل برنامج البحث التأملي *reflectivist* والذي يتضمن مقاربات مستلهمة من: الاتجاه ما بعد البنوي *poststructuralism* الفرنسي، و"الهيرمونيتيقا" *hermeneutics* و"الفيقنشاينية" [نسبة إلى Wittgenstein] الألمانيتين فضلا إلى البنائية الاجتماعية.²⁶²

هذا التوصيف الذي قدمه "كيوهان" للمشهد الأكاديمي، والذي حظي باستحسان التقليد الباحثي المهيمن ومنظريه، ساهم في إعادة ترتيب الكتب الدراسية في التخصص لجعل "ما بعد الحداثة" عموما بمثابة التحدى الباراديمي الحقيقي للعقلانية. ونظرا لأن المقاربات التأمليه التي تحدث عنها "كيوهان" لم تكن أهلا لمنافسة التقليد الباحثي العقلاني آنذاك فقد استشف النيوماركسيون من هذه الخطوة أنها مؤامرة للهيمنة على الحق عبر تقديمهم كميدان خصومة نظرية مع مقاربات ضعيفة بينما يغض الطرف عن النيوماركسية، لأنها تتنبى بدورها ابستيمولوجيا وضعية، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن معايير النشر في الدوريات الأكاديمية تطغى عليها النزعة الوضعية فسوف يبدو الطرح النيوماركسي مؤسسا نسبيا.²⁶³

لكن وحتى إذا سلمنا بوجهة النظر هذه، فإن التحدى الباراديمي المتأتي من "التأمليه" لم يكن هينا في النهاية، لأنه ساهم في صقل "الباراديم البنائي" بداية التسعينيات مستقida من ثلاثة عوامل أساسية:²⁶⁴ أولى هذه العوامل، مغالاة التوليفة نيو-نيو في نزعتها العلمية بما أبعدها عن الاهتمام بالقضايا الجوهرية للحركة السياسية مع العلم أن الواقعية الكلاسيكية جنبا إلى جنب مع الليبرالية الكلاسيكية كانتا تتفقان هذه الحركة بشكل أفضل بتوظيف أدواتهما التحليلية التقليدية. ومن جانب آخر، فإن التأمليه وجدت نفسها رهينة النزعة التقويضية التي لا تقدم أية بدائل عملية نظرية أو ممارستية؛ ثانية العوامل التي أفادت البنائية تمثلت في صعوبة إرساء قنوات اتصال

²⁶¹ كريس براون، المرجع السابق، ص. 57.

²⁶² Ole Waever, op cit., p. 240.

²⁶³ Ole Waever, op cit., p. 439.

²⁶⁴ لفهم أفضل للميزة المقارنة للتحليل البنائي في العلاقات الدولية انظر:

Ted Hopf, 'The Promise of Constructivism in International Relations Theory', in Andrew Linklater, 'International Relations: Critical Concepts in Political Science' (UK Taylor & Francis, 2000), p. 1756.

منظوراتي بين العقلانية والتأملية بسبب انغلاقهما في ابستيمولوجيا ذات نسق معرفي متفرد أعاد طرح مشكلة الالمقاييسة من جديد في نظرية العلاقات الدولية. لكن العامل الأكثر أهمية ربما له علاقة بالتطورات الإمبريقية التي لم يسايرها أي من المنظورين السابقين: نهاية الحرب الباردة. وبالنسبة لهذه النقطة بالذات، وجدت العقلانية في مصيدة التبريرية للوضع القائم بحيث أخفقت في في التنبؤ لهذا الحدث البارز، أما التأملية فقد كانت غارقة في مطارحات مفاهيمية مثيرة للاهتمام لكن لم تصل بعد إلى درجة تزويدنا بنماذج عملية تحاكي الواقع وتستشرف له.

إذن فقد أصبح الحقل مرة أخرى في تضارب نظري يجمع ثلاثة بارادایمات [بكل ما تحمله الكلمة "بارادایم" من معنى] وذلك بعد أن بدا المشهد الأكاديمي مختزلاً في العقلانية والتأملية.

الفصل الثالث:

معضلات النقاش الرابع:

التحول عن حل المشكلات إلى تفكير الأحاجي.

الفصل الأول: التحولات "الباراديمية" في العلاقات الدولية- مدخل ابستيمولوجي تاريخي.

إن دراسة النقاش النظري الرابع، يحيلنا مباشرةً إلى تقني المسار الذي سلكه الحقل المعرفي للعلاقات الدولية قبل الوصول إلى هذه المرحلة، فوجود ثلاث نقاشات سابقة يطرح سؤالاً جوهرياً، ما الذي يحرك التقدم المعرفي أساساً، وكيف يمكن فهم ديناميكية الانتقال من نقاش إلى آخر في ظل وجود منظورات متعددة يرفض بعضها وصف النقاشات المتتابعة بالتقدم المعرفي. يتناول هذا الفصل الجوانب المتعلقة بالتحولات الباراديمية في شقها الابستيمولوجي، بدءاً بالتفسيرات التي قدمتها الدراسات التاريخية للعلم بخصوص العوامل التي تحرك التقدم المعرفي، ليتم التركيز بعدها على أهم ثلاث تصورات استطاعت رصد حركة العلم بطريقة مثيرة للاهتمام أي "الثورات المعرفية" لدى "كون"، و"البرامج البحثية" لدى "لاكتوش" و"الفوضى المنهجية" لدى "فابر آبنت".

في المبحث التالي من هذا الفصل سيتم معالجة التحولات الباراديمية في علم السياسة باعتباره الوعاء المعرفي لتخصص العلاقات الدولية، ويهدف ذلك إلى وضع الموضوع في إطاره الأوسع، وبعد تناول التحولات الباراديمية الثلاث الأولى في العلاقات الدولية ستبين ما إذا كانت هناك تماثلات يمكن تسجيلها بين هذين الميدانين المعرفيين، كما سيساعد ذلك على فحص التفسيرات المختلفة لحركة العلم (تطور/تقهقر/قطيعة/ثورة) فيما تورطت الكونية وبرامج البحث اللامكانوية.

المبحث الأول: الإطار الاستيمولوجي لدراسة التحولات المعرفية.

إن المقاربة للتحولات المعرفية يحتاج إلى تصورات تساعده على استيعاب جوانبها المتعددة، وهذا المبحث يستعرض أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي في إطارها الطبيعي: فلسفة المعرفة أو الاستيمولوجيا، مع التركيز على مفاهيم: "الثورات المعرفية"، "البرامج البحثية" و"الفوضى المنهجية". وقبل التطرق إلى هذه المحاور من المهم وضع هذه النظريات أيضاً في إطارها العام historiography of science عبر تصنيفين أساسيين يرددان في الأدب اثنين أحدهما يسوقه الباحث "جون لوزي" John Losee، ترتكز تبيولوجيا "لوزي" على ثلاث فئات تدرج ضمنها النظريات المفسرة للتقدم العلمي هي:

- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يسير وفق منطق احتواء النظريات الجديدة للنظريات القديمة، وهي بذلك تسلم بمبدأ التراكمية؛
- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يحكمه منطق الثورة بحيث تأخذ النظريات الجديدة بعضها من مكونات النظريات القديمة لكنها تنتقض ضد مسلماتها الأساسية وترسي أساساً جديدة للعلم؛
- وأخير النظريات التي تعتقد بأن نماء العلم يخضع لمنطق النماء العضوي "اللاخطي"، أي المتأرجح بين طرق عدة للتقدم.

دراسة أخرى لـ "جيمس باتريك" James Patrick تقترح تبيولوجيا لا تختلف كثيراً عن تبيولوجيا "جون لوزي"، وهي ترى أن النظريات المفسرة للتقدم العلمي إما أنها تخضع للمنطق "البراغماتي"، أو "الثوري" أو "التطوري". وعموماً، ستساعد هذه التبيولوجيات، على الرغم من غموضها أحياناً، في استيعاب أفضل لتطور الأفكار بهذا الشأن.

المطلب الأول: أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي.

يعتبر "ويويل" Whewell أول باحث يقوم برصد مسار تطور العلم، حيث نشر أعماله في هذا الخصوص بين عامي 1837 و1857، لكن تأثيره بالنسبة الوضعية التي كانت في أوجها خلال

القرن التاسع عشر جعلته يؤمن بأن العلم يرتقي بثبات نحو تحقيق مزيد من النجاحات، ففي كتابه: "تاريخ العلم الاستقرائي" يصر على الطابع الخطي للتقدم العلمي.²⁶⁵ وقد تعرضت وجهة نظره هذه لانتقادات لاذعة من طرف معاصره "بروستر" Brewster، إذ يشير هذا الأخير إلى نقطة مهمة وهي تجاهل النموذج الذي يطرحه "ويويل" لكل مظاهر التقدم العلمي التي يعجز عن تكييفها مع مسلماته الاستقرائية.²⁶⁶ لم يتوقف سيل الانتقادات التي واجهها "ويويل" عند هذا الحد، بل أن "جون ستิوار特 ميل" نفسه توقف عند التناقض الموجود في تفسيرات "ويويل" للتقدم العلمي، ومن ذلك تمسكه بالاستقرار وبالنزعية الإمبريقية من جهة، ومن جهة أخرى، لجوءه إلى الملوكات الحدسية في تفسير الاكتشافات العلمية رغم أنها تتم عن التعالي العقلي.²⁶⁷

رغم سلسلة الانتقادات التي طالت أعمال "ويويل" الرائدة في مجال التاريخ للعلم وتفسير التغيرات التي طرأت على مساره، إلا أنها لم تنقص من قيمة ما سعى لفهمه هذا العالم، وهو البحث في القانون الذي يحكم هذه التحولات والذي أصبح موضوعاً مهماً جداً من مواضيع فلسفة العلم الحالية وميداناً من ميدانها في إطار "تأريخ العلم" historiography of science. وقد تطلب الأمر قرناً كاملاً لتقديم طروحات أخرى في هذا الميدان، لكن أولاً لها لم تكن لخروج عن المسار الذي رسمه "ويويل" وقبله "ديكارت" Descartes وهو مبدأ التراكمية في العلم، والاعتقاد بأن النظريات الجديدة تتولد عن القديمة وتتكاملها، وفي هذا الصدد جاءت نظرية "أرنست نيجل" Ernest Nagel في كتابه: "بنية العلم" (1961) لتأكد على أن التقدم العلمي ليس سوى احتواء للمنظومة المعرفية القديمة في المنظومة الناشئة الأكثر دقة.²⁶⁸ وهو الطرح الذي أيداه لاحقاً "كارل بوبر" الذي اعتبر التقدم بمثابة إطاحة بالمنظومة القديمة ودمجها في الجديدة، وبناء صرح علمي متعالي، قوامه قابلية النظريات للتكييف وقدرة الباحثين على الاستمرار في كشف مواطن الكذب في النظريات القديمة لتعزيز فهمنا بالعالم.²⁶⁹

يستند الطرح "البويري" في ذلك إلى نظرية العوالم الثلاث والتي تتفاعل بين بعضها البعض:²⁷⁰

- **العالم الأول:** ويحوي الأشياء المادية والكائنات البيولوجية كما يتضمن أيضاً الأحداث الاجتماعية المختلفة. إذن فهذا العالم يشتمل أساساً على مواضيع المعرفة أو الظواهر محل الدراسة؛
- **العالم الثاني:** ويشتمل على العمليات الإدراكية التي يقوم بها الدماغ وكل ما له صلة بالذات العارفة؛
- **العالم الثالث:** ويشتمل على كل ما أنتجته الذات العارفة أو الدماغ البشري من معارف لدى سعيه لفهم العالم الأول، وبذلك فإن هذا العالم يتضمن، حسب "بوبر" كل النظريات العلمية

²⁶⁵ John Losee, 'Theories of Scientific Progress: An Introduction' (Routledge, Taylor and Francis Group, 2004), p. 7.

²⁶⁶ Ibid., p. 17.

²⁶⁷ Ibid., p. 19.

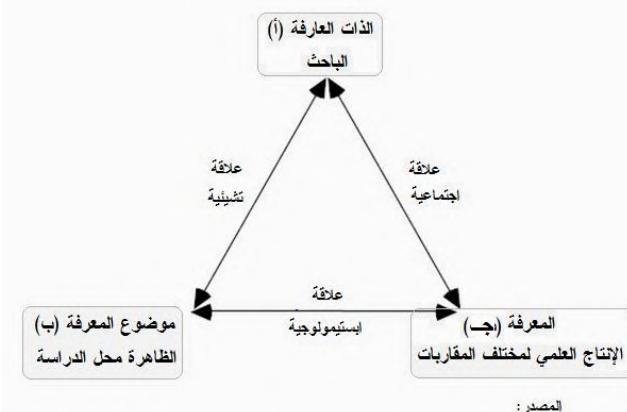
²⁶⁸ Ernest Nagel, "The Structure of Science" (New York: Harcourt, Brace & World), pp. 15-18.

²⁶⁹ كارل بوبر، ترجمة: أحمد مستجير، "بحثاً عن عالم أفضل" (مصر: سلسلة أعمال فكرية، 2001)، ص. 15.

²⁷⁰ Margaret Scotford Archer, 'Structure, agency and the internal conversation' (UK: Cambridge University Press, 2003), p. 36.

والروايات والأساطير والأعمال الفنية والمؤسسات الاجتماعية وغيرها مما أنتجه العالم الثاني لدى تفاعلاته مع العالم الأول. وهكذا، فإن الموضوعية العلمية لدى "بوبير" ليست متيسرة إلا إذا سلمنا بوجود العالم الثالث في معادلة عوالم المعرفة، هذا العالم حيث يصب إنتاج العالم الثاني ويختضع للتحميق والنقد، وربما التكذيب، وهو العامل الأكثر فاعلية في تقدم المعرفة ونماؤها.

تمثيل بياني رقم 01: يوضح مثلث المعرفة استنادا إلى الطرح "البوبيري" Popper²⁷¹
المتعلق بالعالم الثالث



المصدر:

Karl Maton, 'Reflexivity, Relationism & Research: Pierre Bourdieu and Epistemic Conditions of Social Scientific Knowledge', Space and Culture 32 (06) 2003, p. 57.

لكن هذا الطرح ووجه لاحقا بحجج مختلفة أهمها "اللامقايسة" في عديد الحالات بين البنية النظرية العتيدة والناشئة، بسبب استخدام تصورات بمضامين مختلفة وأدوات قياس متباعدة. لذا فإن أكثر النظريات "الاحتوائية" incorporatist دقة في تفسير التقدم المعرفي، هي تلك المتعلقة ببرامج البحث اللاكتاتوشية والتي عمد من خلالها الباحث المجري "إمري لاكتاتوش" Imre Lakatos إلى تفسير التقدم في إطار برنامج بحث واحد عبر توسيع مجال النظرية لتتضمن متغيرات جديدة، بحيث تصبح النظرية القديمة بمثابة نواة صلبة للنظرية الجديدة وهذا دواليك، بما يكفل تحسين القوة التفسيرية للنظرية ولبرنامج البحث research program ككل.²⁷¹ وفي حقل العلاقات الدولية يمكن إسقاط ذلك على النواة الصلبة للنظريات الواقعية التي أنت تباعاً، وهي التي تشكلت أساساً من الافتراضات التي استطاعت الصمود إمبريقياً للنظريات التي سبقتها. على سبيل المثال، تم التحول في النظرية البنوية لدى "ولترز" عن الأنطولوجيا التي تعتمد على عدائية الفرد إلى عدائية الدول التي يفرضها "غياب التراتبية" anarchy في النظام الدولي، لكن جوهر الافتراض أي "العدائية" ظل ثابتاً.²⁷²

²⁷¹ Imre Lakatos and A. Musgrave (eds.) **Criticism and the Growth of Knowledge** (Cambridge: Cambridge University Press, 1970), p. 115.

²⁷² Stephano Guzzini, “The Enduring Dilemmas of Realism in International Relations”, **European Journal of International Relations** 10 (04) 2004, pp. 538-539.

طلت التفسيرات الإحتوائية سائدة في ميدان تاريخ العلم إلى أن جاء "جوناثان كوهين" Jonathan L. Cohen (1973) بمفهوم الثورة المعرفية، لكن ما يعبّر على الطريقة التي طرح بها "الثورة" هو العمومية التي اتسم بها المفهوم لديه، حيث أصبح يلخص بأي فكرة جديدة حتى ولو لم تتمكن هذه الفكرة من تقويض أركان النظرية السائدة في مجال معين.²⁷³ المشكلة ذاتها وقع فيها "ستيفن تولمين" Stephen Toulmin عندما تحدث عن استبدال نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا أخفقت في مطابقة تصوراتها مع المسار الطبيعي للأحداث في العالم من حولنا، عندما تأخذ الأحداث مساراً لا تتفق النظرية السائدة وجب تعويضها. إذن، ومثل "كوهين" فقد أخفقت نظرية "تولمين" في وصف فترات التحول بدقة أو الدور الذي تلعبه النظريات الكلانية holistic قبل وخلال التحول.

بمجيء "توماس كون" أصبح لمفهوم الثورة مضموناً مقيداً ومنهجاً، حيث الوثبات المعرفية التي تنفذ تستطيع تقديم بدائل قياسية مختلفة، تساعد على استبطاط الفرضيات واختبارها وفق منطق جديد، فقط هذا النوع من الوثبات المعرفية يستحق وصف الثورة. يضيف "كون" أنه لدى الانتقال من نموذج قياسي إرشادي لآخر فإنه لا يمكن المقارنة بين الجديد والقديم لأنهما يستندان إلى جوهر مختلف ويوظفان أدوات مختلفة، فضلاً عن أنهما يرسمان أهدافاً متباعدة. وقد حدد كون مراحل الثورة في: مرحلة العلم العادي؛ مرحلة الأزمة بكثرة مواطن الشذوذ في النموذج السائد، ثم بعدها مرحلة الثورة لإرساء علم عادي قياسي جديد.²⁷⁴

ومع أهمية الطرح الذي ساقه "كون" إلا أنه تعرض لانتقادات عدّة، أهمها أن الثورة ذاتها مفهوم نسبي، والتحول قد لا يحدث بشكل جذري بل قد تقود مظاهر الخلل في أداء النظرية السائدة، حسب "لاري لاودان" Larry Laudan، إلى القيام بتحقيرات تصورية عبر تفاعلهما مع مكونين آخرين هما الأهداف الإدراكية (للباحث) والمبادئ المنهجية الشائعة وقد أسمى "لاودان" نموذجه بنموذج reticulational model.²⁷⁵ وقد ذهب "نيكولاوس ريشر" Nicholas Rescher في الاتجاه ذاته، عبر أطروحته حول العلم باعتباره عملية إدراكية ذاتية-التقنيق، تؤكد على مواطن القوة المنهجية وتضييف عليها بينما تبتعد الأخطاء ومواطن الضعف، وقد أهلت هذه الأطروحة للحصول على وصف المنهجية البراغماتية.²⁷⁶

لقد ساد هذا المنطق التفسيري للتقدم العلمي دون الإقرار بذلك صراحة، وهو المنطق الذي تعبّر عنه جملة "لاودان" بطريقة بارعة: "التقدّم العلمي باعتباره تقرّباً مستمراً من الحقيقة". وكان "لاودان" قد أطلق هذه العبارة لدى رده على منتقديه، إذ عبر عن وجهة نظره بطريقة أكثر وضوحاً، وهي أن التقدّم ينصب على تحسين فعاليتنا في التعاطي مع المشكلات.²⁷⁷ لكن هذا الطرح متأثر بالوضعية إلى حد بعيد، فالبيئة التي يتعاطى معها العلم تطرح أحاجي لا مشكلات puzzles rather than problems، وهي سمة بارزة في ظل تشابك المصالح وتعقد المشكلات. ولنقادي

²⁷³ John Losee, op cit., p. 65.

²⁷⁴ Ibid., p. 69.

²⁷⁵ Ibid., p. 82.

²⁷⁶ John Losee, op cit., p. 105.

²⁷⁷ Ibid., p. 120.

الانتقال الكلاني من نموذج لآخر عقب تحسن فعالية حل المشكلات وربط ذلك بتحول علمي جذري، رغم أن ذلك ليس ضروريا، ففي حالة العلم القياسي حسب الفهم "الكوني" فإن ذلك يتم تراكميا في هذه المرحلة، وطالما أن ذلك يبدو غير ضروري [التحول الكلاني] فقد اقترح "كيتشر" Kitcher ثلاثة مستويات متمايزة للتحول المعرفي: المستوى العملي (تحسين فعالية حل المشكلات المرتبطة بالعالم المادي)؛ المستوى التصوري (تحسين قدرتنا على تطوير تصورات متماسكة وذات قدرة تبسطية) وأخيراً، مستوى التفسير (زيادة الفعالية التفسيرية للنظريات المستخدمة). ومع الغموض الذي قد يثيره الاستعراض السابق، فإن التبيولوجيا التالية توضح لنا باختصار وفي سياق مقارن عدداً من التوجهات الرئيسية في مجال تفسير التقدم العلمي.²⁷⁸

9. التراكمية لدى الاتجاه الاستقرائي Inductivism: الذي تتضمنه تحت لوائه التجريبية المتطرفة والوضعية المنطقية، حيث يتحول التاريخ الداخلي للعلم إلى وقائع تجريبية صلبة تعقبها تعميمات استقرائية، لينمو العلم بذلك وفق منحى تراكمي؛

10. الجمالية والتبسيط لدى الاتجاه الاصطلاحي Conventionalism والذرائعي Instrumentalism: حيث يتحول تاريخ العلم إلى تشديد لأنساق مفتوحة، بما يكفل سيادة نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا استطاعت تقديم أبسط تفسير يتفق مع الملاحظات المتعلقة بالموضوع، فهذا النوع من التفسيرات هو الصحيح على الأرجح، وهو المفضل عن سواه. لقد كان معيار القدرة التبسطية parsimony pattern من مسلمات التفكير العلمي وفلسفة العلم بصفة عامة، إلا أنها تكتسب أهمية خاصة عند الاصطلاحيين والذرائعيين، حيث تعني القدرة على تبسيط الظواهر التي تنسim بالتعقيد. وبالنسبة لهذين الاتجاهين فإنه وزيادة على المزايا الأخرى لهذه النزعة التبسطية، فإن للتبسيط مغزى جمالي أيضا esthetic، إذن فالفضائلة بين النظريات لديهم يتوقف على تلبية مطلبين: المنطقية والجمالية. لذلك فإن "الاكاتوش" وفي مأخذة على هذا الاتجاه يقول أن تاريخ العلم معهم سوف يصبح تاريخ الانتصارات التي يحققها معيار البساطة.

11. القابلية للتكييف لدى الاتجاه البويري- Falsifiability: حيث يصبح التاريخ الداخلي العقلاني للعلم عملية تقوم برصد الحدود الابتكارية التي تكتسب مضامين أكثر ثراء بفضل خاصية التقويم الذاتي، والتقديم العلمي الذي يعتمد على ثورات مطردة عبر قابلية التفتيش التي تتمتع بها النظريات العلمية، لتفتح المجال لظهور نظريات أخرى بفضل حدود أكثر جرأة وابتكاريه تسمح بتحصيل معرفي أغزر. وهو ما تعرض للنقد لدى "كون" الذي قام بعقلنة الثورات، بحيث لم يعد معه كل إنتاج جديد بمثابة ثورة. لكن التحول الأهم عن القابلية للتكييف لدى "بوير" وثوراته المطردة جاءت بفضل "الاكاتوش".

12. تنافس البرامج البحثية لدى الاتجاه اللاقاتوشي: وهو اتجاه يرى أن تاريخ العلم ليس تعاقباً لثورات متتالية بقدر ما هو رصد للبرامج المتنافسة، يأخذ بعضها منحى تقدماً في حين ينتكس البعض الآخر.

²⁷⁸ يمنى طريف الخولي، "فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد والآفاق المستقبلية" (الكويت: عالم المعرفة: 2000)، ص. 415-414.

وسيتم التفصيل في أهم الطر宦ات السابقة عبر التركيز على التاريخ للعلم من منظور "الثورة"، ومن منظور "البرامج البحثية" وأخيراً من منظور "الفرضي المنهجية الخلاقة".

المطلب الثاني: منطق الثورة العلمية لدى "توماس كون".

يعد إصرار "توماس كون" (1922-1996) على مفهوم "الثورة المعرفية" من أهم الطر宦ات التي بنت حيوية غير معهودة في فلسفة العلم في القرن العشرين. بنى "كون" تصوره على أعمال "كارل بوبر" (1902-1994)، ويمكن تلخيص فهمه للثورة العلمية في كتاب: "بنية الثورات العلمية" باعتبارها انتقالاً من نموذج قياسي إرشادي Paradigm إلى آخر.²⁷⁹ ويعتبر "توماس كون" أحد أبرز المساهمين في استحضار الوعي بتاريخ العلم في صلب فلسفة العلم. بدأها بدراسة حول "دور التاريخ"، التي جعلها مقدمة لكتابه المرجعي "بنية الثورات العلمية"، يركز فيها على قضية مهمة وهي ضرورة تقادي النظر للتاريخ باعتباره مجرد سرد لأحداث متعاقبة، وحينها سوف يحدث تاريخ العلم تغييراً جوهرياً في التصور السائد حول المسار الذي قطعه تطور العلم، لنحصل على صورة مختلفة تماماً سيما إذا تماشينا تقييم الماضي بمقاييس اليوم، أو أن نتوقع من تاريخ العلم الإجابة عن أسئلة تخص الماضي بمعايير الحاضر (وهي الملاحظة الذكية التي بنى عليها مفهوم الالماقاييسية أو الالقياسيّة).²⁸⁰

إن فلسفات العلم التي انفصلت عن النزعة التاريخية، بحسب "كون"، وتعاملت فقط مع المعطى الحالي غير مجده لأن هناك تميزات كبيرة بين القواعد، والمبادئ، والتصورات، والمفاهيم والأولويات التي توجه بحوث العلماء في كل مرحلة، وما يسلم به جيل من العلماء باعتباره بيدهياً، قد ينظر إليه جيل آخر على أنه أسطورة أو قضية لا تستحق الاهتمام من الأساس.²⁸¹

لقد دعا هذا الفيلسوف إلى ضرورة التسلح بالوعي التاريخي على أساس التمييز بين مرحلة العلم العادي normal science ومرحلتين مفصليتين هما مرحلة الأزمة ومرحلة الثورة. بالطبع "توماس كون" يسلم بكون العلم ماض في طريق القدم المستمر، لكنه يتحدث عن خطأ الاعتقاد السائد بأن هذا التقدم يأخذ منحي تراكمي في مسار خطي، فهذا المسار يسير بمنطق الدورة. وبينما أن "كون" وخلافاً لسلفه "كارل بوبر" يحفظ على وسم كل تطور بالثورة فهو يضع شروطاً قاسية لذلك.²⁸²

²⁷⁹ "توماس كون" Thomas Kuhn (1922-1996) عالم فيزياء نظرية ومؤرخ للعلم، قام بتدريس تاريخ العلم في: "جامعة هارفارد" (1952-1956)، جامعة "بيركلي" بكاليفورنيا، والمعهد التكنولوجي في "ماساتشوستس". أهم إسهام لهذا العالم هو إحداث التحول في اتجاه الوعي التاريخي بتطور العلم.

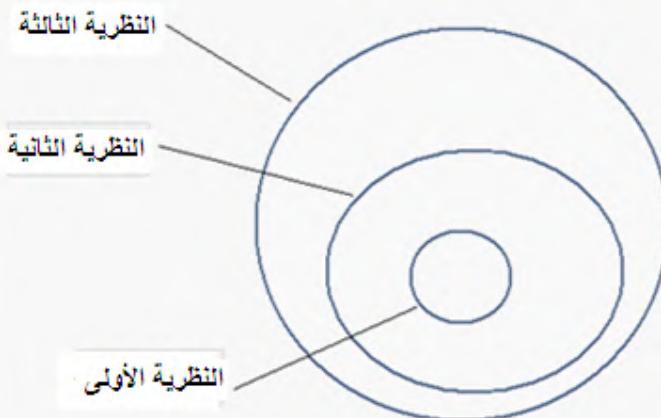
²⁸⁰ Ronald N. Giere, 'Science without laws' (USA: University of Chicago Press, 1999), p. 36.

²⁸¹ Ibid., p. 38.

²⁸² Ronald N. Giere, op cit., p. 38.

تمثيل بياني رقم 02 يوضح منطق التقدم العلمي لدى كارل بوبر

يقوم منطق التقدم العلمي لدى "كارل بوبر" على التراكمية، أي أن كل نظرية جديدة تستفيد من إنجازات القديمة وتبني الصرح العلمي على دعائمه



إذن تقوم فلسفة "توماس كون" على ضرورة التمييز في مسار العلم أو تقدمه بين مراحل العلم العادي الذي يسير في إطار النموذج القياسي الإرشادي السائد (البارادايم paradigm) وبين المراحل الانتقالية في إطار تقدم العلم من نموذج إرشادي إلى آخر: الثورة. يعتبر النموذج القياسي الإرشادي بمثابة النظرية العامة التي يتلزم بها المجتمع العلمي في مرحلة معينة، أما بلوغ هذه النظرية العامة منزلة "النموذج الإرشادي" أو "البارادايم" فيعني أنها أفضل من كل منافساتها، أي أنها الأقدر على الصمود لذا توجب التسليم بها، مع ما يتبع ذلك من التسليم بكل مسلماتها ومناهجها ومفاهيمها العلمية وأبعادها الماورائية Metatheory. المضامين التي ينطوي عليها ذلك على صعيد المجتمع العلمي تتمثل في أن النموذج القياسي المهيمن يؤثر في:

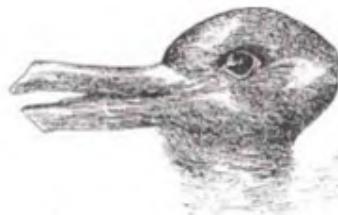
- تحديد المشكلات التي يجب دراستها وأنماط الحلول المطلوبة؛
- تحديد معايير الاختبار والتقييم وشروط التقييم والتعديل إن لزم الأمر.

التأثيرات العلمية التفصيلية الناجمة عن تبني "بارادايم" معين تتجلى في الخطوات التالية، فـ"البارادايم" يحدد:

- ما الذي يجب ملاحظته؛
- ما هي الأسئلة التي يتعين طرحها؟
- كيف سيتم البحث في هذه التساؤلات، أي ما هي الأدوات التحليلية التي يجب الاعتماد عليها؛
- كيف يمكن قراءة وتأنيل النتائج المتحصل عليها من خلال البحث.

ولعل أفضل تبرير لاستطاع من خلاله "كون" تسويق فكرة "البارادايم" هو الصورة أدناه، فهي تقرأ بكيفيتين: البعض قد يصر على أنها نوع من البط بينما قد يتمسك آخرون بأنها صورة لأرنب، ويمثل ذلك حالة المعطيات الإمبريقية المتاحة في العلم وفي العلاقات الدولية بشكل جلي.

الصورة رقم 01: تظهر صعوبة إعطاء قراءة موحدة لمعطى واحد ما يوضح فكرة "البارادايم" (الصورة يمكن اعتبارها بط أو أرنب)



فالباحثون يعتمدون على المعطيات ذاتها بينما يقدمون لنا قراءات interpretations متبانية تعتبر صحيحة إذا ما قيست بمعايير المدرسة الفكرية التي أنتجتها أو الزاوية التي تنظر بها للأمور. ولذا نجد بعض الباحثين يوسمون مقالاتهم بـ: "علم واحد: مدارس متعددة" (ستيفن وولت)، بحيث يوضح فيه كيف أن القراءات المختلفة للأحداث والتنوع النظري قائم رغم أن جل هذه النظريات تزعم أنها تهم بدراسة الظاهرة ذاتها.²⁸³

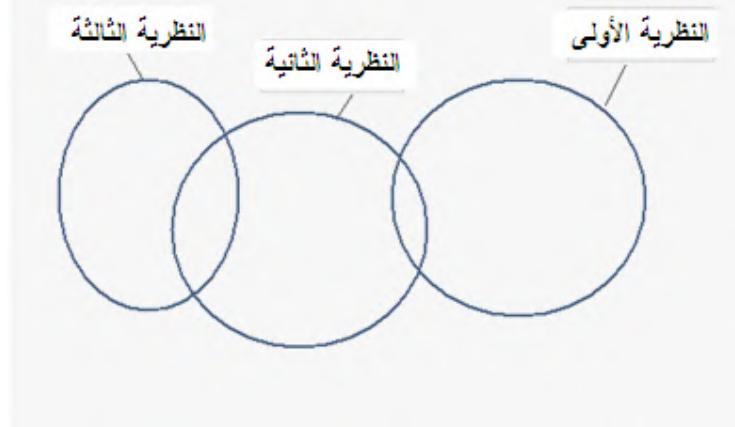
يسلم "كون" بأن بعض الحقول المعرفية مثل الرياضيات والفيزياء تمكنت من صقل نموذج إرشادي وهي بذلك تعتبر مجتمعا علميا ناضجا. وميزة هذه المجتمعات العلمية "المستقرة" هو أنها تكف عن طرح إشكاليات كبرى (تلك التي تساهم في صقل "البارادايم" في الولهة الأولى) لتدخل مرحلة العلم العادي الذي يشكل وعاء لطرح أسئلة عادية ومسائل تقنية. إن التسلیم بنموذج قياسي إرشادي يهيئ الباحثين لاختيار مشكلات يمكن الوصول إلى حل لها طالما استمر في البحث ضمن النموذج الإرشادي ذاته. إذن، لا يقوم الباحث خلال مرحلة العلم العادي باختبار النموذج الإرشادي الذي ينتمي إليه أو يحاول تكذيبه بحسب مفهوم "بوبر" في تصوره: "القابلية للتكتيبي"²⁸³، فالعلم ينمو في مراحله العادية من خلال "تقنيات الأجاجي" puzzles التي يثيرها النموذج الإرشادي المسلم به، والمعرفة هنا تزداد دقة واتساعا وتستمر في تحقيق نجاحات تدل على نجاح المشروع العلمي برمتة، لكنها تفتقد لأية ابتكارات جوهيرية فلدي سيادة نموذج قياسي إرشادي فإن العلم يخضع للمنطق التراكمي.²⁸⁴

²⁸³ Stephen Walt, 'International Relations : One World, Many Theories', **Foreign Policy** (Spring) 1988, pp. 29-45.

²⁸⁴ Patrick James, 'International Relations and Scientific Progress: Structural Realism Reconsidered', (USA: Ohio State University Press, 2002), p. 81.

تمثيل بياني رقم 03: يوضح منطق النقدم العلمي لدى توماس كون

يقوم منطق النقدم العلمي لدى "توماس كون" على "بارادایم" لامقابسة تبني "البارادایم" الجديدة بعض مكتسبات القديمة وفق مسار غير تراكمي



يستمر المنحى التراكمي للعلم في مرحلته العادية normal science إلى أن يظهر الشذوذ، أي أن تطفو إلى السطح ظاهرة لم تكن متوقعة في ظل النموذج الإرشادي السائد، لذا فإن الباحثين غير مهيئين للتعامل معها، ذلك أن "البارادایم" الذي ينتمون إليه لا يتيح لهم الأدوات الكفيلة بذلك، وهنا يشرع أعضاء المجتمع العلمي في البحث عن مخارج. هذه المخارج إما أن تكل بتعديل "البارادایم" وتنقيحه أو البحث عن "بارادایم" جديد. وبالنسبة لـ"كون" فإن "البارادایم" نفسه يحوي بذور أقوله، إذا لم يستطع وضع آلية "التصويب الذاتي"، والتي تمنحه القدرة على الصمود أمام الهزات الإمبريقية. لكن "كون" لا يؤيد فكرة التعديل المتكلر والمطرد فالبالغة في ذلك تعني أن "البارادایم" يعيش أزمة بمعنى أنه غير مجهز بشكل ملائم للتعاطي مع الظواهر المستجدة. ويمثل هذا الوضع ما وقعت فيه الواقعية خلال مسار تطورها وتطويرها لحقل العلاقات الدولية، من التركيز على الطبيعة الإنسانية لدى الواقعيين الكلاسيكيين خلال النقاشين النظريين الأول والثاني، إلى التركيز على بنية النظام الدولي في سياق النيوواقعية (البنيوية والنيوكلاسيكية) خلال النقاشين النظريين الثالث والرابع. ومن الاكتفاء بالمتغير العسكري إلى تضمين المتغير الاقتصادي في التحليل خلال الوثبة التي ساهم فيها بالأساس "ولتز" Waltz و"رافي" Ruggie.²⁸⁵

في سياق التنقيح "الباراديمي" فإن التعديلات المستمرة تدفع أعضاء المجتمع العلمي للجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية، مما يجعل المسعى البحثي غير تراكمي، ولتوسيع الأمر نعود إلى التصور "البويري": الفقابلية للتكييف. قوة النظرية تكمن في وجود آليات تسمح باختبارها، وعندما يتم اللجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية (نظريات، ومقاربات ونماذج) فإن الطابع الابتكاري ينسحب أيضا على آليات الاختبار والتقييم وبالتالي التكييف من عدمه، وفي هذه الحالة فإن هذه الأدوات التحليلية الجديدة لا يمكن وضعها في سلة واحدة جنبا إلى جنب مع القديمة. بمفهوم "كون"، فإن

²⁸⁵ Patrick James, op cit., p. 128.

المجتمع العلمي في هذه الحالة، على وشك تحقيق وثبة نحو نموذج قياسي إرشادي جديد وهو ما يسميه في حال نجاحهـ بـ التحول الباراديمي paradigm shift²⁸⁶.

إمبريقيا يمكن محاكاة هذا المفهوم بعدد من التطورات أو بالأحرى الوثبات التي عرفتها الإنسانية، بعد تحقيق عدد من الإبداعات التقنية مثل:

- تحول واقع نقل المسافرين والبضائع بعد اختراع العجلة، ثم بعد اختراع المحرك البخاري الذي يعمل على الفحم، وبعدها дизيل والطايرة، والآن يتم العمل على المحرك النووي بهدف توظيفه في تسخير رحلات مأهولة إلى الفضاء ولمسافات طويلة.
- تحول واقع الحرب بعد تسخير البارود كسلاح للقتص والتفجير، وبعدها التحول الثوري الآخر الأكثر أهمية على الإطلاق أي عقب الحصول على السلاح النووي وقبل ذلك سلاح الطيران.
- العلاج الطبي بعد اختراع اللقاحات (الطب الوقائي) والليزر (عمليات جراحية دون شق الجسد) وحاليا يتم العمل على تكنولوجيا "النانو" لتطوير أجسام "روبو" مجهرية يكفل لها محاربة الأورام.

تبين لنا هذه الأمثلة بعض جوانب التحولات الباراديمية وأثرها في الحياة الإنسانية، وقد استهل بها شرح مفهوم التحول الباراديمي قبل الإحالة على المصامين الأكثر تجريدا عندما يتعلق الأمر بالثورة المعرفية، حيث يقول "كون" أن الخروج من سياق "العلم العادي" وتعديل النموذج سيحدث تحولا في طبيعة المعرفة ذاتها لتصبح ثورية بعد أن كانت تراكمية، بمعنى التحول من المسار الخطي linear للتطور إلى مسار غير خطي non-linear.²⁸⁷ في حقل "العلاقات الدولية"، يتجلّى ذلك في إخفاق "النيوواقعية" و"النيليرالية" في التنبؤ بنهاية الحرب الباردة أو حتى تفسيرها وذلك رغم أنها نسخ منقحة عدة مرات عن التقليد البحثي "الوضعي"/"العقلاني" في هذا التخصص.

لقد أتاح ذلك الفرصة، ومنح الشرعية، لدخول نظريات جديدة خط المنافسة من أجل تقديم فهوم تنتفع بصلاحية إمبريقيّة أكبر، وهذه "الباراديمات" الجديدة بالأساس التأملية والبنائية لم تستنق أدواتها التحليلية من التقليد الوضعي السائد، ولا هي تبني نظرية للعالم worldview متوائمة مع تلك التي دأب التقليد البحثي السائد على تبنيها. إن، فهي ستطرح أحاجي علمية مختلفة، وبالتالي فهي تقدم بديلاً متميزاً، كما أنها تمثل تطوراً نوعياً بل وربما قطبيعة معرفية بمفهوم "باشلار"²⁸⁸. إذ أن "الباراديمات" البديلة أثبتت بعض التفوق في إعطاننا فهوماً، وذلك حيث التزم "التقليد البحثي المهيمن" "الصمت" أو ما دأب "ستيف سميث" Steve Smith على تسميته بـ silences، فإن نصوصها اكتسبت شرعية كافية لملأ أجزاء هامة من صفحات الكتب الأكademie

²⁸⁶ توماس كون، ترجمة: شوقي جلال، 'بنية الثورات العلمية' (الكويت: عالم المعرفة، 1992)، ص. 103.

²⁸⁷ توماس كون، المرجع السابق، ص. 177.

²⁸⁸ لمزيد من التفصيل في مفهوم القطبية المعرفية لدى "باشلار" انظر: محمد عابد الجابري، 'مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي'، ط. 6 (لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006)، ص. 463.

Textbooks. وإذا تغلبت إحدى هذه "الباراديمات" على منافساتها فإنها ستنهي على الحق في إطار ثورة معرفية مظفرة لصالحها.

عندما تحدث الأزمة المعرفية بظهور أعراض الإلحاد في الحصول على فهوم متبصرة للواقع باستعمال أدوات دأب التقليد البحثي المهيمن على تزويينا بها، وعندما يصعب التحقيق من حدة هذه الأزمة عبر تقييم "الباراديم" المهيمن، تحدث الثورة المعرفية ومفادها الانتقال إلى "نموذج قياسي إرشادي" (بارادايم) جديد، والذي ينطوي أيضاً على تعديل في النظرة إلى العالم worldview. مما يجعل الحديث عن إمكانية مقارنة ما يزودنا به الباراديم الجديد والقيم غير متيسر، فكل منها يستعمل لغة مختلفة، أدوات تحليلية متمايزة ويطرح أحاجي علمية متميزة أيضاً، وهذه الوضعية يطلق عليها "كون" اللامقايصة Uncommensurability، فعندما تكون إزاء "نموذجين قياسيين إرشاديين" متعاقبين فإن النقاش غير ممكن لأنه لا جدوى من ذلك علمياً، فضلاً عن أن النظرية تقاس بالسياق الذي ظهرت فيه والظروف العلمية التي أنتجتها، فكل نظرية مقاييسها الخاصة المستمدة من "الباراديم" الذي تم تفعيلها فيه.²⁸⁹

لكن ما يصعب تفسيره هو طول مدة الفترة الانتقالية من "باراديم" لآخر فهل يعني ذلك تعايش "الباراديمات"؟ أم أن هذه المنظورات perspectives (باستعمال مفهوم فضفاض) ليست مؤهلة لتحمل وصف "النموذج القياسي الإرشادي" (الباراديم) وبالتالي فهي ربما أقرب إلى برامج بحث لاكتوشية؟

المطلب الثالث: البرامج البحثية لدى "إمري لاكتوش".

إن اهتمام "إمري لاكتوش" (1922-1974) بمجال التاريخ للعلم يمكن فهمه باستحضار مقولته الشهيرة: "فلسفة العلم من دون تاريخه خواء، وتاريخ العلم من دون فلسفته عماء".²⁹⁰ وهي المقوله التي صاغها عن طريق تعديل قول "إمانويل كانط" المتأثر: إن المدركات الحسية من دون تصورات عقلية عماء، والتصورات العقلية من دون مدركات حسية خواء، وهنا يشبه وقائع تاريخ العلم بأنها محض مدركات عمياء، ونظريات فلسفة العلم محض تصورات عقلية فارغة، فلا معنى ولا جدوى ولا قيمة لأحدهما من دون الآخر.²⁹¹

تأثر "لاكتوش" في أعماله بفلسفة العلم سيما نظريته في المنهج (الميثودولوجيا) لكنه منحها فعالية وحركية تاريخية. غير أن أهم إسهاماته والتي تجسدت في مؤلفه: "ميثودولوجيا برامج

²⁸⁹ توماس كون، المرجع السابق، ص. 221.

²⁹⁰ إمري لاكتوش Imre Lakatos من بين أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين، وهو يهودي مجربي لقبه الأصلي "ليشوتز"، تحصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كامبريدج.

²⁹¹ يعني طريق الخولي، المرجع السابق، ص. 409.

الأبحاث العلمية"، فقد جاءت متأثرة بمفهوم "النماذج الإرشادية" لدى "توماس كون" وأيضاً "الإستراتيجيات العقلية" عند "ستيفن تولمن".²⁹²

ويعتبر الحديث عن البرامج البحثية اللاكتوشية وأهم رؤى "لاكتوش" في هذا الشأن منقوصاً قبل المرور على إحدى المفاهيم الابتكارية التي جاء بها وهي: تكذيب الفروض refutation، حيث يصر "لاكتوش" على اعتبارها الخاصية المميزة للنظرية العلمية -وخلالها لما ذهب إليه "بوير"- فإن النظرية العلمية ما يميزها ليس قابلية التكذيب المتضمنة فيها بل الأصح هو عدم إمكانية القيام بذلك.

ولفهم ذلك لا بد من العودة إلى أطروحة "دوهيم-كواين" Duhem-Quine Thesis تنص هذه الأطروحة على نقطتين أساسيتين: أولاهما أنه ولدى اختبار الفرضيات يجب الاستعانة عند تأويتها بالنسق العلمي الذي تولدت فيه هذه الفرضيات؛ ثانيةهما، وهي النقطة الأهم، عدم تقويض أسس نظرية معينة في حال أثبتت القرائن الإمبريقية خطأً إحدى فرضياتها hypotheses، فالعلم لن يتمكن من خطوة أية خطوة إلى الأمام إذا ما اعتمد هذه الطريقة في التقييم والتقويم، ويقترح "دوهيم-كواين" بدلاً من ذلك تصوراً آخر مفاده أن اختبار الفرضيات يجب ألا يتم بمعزل عن بعضها البعض، بل يجب وضعها في سلة من الفرضيات، وإذا ما تناقضت مع توقعات الباحث فيجب البحث عن الفرضية غير المتنسقة مع البنية العامة للنظرية. المشكلة مع هذا الطرح هو السيناريو الذي يدحض فيه الاختبار مجمل الفرضيات، وهنا يتدخل "لاكتوش" لتقديم الحل: حيث يقول أن البحث العلمي يجب أن يتم في إطار نسق معين يسميه "برنامج البحث" research program. يتشكل هذا البرنامج من نواة صلبة hard core يحتوي على افتراضات الكلية التي تستند عليها النظرية assumptions، وهذه النواة لا يمكن تكذيبها بواسطة الاستراتيجيات المنهجية السائدة؛ يضاف إلى هذه الحلقة حلقة من الافتراضات الأخرى التي تستخدمها النظرية لاستكشاف المزيد من الحقائق، تحسين قدرتها التحليلية، وتوسيع مجالها، وتكون هذه الحلقة بمثابة صمام أمان لحماية النواة الصلبة، وبالتالي، فإن دحضها بواسطة الشواهد الإمبريقية لا يمس النظرية. وفي الوقت ذاته، فإن تصور "برنامج البحث" يتيح للنظرية التعامل بإيجابية مع عالمها دون الخشية من أن تنهار بفعل اختبارات سلبية.²⁹⁴

في حقل العلاقات الدولية تمثل النواة الصلبة الافتراض الواقعي بأن: الدولة هي الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية وليس الفواعل فوق supra أو تحت sub الدولة، هذه النواة الصلبة محمية بما يسميه "لاكتوش" negative heuristic أي أنها محصنة ضد محاولات استكشاف أو اختبار كل ما يتعلق بها طالما أن الباحثين المعنيين يعبرون عن انتقامهم لهذا البرنامج البحثي Scientific Research Program، فذلك ما يمنح هذا البرنامج SRP هويته، إن هو غيرها، بفعل هشاشة النواة الصلبة أمام الاختبارات الإمبريقية، فإن جل الباحثين سيتعين عليهم الهجرة إلى

²⁹² المرجع نفسه.

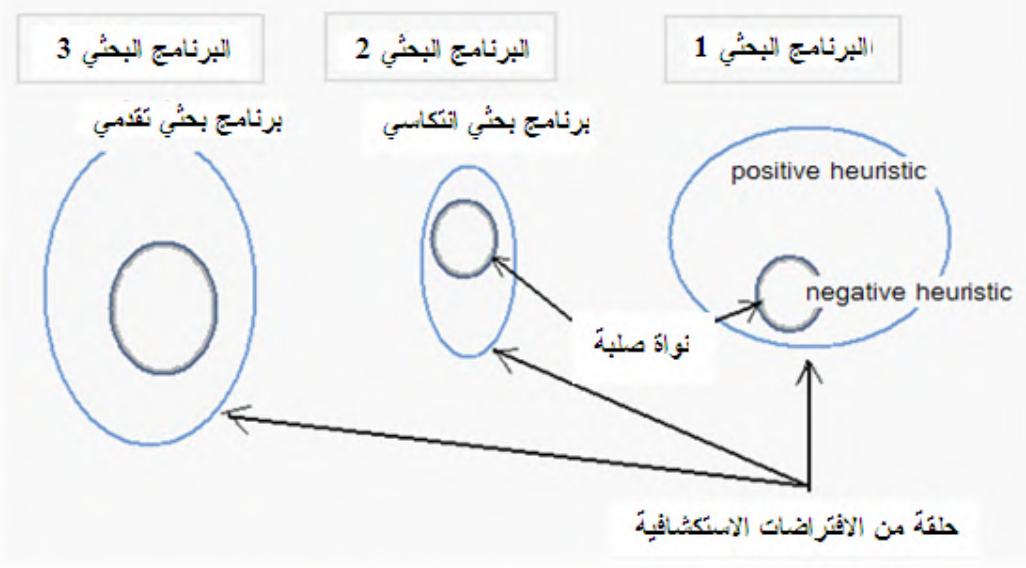
²⁹³ Donald Gillies, ‘Lakatos’ Criticisms of Popper’, in George Kampis et al. (eds.) ‘Appraising Lakatos: Mathematics, Methodology, and the Man’ (US: Springer, 2002), p. 15.

²⁹⁴ Donald Gillies, op cit., p. 16.

برنامح بحثي جديد New SRP. أما الحلقة الدافعية المنهجية للنظرية الواقعية، حسب المفهوم "اللاكتاتوسي"، أي صمام الأمان، فهو ينطوي على عدد من الافتراضات التي يمكن تعديلها وتكييفها حسب المعطيات الإمبريقية، كما أنها تلعب دور الأداة لتوسيع نطاق النظرية واستكشاف مجالات جديدة دون أن يعرض ذلك النواة الصلبة للخطر، ويمثل ذلك الواقعية الدافعية (حيث الدولة تسعى لتعظيم القوة) والهجومية (حيث الدولة تسعى لتعظيم الأمان).²⁹⁵

تمثيل بياني رقم 04: يوضح منطق التقدم العلمي لدى "إيري لاكتاتوش"

يقوم منطق التقدم العلمي لدى "لاكتاتوش" على افتراض مفاده أن البحث العلمي مهيكل في إطار برامج بحثية تتكون من نواة صلبة محصنة ضد التكبيل وحلقة من الافتراضات الاستكشافية الخاضعة لمقاييس الاختبار



البرنامح البحثي الذي توسيع حلقة افترضاته الاستكشافية يصبح تقدما (الواقعية مثلا)
أما البرنامج البحثي الذي تضيق فيه هذه الحلقات فيصبح انكاسي (النيوماركسية مثلا)

إذا أخفقت الفرضيات المنتمية إلى الحزام الدافعي الملحق auxiliary belt، وهو ما لم يحدث بعد في حالة الحزام الدافعي Offensive Realism / Defensive Realism / "الهجومي" (Defensive Realism)، فإن النتيجة التي يفسر من خلالها "لاكتاتوش" بقاء البرنامج البحثي حيا هي تحول لدى الواقعيين، فإن النتيجة التي يفسر من خلالها "لاكتاتوش" بقاء البرنامج البحثي حيا هي تحول

²⁹⁵ Colin Elman and Miriam Fendius Elman, 'Appraising Progress in International Relations Theory: An Introduction', in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), Progres in International Relations Theory (UK: Mit Press, 2003), p. 19.

في المشكلات التي يعالجها البرنامج، حيث أن الباحثين المنتسبين لهذا البرنامج ليسوا مضطرين إلى تغيير النظرية أو ربما تغيير "البارادايم" ككل كما يطرحه "كون". ويطلق "لاكتوش" على هذا التحول مصطلح "التحول نحو معالجة مشكلات أخرى" ضمن برنامج البحث ذاته intra-program problemshift، وهي الطريقة الوحيدة لحماية، ليس النظريات فحسب من الصعود والسقوط بشكل مزمن، بل لحماية البحث العلمي نفسه وضمان الحد الأدنى من التراكمية والتقدمية. وهنا يوضح "لاكتوش" أن برامج البحث إما أنها تسير بمنطق تقدمي progressive [الواقعية] أو انتكاسي degenerative [الماركسية].²⁹⁶

الفارق بين المنطق التقدمي والانتكاسي هو أن البرامج البحثية الانتكاسية أو المنتكسة تصبح عاجزة عن تفعيل الفرضيات المنتمية للحزام الداعي الملحق، وذلك للحصول على اكتشافات جديدة أي تحقيق وثبتات باتجاه تحصيل المزيد ميدانيا، فالبرامج البحثية لا يعترف لها بخاصية الثبات ومراوحة مكانها فيما أنها تتقدم أو تنتكس، ويحدث ذلك عندما تخفت منهاجيتها الاستكشافية الإيجابية إزاء محيطها positive heuristic بما يجعل النواة الصلبة عرضة لتوظيف أدوات منهجية لتقويضها، وفي هذه الحالة تنهار النظرية لأنه يفترض بها الحيز أن يكون بمأوى عن عملية الاستكشاف والفحص المنهجيين negative heuristic.²⁹⁷

إذن، فـ "لاكتوش" يصور التقدم العلمي بمثابة انتقالات متواالية من برنامج بحث أصبح منتسما، إلى آخر يمتلك السمة التقدمية الوعادة، فالتأريخ للعلم توصل إلى أن فلسفة العلم ذاتها باعتبارها المرجعية الوحيدة لتقدير مسار التقدم: "لم تعد قواعد وطرق حل المشاكل العلمية كما كان يأمل فلاسفة القرن التاسع عشر، ولم تعد مجرد تبرير للمعرفة العلمية، إنما هي نظريات في العقلانية العلمية ومعايير لتمييز العلم وتعريفه، ومحركات لقبول ورفض النظريات العلمية تحاول أن تعطي صياغة لنمو المعرفة العلمية الموضوعية، أي للتطور العقلي الخالص، لذلك كانت فلسفة العلم أو ميثودولوجياته صياغة لعقلانية التقدم العلمي، أي نموه الإستمولوجي الذي هو تطور عقلاني خالص".²⁹⁸

لقد حق تصور "برامج البحث" لدى "لاكتوش" نجاحا باهرا في الأوساط الأكاديمية، سيمما الباحثين في مجال التأريخ للعلم historiography، حيث أصبحت المعالجات المختلفة لمسألة التقدم العلمي وتقديم تفسيرات مناسبة تعتمد على البرامج البحثية بشكل كبير نظرا للصعوبات التي اكتفت محاولات وسمها بالثورات المعرفية "الكونية" Kuhnian، فذلك يفسر إلى حد بعيد وجود عدد معتبر من النظريات المتنافسة في العلاقات الدولية (النيوواقعية، النيوليبرالية، النيوماركسية، النيوكولونيالية، الجذر، البنائية,...). التعالى، إن صحة التعبير، بين هذه المقاربات يؤكد أن الفترة الانتقالية التي تحدث عنها "كون" والتي تفصل بين "البارادايم" المنتكس أو المتفقر، وظهور أعراض إخفاق عدة مسلمات فيه وبين تعويضه بـ"بارادايم" آخر كانت طويلة جدا، فيما أن منطق الثورة لدى "توماس كون" ليس دقيقا بما يكفي لوصف التقدم العلمي في العلوم الاجتماعية، طالما

²⁹⁶ Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.

²⁹⁷ Ibid.

²⁹⁸ يعني طريق الخولي، المرجع السابق، ص. 414.

أنه صيغ بالأساس لتفسير وفهم مسار التطور المعرفي في الفيزياء (من "كوبرنيكوس" و"قاليليو" إلى "النيوتنية" وصولاً إلى "النسبية" وأخيراً "ثورة الكوانتم" وهي المحطات التي بُني على ضوئها "كون" نظريته).²⁹⁹

غير أن ذلك لم يكن حائلاً دون تعرضه لانتقادات تخص الاتساق والدقة المنهجيتين. فمثلاً حديث "لاكتوش" عن البرامج البحثية الوعادة التقديمية التي تكتشف الجديد، مقابل البرامج البحثية الانتكاسية التي تراوح مكانها بل وتتجدد نفسها في موقع دفاعي، كان معياراً تصنيفياً جيداً، إلا أن النقطة التي أخفق "لاكتوش" في شرحها هي: ما هو المعيار الذي يمكن أن تبني على أساسه الجدة، أي ما هي الأدوات الاتفاقية التي يمكن أن نحكم على صوابها بجدة طروحات نظرية لبرنامج بحثي معين. الإجابة عن هذا السؤال ليست متيسرة لدى "لاكتوش"، لكن يبدو أن صمود المقاربة النظرية أمام هزات إمبريقية متتالية يعد كافياً للحكم عليه بالتقديمية.³⁰⁰ غير أن المشكلة التي تظل مطروحة في المنظور اللاكتاشي للتحولات المعرفية تتمثل في عجزه عن تقديم تفسيرات للتحولات الكلامية باتجاه مسلمات جديدة ونماذج قياسية ابتكارية لا تربطها علاقة بالنموذج السائد، النقطة التي أخفق أمامها "كون" و"لاكتوش" على حد سواء.

المطلب الرابع: "الفوضى المنهجية الخلاقة" لدى "باول فاييرآبنت".

تعتمد بعض تفسيرات التحولات المعرفية على التراكمية كلية كانت أم جزئية، لكن مشكلة كبيرة تواجه هذه التفسيرات عندما يتعلق الأمر بثورة جذرية على المسلمات الشائعة، وهذه هي حالة النماذج التفسيرية التي طورت قبل ظهور فيلسوف العلم النمساوي "باول فاييرآبنت" Paul Feyerabend (1924-1994)، هذا الأخير أدخل "نزعته النسبية" في المقاربة للمسألة سنة 1975 لدى إصداره كتابه المثير للجدل: "ضد المنهج: مخطط تمهدى لنظرية فوضوية في المعرفة".³⁰¹

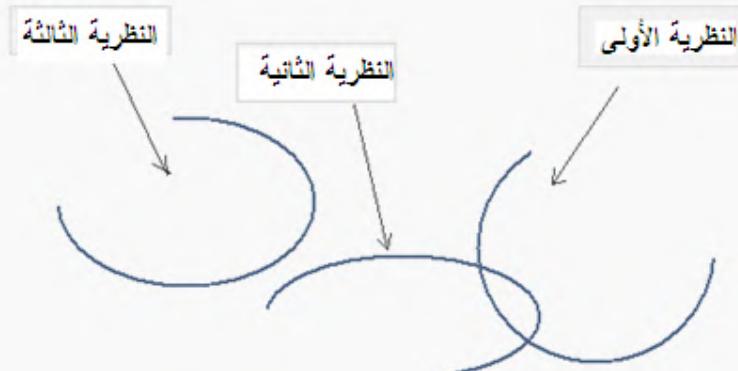
²⁹⁹ John Vasquez, Kuhn versus Lakatos: The Case for Multiple Frames in Appraising International Relations Theory, in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), **Progres in International Relations Theory** (UK: Mit Press, 2003), pp. 420-422.

³⁰⁰ Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.

³⁰¹ لهم أعمق لمطاراتات فاييرآبنت، انظر بالأخص: باول فاييرآبنت، ترجمة: محمد أحمد السيد. "ثلاث محاورات في المعرفة" (الاسكندرية: منشأة المعارف، 1997).

تمثيل بياني رقم 50: يوضح منطق التقدم العلمي لدى باول فايرآينت

يقوم منطق التقدم العلمي لدى باول فايرآينت على افتراض مفاده ألا ضرورة لوجود مكونات قديمة في النظرية الجديدة، التقدم وفق مسار لا خطى.



لقد تضمن الكتاب قضايا مثيرة للجدل، من بينها أن التقيد بالمنهج لا ينطبق على الوضع التي كان/ويوجد/ وسيظل عليها العلم، فالعلم بالأساس يعتبر "مُسعي فوضوي" Anarchic Enterprise، إذ لا يجدي نفعاً تقييده بسلطة منهجية لأن ذلك قد يحرمه من الابتكارية.³⁰²

وكانت أسانيد "فايرآينت" الأساسية تعتمد على فحص عدد من التحولات المعرفية الكبرى في تاريخ العلم، حيث حاول من خلالها أن يؤكد وجهة نظره الفائلة بأن الصرامة منهجية لم تقف وراء هذه الوثبات لأن ذلك يحول دون الإبداع. وإذا تمعنا جيداً في رؤى "فايرآينت" لا نجد لها داعية إلى الفوضى منهجية المطلقة كما يحاول بعض خصومه تصوير أطروحته، بل هو مناصري "التعديدية منهجية" methodological pluralism، لذا توسم فلسفته للعلم بالعقلانية الفوضوية بما يفيد رفضه تنصيب سلطة على المعرفة تقني بما يجوز من دونه منهجياً لدى مباشرة مسعى بحثي. فلا يجب أن نظفي على النسق المعرفي هالة من القدسية بحيث يمارس البحث العلمي وفق طقوس دوغمائية. لكن ورغم بساطة منطلقات "فايرآينت" على ظاهرها إلا أنها حملت الكثير للمعرفة، فهي تتطوّي على نظرة ديناميكية القيمة value، فلم يعد مضمونها بذلك ليقارب له كمعطى لا يمكن مناقشته، فالقيمة يعتبر اتخاذ موقف منها ضروريًا للحكم بالتقدمية أو الانكماش مثلاً، لكن من منظور "فايرآينت" سيعين أولاً مراجعة المسلمات التقليدية وما نطلق عليه لفظة

³⁰² Donald J. Pushala, 'Woe to the Orphans of the Scientific Revolution', in Robert L. Rothstein and William T. R. Fox, 'The Evolution of Theory in International Relations: Essay in Honor of William T. R. Fox', (USA: University of South Carolina Press, 1992), pp. 44-47.

التقدم أو الانكasa، المعايير الاستاتيكية ذاتها مبنية على القيمة (البعد الأكسيولوجي للمدخل الفلسفي) وبذلك فإن مدلولاتها تخضع بدورها للمراجعة.³⁰³

لقد ذهب "فابرآبنت" إلى أبعد من ذلك من خلال الدعوة إلى حماية المجتمع من العلم (أي العلم كما يسوقه الوضعيون)، تماماً مثلما نسهر على حمايته من هيمنة أيديولوجية واحدة ونصون التعديدية السياسية، فإنه يجب الحيلولة على أن يخضع العلم لوصاية نهج فكري معين، وقد انتقد "فابرآبنت" بشدة استمرار الوصاية التي تفرضها الدولة على العلم عبر التمويل، حيث شدد على ضرورة محاكاة عملية فصل الدين عن الدولة وذلك بفصل العلم عن الدولة أيضاً بالطريقة ذاتها. ذلك أن وصاية الدولة على العلم متجسد فعلياً عبر رعايتها لغالبية المؤسسات التعليمية مقابل تمييز المناهج، المناهج العلمية بالأساس مما قد يضيق مجال الإبداع. ومن هنا فإن الحل يمكن في علمنة للعلم تماماً مثل علمنة السياسة. إن الادعاء بأن المنظور العلمي وحده لديه شرعية امتلاك الحقيقة بدعوى أنها أفضل من يمثل العقلانية، متناسبية أنها مجرد نسخة واحدة للعقلانية، وهناك أنواع عدة للعقلانية لا يمكن الاستهانة بقدرها التحليلية، فضلاً عن أنها ليست خاطئة قياساً بمعايير تحديد الصحة والصلاحية الخاصة بها، ذلك أن "فابرآبنت" مثله مثل "كون" يؤمن بأن العقلانيات المختلفة أو الأنماط العقلانية المختلفة لامقاييسة *incommensurable*. ولهذا السبب، فإن عديد العقلانيات الموجودة في المشهد المعرفي لا يمكن المقارنة بينها ولا جمعها في توليفة تحليلية واحدة، فهي توظف تصورات متميزة في لعبة لغوية تحكم لقواعد متميزة. وهنا نجد "فابرآبنت" يستعين بفيلسوف نمساوي آخر هو "لودفيغ فيقنشتاين" Ludwig Wittgenstein (1889-1951) والذي اعتبر أشكال الحياة بناء تسهم فيه "لعبة اللغة" language game، ما يميز شكلها عن الآخر أو ما يميز لعبة عن الأخرى هو قدرة المفاهيم التي تبني عليها هذه اللغة على التعبير، وكما يقول "فيقنشتاين" فإننا عندما نعجز عن التعبير فإننا نلتزم الصمت، ولكن التزام الصمت إزاء قضايا عدة هو ما يمنح اللغة هوية معينة.

وبعد استعراض أهم ثلاثة طروحات تحاول تفسير التقدم العلمي، فإن المباحث التالية تهدف إلى رصد التحولات المعرفية في حقل علم السياسة وال العلاقات الدولية من منظور الثورات والبرامج والثبات المعرفية التي تم التفصيل فيها.

³⁰³ Ibid., pp. 51-52.

المبحث الثاني: مسار تطور علم السياسة والتفسير "الكوني"- "اللاكتاتوشي".

يعتبر الحقل المعرفي لعلم السياسة الحاضن لشخص العلاقات الدولية، فأغلب الجامعات تقترح هذا التخصص عقب استيفاء الطالب لعام كامل أو عامين من دراسة أساسيات علم السياسة. ولذا كان من الضروري وضع التحولات الباراديمية في حقل العلاقات الدولية في سياقها المعرفي الأوسع، والنظر فيما إذا كان النقاشات النظرية في العلاقات الدولية مجرد انعكاس لمناقشات تمحورت حول المسائل ذاتها في علم السياسة، أم أن تطور حقل العلاقات الدولية كانت له هوية مستقلة ومتمنية.

لكن من المهم الإشارة إلى محاذير معينة لدى تاريخ علم السياسة، ذلك أن أغلب الباحثين الذين تناولوا الموضوع، حسب "إيلكا هيسكانن" Ilkka Heiskanen لم يخرجوا عن المقاصد التالية:³⁰⁴

- محاولة شرعة الباراديم المهيمن على الحقل المعرفي؛
- السعي لإقناع المانحين بأهمية ودور علم السياسة؛
- التعرض لتاريخ تطور الحقل لدى تأليف كتاب دراسي موجه لطلبة علم السياسة؛
- دراسة نقدية تهدف إلى إعادة توجيه علم السياسة في منحي آخر؛
- إعطاء تأويلات جديدة لتاريخ الفكر السياسي؛
- عالم اجتماع يسعى لصياغة نظرية حول السياسة من خلال إعادة بناء أنماط التفكير المتأصلة في المجتمع في فترات تاريخية متعددة.

وفي سياق هذه المحاذير يحاول هذا المبحث الاستعانة برؤى مختلفة من أجل ترجمة التحولات الأساسية في علم السياسة.

المطلب الأول: إرساء علم السياسة وأهم محطات تطوره.

يعود الفصل في إرساء أسس علم السياسة كشخص أكاديمي يحظى بالاهتمام إلى 1903 عندما تم تأسيس "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" حيث ساهم ذلك في إعطاء هوية للحقل، ومنذ ذلك الوقت فقد مر مسار تطور هذا التخصص عبر خمس مراحل، تميزت كل واحدة منها بمعنى إحدى التوجهات المعرفية للهيمنة عليه:³⁰⁵ مرحلة سيادة "النزعية الدولية" State-centred (التحول حول الدولة وجعلها مرجعية للتخليل)، وهي النزعة التي رافقت مسيرة هذا الحقل خلال بوادره لاكتساب المهنية؛ مرحلة سيادة "النزعية التعديدية" Pluralism وقد بُرِزَ هذا التوجه

³⁰⁴ Ilkka Heiskanen, 'On the role of meta-analysis in political science: from legitimization, illusions and sous-realism to transrealism, disillusionism and delegitimation,' in Dag Anckar and Erkki Berndtson (eds.), **Political Science Between the Past and the Future** (Jyväskylä: Finnish Political Science Association, 1988). pp. 119-120.

³⁰⁵ John S. Dryzek, 'Revolutions Without Enemies: Key Transformations in Political Science', **American Political Science Review** 100 (04) 2006, p. 487.

مع نهاية العقد الثاني وبداية العقد الثالث من القرن العشرين مطالبًا باهتمام التحاليل السياسية بفاعل آخرين غير الدولة؛ مرحلة سيادة "النزعية السلوكية" Behavioralism (ظهرت منتصف القرن العشرين)؛ الاتجاه نحو إرساء "علم سياسة جديد" New Political Science (وذلك خلال نهاية السبعينيات وبداية التسعينيات)؛ التيار المعروف حديثًا بـ"بريسترويكا علم السياسة" (تزامن ظهوره مع بدايات القرن الحادي والعشرين).

بالنسبة لـ"جون س. دريزك" John S. Dryzek فإنه ومن بين التوجهات المعرفية الخمس، وحدهما "التعديدية" وـ"السلوكية" استطاعت إحداث تحول معرفي بالمفهوم "الكوني" Kuhnian ما يعني أن الاتجاهات الأخرى تمثل مجرد برامج بحثية بمفهوم "لاكتوش". ويجاج "دريزك" بأن سر نجاحها هو عدم تعارضهما لأية مقاومة داخل الأوساط الأكاديمية، على أنها تعرضت لاحقًا لانتقادات ومقاومة من قبل تيارات نظرية أخرى، لكن بعد أن كللت ثورتها المعرفية بالنجاح.³⁰⁶

إن الهدف المتوازي من تأسيس مدرسة فكرية جديدة هو الهيمنة على المشهد العام للتخصص من خلال الادعاء بامتلاك فهوم متكاملة حول موضوع الدراسة والبحث لهذا التخصص، وذلك عبر صياغة أجندات جديدة للبحث على أنقاض الأجندات التي اعتمدها الحقل المعرفي عندما كانت مدرسة معرفية أخرى تهيمن عليه. وبالنسبة لـ"دريزك" فإن إطلاق الوصف المناسب على هذه المساعي مسألة مهمة، فبعضها كان بمثابة "ثورات معرفية كونية" استطاعت إحداث قطيعة مع واقع التخصص في السابق، أما البعض الآخر فقد كان مجرد "برامج بحثية لاكتوشية" مثل "الوظيفية البنوية" structural functionalism أو البيوسياسة bio-politics. يختلف "بيرسن" وـ"سكوكبول" Skocpol Pierson مع وجهة النظر هذه ويرتأن أن تطور الحقل عرف ظهور ثلاثة باراديمات كبرى لا أكثر وهي: "السلوكية" وـ"العقلانية" وـ"المؤسساتية".³⁰⁷ لكن من حيث المبدأ يبدو أن هناك اتفاقاً ضمنياً بين الطرفين، فـ"دريزك" يتحدث عن نجاح مسعين لإحداث تحول "باراديمي" في الحقل وهما: الدولانية والسلوكية بمعنى أنهم يستبعدون نجاح المساعي من "أجل علم سياسة جديد" في تغيير أجندات الحقل بشكل كلي. والتوافق الضمني هنا يمكن في أن المؤسساتية امتداد للنزعية الدولانية بينما تنتهي الانتقادات على العقلانية. والجدول التالي يوضح بدقة أهم تطور علم السياسة من منظور "الثورات الباراديمية".

المطلب الثاني: دور الثورة المعرفية دولانية-التوجه في إرساء تخصص العلوم السياسية.

تمحور الخطاب العلمي لهذا الحقل المعرفي على الدولة ابتداءً من "فرانسيس ليبر" Francis Lieber، والذي عين كأول أستاذ لعلم السياسة بجامعة كولومبيا الأمريكية عام 1857،وصولاً إلى "وودروWilson" Woodrow Wilson وغيرهما من الباحثين، خلال هذه الفترة كانت المهمة الرئيسية لعلم السياسة إرساء "دولة قومية موحدة" وـ"مواطنة فاضلة".³⁰⁸ وقد تبني

³⁰⁶ Ibid.

³⁰⁷ David D. Laitin, 'The Political Science Discipline', in 'The Evolution of Political Knowledge: Theory and Inquiry in American Politics' (USA: Ohio State University Press, 2003), p. 16.

³⁰⁸ John S. Dryzek, op cit., 487.

هذا الخطاب غاية معرفية مهمة هي البحث عن القوانيين التي تحكم توزيع السلطة بين مؤسسات النظام السياسي للدولة، وبذلك فقد انصب البحث على النصوص الدستورية وما تقوله بشأن التزامات الأفراد الذين يعينون في مراكز سلطوية وحدود صلاحياتهم. وهكذا هيمن تصور الدولة على أجندة علم السياسة في الولايات المتحدة مع نهاية القرن التاسع عشر، حيث ساهم في منح هذا الوزن للدولة وجوه أكademie تحولت إلى رموز لعلم السياسة الناشئ، بالأخص "ولتر باقو" Walter Baghot في بريطانيا و"ودورو ويلسون" في الولايات المتحدة.³⁰⁹

إن اعتماد تصور الدولة وجعله محورا للنقاش في علم السياسة ليس بالشيء الجديد كليا، حيث سبق لما اصطلاح على تسميته بالمناقشات الدستورية بين "الفراليين" في الولايات المتحدة أن أولت عناية كبيرة بهذا الموضوع. كما أن "ويلسون" لم يكن وحيدا في تصويره لنظام سياسي تؤطره أحزاب سياسية منضبطة تقترح سياسات عقلانية معدة بعناية، لتأخين واعين بخياراتهم، وعلى ضوء نتائج الانتخابات، يقوم الكونغرس بإقرار السياسات التي تمت تزكيتها، لتفكر على تنفيذها بيروقراطية تتمتع بالخبرة وتطبق أفضل ما جاد به علم الإدارة. لقد صاحبت هذه الدعوة للفضيلة دراسات إمبريقية عدة أدبت على تحليل المؤسسات الأمريكية وكشف مختلف مظاهر الشرخ، والجهوية، والمحسوبيّة والفساد. هذا النوع من الأبحاث جسده مؤلف "ويلسون" نفسه المعون: "الحكومة البرلمانية" والذي صدر في 1885 أي في غمرة تأسيس الحقل.³¹⁰

إن تطور الحقل المعرفي لعلم السياسة في هذه الفترة -فترة التأسيس- انطوت على أهداف معيارية وبالذات السعي من أجل إقامة دولة قومية موحدة وأمة تمنع بالإرادة والقدرة لتحقيق هذا الهدف. وفي هذا الاتجاه أشار "فرانك قودناؤ" Frank Goodnow في معرض حديثه أمام "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" APSA، حول دور علم السياسة في تحقيق "إرادة الدولة": "أحياناً تنشأ التحالفات السياسية لهذا الغرض (تحقيق إرادة الدولة)، خاصة الحركة التقدمية، لكن الهدف الذي وجد من أجله هذا المشروع يتمثل بالأساس في مكافحة الفساد، الزبونية، الماكنة الحزبية، المحاباة، والجهوية، وهي المظاهر التي سعت النزعة الدوّلية إلى محاصرتها، تماماً مثلما عملت على إصلاح النظام الذي أرسى أسسه "توماس ماديسون"، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، هذا النظام أصبح غير ملائم للتحولات الاجتماعية الناجمة عن الثورة الصناعية".³¹¹ يدعم ذلك وجهة نظر "دايفيد بوسطن" David Boston القائلة بأنه خلال هذه الفترة من تطور علم السياسة انتفت الخطوط الفاصلة بين أجندـة البحث وأجندـة الباحثـين ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى الفوضى التي كانت مستشرية على الصعيد المنهجي.³¹²

على الرغم من أن أصحاب النزعة الدوّلية [الدستورية] كانت لديهم مأخذ على الجانب المنهجي لأعمال من يصفونهم بـ"التعديدين" pluralists [المُنادين بـ"التعديدين"]، بينما ينبع الفواعـل المشارـكـين في صناعة القرار السياسي وعدم حصر الفعل السياسي في المؤسسات السياسية الدستورية للدولة، فإن طلائع الثورة الموسومة بـ"التعديدية" pluralism الذين طلـاماً وصفـوا أتباعـها بـ"الهـواة" في

³⁰⁹ David Boston, 'The Political Science in the United States: Past and Present', in David Easton et al. (eds.), 'The Development of Political Science: A Comparative Survey' (UK: Routledge, 1991), p. 276.

³¹⁰ John S. Dryzek, op cit., p. 488.

³¹¹ Frank Goodnow as quoted in John S. Dryzek, op cit., p. 488.

³¹² David Boston, op cit., p. 276.

مقابل "الدولاتيين" الذين أضفوا الطابع الانضباطي على الحق، لم يكونوا بأسوأ حالاً في هذا الجانب من "الدولاتيين المحترفين". منهجية البحث لدى هؤلاء جميعاً لم تكن تخضع لقواعد يمكن تقيي أثرها أو مراجعتها لأنها كانت تتطوّي ببساطة على عملية تجميع فوضوي للمعطيات وتقديمها بطريقة وصفية بحثة، وربما كان الوضع أفضل بقليل لدى ذوي النزعة التعددية، حيث أنهم استطاعوا الذهاب إلى ما هو أبعد من الوصف، بل وتمكنوا بفضل ذلك، من فهم بعض ديناميكيات الفعل السياسي بطريقة تفوق الفهم "الدولاتي" ³¹³. State-based

لقد اتسمت منهجية في هذه الفترة -فترة التأسيس- التي يطلق عليها الباحث "دافيدين بوستن" وصف الفترة الكلاسيكية بأنها كانت مجالاً غير رسمي، وهو نوع من التناقض فـ"الدولاتية" ركزت أجندتها البحثية على الدولة والمؤسسات الرسمية لكنها اعتمدت في ذلك على أدوات لم تكن تكتسي الطابع الرسمي في العلوم الاجتماعية نهاية القرن التاسع عشر. ذلك أن منهجية لم تكن تطرح أية مشكلة بالنسبة للدولاتيين الكلاسيكيين "المحترفين" أو للتعدين الثوريين "الهواة"، لأن مجال البحث والتحليل للظواهر السياسية كان مفتوحاً للجميع سيما القادمين من حقول معرفية مجاورة لعلم السياسة. وقد ساهم ذلك في إبطاء تطور هذا الحقل المعرفي، لأنه وفي غياب منهجية واضحة لم يكن يتسع لأي كان تقييم الدراسات السابقة وبالتالي تقويم وتحسين الأدوات المنهجية، أهم عامل كان سيساهم في دفع هذا التخصص قدماً وفي وقت مبكر. ³¹⁴

المشكلة الأخرى التي طرحت في هذه المرحلة وهي بطريقة ما تعتبر نتيجة منطقية للمشكلة الأولى (أي غياب منهجية واضحة)، تتمثل في اختراق القيم لأجندة البحث فالحقائق والقيم لم يكن من السهل التمييز بينهما في النصوص "العلمية" التي صدرت خلال نهاية القرن التاسع عشر وببداية القرن العشرين، كما لم يكن من السهل فهم ما إذا كان الباحثة يتحدثون عن خياراتهم الشخصية أم عن أولويات البحث أم حقيقة عمل المؤسسات الدستورية التي يزعمون دراستها، وهو مشكل ظل قائماً حتى مع ظهور تحدي "أنطولوجي" للدولاتيين يتمثل في النزعة التعددية. ³¹⁵

المطلب الثالث: أول تحدي بارادايمي في حقل علم السياسة-البارادايم التعددي.

خلافاً لما قد يعتقد البعض، فإن ازدياد قوة التحدي المعرفي الذي واجهته النزعة الدلاوتية لم يكن مصدره باحثون من خارج هذا البارادايم بل من داخله، فـ"بيقهوت" وـ"ويلسن" كانوا أول من انتبه إلى أنه وخلف المؤسسات الرسمية للدولة كان هناك مؤسسات غير رسمية فاعلة وتمارس ضغطاً معتبراً على عملية صناعة القرار. ويضربون مثلاً على ذلك اللجان غير الرسمية في المؤسسة التشريعية وفي الأحزاب وعدد من مجموعات الضغط الناشئة. ³¹⁶

وربما كانت طبيعة النظام السياسي الأمريكي هي ما ساهم في نمو التحاليل التي تأخذ بعين الاعتبار خاصية تعدد الفواعل، هذه الخاصية التي ورغم أن "الدولاتيين" يقررون بها إلا أنهم يعتبرونها مشكلة يتبع حلها لا وضعية ينبغي تشتيتها، هذه هي الحقيقة التي يشير إليها مؤلف "آرثر

³¹³ Ibid.

³¹⁴ David Boston, op cit., p. 276.

³¹⁵ Ibid., p. 277.

³¹⁶ Ibid.

بنتلي "Arthur Bently" المعون: "عملية الحكم" The Process of Government والذى يعتبره السلوكيون أحد رواد السلوكية التعددية. وفي كتاب آخر أصدره لاحقاً بعنوان: "صانوا القرار ، المعنيون بالقرار والمتتحكمون في اللعبة السياسية" Makers, Users and Masters عبر "بنتلي" عن إدانته لهيمنة مجموعات المصالح على السياسة الأمريكية، وهو ما يتفق مع أحد أسلاف السلوكية "شارلز ميرياム" Charles Merriam والذي دعا في مؤلف نشره خلال العشرينيات من القرن العشرين إلى تقوية الديمقراطية وتعزيز الحكم في العملية السياسية والرعاية الاجتماعية.³¹⁷

لكن ومع أن نظام الدولة المركزية قد تعرض للنفي مع فقدانه للحكم في العديد من الأجهزة، إلا أن تقدس الدولة استمر خلال العشرينيات لأنها كانت تلبى تطلعات معيارية،³¹⁸ منها صعود التيارات القومية في أوروبا.

غير أن التعددية المعيارية أصبحت تحتل حيزاً متزايداً مع ظهور مؤلفات "هارولد لاسكي" Harold Laski (1917) و"ماري بيركيت فوليت" Mary Parket Follet (1918). كان كل من "لاسكي" و"فوليت" متأثرين بفلسفه "وليم جيمس" التي شددت على نبذ تحكم الدولة ومنحها حقاً حصرياً لإدارة شؤون الفرد، فهذا الأخير يمتلك طرفاً عدداً يمكن له من خلالها إدارة شؤونه. ومن هنا يمكن استشاف حقيقة أن مفهوم التعدد لدى ذوي النزعة التعددية لا يرتكز على تعدد المصالح بل على تعدد الوسائل. أما "فوليت" فقد كانت من دعاة تنظيم المجتمع في جماعات من القاعدة باتجاه القمة، معارضة بذلك الهندسة الاجتماعية التي كانت تعتمد على الاتجاه العسكري من القمة باتجاه القاعدة. وهي بذلك تختلف مع "الدولاتيين" في تقسيم دور الوصاية التي تمارسها الدولة. لقد طرحت "فوليت" سؤالاً مهماً للدولاتيين: ما الذي يمكن عمله بالتعدد؟ لكن الدولاتيين قدمو إجابة بسيطة: "كل ما يجب فعله بالتعدد هو إزالتهم".³¹⁹

هذه النظرة الاستعلائية لـ"الدولاتيين" لم يكن لها ما يبررها إمبريقياً، لكن إخفاق "ذوي النزعة التعددية" كان منهجاً بالأساس، وإلا كانت دراسات من قبيل تلك التي قام بها "ميرل فينسود" Merle Fainsod عام 1940 ستحظى بالنجاح نظراً لثروريتها سيما تصوره المتعلق بالقوى المتباينة parallelogram of forces، وفيه يتحدث عن القوى التي تتجادب القرار قبل استصداره على مستوى الهيئات التشريعية أو الإدارية، حيث تخضع العملية برمتها لضغط من المجموعات المجتمعية ومجموعات الضغط والرأي العام، ويتم ذلك باستخدام مساومات وصناعة توافقات إلى أن يتم تحصيل التوازن المطلوب لاستصدار القرار، مثل هذه التحاليل يبدو أنها تجاوزت السياق الزمني الذي كتبت فيه بعقود.³²⁰

لقد حاول "درزيك" فحص مدى ثورية الطرح التعددي فوجد أنه بالنسبة لبعض الباحثين، يعتبر صعود هذه "النزعة التعددية" في العشرينيات بمثابة الثورة المعرفية الحقيقة الوحيدة التي

³¹⁷ John S. Dryzek, op cit., p. 488.

³¹⁸ Ibid.

³¹⁹ التعدد المقصود هنا (لدى رواد الاتجاه التعدديين) ليس التعددية الحزبية التي تعتبر ركيزة الديمقراطية الغربية بل التعدد في الآليات التي يمكن من خلالها حكم المجتمع بمعنى عدم الالتفاء بالمؤسسات الحكومية طالما أن المجتمع الأمريكي ذي الخلفيات الإثنية والاجتماعية المتباينة لدى تجارب يكون قد استقدمها من مواطن أخرى، انظر: John S. Dryzek, op cit., p. 488.

³²⁰ David Boston, op cit., p. 276.

شهدها علم السياسة في الولايات المتحدة، فـ "جورج كاتلين" George Catlin، أحد المدافعين عن "النزعية لتعديه" كان يرى أن التعدد يعود على اختلاف مصالح المجموعات المشكلة للنسيج الوطني، لا على تعدد تجارب هذه المجموعات (وسائلها)، وهو ما يتفق مع الافتراضات السلوكية، مما يؤكد على القول بأن التيار السلوكي لم يكن ثوريًا بل مجرد استمرار لتحول النموذج الإرشادي الذي قاده "كاتلين" التعديي ينطوي على بعض الصحة.³²¹

لكن، وحسب "درزيزيك"، فإن التمعن في أعمال "كاتلين" يساعدنا على استشاف وجود تقارب كبيراً بينه وبين "الاتجاه الدولاتي" الذي كان بمثابة التقليد البحثي السائد خلال تلك الفترة، فـ "الدولاتيون" أنفسهم كانوا يعترفون بوجود التعديية باستثناء أنهم كانوا يرون فيها مشكلة يتعين حلها. ومن هنا يتضح أن الشيء الثوري الوحيد لدى التعدييين هو الشق المعياري لطرحهم. طرحتم هذا لم يحضر بالقبول في علم السياسة إلا في خمسينيات القرن العشرين. وحينها فإن الصيغة المتبعة للتعدد هي تلك التي ترتكز على تعدد المصالح لا على تعدد القيم.³²²

المطلب الرابع: التحول الباراديمي الأول في علم السياسة—السلوكية.

بعد قرابة نصف قرن من سيطرة "الباراديم الدولاتي"، ومع إخفاق "الباراديم التعديي" في تحويل أجندـة البحث في علم السياسة عن اهتماماتها الأنطولوجية، فإن ظهور "الباراديم السلوكي" استطاع إحداث تحول جدي لكن على المستوى المنهجي، التي كانت بمثابة نقطة الضعف الرئيسية في "الباراديمات" السابقة. وهكذا فقد تبني "الاتجاه السلوكي" نزعة علمية متطرفة موضوعها التعديية في شقها المتعلق بالمصالح لا القيم، أي ذلك التعدد الذي يقع تحت مظلة التوافق حول المنطلقات والأسس بين جل المصالح الاقتصادية المتعارضة. ولم يمر وقت طويل، أي مع نهاية السبعينيات فقط، ظهرت كتابات عديدة تشيد بانتصار السلوكيـة، وأعطى ذلك انطباعاً بأن "السلوكية" ثورة تحصلت على رضا الأكاديميين بفضل نجاحها في إعادة صياغة أجندـة البحث، كنتيجة لإسهامات المؤيدين والخصوم على حد سواء، وأبرزـهم على الإطلاق العلماء الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية مثل "هانتس مورفـتهاو" Hanz Monrgenthau و"ليو شتراوس" Leo Strauss الذين أربكـوا الأوساط الأكاديمية بانتقادـتهم اللاذعة لواقع التحليل السياسي في علم السياسة والذي يفتقد حسبـهم للتأصـيل النظري والتوجـيه المنهجي.³²³

لكن مع ذلك يحق لنا التساؤل: إذا كانت السلوكيـة ثورة معرفـية، فضـد من أعلنت هذه الثورة؟ كان خطابـ الثوريـين يتحدث عن توجـيه ثورـتهم المعرفـية ضد "علمـ السياسـة التقـليـدي" الذي يعتمدـ المنهـجـ التـارـيـخيـ والمـعـالـيـ فيـ وـاقـعـيـتهـ حـسـبـ "دايفـيدـ إـسـتونـ" David Easton؛ لكنـ منـ هـمـ الـبـاحـثـونـ الـذـيـنـ وـسـمـتـ أـعـالـمـهـ بـ"ـالتـقـليـديـ"ـ؟ـ ذلكـ سـؤـالـ لمـ يـجـبـ عـنـ السـلـوكـيـونـ الـذـيـنـ ظـلـواـ صـامـتـينـ

³²¹ John S. Dryzek, op cit., p. 488.

³²² Ibid.

³²³ Robert Adcock, 'Interpreting Behavioralism', in Robert Adcock et al. (eds.), 'Modern Political Science: Anglo-American Exchanges Since 1880' (USA: Princeton University Press, 2007), p. 189.

إزاء هوية خصومهم، أو الأعمال والمؤلفات التي تمثل هذا "الاتجاه التقليدي" في علم السياسة، فكتاب Garceau (1953) الذي يتضمن مراجعة استعراضية يخلو من أية إشارة سلبية كانت أم إيجابية لهوية خصوم السلوكية³²⁴ وهو وضع يختلف كثيراً عن واقع الحال في العلاقات الدولية إبان ما اصطلاح على تسميته بـ"النقاش النظري الثاني" second great debate، حيث كان خصوم النزعة العلمية السلوكية (الواقعيين الذين تمسكوا بنزعته المنهجية التاريخية) معروفين بل وأكثر نفوذاً في الأوساط الأكاديمية وفي أوساط صناعة القرار على حد سواء.³²⁵

بدأت ملامح الثورة السلوكية تتضح أكثر عبر صفحات المنشورات التي ظهرت بين عامي 1951-1952، حيث أكدت نقطتين أساسيتين: تبني التعديلية كمنطلق أنطولوجي والتخلّي عن الأحادية ال долاتية، لكن مع تحول مهم وهو الاهتمام بسلوك الفواعل لا ببنائهم المؤسساتية؛ إعطاء أهمية أكبر لطريقة دراسة السلوك السياسي دون المجادلة بشأن من يستحق أن يكون بمثابة مرجعية للتحليل، وينطوي ذلك كله على البحث عن الأنماط النظمية systemic التي يمكن أن نخلص إليها عبر الدراسة المنهجية للسلوك السياسي.³²⁶

يعتبر "دايفيد إيستون" من خلال كتابه المعروف: "النظام السياسي" والذي صدر في 1953، من أبرز منظري الاتجاه السلوكى، ويمكن استشفاف نعمته على الوضع القائم في الفصل الثاني من كتابه، والذي يتحدث فيه عن حالة عدم الرضا بين أخصائي علم السياسة، وقد أثار محتوى هذا الجزء من الكتاب سجالاً فكريّاً كبيراً، لكن المثير في الأمر هو أن حواشي الفصل التي يبلغ عددها 28 لا تشير إلى أي عالم سياسة أمريكي يمكن إدانته بالمعلاة في الاهتمام بالحقائق الإمبريقية Hyperfactualism على حساب الدراسة العلمية المتسبة وما نجم عنه من إخفاق في صياغة نظريات متسبة.³²⁷

تأكيداً لتمسكه بموقفه أصدر إيستون سنة 1984 مؤلفاً آخر يقول فيه أن علم السياسة التقليدي ظهر خلال عشرينيات القرن العشرين، حيث تضمن في أجندته البحثية الاهتمام بالأحزاب ومجموعات الضغط على حساب الدولة، وكنموذج للتأكد على مزاعمه أشار إلى "بنتمي" و"بندلتون هيرينغ" مغفلاً حقيقة أن "بنتمي" احتفى من المشهد الأكاديمي في 1953، وقبل حدوث ذلك فإن "بنتمي" نفسه تحول إلى واحد من المתחمسين للسلوكية. أما "هيرينغ" ورغم أنه عاش حتى فترة صعود الاتجاه السلوكى في الخمسينيات، إلا أنه لم يعارض "السلوكيين" بل ساهم بشكل فاعل عام 1949 في تأسيس "لجنة السلوك السياسي" تحت مظلة "مجلس البحث في العلوم الاجتماعية"،

³²⁴ John S. Dryzek, op cit., p. 489.

³²⁵ للحصول على مراجعة معاصرة للنقاش النظري الثاني وأهميته في العلاقات الدولية انظر: Friedrich Kratochwil, 'History, Action and Identity: Revisiting the Second' Great Debate and Assessing its Importance for Social Theory', *European Journal of International Relations* 12 (01) 2006. pp. 5-29.

³²⁶ Robert Adcock, op cit., p 189.

³²⁷ تعتبر مسألة غياب خصوم للثورات المعرفية التي نجحت في تحويل أجندـة الحقل أهم نقطة رکز عليها "دریزک" في مقالـة وتأكيـد وجهـة نظرـه هذه فهو يشير إلى أن "إيـستـون" في الفـصلـ الثـالـثـ من كـتابـه، "الـنـظـامـ السـيـاسـيـ" حـاـولـ تقـيـمـ نـموـذـجـ عـنـ خـصـومـهـ فـاـشـارـ إلى "جيـمـسـ بـراـيسـ" James Bryce "لـجوـءـ منـظـريـ علمـ السـيـاسـيـ لـتـارـيخـ الفـكـرـ السـيـاسـيـ لـكـنهـ لمـ يـجـدـ مـنـ يـدـيـهـ بـذـلـكـ سـوـىـ George Sabine. انظرـ: John S. Dryzek, op cit., p. 489.

والتي ترأسها هو شخصياً، وقد كانت هذه اللجنة المدخل الذي نفذ من خلاله "السلوكيون" إلى APSA، كما كان لها دور حيوي في تمويل الثورة السلوكية ورعايتها مؤسستياً.³²⁸

لقد خلص "درزيك" في دراسته المتميزة إلى أنه لم يستطع إيجاد أي مصدر للخصومة بين "السلوكية" وأي خصم مفترض سواء المقاربة المؤسساتية القانونية باعتبارها نقائضاً آخر لـ "النزعـة العلمـية" التي يدعـي "السلـوكيـون" الدافـع عنـها أو أية مقارـبة أخرى. فميـدانـياً وعـلـى صفحـات الدوريات لم يكن هناك باحـث واحد في معـسـكـر "المنـاوـئـين لـالنـزعـة الـعلمـية"، حيثـ أنـ مثلـ هـذـا التـوجـهـ كانـ عـلـىـ الدـوـامـ تـوجـهـهاـ هـامـشـياـ فيـ الحـقـلـ الـمـعـرـفـيـ لـعـلـمـ السـيـاسـةـ،ـ وـهـوـ ماـ تـأـكـدـ قـبـلـ نـصـفـ قـرنـ منـ ظـهـورـ السـلـوكـيـةـ نـفـسـهـاـ،ـ أـيـ لـدىـ تـأـسـيـسـ APSAـ عـامـ 1903ـ،ـ حيثـ أـشـارـ مـؤـسـسـوهاـ إـلـىـ أـنـ أـحدـ أـهـدـافـ APSAـ هوـ:ـ "تـشـجـيعـ الـدـرـاسـةـ الـعـلـمـيـةـ لـلـسـيـاسـةـ".ـ وـطـالـماـ أـنـ السـلـوكـ،ـ وـالـعـلـمـ،ـ وـالـتـعـدـيـةـ وـالـنـظـامـ هـيـ أـهـمـ سـمـاتـ "الـسـلـوكـيـةـ"ـ،ـ فـإـنـهـ لـاـ مـبـرـرـ لـاـ عـتـراـضـ الـتـقـلـيـدـيـنـ عـلـيـهـاـ،ـ ذـلـكـ أـنـ بـحـوثـهـمـ لـطـالـمـاـ تـنـاؤـلـتـ السـلـوكـ عـلـىـ الـمـسـتـوـىـ الـفـرـديـ سـيـمـاـ خـلـالـ الـثـلـاثـيـنـاتـ وـالـأـرـبعـيـنـاتـ.ـ وـهـنـىـ الـبـاحـثـيـنـ الـذـيـنـ لـمـ يـدـرـسـواـ "الـسـلـوكـ"ـ لـمـ يـبـدـواـ اـعـتـراـضـاـ عـلـىـ الـقـيـامـ بـذـلـكـ.ـ لـقـدـ كـانـتـ "الـنـزعـةـ الـعـلـمـيـةـ"ـ قـائـمةـ حـتـىـ قـبـلـ مـجيـءـ "الـسـلـوكـيـنـ"ـ،ـ إـذـ مـاـ الـجـدـيدـ الـذـيـ جـاءـتـ بـهـ السـلـوكـيـةـ؟ـ فـحـتـىـ تـصـورـ النـظـامـ السـيـاسـيـ الـذـيـ جـاءـ بـهـ "إـيـسـتنـ"ـ قـدـ مـصـطلـحـاتـ جـديـدةـ (ـالـمـدخـلاتـ inputsـ،ـ الـمـخـرـجـاتـ outputsـ،ـ وـالـارـتـدـادـ الـارـتـجـاعـيـ feedbackـ)،ـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـزـوـدـنـاـ بـنـظـريـةـ جـديـدةـ شـامـلـةـ لـعـلـمـ السـيـاسـةـ.ـ إـنـ الـجـدـيدـ الـذـيـ جـاءـتـ بـهـ السـلـوكـيـةـ وـيـجـعـلـ مـنـهـاـ ثـورـةـ مـعـرـفـيـةـ غـيرـ مـسـبـوـقةـ إـحـدـاـثـهـاـ تـغـيـرـاتـ جـذـرـيـةـ فـيـ تـوـجـهـاتـ قـائـمةـ سـلـفـاـ فـيـ عـلـمـ السـيـاسـةـ،ـ هـذـهـ الـمـجاـلـاتـ الـمـنـتـقـاـةـ هـيـ السـلـوكـ،ـ الـعـلـمـيـةـ،ـ الـتـعـدـيـةـ،ـ الـوـصـفـ مـقـابـلـ التـفـسـيرـ فـيـ الـجـوـانـبـ الـنـظـرـيـةـ.ـ بـدـءـ بـالـسـلـوكـ،ـ حـيـثـ اـعـتـمـدـ السـلـوكـيـوـنـ عـلـىـ الـدـرـاسـاتـ الـمـسـحـيـةـ الـتـيـ تـسـتـنـدـ إـلـىـ مـجـتمـعـ إـحـصـائـيـ أـوـسـعـ،ـ كـمـ عـدـمـ إـلـىـ زـيـادـةـ وـتـيـرـةـ الـدـرـاسـاتـ الـكـمـيـةـ الـتـيـ تـصـدـرـتـ صـفـحـاتـ الدـوـرـيـاتـ الـعـلـمـيـةـ الرـئـيـسـةـ فـيـ التـخـصـصـ.³²⁹

زيادة على التفوق المنهجي الذي أبداه السلوكيون، فإن عوامل أخرى موضوعية تكون قد ساهمت في إنجاح الثورة المعرفية لـ"الباراديم السلوكي" ومنها تبنيهم لـ"أسطورة" علم سياسة يتبنى الحياد إزاء القضايا السياسية، لكنهم بسيطرتهم على APSA فإن السلوكيين قدموا خدمة جليلة للنظام السياسي الأمريكي في غمرة الفوضى التي تختلط فيها نهاية السنتين، بسبب إخفاق التدخل العسكري في فيتنام، والتداعيات الداخلية لاغتيال "كينيدي" [22 نوفمبر 1963] و"مارتن لوثر كينغ" [04 أبريل 1968] وتصاعد حدة المطالبات النسوية، وفي غضون ذلك استفحال الخطاب المناوى للبيروالية لعدد من العلماء الألمان الذين هاجروا إلى أمريكا مثل "إيريك فولفين" "هانا

³²⁸ في مؤلفه هذا جدد "إيستون" مأخذة على التقليديين مثيراً خلطهم للحقائق والتقييم، وإطنابهم في وصف الظواهر السياسية دون تقديم تفسيرات وافية، يضاف لذلك كله إسهامهم بالقليل من النظريات الفضفاضة، وانتهى "إيستون" إلى اعتبار كتاب "القوى المتوازية" لـ"ميرل فينسوند" Merle Fainsod بمثابة النظرية غير المعنة لـ"التقليديين". ومعروف أن فينسوند في كتابه هذا حاول تفسير عملية صنع السياسة بالقول أنها محصلة تفاعل قوى تدفع في اتجاهات مختلفة، وإذا كان هذا هو جوهر علم السياسة التقليدي في هذه الفترة، فلا يبدو هناك أي مبرر إذن ليدخلوا في سجال مع السلوكيين، وأكثر من ذلك فإن صاحب هذا المؤلف (فينسوند) أصبح لاحقاً رئيساً لـAPSA في ذروة هيمنة السلوكيين، بل وساهم هو نفسه عام 1968 في الحفاظ على انتصار "الباراديم" السلوكي بصفته رئيساً لـ"الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" APSA عبر تضييق الخناق (بطريقة ذكية ودفاعية) على "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" Caucus for a New Political Science من خلال وضع شروط معينة للمشاركة في المؤتمر السنوي لـAPSA تستبعد المنخرطين في مسعى تجديد علم السياسة، انظر:

John S. Dryzek, op cit., p. 489.

³²⁹ John S. Dryzek, op cit., p. 490.

"أرنت" و"ليو شتراوس" وغيرهم. فإذا كانت APSA ترفض حشر علم السياسة في القضايا الساخنة لعصرها فإنها بذلك ليست محابية قيميا كما تدعي بل إنها جعلت من علم السياسة أداة لحفظ على الوضع القائم *status quo*.³³⁰

لقد هيمنت "السلوكية" تدريجيا على التخصص، لكن ذلك لم يجعلها بمنأى عن الانتقادات التي تصاعدت حدتها مطلع السبعينيات. هذه الانتقادات لم يكن لها من دور سوى تأكيد هيمنة "السلوكيين" ونجاحهم في إعادة صياغة أجندـة البحث في علم السياسة، وهو ما أقر به حتى المناوئين لهم والذين كانوا مهمشين في هذا الحقل المعرفي. غير أن النقد تجاهم تتماـي، لكن هذه المرة فإن مصدر النقد لم يكن من "التقليديـن ذوي النزعة التاريخية"، بل من باحثـين يطالبـون بدور إيجابـي لعلم السياسة، من خلال إعطـائه لمسـة نقـدية وتوجـيه اهتمـامـات الباحـثـين نحو قضاـيا المجتمع.

المطلب الخامس: التحدـي الباراديـمي الأول للسلوكـيةـ."ـالمؤـتمر من أجل علم سيـاسـة جـديـدـ".

مع تصـاعد حـدة الـانتـقـادـاتـ التي طـالـتـ السـلـوكـيـةـ فقد جاءـ المؤـتمرـ السنـويـ لــالـجـمـعـيـةـ الأمريكيةـ لــعـلمـ السـيـاسـةــ سـنةـ 1967ـ فـرـصـةـ لــمـأسـسـةـ الـاتـجـاهـ الـذـيـ أـصـبـحـ يـعـرـفـ لــاحـقاـ منـ طـرفـ روـادـ السـلـوكـيـةـ وـعـلـىـ رـأـسـهـمـ "ـدـافـيـدـ إـيـسـتنـ"ـ بــ"ـماـ بــعـدـ السـلـوكـيـةـ"ـ post-behavioralistsـ،ـ غـيرـ أنـ الـمـنـتـسـبـيـنـ إـلـىـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ الـنظـريـ الصـاعـدـ يـفـضـلـونـ نـعـتـ أـنـفـسـهـمـ بــ"ـالمـؤـتمرـ منـ أجلـ عـلمـ سـيـاسـةـ جـديـدـ"ـ CNPSـ.ـ بــدـايـةـ التـصـادـمـ بــيـنـهـمـ وـبــيـنـ المـدـافـعـيـنـ عـنـ التـقـلـيدـ الـبـحـثـيـ الـمـهـيـمـ آـنـذـاكـ (ـالـسلـوكـيـنـ)ـ كـانـ بــسـبـبـ اـسـتـحـضـارـ السـلـوكـيـنـ الـذـينـ ظـلـواـ مـسـيـطـرـيـنـ عـلـىـ أـهـمـ الـمـنـاصـبـ فـيـ APSAـ طـيـلةـ السـبـعينـيـاتـ،ـ الـمـادـةـ الثـانـيـةـ مـنـ دـسـتـورـ APSAـ،ـ³³¹ـ لــمـعـنـ منـاقـشـةـ قـضـاـيـاـ السـيـاسـةـ الـعـامـةـ مـنـ زـاوـيـةـ اـتـخـاذـ موـاـقـعـ بــشـائـنـهـاـ سـيـماـ حـرـكةـ الـحـقـوقـ الـمـدنـيـةـ لــلـسـودـ وـحـرـبـ فـيـيـنـتـامـ.ـ وـرـغـمـ أـنـ هـذـهـ المـادـةـ لــاـ تـنـصـ عـلـىـ منـعـ أـعـضـاءـ APSAـ مـنـ منـاقـشـةـ قـضـاـيـاـ السـيـاسـةـ الـعـامـةـ إـلـاـ أـنـ تـكـيـيفـهـاـ كـذـلـكـ مـنـ طـرفـ السـلـوكـيـنـ الـذـينـ هـيـمـنـواـ عـلـىـ الـمـنـاصـبـ الـإـدارـيـةـ لــالـجـمـعـيـةـ،ـ أـقـنـعـ مـنـاهـضـيـهاـ بــضـرـورـةـ إـيـجادـ إـطـارـ تـنـظـيمـيـ يـحـمـيـ وـجـهـاتـ نـظـرـهـمـ مـنـ "ـالـتـسـلـطـ السـلـوكـيـ"ـ.ـ وـفـعـلاـ،ـ فـإـنـهـ وـبــالـمـواـزـاـةـ مـعـ مـؤـتمرـ APSAـ عـقـدـ هـؤـلـاءـ مـؤـتمرـهـمـ بــحـضـورـ 225ـ حـيـثـ اـنـتـخـبـواـ "ـتـشـارـلـزـ مـاـكـوـيـ"ـ رـئـيـساـ لــCNPSـ.³³²

وـقـدـ قـدـمـ المـؤـتمرـ مـرـشـحاـ لــرـئـاسـةـ APSAـ وـضـمـ فـيـ صـفـوفـهـ قـائـمةـ مـنـ أـبـرـزـ باـحـثـيـ عـلـمـ السـيـاسـةـ آـنـذـاكـ وـلـفـتـرـةـ طـوـيـلـةـ مـثـلـ "ـسـيمـورـ مـارـتنـ لــيـبـيـسـتـ"ـ Seymour Martin Lipsetـ،ـ "ـبــيـترـ باـكـراـشـ"ـ Peter Bachrachـ،ـ "ـكـريـستـيانـ بيـ"ـ Christian Bayـ،ـ "ـتـيـودـورـ لوـيـ"ـ Theodore Lowiـ،ـ "ـمـاـيـكـلـ بــرـيـنـتـ"ـ Michael Brentـ،ـ "ـشـيلـدونـ وـولـينـ"ـ Sheldon Wolinـ،ـ كـمـاـ تـضـمـنـتـ الـقـائـمةـ أـيـضـاـ وـجـهـاـ بــارـزاـ فـيـ تـخـصـصـ الـعـلـاقـاتـ الـدـولـيـةـ:ـ "ـهـانـتسـ مـورـقـنـهـاـوـ"ـ Hanzـ

³³⁰ NPS Caucus, 'History of the Caucus for a New Political Science', *New Political Science* 29 (04) 2007, pp. 501-502.

³³¹ تـشيرـ المـادـةـ الثـانـيـةـ مـنـ دـسـتـورـ APSAـ إـلـىـ أـنـ الجـمـعـيـةـ:ـ لــاـ تـلـزمـ أـعـضـائـهـ بــاتـخـاذـ موـاـقـعـ إـزـاءـ قـضـاـيـاـ السـيـاسـةـ الـعـامـةـ إـلـاـ كـانـتـ هـذـهـ الـقـضـاـيـاـ لــاـ تـمـسـ بــشـكـلـ مـباـشـرـ المـاقـاصـدـ الـتـيـ وـجـدـتـ الجـمـعـيـةـ مـنـ أـجـلـهـاـ.ـ هـذـهـ المـادـةـ تـكـيـيفـهـاـ بــطـرـيـقـةـ غـرـيـبةـ مـنـ طـرفـ مـسـيـرـيـ APSAـ لــمـعـنـ منـاقـشـةـ قـضـاـيـاـ السـيـاسـةـ الـعـامـةـ فـيـ مـؤـتمرـهـمـ السـنـوـيـةـ.

³³² NPS Caucus, op cit., p. 502.

والذي كان من بين المعارضين للحرب في فيتنام، فضلاً عن "إدوارد سعيد" ³³³ و"نعمون تشومسكي" ³³⁴. Edward Said

تقاسم جميع هؤلاء قناعة مفادها أنه يجب جلب النقاشات والانتقادات حول الديمقراطية الليبرالية الأمريكية إلى قلب النقاشات الأكademية بعد أن كانت معزولة في محيط تخصص العلوم السياسية. وقد ضمنت آرائهم في كتاب صدر عقب أول مؤتمر لهم في 1967 بعنوان: "السياسة غير مسيسة: نقد الاتجاه السلوكي". ولتسويق طرحهم عمد أعضاء هذا "المؤتمر" إلى تغطية ما يرونـه جوانب قصور في "الاتجاه السلوكي": حيث توجـهـوا نحو الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والأزمـاتـ السـيـاسـيةـ لـتـلـكـ الفـتـرةـ، كما طـالـبـواـ بـعـلـمـ سـيـاسـةـ يـتـخـذـ مـوـقـعاـ جـمـاعـياـ موـحـداـ منـ القـضـاياـ السـيـاسـيةـ المـثـيرـةـ لـلـجـدـلـ مـثـلـ: حـرـبـ فـيـتنـامـ، التـميـزـ العـنـصـريـ، وـالـفـقـرـ، إـضـافـةـ إـلـىـ قـضـاياـ الـبيـئةـ وـالـمـرـأـةـ. وـلـاحـقاـ تمـكـنـ هـؤـلـاءـ مـنـ الحصولـ عـلـىـ تـموـيلـ يـسـمـحـ بـإـجـراءـ بـحـوثـ حولـ قـضـاياـ مـلـحةـ أـخـرىـ مـثـلـ: الإـيـزـ العـلـاقـةـ بـيـنـ حقوقـ الإـنـسـانـ، وـالـدـيمـقـراـطـيةـ وـالـرأـسـمـالـيةـ، الـحـربـ عـلـىـ العـرـاقـ

لم يجد هذا "الباراديم" الصاعد حنقاً تجاه "العلمية"، حيث أنه ركز توصياته على ضرورة إعادة ترتيب الأولويات لتكون "العلمية" في المرتبة الثانية بعد الالتزام بقضايا المجتمع من جهة ومدى الصلاحية الإمبريالية للأبحاث التي تجري باسم علم السياسة. وبرروا موقفهم هذا بكون مسألة تقسيم السلوك السياسي لا تشكل حقيقة مركز الثقل المعرفي في علم السياسة. ولأجل ذلك سخر أعضاء المؤتمر أكثر جهودهم لمعنى إصلاح APSA، وقدموا مرشحين لمنصب الرئيس ولعضوية مجلس الجمعية، لكنهم أخفقوا في الحصول على الرئاسة رغم نجاحهم في الاستحواذ على بعض المقاعد في المجلس. وتتجدر الإشارة إلى أن بعض رواد "المؤتمر" من أمثال "تيودور لوبي" Theodore Lowi، وأيرا كاتزنيلسن Ira Katznelson، تمكناً من الحصول في فترات لاحقة على منصب الرئاسة باعتبارهم مرشحين رسميين.³³⁵

استطاع السلوكيين إلى حد ما احتواء نفقة التيار "ما بعد السلوكي" خاصة في النقطة المتعلقة بعدم ميل "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" للتهجم على النزعة العلمية، حيث عمل "دافيد إيستون" على التخفيف من حدة التوتر بين "السلوكيين" و"المؤتمريين" من هذه الزاوية، إذ خالل مداخلته له أمام APSA عام 1969 بصفته رئيساً للجمعية تحدث عن "ثورة جديدة في علم السياسة"، بإمكانها أن تجعل التقنيات التي طورها "السلوكيون" و"نظرياته للنظم" على حد سواء في خدمة المشكلات الاجتماعية. لم ينجح "إيستون" في ردم الهوة بين العسكريين، إلا أنه نجح في إرساء تخصص ثانوي في علم السياسة وهو السياسات العامة. وهكذا ظل السلوكيون في إطار APSA متشبّثين بمقاؤمتهم للتغيير الذي يبشر به "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد"، إلا أن ثقتهم في النفس قد ترازعت كثيراً، وهم الذين استمانتوا في مقاومة تسييس "حقل علم السياسة"، وهي

333 Ibid

³³⁴ NPS Caucus, *op.cit.*, p. 503.

³³⁵ John S. Dryzek, op. cit., p. 491.

النقطة التي أثارها "أويلاو" Eulaau في تقريره كرئيس لـ APSA عام 1972: "إننا لم ننظم أنفسنا في إطار APSA من أجل ممارسة السياسة أو لنشر وجهات نظر سياسة".³³⁶

تختلف الآراء بشأن مدى نجاح "المؤتمر" في تغيير أجندـة البحث في علم السياسة، وبالتالي مدى نجاحـه كثورة معرفـية، فلدى التمـعن في محتـويات الدورـيات الأكـاديمـية الرئـيسـية يمكن لأـي باـحـثـ أنـ يـسـتشـفـ تـرـاجـعاـ نـسـبيـاـ لكنـهـ ثـابـتـ للأـعـمـالـ الـعـلـمـيـةـ الـتـيـ تعـتمـدـ مـعـايـرـ المـدـرسـيـةـ السـلـوكـيـةـ سـيـماـ توـظـيفـ الأـدـوـاـتـ الـكـمـيـةـ لـكـنـ وـبـالـمـقـابـلـ فـإـنـ "درـيزـيكـ" يـرىـ بـأنـ "المـؤـمـرـ" وـبـدـلـ أـنـ يـتـوجهـ نحوـ تـشـيـيدـ روـابـطـ معـ التـيـارـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـالـتـيـ تـحـمـلـ ثـقـافـةـ مـنـاوـئـةـ لـهـ، فـقـدـ كـرـسـ جـهـودـهـ عـلـىـ الصـعـيـدـ الـمـهـنـيـ، مـمـاـ دـعـاـ باـحـثـاـ آخـرـ هوـ "لوـيـ" Lowi إـلـىـ تـسـمـيـتـهـ بـ"المـؤـمـرـ" بـجـدـيـدةـ لـعـلـمـ السـيـاسـةـ"ـ، وـمـعـ إـخـافـهـ فـيـ الـحـصـولـ عـلـىـ رـئـاسـةـ الـجـمـعـيـةـ فقدـ تـرـاجـعـ طـموـحـ أـعـضـاءـ "المـؤـمـرـ"ـ وـأـصـبـحـ تـنـظـيمـهـ مـجـرـدـ قـسـمـ عـادـيـ ضـمـنـ أـقـسـامـ APSAـ يـعـملـ عـلـىـ تـوـيـلـ لـجـانـ عـلـمـهـ بـشـكـلـ ذـاتـيـاـ، أـمـاـ المـجـلـةـ الـعـلـمـيـةـ الـتـيـ قـامـ "المـؤـمـرـ"ـ بـرـاعـيـتـهـ (علمـ السـيـاسـةـ الـجـدـيـدـ)ـ New Political Scienceـ فقدـ ظـلـ اـنـتـشـارـهـاـ مـحـدـودـ، وـلـمـ يـظـهـرـ اـسـمـاهـ ضـمـنـ تـرـتـيبـ أـبـرـزـ 115ـ دـوـرـيـةـ عـلـمـيـةـ فـيـ التـخـصـصـ. وـقـدـ جـاءـ تـيـارـ "برـيـسـتـروـيـكاـ عـلـمـ السـيـاسـةـ"ـ لـأـعـطـاءـ دـفـعـةـ جـدـيـدةـ لـلـجـهـودـ مـنـ أـجـلـ إـرـسـاءـ تـحـولـ "بارـادـايـميـ"ـ عـمـيقـ يـغـطـيـ نـقـائـصـ "بارـادـايـمـ الـخـيـارـ الـعـقـلـانـيـ"ـ الـذـيـ تـمـثـلـهـ السـلـوكـيـةـ.

المطلب السادس: استعصاء التحول "الباراديسي" مستقبل بروسترويكا علم السياسة

إن إخفاق ثورة "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" لم يكن إخفاقاً كلياً بل يجب الإقرار بأن عدم نجاحـهم لا يعني بالـ مقابلـ نـجـاحـ "الـسـلـوكـيـةـ"ـ فـهـذـهـ الـأـخـيـرـةـ وإنـ استـمرـتـ إـلـاـ أنهاـ استـمرـتـ وهـيـ فـاقـدـةـ لـهـويـتهاـ الـتـيـ انـطـلـقـتـ بـهـاـ وـخـاصـةـ فـيـ الشـقـ المـتـعـلـقـ بـزـعـمـهـاـ إـمـكـانـ إـرـسـاءـ أـسـسـ عـلـمـ مـحـاـيدـ أوـ عـلـمـ مـجـرـدـ مـنـ الـقـيـمـ. فـقـدـ قـدـمـ هـذـاـ تـيـارـ تـنـازـلـاتـ مـتـابـعـةـ عـلـىـ مـسـتـوىـ "الـجـمـعـيـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ لـعـلـمـ السـيـاسـةـ"ـ الـتـيـ تـعـتـبـرـ مـحـركـ التـغـيـيرـ "الـبـارـادـايـميـ"ـ الـذـيـ لـاـ يـمـكـنـ تـجـاهـلـهـ.

تجسدـ هـذـهـ التـنـازـلـاتـ بـتـبـنيـ دـوـرـيـةـ أـكـادـيـمـيـةـ جـدـيـدةـ بـعـدـ ثـورـةـ "المـؤـمـرـيـنـ"ـ عـامـ 1967ـ سـمـيتـ السـيـاسـةـ وـعـلـمـ السـيـاسـةـ PS: Political Science and Politicsـ وـذـلـكـ اـعـتـبـرـ ضـرـبةـ لـ American Review of Political Scienceـ الـتـيـ اـحـتـكـرـتـ الـمـجـالـ الـأـكـادـيـمـيـ لـ فـقـرـةـ طـوـيـلـةـ نـظـراـ لـصـلـاتـهـ بـ APSAـ، هـذـهـ دـوـرـيـةـ الـجـدـيـدةـ أـتـاحـتـ الفـرـصـةـ لـنـشـرـ أـعـمـالـ عـلـمـيـةـ تـنـوـجـهـ أـسـاسـاـ نـحـوـ معـالـجـةـ مـشـكـلـاتـ الـمـجـتمـعـ وـالـقـضـائـيـاـ الـمـلـحةـ فـيـ السـيـاسـةـ الـعـامـةـ لـلـدـوـلـةـ الـدـاخـلـيـةـ وـالـخـارـجـيـةـ.³³⁷ـ وـلـاشـكـ أـنـ هـذـهـ الخـطـوةـ تـعـتـبـرـ مـيـزةـ أـمـرـيـكـيـةـ تـسـتـحـقـ التـنـوـيـهـ، حـيـثـ أـنـ قـوـةـ الـمـنـظـومـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ عـمـومـاـ هـيـ فـيـ قـدـرـتـهـاـ عـلـىـ اـحـتوـاءـ دـيـنـامـيـكـيـاتـ الـمـجـتمـعـ بـعـدـ تـعـديـلـاتـ بـنـيـوـيـةـ جـزـئـيـةـ تـمـنـعـ تـقـوـيـضـ النـظـامـ كـلـ فـيـ

³³⁶ John S. Dryzek, op cit., p. 491.

³³⁷ NPS Caucus, op cit., p. 503.

حال إغفالها، لكن ذلك يحول دون استشفاف التغيرات العميقة التي تحدث على المستوى المجتمعي والعلمي على حد سواء حيث تمر تغيرات عميقة بطريقة هادئة، ومن هنا يمكن مراجعة الرأي القائل بأن الثورة المعرفية "المعيارية" أو "النقدية" لـ"المؤتمريين" قد فشلت أو أنها ليست ثورة على الإطلاق.

لقد تأكّدت قوّة التيارات الداعية إلى إعادة النظر في واقع الحال في الحقل المعرفي لعلم السياسة، عقب قيام مئات علماء السياسة الأميركيين بتأييد محتوى الرسالة الالكترونية التي صاغها وأرسلها مجهول سمي نفسه "السيد بروبيسترويكا" يدعو فيها إلى إصلاح البيت الداخلي لعلم السياسة عبر ضمان افتتاح الحقل على التعديّة المنهجية ورفع الوصاية التي فرضها "الكميون" عليه.³³⁸

يقول "روجر سميث" Roger Smith بشأن الثورة التي حاول تيار "البروبيسترويكا" شنها على التقليد البحثي السائد "باراديم الخيار العقلاني" rational choice paradigm، وعلاقته بتيار "المؤتمريين": "لقد جاءت الحركة من أجل بروبيسترويكا في علم السياسة في سياق مختلف عن الذي ظهر فيه 'المؤتمر' Caucus حيث اتسم بصراعات داخلية حادة في الأوساط الأكademie حول قضايا مهنية لكن كلتا الحركتين تشتراكان في مسألة واحدة على الأقل وهي رغبتهما في إحداث تحولات عميقة في علم السياسة من أجل تسخيره لخدمة القضايا السياسية الملحة بدل المغالاة في المراجعات المنهجية التي لا تنتهي".³³⁹

كعادتها، عملت APSA على احتواء الثورة المنهجية الكيفية qualitative vs quantitative الصاعدة، وذلك بإنشاء أقسام جديدة للبحث [أنظر الجدول في الصفحة التالية]، وكذلك عبر إنشاء دورية أكademie أخرى برعايتها هي "منظورات في السياسة" Perspectives on Politics لنشر الأعمال العلمية لهؤلاء الباحثين المنشقين عنها، رغم أن هؤلاء وغيرهم يتطلعون للدورية الأكثر نفوذا ARPS لا إلى إيجاد فضاءات يتم حشرهم فيها حتى لا يحذوا آثارا كبيرة في الحقل المعرفي وبالأساس لتغيير أجندته الحقل.³⁴⁰ لكن هل بقي هناك "أجندبة بحث" في "علم السياسة" ليتمكن إعادة صياغتها والثورة عليها بالمنطق "الكوني"، فنظرية خاطفة إلى الجدول التالي ستؤكّد مدى التضارب الذي وصلت إليه هذه الأجندبة، فإذاً إنما إزاء برامج بحثية لاكتوشية تحوي برامج قوية Strong Programs وأخرى ضعيفة Weak Programs الأولى تقدمية لديها فرصة الاستمرار بينما الثانية اننكاسية ستختفي كقسم من أقسام APSA كما ستحتفظ أعمالها العلمية. بالنسبة لـ قابرييل الموند فإن الأمر قد لا ينطوي على برامج بحثية متنافسة لأن وضعية "علم السياسة" بلغت مرحلة الالنفاش، وبعبارة الشهيرة: "مدارس وطوائف في علم السياسة" يلخص هذا الباحث توصيفه لواقع الحقل المعرفي الذي لم يعد فيه أتباع المدارس المختلفة يهتمون أصلاً بما يكتبه ويقوله أتباع المدارس الأخرى.³⁴¹

³³⁸ سيتم التفصيل في أبعد "حركة البروبيسترويكا" في علم السياسة لدى الحديث عن مضلات النقاش الرابع.

³³⁹ Roger Smith as quoted in : NPS Caucus, op cit., p. 505.

³⁴⁰ Ibid.

³⁴¹ Gabriel Abraham Almond, 'Separate Tables: Schools and Sects in Political Science', PS 21 (04) 1990.

جدول رقم 01: أقسام البحث المعتمدة على مستوى "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة"
(يساهم اعتماد أي قسم من طرف APSA في إعطاء الشرعية للتخصص فيه وكذلك جلب التمويل للبحث فيه)

95. الاتصال السياسي 96. السياسة والتاريخ 97. الاقتصاد السياسي 98. علم السياسة الجديد 99. علم النفس السياسي 100. تدريس علم السياسة 101. السياسة والأدب والسينما 102. السياسة الخارجية 103. الانتخابات الرأي العام والسلوك الانتخابي 104. السياسة والدراسات العرقية والإثنية 105. السياسة والتاريخ العالمي 106. المقرطة من منظور مقارن 107. حقوق الإنسان 108. البحوث الكيفية والمتعددة المناهج 109. السياسة والقضايا الجنسية 110. السياسة الصحية 111. السياسة الكندية	75. الفدرالية والعلاقات بين الحكومات 76. القانون والقضاء 77. الدراسات التشريعية 78. السياسة العامة 79. التنظيم السياسي والأحزاب 80. الإدارة العامة 81. ديناميكيات النزاع 82. النظم التمثيلية والانتخابية 83. البحوث حول مؤسسة الرئاسة 84. المنهجية السياسية 85. السياسة والدين 86. السياسات العرانية 87. العلم، التكنولوجيا والسياسة البيئية 88. المرأة والبحوث السياسية 89. أسس النظرية السياسية 90. السياسة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال 91. الأمن الدولي ونزع السلاح 92. السياسات المقارنة 93. السياسة والمجتمع في أوروبا 94. سياسة الدولة والسياسة العامة
---	---

المصدر: الموقع الرسمي للجمعية الأمريكية لعلم السياسة، تم دخول الموقع في: 15/01/2009.

http://www.apsanet.org/content_4596.cfm

هذا الوضع لا ينطبق على العلاقات الدولية حيث تعتبر النقاشات النظرية سمة أساسية لمسار تطور الحقل، لكن ومثلاً يوضحه التمثيل البياني التالي فإن طبيعة النقاشات التي سادت في هذا الحقل المعرفي لا تختلف عما عرفه علم السياسة عموماً الذي تعتبر العلاقات الدولية أحد ميادينه، فالبداية كانت عبر الأنطولوجيا كما في علم السياسة ككل، ثم المنهجية وسيادة النزعة السلوكية العلمية لفترة من الزمن، وبعدها ظهر التحدي النقدي للمعياري. لكن مع بداية التسعينيات يبدو أن علم العلاقات الدولية قد اكتسبت هوية مستقلة حيث أنه استطاع تطوير نقاشات متعددة المستويات وكان له السبق أيضاً في البحث عن مخارج للمعضلة الوضعية/ما بعد الوضعية. لكن يجب التأني قبل التسليم بهذه الأحكام، كونها تحتاج إلى مزيد من التمحیص، وهو ما ستعالجه المباحث والفصول التالية.

المبحث الثالث: النقاشات الثلاثة المؤسسة للبارادایم العقلاني في العلاقات الدولية.

بعد وضع النقاشات النظرية في إطارها الأوسع أي في حقل العلاقات الدولية، فإن هذا المبحث يحاول رصد حركة التحولات البارادایمية إن وجدت في ما اصطلاح على تسميتها بالنقاشات النظرية الكبرى الثلاث والتي أرسست لبارادایم عقلاني لاحقاً. ومن خلال ستة مطالب سيتم المقاربة للنقاش الأول من منظور أنه ينطوي على مقابلة لنظرتين أنطولوجيتين للطبيعة الإنسانية، أما النقاش الثاني فمن منظور أنه ينطوي على مقاربتين منهجيتين لطبيعة المعرفة الإنسانية، في حين يقارب هذا المبحث للنقاش الثالث باعتباره أرسى دعائم التوليفة نيو-نيو التي

أهلت البارادايم العقلاني لتقديم تصور متماشٍ إزاء العلاقات الدولية أكثر منه نقاشاً بينها مع النيوماركسية الوضعية.

المطلب الأول: "النقاش النظري الأول"-نظرتان أسطولوجيتان للطبيعة الإنسانية.

أهم ميزة للنقاش النظري الأول بين الواقعية والمثالية هو تركيزه على الأنطولوجيا، أي البحث في الوجود، بينما أن الوضع الذي آلت إليه العلاقات الدولية في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ترك استفهامات عميقة حول كيفية التعامل مع تحديات حقيقة للسلم والأمن الدوليين ومن ذلك الإجابة عن سؤال جوهري: هل تنطوي القومية الصاعدة في ألمانيا وإيطاليا على محصلات عدائية أم أنها ستظل تجليات لثقافة في الحكم لن تتجاوز حدود هاتين الدولتين. إذن فالتحليل على المستوى الأنطولوجي ينصب على البحث في طبيعة الكينونة أي إعطاء مبررات كافية لاختيار وحدة التحليل التي يتم تبنيها، وبالتالي الإجابة عن سؤال ما الذي نريد معرفته؟ ومن ثمة تحديد السمة المميزة لوحدة التحليل هذه عبر الإجابة على السؤال ما طبيعة وجوه ما ستتصبّ عليه تحليلاتنا. حول هذه الأسئلة دار نقاش مهم بين المثاليين الليبراليين والواقعيين بُرِزَ فيه "إدوارد هيوليت كار" Edward Halett Carr.

أخذ النقاش ملامحه الحقيقة عندما قام المؤرخ البريطاني "إدوارد هـ. كار" بنشر كتابه: "السنوات العشرون للأزمة" 1919-1939 The Twenty Years Crisis، أي قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بشهور، وقد كان يود من خلاله أن يبرز جوانب القصور في الليبرالية الأوروبية بشكل عام، وفي الأساس الإيديولوجية لمعاهدة فرساي بشكل خاص، حيث أشار "كار" في

كتابه المنتشر عام 1943 بعنوان: "شروط السلام" إلى أن الليبرالية كأيديولوجية قد تجاوزتها الزمن، فالافتراض الفلسفى المتضمن في نظرية "آدم سميث" الاقتصادية يعبر عن مطامح مثالية تعوزها الحقائق التي تدعمها، والمعروف أن هذه النظرية تقوم على افتراض أن الحرية الفردية هي أفضل ضمان للثروة الاقتصادية، وعلى افتراض آخر يقضي بأن اليد الخفية تحافظ على توازن السوق في ظل الاقتصاد الحر.³⁴²

وفي الاتجاه ذاته، رفض "كار" التصورات الخاصة بـ "التوازن الطبيعي التقائى" وـ "التطور التاريخي الإيجابي" والميول الخيرة للإنسان، وأضاف "كار" أيضاً أن حركة التویر كانت ساذجة في نزعتها المتفائلة، وبأن "ليبرالية" "آدم سميث" وـ "مثالية" "كانط" يرمان إلى الفترة التي كانت أوربا خلالها تعيش مرحلة الطفولة، ويقترح تبعاً لذلك أن تتم العودة إلى الافتراضات الأكثر واقعية والتي برزت في بوادر الفكر السياسي الأوروبي الحديث ولاسيما في النظرية السياسية عند "ميكيافيلي" وـ "هوبز". ولم يتوقف "كار" عند نقد الليبرالية الاقتصادية "المثالية" "الكانطية"، بل كان هدفه النهائي هو إنتاج نظرية عقلانية للعلاقات الدولية مستلهمة من النزعة التاريخية الألمانية.³⁴³

جسد تمرد "إدوارد هـ. كار" على الافتراضات الفلسفية للفكر التویرى، طموحه لإعادة إحياء نظرة رواد الفكر السياسي الحديث للعالم، ويجسد ذلك كله تأرجح المفكرين الأوروبيين بين تصورين اثنين للطبع الإنساني، ويمكن فهم هذا التأرجح كخلاف جوهري حول مسألة إن كان الإنسان يميل بالفطرة إلى الخير أم إلى الشر، وإلى أي مدى يمكن أن تتحسن أحوال البشرية. لقد سبق للفيلسوف والمؤرخ الإيطالي في القرن التاسع عشر، "جيامباتيستا فيكو"، أن وصف النقاش حول الطبيعة البشرية بأنه نقاش بين من ينظرون للإنسان "كما يجب أن يكون" ومن ينظرون إليه "كما هو"، هذا هو الخط الذي رسمه "فيكو" بين "المثاليين" وـ "الواقعيين"، أو بين "الثوريين" وـ "المحافظين"، فالإنسان بالنسبة للواقعيين (المحافظين) يميل إلى الشر بالفطرة ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل تغيير طبعه هذا، أما بالنسبة للمثاليين (أو الثوريين)، فيرون أن الميول الفطرية للإنسان إيجابية وأن شقاء البشرية يعود إلى ظلال البنى الاجتماعية والسياسية ورثها من ماض غامض.³⁴⁴ إذن، فإن على المرء، من وجة النظر المحافظة، أن يتقبل وأن يتكيف مع البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها، أما من وجة النظر الثورية، فإن البيئة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هي ما يتوجب تكييفه وتحويله وفق إرادة وآمال الإنسان.³⁴⁵

هذا الخلاف بين "المثاليين" وـ "الواقعيين" يمكن تصليله في الخلاف بين المفكرين الذين سبقو سقراط، فـ "بياس بربن" شدد على أن أغلب الناس أشرار. وفي الاتجاه ذاته، ارتأى "بارمنيدس" أن الطبع الإنساني لا يتغير. بالمقابل، كان "هيراقليطس" يؤمن بالتغيير المستمر وبإمكانية إحداث تغيرات في الطابع الإنسانية. وفي العصور القديمة أيضاً، نجد "كرينوفون"

³⁴² Charles A. Jones, 'E.H. Carr and international relations: a duty to lie' (UK: Cambridge University Press, 1998), p. 12.

³⁴³ Charles A. Jones, op cit., p. 7.

³⁴⁴ Emmanuel Navon, 'The 'Third Debate' Revisited', *Review of International Studies* 27 (04) 2001, p. 612.

³⁴⁵ Ibid., p. 613.

و"أرسطو" قد تبنيا النظرة الواقعية إزاء الطبع الإنساني. بينما تبني "أفلاطون"، و"أبيقر" و"ديوجين" من جهتهم النظرية المثالية: والتي تقضي بأن "الجوانب الخيرة" الموجودة في الإنسان ستتعاون الظهور بمجرد أن تتخلص البشرية من القواعد والتقاليد التي تكتنفها المراوغة.

هذا النقاش بين المفكرين ما قبل "سقراط" و"المفكرين القدماء" بشكل عام استمر في كل مراحل التاريخ الأوروبي، حيث نجد في العصور الوسطى كل من "الأكونيني" و"أغسطين" قد ترجموا تعاليم الكنيسة حول الميلول الشيرية للإنسان إلى أفكار سياسية، بينما أسس المفكرون "المهرطقون" مثل "بوقوميل" و"توماس مونترز" و"جان بويكلسون" لمذاهب مسيحية تتحدى الافتراضات المتشائمة لتعاليم الكنيسة، أما المفكرون الأوروبيون الذين يعودون إلى بواكير العصر الحديث مثل "ميكيافيلي"، و"هوبز"، و"فيكو" فقد تبنوا نظرة واقعية حول الطبع الإنساني، وسار في الاتجاه نفسه، كل من "إيدموند بيرك" و"جوزيف دوميستر"، وذلك عقب الثورة الفرنسية.³⁴⁶

وبمقابل هذا التيار الواقعي ظهر توبيريوا القرن 18 واشتراكيو القرن 19 ("فولتير"، "روسو"، "كانط"، "ماركس" وغيرهم) مؤسسين فلسفتهم على إدراكات مثالية حول الإنسان، وعلى الاعتقاد بأن هذا الطبع الإيجابي للبشر جنبا إلى جنب مع إحداث تحسينات في القواعد الاجتماعية والدولية فإنه سينتاج عنها الشروط الضرورية لتحقيق ثروة أعظمية وسلام أعظمي، وسعادة أعظمية ومثلما تظهره الأمثلة السابقة فإن الانقسام بين المثالية والواقعية تتوافق مع الخط التميزي الذي رسمه "فيكو" بين من يرون الإنسان "كما هو" ومن يصورونه على "ما يجب أن يكون عليه".

لقد انتقد الواقعيون بشدة انهم المثاليين في وضع تصورات لكيفية بناء مؤسسات دولية تعمل على كبح النزعة العدائية لبعض الدول في النظام الدولي، حيث بالغ هؤلاء في وصفهم للتدابير والهيكلة المؤسساتية التي يمكن الاعتماد عليها لاجتناث أسباب الحروب بين الدول، صحيح أن النتائج المدمرة للحرب العالمية الأولى كانت ماثلة للجميع، لكن بالنسبة لـ "كار"، فإن اقتراحات الليبراليين آنذاك باعتبارهم يمثلون التقليد الباحثي المهيمن mainstream كانت طوباوية إلى حد بعيد.³⁴⁷

ورغم أن الليبراليين ساهموا مع كل هذه المآخذ في التأسيس لعلم السياسة عبر فتح فرع العلاقات الدولية كتخصص مستقل عن العلوم السياسية في جامعة "أبريزيفيث" Aberystwyth بـ "ويلز" Wales، إلا أنهم وحسب الواقعيين، لم يتمكنوا من إضفاء العلمية على الدراسات في هذا الحقل المعرفي، فكل ما أنتجته المدرسة الليبرالية المثالية هو محض مقاربة مبطنة بالقيم وتعوزها النظمية، بل أن "كار" ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قارن بين الدراسات الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية وقال أنها كالفرق بين الكيمياء الحديثة المبنية على العلمية والكيمياء القديمة التي

³⁴⁶ Emmanuel Navon, op cit., p. 613.

³⁴⁷ Charles A. Jones, op cit., p. 47.

ترتكز على خرافات من قبيل تحويل المعادن إلى ذهب، إنها خرافة أخرى يروج لها المثاليون وهي تحويل الدوافع الشريرة للناس إلى دوافع خيرة.³⁴⁸

لقد حاول "إدوارد كار" أن يساهم في نقد الإدراكات "المثالية" للطبع الإنساني من خلال تقويض أساس الافتراضات الأيديولوجية "اللتوير" و"الليبرالية الاقتصادية"، ومن خلال تأسيس لنظرة جديدة عما يجب أن تكون عليه العلمية لدى دراسة "السياسة الدولية"، إلا أن نقه هذا ووجه من طرف مفكرين أوربيين مرتبطين بالتقليد الليبرالي فقد وصفه "فريديريك فون هايك" بأنه واحد من "الشموليين" المنتشرين بيته، أما "ستانلي هوفرمان" فشدد على أن "وراء الإدعاء بالواقعية، تقبع رجعية طوباوية". وهو رأي يتفق معه إلى حد بعيد أحد أبرز منظري العلاقات الدولية في الوقت الحالي "بريان شميدت" Brian Schmidt³⁴⁹ ويحاول المطلب التالي أن يقف على أهم المآخذ ضد النظرة الواقعية الكلاسيكية في سياق النقاش النظري الأول.

المطلب الثاني: مآخذ الليبراليين ومؤرخي العلم على النقاش النظري الأول.

خلافاً لما تصوره الأدباء المهتمة بتاريخ الحقل المعرفي للعلاقات الدولية فإن "المثاليين" [حسب الوصف الواقعي] لم يستسلموا للانتقادات الواقعية بل أن ثلاثة من الليبراليين عموماً صاغوا ردوداً منهجية استهدفت الطرح الواقعي في العمق مثل "نورمان آنجل" Norman Angell "ليونارد وولف" Leonard Woolf [خاصة من خلال كتابه: الحرب من أجل السلام 1940] "ريتشارد كوفينترى" Richard Coventry وألفريد زيمرن Alfred Zimmern، كما تتجاهل هذه الأدباء أيضاً حقيقة أن "كار" تأثر كثيراً بهذه الانتقادات إلى درجة أن طروحاته سيما تلك التي ضمها كتابه: "القومية وما بعدها" Nationalism and After والذي صدر سنة 1945 جاءت أقرب إلى الأدباء الوظيفية التي تبلورت لاحقاً على يد "ميتراني" Mitrany حيث اعتبر هذا النهج بمثابة حل للمشكلات التي يعاني منها العالم.³⁵⁰

ومن بين هذه الانتقادات والردود من المهم الإشارة إلى رد "أنجل" على انتقاد "كار" للمثاليين في كتابه المرجعي: "عشرون سنة من الأزمة" والذي يستهجن فيه الاعتماد على العمل الجماعي، حيث قال "أنجل" أن الخيار لم يكن بين العمل الجماعي وأداة أخرى أكثر فعالية بل بين اللافعال وترك الدول الأخرى [في إشارة إلى ألمانيا وإيطاليا] تفعل ما تشاء في حين كان بالإمكان

³⁴⁸ Milja Kurki and Colin Wight, 'International Relations and Social Science', in Timothy Dunne et al. (eds.), 'International Relations Theories: Discipline and Diversity' (UK: Oxford University Press, 2007), p. 16.

³⁴⁹ Emmanuel Navon, op cit., p. 613.

³⁵⁰ Lucian M. Ashworth, 'Did the Realist-Idealist Great Debate Really Happen? A Revisionist History of International Relations', *International Relations* 16 (01) 2002, p. 38.

توظيف قوة الجماعة لكيجها. وفي واقع الأمر، فإن "كار" وعددا من الواقعيين كانوا في معسكر التهدئة بينما كان عدد كبير من الليبراليين في معسكر "الصقور" حسب السياق الذي كان سائدا آنذاك.³⁵¹

في رده على الافتراضات الواقعية أشار وولف إلى نقطة أساسية من ضمن المسائل التي كانت مطروحة للنقاش آنذاك: وهي كيفية التعاطي مع المخاطر التي تهدد الأمن الدولي، إذ استعرض "لينارد وولف" ثلاثة استجابات ممكنة: الأولى تتمثل في ترك الأمور على حالها والسماح للطرف الأقوى بالهيمنة وهذا ما تعبّر عنه وجهة النظر الواقعية؛ الطريقة الثانية، وهي تعتمد على عصبة الأمم وتنطوي على تغيير الأوضاع التي قادت إلى الحرب في المقام الأول. أما الطريقة الثالثة فهي تعتمد على تغيير الأوضاع التي تقود عادة إلى ظهور الخلافات واحتدام الصراعات بين الدول، ويعتمد في شرح هذا الخيار الأخير على دعوة الباحثين لتخيل مشهد الأفراد وهم يهمنون للالتحاق بمنازلهم عبر "الباص" في وقت الذروة. هذا المشهد يحاكي تنافس الدول على الموارد النادرة، ويمكن حل هذه المعضلة عبر توفير عدد كبير من "الباصات"، لكن هذا خيار مثالي قلما تتجمع الشروط لتحقيقه، ليبقى خيار وحيد يجسد طبيعة الأفراد المتحضرين، وهو الوقوف في طابور تكون الأولوية فيه لمن قدم مبكراً لموقف "الباص". إذا كان الواقعيون يقولون أن الاقتتال ظاهرة إنسانية فإن الطابور ظاهرة إنسانية أيضاً لكنه أكثر فعالية في حل المشكلات المتصلة بالندرة.³⁵²

صحيح أن الواقعيين يبحثون دوماً عن واقع توزيع القوة وإعطائه الأولوية في تفسير الأحداث الدولية، لكن النقطة التي أهملوها هي أن الأفكار التي تقف وراء القوة أهم من القوة ذاتها. وللتوضيح ذلك يضرب "أنجل" مثلاً بالعيب، حيث يتساءل إن لم يكن العبيد واقعياً أكثر قوة من سادتهم، لكن الأفكار التي يحملونها هي ما يجعل منهم في وضع الضعف. وبالنسبة للواقع الدولي، فإن ذلك يؤكد على أهمية الاهتمام بمعالجة الأفكار التي تSEND التوظيف العدائى للقوة، وسيكون ذلك أكثر فعالية.³⁵³

أما بالنسبة لأخذ مؤرخي العلم على النقاش النظري الأول، ومن بينهم "لوتشيان آسوروث"³⁵⁴، "جويل كويرك"³⁵⁵ Joel Quirk و"دارشان فيقنيسفاران دارشن فيجناسواران"³⁵⁶، "بيتر ويلسون"³⁵⁷ Peter Wilson وهؤلاء يجمعون في مأخذهم بين الغموض الذي كان يشوب تسمية المثاليين والواقعيين، وبين غياب أية مؤشرات واضحة عن حدوث النقاش فعلياً أم أن "كار" اصطنع سجالاً خيالياً لبناء الحقل المعرفي لعلم

³⁵¹ Ibid.

³⁵² Lucian M. Ashworth, op cit., p .40.

³⁵³ Ibid., p .41.

³⁵⁴ Ibid.

³⁵⁵ Joel Quirk and Darshan Vigneswaran, 'The Construction of an Edifice: The Story of a First Great Debate', *Review of International Studies* (31) 2005, pp. 89-107.

³⁵⁶ Peter Wilson, 'The Myth of the "First Great Debate"', *Review of International Studies* (24) 1998, pp. 10-12.

السياسة وهو فعليا نجح في الثانية وأخفق في استثارة نقاش مهتم بالشكل الذي تصوره الكتب الأكاديمية حاليا.

بداية بعدم دقة تسمية المثاليين الليبراليين بـ "الطوباويين": كار نفسه لم يطلق لفظة مثالي بل كان يصف خصوصاته المزعومين بـ "الطوباويين" utopians، لكن إذا راجعنا كتاباته سنجد أنه يكتفي في النهاية بالإشارة إلى خصوصاته في حواشى كتابه، لكنه يجمع فيها عددا كبيرا من المؤلفين الذين يتقاسمون ميلهم الليبرالية في بوتقة واحدة رغم الاختلاف الواضح بينهم، فالليبرالية التي تحدث عنها "كار" ولاحقا "مورفينتو" تم تصورها على أنها تقاسم تقليدا بحثيا واحدا وتتصورا متطابقا وهذا ما لا نجده فعليا في التقليد الباحثي الليبرالي.³⁵⁷

إن تصنيف الافتراضات "المثالية" بـ "الطوباوية" كان هناك الكثير من القرائن التي تدحضه، فهو لاء ساهموا من خلال العديد من الكتابات في الحفاظ على الوضع القائم في ميزان القوى، ولأجل على ذلك من وصفهم السفن الحربية والغواصات بأسلحة الضعف، وذلك ليس له سوى هدف واحد وهو تثبيط عزيمة الدول التي ترغب في تطوير ترسانتها الحربية عبر امتلاك هذه الأسلحة حفاظا على التفوق البريطاني والأمريكي. هذه الوضعية لا تختلف عن وصف الليبراليين في الوقت الحالي لغاز الأعصاب وغيره من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية بشتى النعوت السلبية رغم أن الدول الكبرى تمتلك أسلحة أكثر فتكا وهي الأسلحة النووية، وذلك ليس له تقسيم آخر غير حرمان الدول الفقيرة من امتلاك رادع أقل ثمنا. بل أن المثاليين في حالات معينة قدموا خدمات أفضل للواقعية السياسية Reapoltik من تلك التي قدمها الواقعيون كاتجاه نظري، فـ "نورمان أنجل" Norman Angell في كتابه "الوهم الكبير" Great Illusion الذي صدر في 1911 كان قد امتدح الاستعمار بطريقة ذكية من خلال القول بأنه ساهم وبسهامه في توثيق الروابط بين شعوب العالم، وبأنه عمل على تمدين مناطق من العالم كانت تقع في التخلف والظلم، ومن خلال قيامها بذلك فإن الدول الغربية الكبرى لا تتدخل في مسار تطور الحضارات الأخرى وإنما تساعدها على اختصار الوقت والحصول على مقومات التحضر.³⁵⁸

هل كانت المسألة الأخلاقية مطروحة على الإطلاق في تلك المرحلة كما قد يتبادر إلى الأذهان عند استرجاع المقوله الشائعة: "المثاليون" يهتمون بما يجب أن يكون بينما يصر الواقعيون على النظر إلى ما هو كائن. الإجابة "لوتشيان آشورث" هي بالمعنى فالأدبيات التي تمثل الاتجاهين كانت مولعة بالنظر في أفضل طريقة لتوظيف توازن القوى من أجل الحفاظ على الاستقرار العالمي الهش وليس في أفضل الطرق للعيش على الكوكب.³⁵⁹

إن ما يعرف بالنقاش النظري الأول بين "المثاليين" وـ "الواقعيين" في العلاقات الدولية هو جزء من نقاش فلسفى أوسع وأعمق انقسم حوله المفكرون الغربيون منذ ما قبل سقوط إمبراطورية أيا مانا هذه. إذن فلننظر إلى العلاقات الدولية لم يبدؤوا هذا النقاش ولم ينهوه ولم يقدموا إسهاما أو إثراء ذاتى معنى.

³⁵⁷ Lucian M. Ashworth, op cit., p. 36.

³⁵⁸ Norman Angell as quoted in Lucian M. Ashworth, op cit., p .37.

³⁵⁹ Lucian M. Ashworth, op cit., p .38.

ونخلص بذلك إلى أن "النقاش النظري الأول" لم ينته بعد، فهو نقاش فلسفى، بل ويعتبر مصدر الانقسام بين "اليمين" و"اليسار" في الديمقراطيات الحديثة. لكن يجب الإقرار بأن أسطورة النقاش النظري الأول، على حد تعبير "بيتر ويلسون" Peter Wilson هي ما ساهم في إثارة نقاط عد للجدل الفكري بما ساهم في ربط السياسة الدولية بالمارسة السياسية³⁶⁰ إلا أن هذا التخصص الناشئ، ولدى بلوغه "مرحلة المراهقة" adolescent IR على حد تعبير "كولين وايت" Colin Wight، أضحت يبحث عن هويته الضائعة بين وصاية التاريخيين والطوباويين، فأغلبية باحثي العلاقات الدولية، بل المؤسسين للحقل أنفسهم قدموا من حقول معرفية مجاورة، بحيث حاولوا إعطائه صبغة معينة، وبحيث بدت التأثيرات الناجمة عن هذه الانتتماءات المتعددة في تدريس العلاقات الدولية عبر تقديم مزج من الأدبيات غير المتسقة، فكان من الطبيعي أن يجلب بعض باحثيه أدوات "النزعية السلوكية" [العلمية] من أجل التمكين لدراسة نظرية وإيصال هذه التخصص مرحلة النضج. وكان ذلك بمثابة إذان لدخول "علم العلاقات الدولية" مرحلة النقاش النظري الثاني.³⁶¹

المطلب الثالث: "النقاش النظري الثاني" - نظرتان منهجيتان لطبيعة المعرفة.

يجمع "النقاش النظري الثاني" بين المقاربة "العلمية" للنظرية، من جهة والمقاربة "التاريخية"، من جهة أخرى. يعتقد أصحاب المقاربة "العلمية" في إمكانية اكتشاف القوانين العامة التي يزعمون أنها تحكم سلوك الدول، بينما يرتأى أصحاب المقاربة "التاريخية" أن كل ما يسعون إليه هو البحث عن أنماط أو تماثلات تقريبية في السلوك، والتي تعتمد صدقيتها الإمبريقية على توفر سياق تاريخي معين. وأكثر من ذلك، فيبينما تعتبر المقاربة "العلمية" مقاربة استقرائية تعتمد على تراكم المعطيات، فإن المقاربة "التاريخية" في الأغلب مقاربة استنباطية تقوم على البحث "التاريخي".

غير أن النقاش بين العلميين والتاريخيين جزء من طرح أوسع وأقدم، ذلك التنازع بين نظرتين تعكسان "التصور المقيد" و"التصور غير المقيد" للمعرفة. حيث أن لنظرية غير المقيدة تتوافق مع الاعتقاد القائل بأن العقل هو الطريق الوحيد للحقيقة؛ وبخلاف ذلك، فإن النظرية المقيدة ترتبط بالاعتقاد القاضي بأن العقل ليس الطريق الوحيد للحقيقة وبأن المعرفة الإنسانية لا يمكن لها أن تكون مطلقة. وفي هذا الصدد، تمثل العقلانية النظرة غير المقيدة للمعرفة، استخداماتها وتطبيقاتها في المجالين السياسي والاجتماعي، هو ما يدعوه "مايكل أوكتشوت" Michael Oakeshott العقلانية السياسية. فالعقلاني، وفق "أوكتشوت"، ليس من المناسب أبدا التشكيك في

³⁶⁰ Peter Wilson, op cit., p. 12.

³⁶¹ Colin Wight, 'Philosophy of Social Science and International Relations', in Walter Warlsnaes et al. (eds.), 'Handbook of International Relations' (UK: SAGE Publications, 2002), p. 26.

قوة عقله [عندما يستخدمه بشكل سليم] في "تقدير قيمة الشيء، وصدق الرأي وصواب الفعل"، كما لا يمكنه أن يتصور نظاماً سياسياً لا ينطوي على "حل المشكلات"، ولا أن يتصور "مشكلة سياسية" لا تتوفر على أي "حل عقلاني".³⁶²

إن هذا الانقسام بين العقلانية السياسية وما يمكن تسميته العقلانية المقيدة [أو المحدودة] تعود إلى العصور القديمة، حيث يصف "أفلاطون" المعرفة في مؤلفه "الجمهورية"- بأنها "المرحلة الكاملة والنهائية، وذلك عندما يقود العقل الفيلسوف من ظلمات الكهف إلى نور المعرفة الخالصة من أية خلقيات أو أفكار مسبقة، وحينها فإن عينا الفيلسوف تتأملان في حقائق ثابتة لا تتغير، إنه حيز [أي حيز المعرفة الخالصة] لا مجال فيه لـاللادuel والمعاناة، لأن كل شيء يخضع للعقل والنظام، وأن العقل يمكنه أن يبلغ المعرفة الكاملة، بحيث يتتيح ذلك للفيلسوف تصميم وتنظيم مجتمع كامل يقوم على دعائم عقلانية". وعلى النقيض من أستاده، لم يعتقد "أرسطو" أبداً في إمكان أن يقودنا العقل لـ"الكمال المعرفي"، كما رفض الفكرة القائلة بأن المجتمع يمكن تنظيمه وفق التصورات المجردة للفيلسوف، ولذا فإن على المجتمع -حسب أرسطو- أن يتبع القواعد التي تتبع منه فالممارسات والقوانين تتتنوع بحسب السياقات الاجتماعية والتاريخية، وفي حالة المنظمات السياسية المختلفة، فإنه من المستحيل تدوين كل شيء بدقة، فما يتم تدوينه يجب أن يتسم بالعمومية، غير أن الأفعال التي ترصدتها الملاحظات تتسم بالخصوصية.³⁶³

اكتسب النقاش حول طبيعة وقدرة العقل نفحة جديدة أخرى في القرن 17 مع كتابات "ديكارت"، "باسكار" و"هيوم". إذ اعتقد "ديكارت" أن الحقيقة توجد في ذاته، وبأنه بصدر البحث عن المنهجية الصحيحة لبلوغ المعرفة بكل شيء. مطاراتات "ديكارت" الفلسفية قادته إلى نتيجة مفادها أن مصدر الأخلاق هو الفكر العقلي (يكفي أن تفكر جيداً لفعل ما هو صحيح)، وبأنه يجر البحث عن الحقيقة في العقل الإنساني وليس عن طريق التجربة ولهذا اختار ديكارت أن يكشف رسالته في المنهج بالفرنسية بدلاً من اللاتينية لأنه أراد أن يتوجه إلى الذين يستعملون فقط عقلاً المحسن والطبيعي في مقابل أولئك الذين لا يؤمنون سوى بالكتب القديمة.

وبعبارة أخرى، ارتى "ديكارت" أن الحقيقة توجد في عقول الأفراد الذين يعتمدون على عقلاهم المحسن، كما أن الفكر الاستباطي حسب اعتقاده يجب أن يشكل القاعدة للبحث العلمي، أما التعليم القديمة والتجارب والاستقراء فهي لا تمثل مصدراً للمعرفة الصحيحة، لأنه وحده العقل يستطيع فتح منفذ للمعرفة. ذلك ما لخصه "هوركمایمر" بأن "العقلانية الديكارتية تدعى قدرة العقل على إنتاج المعرفة خارج العقل ذاته".³⁶⁴

³⁶² Michael Oakeshott, 'On Human Conduct' (UK: Oxford University Press, 1990), p. 40.

³⁶³ لقد امتد هذا الخلاف في الرؤى بين أفلاطون وأرسطو حول العلاقة بين "العقل" و"الحقيقة" وحول قدرة الفيلسوف على تنظيم المجتمع بناءً على دعائم عقلانية بحتة، إلى انقسام المفكرين الغربيين خلال كل المصور حول الخط ذاته. كما أخذ الانقسام نفسها جيداً بدخول مفهوم الوحي (المستلهم من الإنجيل) إلى الفكر الغربي مع انتشار المسيحية. يعبر "ليو شترواس" عن ذلك بكون "التاريخ الغربي كله يمكن النظر إليه كمحاولات متكررة لإيجاد صيغة توافقية أو تركيبية بين الإنجيل والفلسفة الإغريقية". هذه المحاولات التي لا تنتهي تتجسد بوضوح في البحوث الفلسفية لـ"الأكوبيني" وـ"أوغسطين"، وـ"ميونيدس"، أنظر:

Harold I. Brown, 'Rationality' (UK: Routledge, 1990), pp. 40-44.

³⁶⁴ Harold I. Brown, op cit., p. 42.

تحدى "باسكار" و"هيوم" موقف "ديكارت"، وإن اختلفا في الأسباب، حيث أشار باسكار إلى أن رفض ديكارت الاحتكام إلى "الكتب المقدسة" والاعتماد على التفكير العقلاني يقود نحو الإلحاد (وهذا رغم أن ديكارت سبق وأن ادعى استناد نظامه الفلسفية إلى وجود الله) لقد أحسن "باسكار" بأن تقدم العلم (وخاصة الفلك) في عصره تركت الإنسان وحيداً في وجه السكون الأبدي للفضاء "اللامنهي" ، بحيث كان الإيمان بمثابة الرهان الممكّن عندما يعجز العقل عن الإجابة على الأسئلة الأساسية للقضية الإنسانية.

وهكذا رفض "باسكار" المنظور العقلاني لـ ديكارت بل وكتب بأنه لن يسامحه: "لا يمكنني أن أسماح ديكارت لأنه أراد من خلال كل فلسفته أن يتخلص من الله، في البدء كان بحاجة إلى الاستعانة بمبدأ وجود الله لوضع عالمه في السكة، إلا أنه بعد ذلك لم يعد محتاجاً إليه فعمد إلى التخلص منه في تحاليله، إن فكر ديكارت عقيم ومشكك". وأكثر من ذلك، قال باسكار أن الإنسان المثقف قد يكون منقسمًا بين ما يسميه روح الرياضيات (المنطق، العقل) وروح الذكاء (الحدس، الإيمان) وبأن البحث عن الحقيقة لا يمكن أن يعتمد على الروح الرياضية وحدها.³⁶⁵

من جانبه عمد "دايفيد هيوم" في مؤلفه "رسالة في الطبيعة الإنسانية" إلى دحض الافتراض الرئيسي لـ ديكارت القاضي بأنه يمكن استنباط الحقيقة من العقل الممحض، وذلك طالما أن الأفكار تستقى من التجربة. وبعبارة أخرى، فإن العقل الإنساني ليس بالخزان الأولي للحقيقة، بل أنه يتعلم من خلال الانطباعات والتجارب (كل أفكارنا البسيطة في مظهرها الأول تستقى من انطباعات بسيطة). واستطرد "هيوم" قائلاً أن الفلاسفة الذين ادعوا بوجود أفكار سابقة في الوجود أو بوجود ما يسمى بـ "العقل الممحض" (لدى "أفلاطون" و"ديكارت") لا يبرهنون بذلك سوى على شيء واحد وهو أن هذه الأفكار ذاتها مسبوقة بإدراكات أخرى تستقى منها وتعبر عنها. وبخلاف "ديكارت"، فقد كان "هيوم" أكثر حذراً في تمييزه بين العقل والأخلاق. إذ بينما ارتأى ديكارت بـ "أنه يكفي أن يفكر الإنسان بشكل جيد ليفعل ما هو صحيح"، إلا أن "هيوم" أشار إلى أن: "قواعد الأخلاق ليست استنتاجات عقلية". أدرك كانتن بأن "رسالة" "هيوم" تمثل تحدياً جدياً للفلسفة العقلانية، فحاول أن يعيد بناء قواعد صلبة للعقلانية، وذلك في مؤلفه "نقد العقل الممحض" Kritik der reinen Vernunft. قام "كانتن" بتحديد المجالات التي يعتبر فيها العقل قادراً على البحث عن الحقيقة، وأشار "إلى أنه طالما أن العقل الممحض يمتلك هذه القراءة، فإن الفرد قادر على الكشف عن الحقيقة عبر الاستنباط العقلاني وبعدها يجرِ الطبيعة على الإجابة عن أسئلته".³⁶⁶

وهكذا يتبيّن أن الفلسفة الأوروبيّين في القرنين السابع عشر والثامن عشر جددوا فعلاً النقاش حول طبيعة وقدرة العقل: بالنسبة للعقلانيين، يمكن إيجاد الحقيقة في العقل الإنساني في وجهه النقي، أما بالنسبة للإمبريقيين، فإن الأفكار تعتبر ثمرة للتجربة، فالمسألة إذن هي بما إذا كان الإنسان يستقى معرفته من عقله أم من التجربة.

النقاش حول مصدر المعرفة ما فتئ ليتوسّع نحو مسألة ما إذا كان العقل وحده قادرًا على ترجمة وتفسير الأحداث التاريخية وتحسين أحوال المجتمع. وقد كان رد الكاريزيّين (أتباع

³⁶⁵ Harold I. Brown, op cit., p. 48.

³⁶⁶ Harold I. Brown, op cit., pp. 49-50.

ديكارت) العقلانيين بأنه يمكن تفسير التاريخ تفسيرا عقلانيا، وبأنه يمكن أيضا إعادة تنظيم المجتمع على أسس صحيحة بفضل الفكر العقلاني، وفي المقابل فإن جل الموروث الفكري للنزعه الإمبريالية الانجليزية يشدد على أهمية التقاليد في تحقيق سعادة المجتمع، ويتحدى المنظور الذي يدعى بوجود قانون يحكم مسار التاريخ.³⁶⁷

هذا الطرح الفلسفى تجلى بوضوح خلال القرن 18 في الرؤى المتناقضة لكل من "روسو" و"بيرك"، ف"روسو" كان يؤمن بأن "الإنسان ولد حرا، لكنه مقيد بالأغلال في كل مكان، ومع ذلك فسوف يستعيد حريته الأصلية، عندما يعيد العقل تنظيم المجتمع ويحرره من التقاليد والمعتقدات التي قيدت حريته، والتي تراكمت عبر السنين بسبب الجهل والتعصب".

في حين عارض "بيرك" فكرة "روسو" التي تقضي بأن الحرية الإنسانية تتوافق مع "الحالة الطبيعية" ومن ثمة يمكن استعادتها بالاعتماد على العقل، بالنسبة لـ"بيرك"، تعتبر الحرية نتاجاً للمجتمع المدني، وهو الإطار التقليدي الذي أرساه الناس في ظل سياق ثقافي وتاريخي معين بهدف مواجهة أخطار الطبيعة، لقد استمر المجتمع المدني بفضل تجارب أجيال متلاحقة لكنه يتعرض لمخاطر مستمرة من جانب الثوريين الذين يستخفون بالتجربة ويعتبرونها حكمة الأميين. هؤلاء الثوريون، ومن خلال محاولتهم إعادة تعريف الطبيعة الإنسانية عبر "العقل المحسن" وإعادة تنظيم المجتمع بالاعتماد على تصورات مجردة، انبهروا بنظرياتهم حول حقوق الإنسان بحيث نسوا تماما طبيعته.

يمكن اعتبار الرؤى المتعارضة بشكل جزئي بين "روسو" و"بيرك" حول مسألة الحرية وسعادة المجتمع بمثابة امتداد للنقاش العقلاني/الإمبريالي ليشمل مجال الفكر السياسي متحورا حول السؤال: فيما إذا كان الإنسان قادرا على إعادة اكتشاف حريته الفردية والعدالة الاجتماعية عبر تطبيق المبادئ العقلانية الخارجية التي تسقه في الوجود، أم أن الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية ذاتها تعتبر نتاجاً للتطور التاريخي بحيث اكتسبها الإنسان بالتجربة ونتيجة لكافحه ضد الطبيعة؟

في القرن 19، أضاف العقلانيون السياسيون إلى ادعائهم الخاص بالتفصير العقلاني للتاريخ اعتقادا آخر بإمكانية إعادة تنظيم المجتمع على أسس عقلانية، حيث شدد كل من "كوندورسيه"، "فوربيه"، "سان سيمون" و"كونت" على أنهم اكتشفوا (عبر الاستبطاط العقلاني) قانونا علميا يحكم التطور التاريخي، وبأنهم قادرون على إعادة تنظيم المجتمع وفقاً للمبادئ العقلانية بغية تحقيق مستويات يوتوبية من الثروة والسعادة.

وحتى "كارل ماركس" أرسى "اشتراكية العلمية" على قراءة علمية للتاريخ. وهكذا فإن التاريخية (التي تعنى الاعتقاد بوجود قانون يحكم الأحداث التاريخية بحسب تعريف "كارل بوبر") لطالما شكلت جوهر الافتراض الأيديولوجي للاشتراكية، والتي تعنى من جهةها الاعتقاد بأنه يمكن للمجتمع أن يبلغ المستويات الأمثل للثروة والعدل عبر التخطيط والتنظيم العقلانيين.³⁶⁸

³⁶⁷ Ibid.

³⁶⁸ Emmanuel Navon, op cit., pp. 615-617.

في ظل هذا الصراع المبطن حول الطرف الذي يمتلك تعريفه للعلمية ولعلمية العلاقات الدولية الشرعية أثير النقاش النظري الثاني، وهذه المرة يبدو أن بعضًا من لازالوا يتبعون التقليد البحثي المثالي جنبا إلى جنب مع خصومهم الواقعين الكلاسيكيين، وجدوا أنفسهم في معسكر واحد في مواجهة مزاعم جديدة بامتلاك الطريقة المثلى لجعل العلاقات الدولية علمًا، وهي تلك المزاعم المستلهمة من الثورة السلوكية. وهو المعنى "الباراديمي" الذي تزعمه كل من "مورتن كابلان" Morton Kaplan و"ديفيد سينقر" David Singer، حيث وضحا أن الدافع من وراء مساعهم هو البحث في تشكيل منظومة معرفية نظمية عبر توظيف الأدوات المنهجية "العلمية"، لكن "العلمية" حسب المضامين التي يطعنها "الباراديم" الوضعي. إذن فقد حصر النقاش النظري الثاني الجدل القائم في الحقل مرة أخرى وهذه المرة ليس في جوهر الفرد (البعد الأنطولوجي)، لكن في المنهجية التي ستجعل من العلاقات الدولية علمًا.³⁶⁹

المطلب الرابع: بوادر النقاش النظري الثاني في سياق نظرية واقعية معمورة

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، تجلّى النقاش بين المقاربات المنتسبة للتقليد البحثي-المنهجي العلمي/أوالتاريخي، وبشكل نموذجي، في وجهات النظر المتباعدة لكل من "ستانلي هوفمان" Stanley Hoffman و"مورتن كابلان" Morton Kaplan حول المسألة. في بينما كان "كابلان" واثقاً من أن تطبيق مناهج الاستقراء العقلاني في دراسة العلاقات الدولية سيتمكن نظرية العلاقات الدولية من تحديد الشروط التي يبقى في ظلها النظام الدولي مستقراً والشروط التي يتحول على إثرها هذا النظام، فضلاً عن الشكل الذي يأخذه مثل هذا التحول. أما هوفمان فقد دعا إلى مقاربة أكثر تشكيكاً وتوضعاً تستند إلى البحث التاريخي والتعميمات الاستقرائية. وهو بذلك يرفض بناء فرضيات تجريبية صرفة تقوم على عدد قليل من المسلمات.

ارتَأى "هوفمان" أنه يتعين على منظري العلاقات الدولية مباشرة مساعيهم البحثية استقرائيَا، وقبل أن يتوصلا إلى أية استنتاجات حول المسارات التي أخذها التاريخ، عليهم أن يلحوظوا إلى البحث التاريخي النظمي [القائم على تحليل النظم]، ذلك أن القوانين الخاصة بهذا الحقل المعرفي يمكن الحصول عليها من التاريخ، وليس عبر الاستنباط من فرضيات مجردة. إذن بخلاف "النيوواقعيين" و"السلوكيين" الأميركيين فإن "هوفمان" وأتباع "المدرسة التاريخية" لم يعتقدوا يوماً بأن نظرية العلاقات الدولية يمكن أن تصبح علمًا، ومن خلال تعليقاته على إخفاقات المقاربة "العلمية" الطموحة، خلص "ستانلي هوفمان" إلى أنه كان هناك أمل في أن يتحول هذا الحقل المعرفي إلى "علم"، وكان هناك أمل أيضاً في أن يكون هذا العلم "نافعاً"، لكن نتيجة كلا المسعين مخيبة للأمال.³⁷⁰

ذلك فيما يتعلق برموز التقليد البحثي الليبرالي، أما بالنسبة للواقعي "كار" الذي يزعم تأسيس الحقل المعرفي للعلاقات الدولية عبر الأسطورة التي نجح في تسويقها بخصوص النقاش

³⁶⁹ Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p.17.

³⁷⁰ Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

"الوهبي" بين الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية، فقد كان من أتباع المدرسة التاريخية الألمانية، التي يمكن افتقاء آثارها لدى أشهر أعمال الفلسفة في القرن التاسع عشر: "هيفل" و"ماركس"، وهي التي ادعت إمكانية تحديد مسار التاريخ علمياً، ومن ثمة ضرورة الخضوع لقانون التطور التاريخي. لكن "كار" أيضاً كان اشتراكيًا يؤمن بالتبشير والتخطيط المركزيين وبالنهاية الوشيكة للرأسمالية، ففي حوار له مع مجلة اليسار الجديد أثني على الإنجازات الكبيرة للنظام السوفياتي، والتي تمكن من القيام بها من خلال نبذة لخاصيتين أساسيتين للإنتاج الرأسمالي وهما "الربح" و"قوانين السوق"، وتعويضهما بـ التخطيط الاقتصادي شامل يهدف إلى تعزيز الرفاه العام، وقد ذهب "كار" إلى أبعد من ذلك بالقول بأن الثورة البلشفية والحرب العالمية الأولى كانتا بمثابة بادرة لنهاية النظام الرأسمالي. لقد سار "كار" على خطى سلفيه "هيفل" و"ماركس" بتبنّيه الاعتقاد القائل بأن التاريخ يأخذ مسارات محددة سلفاً، وبأن الليبرالية والقومية تعتبر بمثابة تصورات مثالية تتناسب أكثر مع القرن التاسع عشر الذي انقضى، أما المرحلة النهاية من التاريخ الأوروبي فتتجسد في الاشتراكية والتخطيط المركزي، وهي الحقيقة التي لم تفهمها سوى ألمانيا النازية وروسيا السوفياتية.³⁷¹

كان السلام العالمي في طريقه للأفول، بينما انتصرت روسيا السوفياتية وألمانيا حسب "إدوارد كار". بالنسبة لألمانيا، لأنها كانت تبشر بـ³⁷² ميلٍ كانت حتى عهد قريب مثلاً عالمية مقبولة وتمثل في المبدأ الرأسمالي "دعاه يعمل". لم تكتف ألمانيا بالتبشير بهذا المبدأ بل عملت على تجسيده. أما بالنسبة لروسيا السوفياتية، فقد جلبها المد إلى القرن العشرين، وقد كافحت من أجل بناء وحدات صناعية كبيرة في ظل التخطيط والإشراف المركزيين. ولم يكن يضاهي إعجاب "كار" بالاشراكية القومية الألمانية سوى مقته التقليد الليبرالي الانجليزي، وهو ما عبر عنه بشكل مباشر: "لا يمكن تحقيق النتائج المرجوة إلا من خلال إعادة تنظيم الحياة الأوروبية على طريقة هتلر".

لقد ارتأى "إدوارد كار" أن الواقعية تستند على عوامل القوة المادية لقوى الكبار، كما تلح على الطبائع التي تتسم بها التوجهات الفائمة والتي لا يمكن أن تحدّ عنّها، وفي هذا كله ترى الواقعية أن من الحكمة قبول هذا الوضع كما هو والتكييف مع هذه القوى والتوجهات. عندما صرّح "كار" بذلك، فإن أفكاره كانت تتبع من صميم المعنى التقليدي للواقعية السياسية من منظور عقلاني، رغم تسلیمنا بأن الواقعية عموماً تمثل إلى المقاربة للعالم كما هو لا كما يجب أن يكون. وفعلاً، فإن جوانب القوة لقوى السائدة التي تحدث عنها "كار" تختلف عن "الطبائع الإنسانية التي لا تتغير"، مما الذي تعبّر عنه حسب طرح "كار": إنها تعبّر عن قوانين علمية مزعومة تحكم مسار التطور التاريخي، والتي يمكن إماطة اللثام عنها بالاعتماد على "العقل المحسّن المتحرر من أي تشوه أيديولوجي".

وبالاعتماد على هذه المسلمة، بني "كار" ادعائه بتأسيس "علم السياسة الدولية". إذ وبالاعتماد على كتابات "كار" يمكن تحديد مفهوم الواقعية السياسية بطريقتين. الأولى، ترى الواقعية السياسية بمثابة نظرية محافظة للعالم تقوم على تصور "هوبيز" لحياة الإنسان باعتبارها

³⁷¹ Ibid.

³⁷² Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

تنسم بالوحدة، والفقر، والدنساء، والوحشية، وقصر العمر، وبذلك تكون وظيفة أي نظام سياسي (بما في ذلك النظام الدولي) هي لجم هذه البواعث الفطرية للأفراد حماية لهم من أنفسهم ومن بعضهم البعض. ويستطرد "كار" في هذا الشأن قائلاً أنه ليس علينا أن ننفي هذا الواقع كما هو وحسب، بل يتوجب علينا التسليم بأن هذا الواقع تحكمه قوانين تاريخية واجتماعية ثابتة يمكن اكتشافها بالاعتماد على "العقل المحسن". ومن هنا يمكن أن نستشف الفرق بين وجهي الواقعية السياسية، وبينما تعتبر الواقعية التقليدية منظوراً سياسياً محافظاً، فإن "الواقعية العلمية" تقوم على ابستيمولوجيا عقلانية مغمورة.³⁷³

لم يكفل "كار" بمحاولة تمرير "نظرة معينة للعالم" بل عمد إلى تعزيز القراءة العقلانية للتاريخ وللعلاقات الدولية، وهو ما تجسّد في تهمّمه الشخصي على "كارل بوبر"، فتحت عنوان ما هو التاريخ؟ انتقد "كار" تجراً خصمه "بوبر" على انتقاد الفلسفات الحتمية المزعومة للتاريخ لدى كل من "هيغل" و"ماركس"، كما رثى حال المتفقين والمفكرين السياسيين في العالم الناطق بالإنجليزية بسبب ما أسماه تراجع إيمانهم بقدرة العقل. وكان "كار" يتوجه بكلامه إلى كل من "كارل بوبر" و"فريدرريك فون هايك" اللذان انتقدا تطبيق العقلانية الألمانية على أوروبا وهو ما عاد عليها بالوبال. لقد كان من المثير للحيرة، أن يشيد عالم بريطاني بالاشتراكية القومية في عز الصراع الأيديولوجي الذي قام خلال الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا النازية والعالم الحر، بينما نجد في غضون ذلك، مفكرين نمساويين ("بوبر" و"هايك") يدافعان عن مبادئ الليبرالية والحرية التي نشأت في إنجلترا.

بل أن "كار" سعى لإيجاد منفذ للعقلانية الألمانية إلى داخل بريطانيا، في الوقت الذي أخذت الفلسفة الألمانية منحى مغايراً ومتناوئاً للعقلانية بتأثير فلسفة "مارتن هайдيغر". لقد جسد هذا النقاش بين "كار" من جهة و"بوبر" و"هايك" من جهة أخرى صراعاً نموذجياً بين الواقعية السياسية والعقلانية المحدودة. في مؤلفه "فقر النزعة التاريخية"، وفي العنصر الذي تحدث فيه عن "المجتمع المفتح"، أشار "بوبر" إلى أن محاولات الكشف عن القوانين التي يسير وفقها التاريخ تتبع من التطلعات العقلانية الهدافة للتحكم في المجتمع، وفي التحولات التاريخية، وهي كلها محاولات تبوء بالفشل لأن ذوي النزعة التاريخية يريدون تحويل الاعتقاد الديني إلى معطى تاريخي، ومن ثمة إلى معرفة علمية، وذلك عبر استبدال [الله كمسبب وخالق لكل شيء] بـ التطور أو بالعقل أو بالطبيعة.³⁷⁴

وبحسب "بوبر" فإن التساؤل بشأن المضمون المحتمل أو الاتجاه المزعوم للتاريخ هو سؤال عقيم ولا يمكن الإجابة عنه لا بالاستنباط العقلي ولا بالبحث الإمبريقي. وبضيف "بوبر" أنه عندما يدعى الفلاسفة العقلانيون (مثل أفلاطون وهيغل وماركس) أنهم اكتشفوا القوانين الناظمة للتاريخ، ومن ثمة يدعون بأنهم وتبعداً لذلك توصلوا لصياغة النظام الاجتماعي الأمثل، وحينها فإن أتباعهم

³⁷³ Emmanuel Navon, op cit., p. 619.

³⁷⁴ Ibid.

سيعملون على تجسيد هذه النظم المثلى بالقوة، فإن ذلك إنما مهد لظهور الطغيان السياسي الذي شهد القرن العشرين أحد أطواره.³⁷⁵

لقد كان رفض "بوبير" للتاريخانية بمثابة رد ضمني على "كار" وعلى علم السياسة الدولية الذي أسسه وطبيعي جداً إن لم يهضم "كار" الطريقة التي تعامل بها "بوبير" مع الفلسفة الحتمية المزعومة للتاريخ والتي طورها "هيقل" و"ماركس"، فمن منظور نظرية "بوبير" للصلاحية العلمية، تعتبر "التاريخانية" مثلها مثل "علم السياسة الدولية" دون قيمة علمية لأن النظرية التي يقومان عليها غير قابلة للمراجعة والتكييف على أساس عقلانية وهو ما يمكن التأكيد منه لدى فحص الافتراضات السبعة التي قامت عليها الواقعية الكلاسيكية والتي تضمنها كتاب "هانس مورفينتو" Hans Morgenthau، المعروف بـ "السياسة بين الأمم" Politics Among Nations (صدر سنة 1948).³⁷⁶

- يمكن تطوير نظرية عقلانية تعكس القوانين الموضوعية التي تسير وفقها السياسة طالما أنها تستند إلى الطبيعة الإنسانية غير الخيرة، فالإنسان يضمر الشر بطبيعته، حسب مورفينتو، وهذه الطبيعة ثابتة لا تتغير بأي حال من الأحوال؛
- المصلحة هي جوهر العمل السياسي، وهي تتحدد بممؤشر القوة، حيث أن القوة بالنسبة للواقعيين تعتبر وسيلة وهدف في الوقت نفسه، وتعرف القوة على أنها القدرة على التأثير في سلوك الآخرين أو تغييره وفق الاتجاه المرغوب به، من جهة، ومن جهة أخرى القدرة على مقاومة محاولات الآخرين للتاثير في السلوك؛
- يفترض الواقعيون أن المصلحة التي تتحدد بالقوة تعتبر مفهوماً موضوعياً يتمتع بصلاحية غير قابلة للجدل، ومع ذلك فإن مصامين المصلحة ليست ثابتة بالنسبة لكل الدول كما أنها ليست ثابتة على امتداد فترات تاريخية متعددة؛
- الواقعية ليست نظرية غير أخلاقية immoral، بل أنها فقط نظرية لا تبالى بالمعايير الأخلاقية على اختلافها amoral، وذلك لأنها وفي الوقت الذي تعي فيه التبعات الأخلاقية للعمل السياسي، فإنها واعية أيضاً بالتورز الذي يمكن أن يحدث بين القيادة المتمسكة بالمصامين الأخلاقية وبين مقتضيات نجاح العمل السياسي؛
- ترفض الواقعية ادعاء دولة من الدول بأن قيمها الأخلاقية يجب أن تكون بمثابة قوانين كونية تستوجب خضوع الجميع لها. وبخلاف ذلك ترى أن المصلحة هي التصور الذي يتبوأ مكانة القانون الكوني لأنه يحول دون الإقدام على مغامرات سياسية نابعة من محاولة فرض المنظومة القيمية والأخلاقية لدولة معينة على الدول الأخرى، وكذلك لأن تحقيق المصلحة شيء مشترك يحظى بإجماع الكل؛
- السياسة من المنظور الواقعي حقل مستقل بذاته وللحصول على تحليل جيد يتوجب استبعاد أي مجال آخر من مجالات الاهتمام الإنساني.

³⁷⁵ Emmanuel Navon, op cit., p. 619.

³⁷⁶ Hans J. Morgenthau, **Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace**, 5th revised ed. (USA: New York: Alfred A. Knopf, 1978), pp. 4-15.

لقد نجحت هذه الافتراضات في التسويق لانتصار النزعة الواقعية ليس أكاديميا فحسب بل ميدانيا أيضا. لكن ذوي النزعة السلوكية العلمية انتقدوا كل افتراض من الافتراضات السابقة عبر منفذ واحد أساسي وهو غياب الصراحة المنهجية والاتساق التصوري في بلورة هذه الافتراضات:³⁷⁷

- بداية بعدم الدقة في استخدام المفاهيم المفتاحية، فمصطلح القوة الذي يبني عليه طرحة النظري يحمل مضامين عدّة، وفعلا فقد دأب الواقعيون لاحقا في ما اصطلاح على تسميته بالنسخة البنوية للواقعية لدى "وولتز" بإضافة الشق الاقتصادي للشق العسكري الذي تبنّه الواقعية الكلاسيكية؛
- أما تبريره قيام الحروب بالنزعة الشريرة للإنسان، فهي وحسب "السلوكيين" لا تتصمد كثيرا أمام الحالات العديدة لسيطرة منطق السلام والتعايش، وفي هذه النقطة بالذات يتساءل أتباع منظور السلام الديمقراطي إن كان الطرح الواقعي لا ينطبق على الدول الديمocrاطية التي لا تلجأ أبدا لاستخدام القوة ضد بعضها البعض حتى لو لم تكن مصالحها متناغمة؛
- النقطة الأخيرة التي تم انتقادها من طرف ذوي النزعة العلمية الوضعية تتعلق بمدى صلابة مفهوم الدولة كفاعل موحد، والذي يستند إليه الواقعيون لتبرير تمثيل ردود أفعال الدول تجاه البيئة الدولية، فالواقع يظهر أن الدولة هي مجموعة الفواعل الداخليين المشكلين لها، وبذلك فإن ردود أفعالها تتباين بحسب توجهات السياسة الداخلية التي تدخل ضمن مستوى تحليلي آخر غير المستوى النظمي، وهو المستوى الوطني.

صحّح أن الواقعية والليبرالية انحدرت أمام الانتقادات السلوكية، بل وتهافت لاحقا على توظيف التقنيات الكمية أو أنها استندت على الأقل إلى "بارادايم" صاعد في العلوم الاجتماعية: "الخيار العقلاني"، وصحّح أن النقاش حول ما يجب أن تكون عليه العلمية في العلاقات الدولية استمر لاحقا سيماء في إطار النقاش نيويورك، إلا أن النقطة المتعلقة بالدولة كفاعل موحد ووحيد في التفاعلات الدولية لم يعد لديه الكثير مما يسنده إمبريقيا ما فتح المجال للنقاش مجددا في هذه المسألة، وإضافة إلى ذلك فإن إفراط النزعة السلوكية في اهتمامها بإضفاء الاحترافية على دراسة العلاقات الدولية، من جهة، ومن جهة أخرى، مغالاة الواقعيين في واقعيتهم التي لا تبالي بالبعد الأخلاقي، أوجد كل ذلك منفذًا لدخول النقادين إلى حيز الجدل الفكري في التخصص، عبر إثارتهم استفهامات جادة حول جدوى هذا العلم الناشئ إن لم يكن سيهتم بانشغالات الأفراد والمجتمعات. وقد كانت هذه النقاط إحدى بوادر بداية النقاش النظري الثالث في العلاقات الدولية.

المطلب الخامس: النقاش النظري الثالث بين البارادایمات الثلاث.

³⁷⁷ Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p. 18.

عقب نجاح الثورة السلوكية في علم السياسة كما في العلاقات الدولية خلال فترة زمنية وجيزة نهاية الخمسينيات وبادية السبعينيات، ظهرت بوادر التحدي الباراديمي "البنيوي" و"النقيدي" بشكل متزامن في المجالين نهاية السبعينيات، رافضة سلبية النزعة العلمية في التعاطي مع الشؤون العالمية. وقد أطلق ذلك نقاشات نظرية اشتغلت في البداية على "باراديمات" ثلاثة كما اصطلح على تسمية هذه المرحلة من النقاشات النظرية بالنقاش المتعدد "الباراديمي" interparadigm اقتداء بالعمل المرجعي لأحد أبرز فلاسفة العلم في العلاقات الدولية "مايكيل بانكر" 378 Michael Banks.

انطلق النقاش النظري الثالث لدى تقهقر الرؤية القائلة بأن العلاقات الدولية تعتبر مجالاً للفعل وتدالو الخطابات السياسية بشكل مستقل عن النظرية السياسية، فهذه الرؤية فقدت الكثير من بريقها نهاية السبعينيات كما أنها لم تعد تجد دعماً كافياً في ظل الانتقادات الموجهة إليها بالتزام موقف محايدين سلبياً إزاء عالم مليء بالكوارث من شاكلة حرب فيبيتام ومخاطر حرب نووية بين القوتين العظميين. لقد تحول النقاش خلال هذه المرحلة من نقاش حول أكثر النظريات اتساقاً إلى البحث عن أفضل النظريات إذا ما قيست بالبيئة العالمية التي تحاول وصفها وتفسيرها. لكن الميزة هذه المرة هي أننا أمام نقاش من نوع آخر لا يعني بالمقابلة بين الافتراضات المتنافسة، بل بالمفاضلة بين "الباراديمات" التي ترعاها 379.

يصف "بانكر" هذا المشهد النظري الجديد بأن الباحثين في العلاقات الدولية أصبحوا يجدون أمامهم ثلاث صور عن العالم تمثل مدلولات مختلفة منذ البداية، وبالنسبة للنزعة الواحدية، 380 لدى الواقعين، يعتبر المجتمع الدولي نظاماً تفاعلاً فيه الدول وفق منطق "كرة البليارد" Billiard-ball (كل فعل يولد رد فعل يماثله في القوة بما ينشأ عنه فهم متميز للعلاقات الدولية باعتبارها علاقات صدام وقوه). في الطرف الآخر نجد النزعة التعددية pluralism والتي تعدد فواعل كثرين بجانب الدولة، هذه النزعة التي تدافع عنها المقاربة الليبرالية تتطلق من صورة مختلفة بحيث ترى أن العالم أشبه بشبكة عنكبوت cobweb model (حيث الترابط والاعتماد المتبادل بين أعضاء المجتمع الدولي سيجعلهم يميلون للتعاون لا الصراع). وأخيراً، الصورة التي يقدمها أصحاب النزعة البنوية Structuralism والتي تسمى في بعض الأدبيات "النزعة الراديكالية" وفي بعضها الآخر "النقدية"، 381 هذه الصورة تمثل المشهد العالمي بأخطبوط متعدد

³⁷⁸ إن استخدام مصطلح "الباراديم" آنذاك كان شأنعاً بفعل الواقع الذي أحده عمل "توماس كون" على كل المجالات العلمية، لكن لاحقاً أي مع بداية النقاش النظري الرابع، أصبح هناك احجام عن إلقاء وصف النقاش بين الباراديمات على النقاش النظري الثالث لأن هذا الأخير انضوت تحته عدد من المقاربات الوضعية والعقلانية والتي شكلت لاحقاً باراديم واحداً في مواجهة الباراديم التأملاني والباراديم البنائي، لكن يبدو من المناسب الاحتفاظ بهذا المصطلح لدى مراجعة حيثيات النقاش الثالث، كون التباين في الافتراضات النظرية للمقاربات الواقعية والتعددية (الليبرالية) والراديكالية (النقدية) يؤهلها لحمل وصف الباراديمات المتعارضة إذا ما اعتمدنا تعريفاً منا للباراديم، لفهم أفضل لبوادر النقاش الثالث، انظر:

Michael Banks, "The Inter-Paradigm Debate", in M. Light & A.J.R. Groom (eds.), **International Relations. A Handbook of current theory** (UK: Frances Pinter, 1985), p. 7.

³⁷⁹ Mark A. Neufeld, 'Restructuring of International Relations Theory' (UK: Cambridge University Press, 1995), p. 47.

³⁸⁰ أي أنها تجاج بكون الدولة فاعلاً موحداً ووحيداً في العلاقات الدولية، منطق الوحدة mono مقابل التعددية pluri في رد المقاولات التي تشكل السياسة الدولية حسب النظرة الأولى والسياسة العالمية حسب النظرة الثانية.

³⁸¹ تختلف أراء الباحثين بهذا الصدد فمنهم من يرى أن النقاش يتضمن بالإضافة إلى الواقعية والليبرالية عدداً من المقاربات يجمع بينها راديكاليتها ورفضها للعالم كما هو، ليدرج كلاماً من النقدية لـ "كوكس" والتابعة لـ "كاردوسو" وـ "سمير أمين". أما البعض الآخر مثل "مارك

الرؤوس" Multiheaded Octopus [بلدان الشمال] يعمل على امتصاص ثروات بلدان المحيط الضعيف [بلدان الجنوب].³⁸²

إن ميزة المقاربات الثالث التي تم تطويرها على هذه الصور هي أنها متعددة داخلياً، أي أنه لا مجال لنقاش مستفيض بينها حول هذه المسألة، لكن من المحير أن مع ذلك تختلف كلية عن بعضها البعض في بناءاتها التصورية عندما يتعلق الأمر بالمكونات النظرية التالية: الفواعل؛ طبيعة الديناميكيات الدولية؛ المتغيرات التابعة؛ الحدود التي يجب رسمها للحقل المعرفي للعلاقات الدولية؛ وأخيراً حول مضامين بعض التصورات المفتاحية. إذن فقد كان طرح خاصية الامقايسة مستساغاً بالنظر إلى تفاوت واضح يمنع إجراء مقارنات معيارية. فالواعيون يرون أن وظيفة النظرية في العلاقات الدولية يجب أن تتحصر في تفسير ما تقوم به الدول؛ بينما تذهب التعددية الليبرالية إلى أبعد من ذلك بإناطتها دور تفسير كل الأحداث العالمية المهمة؛ أما "النقدية"/"البنيوية" فترى أن وظيفة النظرية هي إماطة اللثام عن الأسباب التي أدت إلى هذا الbon الشاسع بين الأغنياء والفقare.³⁸³

على المستوى الأنطولوجي ترى الواقعية أن حدود الحقل المعرفي ترسمها السلوكيات التي تقف ورائها الدول؛ بينما يتسع الحيز الأنطولوجي لدى ذوي النزعة التعددية ليشتمل على الشركات المتعددة، والأسواق والمجموعات الإثنية والقومية جنباً إلى جنب مع الدولة؛ أما لدى النزعة البنوية فإن مجال البحث يصبح شاسعاً وذلك لتمسكها بوحدة البنية الدولية على كل بما يكفل تحللاً عبر المستويات مع التركيز على الدور الذي تلعبه أنماط الإنتاج الاقتصادية بما يجعل السياسة بين الدول مسألة سطحية وتحصيل حاصل لتفاعلات الداخلية. أما التباين في التصورات المفتاحية المستخدمة في كل منها فيتضح من خلال اعتماد الواقعيين على الردع والتحالف؛ في مقابل الإثنية والاعتماد المتبادل لدى التعدديين الليبراليين؛ وأخيراً الاستغلال والتبعية لدى البنويين.³⁸⁴

بالنسبة لـ"نيكولاس ج. رينقر" Nicholas J. Rengger، يعتبر النقاش النظري الثالث أكثر النقاشات إهاراً للوقت دون قيمة مضافة لعلم العلاقات الدولية، فهو ورغم الطابع العلمي المحسن الذي يحاول الظهور به، إلا أنه لم يكن سوى انعكاس للصراع الأيديولوجي آنذاك وللأيديولوجيات الثلاث المسيطرة على المشهد السياسي، من حيث أن الثلاثية "الباراديمية" المزعومة: الواقعية/التعددية/البنيوية تقبلها ثلاثة أيدلوجية: المحافظة/الليبرالية/الاشتراكية. وزيادة على ذلك فقد ساهم هذا النقاش في إضفاء مزيد من العموض على مفهوم "الباراديم" الذي

هوفمان" فيرى أنها تنحصر في "النقدية". لمزيد من التوضيحات. وجهة نظر أخرى يسوقها "كارل هولستي" مفادها أن النقاش النظري الثالث جمع بين "التقاليد الحثى الكلاسيكي"، ومقاربة "المجتمع العالمي" و"النيوماركسيّة".
حول هذه النقطة انظر:

Mark Hoffman, 'Critical Theory and the Inter-Paradigm debate', *Mellennium: Journal of International Studies* 16 (2) 1987, p. 231; Karl J. Holsti 'The Dividing Discipline. Hegemony and Diversity in International Theory' (London: Allen and Unwin, 1987); Michael Banks, op cit., pp. 7-15.

³⁸² Michael Banks, op cit., p. 30.

³⁸³ Mark A. Neufeld, op cit., p. 47.

³⁸⁴ Ibid.

أصبح يستخدم بطريقة عشوائية دون احترازات كافية³⁸⁵ بل ويذهب باحث آخر وهو "مايكل تشارلز ويليامز" Michael Charles Williams إلى القول بأن النقاش الثالث كشف، وبشكل مفضوح، عن غياب أرضية معرفية محايدة لتقدير المخرجات المعرفية في العلاقات الدولية، بل وساهم في تنفيه **banalisation** مصطلح النقاشات النظرية لأن المرحلة الثالثة من هذه النقاشات على حد تعبيره لم تتضمن أية نقاشات تذكر في واقع الأمر.³⁸⁶

لكن "أول ويفر" Ole Waever يطرح فكرة مخالفة، فبالنسبة إليه، يحلينا النقاش النظري الأول في الورلة الأولى إلى مشكلة غير معهودة تمثل في وجود طروحات متباعدة في حقل العلاقات الدولية دون أن تتمكن من تطوير لغة مشتركة للحوار أو للتنافس فيما بين بعضها، لكن مع مرور الوقت استطعنا قراءة دروس مهمة من هذه المرحلة من تطور التخصص، حيث تراجعت الرؤى التي ترى بأن قوة التخصص في وحدته وانسجامه، حيث أثبتت مساعي الهيمنة خلال النقاشين الأولين أنها غير مجده عندما يتعلق الأمر بإثراء الحقل المعرفي بعدد كبير من التصورات التي ستمكننا من فهم أفضل لما يحدث في الساحة الدولية. خلال النقاش الأول تغلبت النظرة المتشائمة أنطولوجيا إزاء الطبيعة الإنسانية مما ساهم في إنتاج معرفي لا يساهم أحسن الأحوال إلا في الحفاظ على الوضع الراهن، ومعروف أن الوضع السائد بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن جيداً للجميع سيما مع اندلاع الحرب الباردة. أما في سياق النقاش الثاني فقد كانت تطغى النزعة العلمية والوضعية على الحقل رغم أن منطقاتها تمثل في فك الارتباط بالواقع وكانت السمة الغالبة هي السلبية. إذن، من المهم الانتباه إلى الخاصية الجديدة التي فرضها النقاش النظري الثالث على الحقل المعرفي: التعاليس بين برامج بحثية/أو باراديمات مختلفة كل منها تتلافى جزء من الظاهرة الدولية وتمثله نظرياً بشكل ملفت لأنها طورت منطقاً داخلياً وبناءً تصوريَاً يتناسب مع الجزء من الظاهرة الدولية الذي تتعاطى معه أنطولوجياً وباستخدام أدوات ابستيمولوجية وضعية.³⁸⁷

المطلب السادس: الاتصال المنظوراتي نيونيو وإطلاق النقاش النظري الرابع.

لقد اتسم المشهد الأكاديمي خلال النقاش النظري الثالث بتمسك كل مقاربة من المقاربات الثلاث بقناعتها بأن منظومتها التصورية تزود باحثي العلاقات الدولية بتسقيفات لا يمكن دحضها إمبريقياً، كما أن الاتصال عبر المنظوراتي لم يولد تركيباً بين المقاربات الثلاث، لكن مع بداية

³⁸⁵ Nicholas J. Rengger, 'International Relations, Political Theory, and the Problem of Order: Beyond International Relations Theory' (UK: Routledge, 2000), p. 30.

³⁸⁶ Michael Charles Williams, 'The Realist Tradition and the Limits of International Relations' (UK: Cambridge University Press, 2005), p. 141.

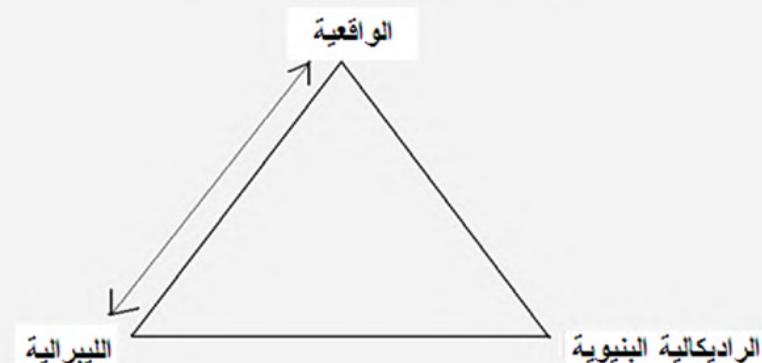
³⁸⁷ Ole Waever, 'The Rise and Fall of Inter-paradigm Debate', in Richard Little and Michael Smith 'Perspectives on world politics' (UK: Routledge, 2006), pp. 435-437.

الثمانينيات وظهور بوادر تحدي باراديمي أخطر مستشف من النزعة ما بعد الوضعية، وجدت النيوواقعية والنيوليبرالية في حالة اتصال منظوراتي حاد أفضى إلى إعادة ترتيب التصورات العقلانية بما يتيح لها التصدي للانتقادات التي وجهت للـ"باراديم الوضعي" عموماً في الحقول المعرفية الأخرى، حيث كانت العلاقات الدولية آنذاك بمنأى عنها. إذن فقد كان أهم تحول "باراديمي" خلال السبعينيات والثمانينيات هو التحول عن الاعتقاد السائد بأن الاحترام والسمعة الأكademie للتخصص يمكن اكتسابهما عبر هيمنة "باراديم" واحد إلى قناعة مختلفة ترى أن هذه السمعة تكتسب عبر الحصول على فهوم متنوعة وثرية عبر التسلیم بقيمة المخرجات العلمية التي ينتجهما كل "باراديم" على حده.³⁸⁸

تمثيل بياني رقم 08: يوضح أطراف النقاش النظري الثالث

مع التتبّع إلى الاتصال عبر المنظوراتي

بين الواقعية والنيوليبرالية خلال الثمانينيات



Ole Waever, 'The Rise and Fall of Inter-paradigm Debate', in Richard Little and Michael Smith 'Perspectives on world politics' (UK: Routledge, 2006), p. 436. المصدر:

لكن المشكلة التي تطرح نفسها بحدة في ظل هذا المشهد: ما جدوى إطلاق عبارة نقاش على وضع اتصالي لا يظهر أية أنماط تعاورية، وكل من المقاربات السابقة التي وصفت بالباراديمات من طرف فلاسفة العلم في ذلك الوقت تمتلك منطقاً خاصاً بها لإنتاج الحقيقة *truth*, ونظرًا لتبادر الأنماط المنطقية التي ترتكز عليها كل وحدة على حده فإنه لا يمكن استيمولوجيا القيام بمراجعة النسق الخاص بأي منها من قبل الأنماط الأخرى لأننا هنا أصبحنا بحاجة إلى نسق أعلى، لأن الرموز التي تم تطويرها في المجموعات العلمية لهذه "الباراديمات" الثلاث لا تستطيع تأكيد أو دحض مخرجات معرفية غير تلك التي طورتها فهي ذاتية الإحالة *self-referent*.³⁸⁹ هذه المشكلة استمرت إلى غاية بدء النقاش الرابع ولم يتم التعامل معها بجدية إلا بفضل سيرينيطيقا

³⁸⁸ Ole Waever, op cit., p. 236.

³⁸⁹ Ole Waever, op cit., p. 236.

المستوى الثاني second order cybernetics لـ"فون فورستر"، والتي سيتم شرحها لدى التعرض لمخارج النقاش الرابع في الفصل الأخير من الأطروحة.

وإذ كان احترام التنوع النظري في حد ذاته مشكلة حسب الفهم الكلاسيكي فإنه يعتبر من زاوية معينة إحدى المكاسب المهمة بالنسبة للتخصص، حيث وبغض النظر عن تنوع الاستبصارات التي يمكن أن نحظى بها عندما تكون لدينا مقاربات عدّة، تمتلك كل منها جوانب قوة معينة، فإن تعقد المشكلات الدولية أكّد بما لا يدع مجالاً للشك أن التنوع فضيلة انتفع بها خلال النقاش الرابع، لكن إرساء هذا الاعتقاد يعود إلى السبعينيات وأوائل الثمانينيات أي خلال النقاش النظري الثالث. إذ أن ميزة هذا النقاش هي النزعة المحافظة والتحول الباراديمي الأساسي الذي أرسّيت أساسه هو التخلّي عن المنطق الثوري وعن منطق التحوّلات الباراديمية نفسه لصالح الفهم اللالاكتوشّي أي ببرامج بحثية بعضها تقدمي progressive والآخر تقهيري regressive.³⁹⁰

يعتبر تبني مصطلح النقاش متعدد المنظورات ذاته مظلاً، لكنه ساعد على إضفاء المسحة المحافظة conservative لأنّه بذلك حال دون سيادة أسلوب النقد المتبادل بين المقاربات الثلاث، فقد أوجد أسواراً معرفية حصنَت هذه المقاربات ضد النقد عبر رفع شعار: لا تنتقدني، فنحن لا نتحدث لغة واحدة. إذن فأهم إنجاز للنقاش النظري الثالث هو شرعننة القليل البحثي المبني على برامج بحثية مجبرة على تكيف افتراضاتها في كل مرة يبرز فيها خلل تصوري. لكن مواطن الخلل هذه تكشف عنها عادة أدبيات فلسفة العلوم، إذن فقد أصبح للنقاش أيضاً محتوى مختلف، وتم إيجاد المستوى الثاني لللاحظة وشرعنته فعلياً قبل أن يتم التّنظير له تصورياً باعتباره أحد مخارج النقاش الرابع.³⁹¹

إن فضل النقاش النظري الثالث على الرابع لا يتوقف عند هذا الحد، بل إحدى أهم إنجازاته متمثلة في النقاش الداخلي [أي ضمن الباراديم العقلاني نفسه] بين النيوواقعية والنيوليبرالية والذي أفضى إلى التوليفة نيوي-نيو ساهم في تقوية معسكر العقلانيين الذين أصبحوا يبحثون عن خصم نظري جديد وضعيف. ومعروف أن التوجه التركيبـي نيويـنيو كان بمثابة تحول معرفي غير متوقع، إذ أصبح تعدديو السبعينيات (الليبراليين) في معظمهم نيوليبراليين مؤسّساتيين مع حدوث التحول نيويـنيو، وكانوا بذلك قد اقتربوا من النيوـاقعيين، فكلاهما يسلم بالفوضى مع فارق أن النيوـاقعيين يعتقدون بإمكان مساهمة المؤسسات الدولية في التخفيف من جدة الفوضى، كما أن كلاهما يسلم بوجود ظاهرة الركبة المجانية free-riding pattern والتي تتلخص في وجود دول تستفيد من مزايا التعاون دون المساهمة في تكاليف إرئائه.³⁹²

ويرى "جوزيف قريكو" Joseph Grieco أن التمايز الرئيسي بين المقاربتين النيوـاقعية والنيوليبرالية هو في نظرتهما لمقاصد الدول من وراء التفاعل غير النزاعي، فمن

³⁹⁰ Ibid., p. 237.

³⁹¹ Ole Waever, op cit., p. 236.

³⁹² كريس براون، ترجمة: مركز الخليج للأبحاث، "فهم العلاقات الدولية" (دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004)، ص. 56.

المنظور النيوواقعي فإن الدول تسعى نحو تحقيق مكاسب نسبية أي أنها تهتم بما تحصل عليه الدول الأخرى،³⁹³ وبتعبير أكثر تبسيطًا فإنه لا يهم كثيرا الحصول على مكاسب كبيرة طالما أن دولا أخرى منافسة قد تحصل على مكاسب أكبر تهدد وضعها التنافي إن عسكريا أو اقتصاديا. أما منمنظور النيوواقعي فإن إدراك الدول بأنها في وضع لا يدعو للارتياح بوجود تحديات عدة، يجعلها تتلافي مقارنة مكاسبها مع الآخرين، لأن إرساء التعاون سيحقق لها مستوى معين من المكاسب، وذلك في حد ذاته كاف. وهكذا فقد اختلفت مكونات التوليفة نيو-نيو في بعض التفاصيل لكنهما توافقا بشأن عقلانية مساعي الدولة في بيئتها المتسمة بغياب التراتبية.

وبحسب "أول ويفر" فإن هذه التوليفة العقلانية يمكنهم من الهيمنة على الحق عابر مؤامرة يستبعد فيها خصمهم العقلاني التقليدي البنوية (النيوماركسية). ففي مداخلته الافتتاحية كرئيس لجمعية الدراسات الدولية، سنة 1988 قال "روبرت كيوهان" أن المشهد الأكاديمي حاليا يهيمن عليه برنامجين للبحث: برنامج البحث العقلاني *rationalist* الذي يتضمن التوليفة نيو-نيو، مقابل برنامج البحث التأملي *reflectivist* والذي يتضمن مقاربات مستلهمة من: الاتجاه ما بعد البنوي *poststructuralism* الفرنسي، و"الهيرمونيتيقا" *hermeneutics* و"الفيقنشاينية" [نسبة إلى Wittgenstein] الألمانيتين فضلا إلى البنائية الاجتماعية.³⁹⁴

هذا التوصيف الذي قدمه "كيوهان" للمشهد الأكاديمي، والذي حظي باستحسان التقليد الباحثي المهيمن ومنظريه، ساهم في إعادة ترتيب الكتب الدراسية في التخصص لجعل "ما بعد الحداثة" عموما بمثابة التحدى الباراديمي الحقيقي للعقلانية. ونظرا لأن المقاربات التأمليه التي تحدث عنها "كيوهان" لم تكن أهلا لمنافسة التقليد الباحثي العقلاني آنذاك فقد استشف النيوماركسيون من هذه الخطوة أنها مؤامرة للهيمنة على الحق عبر تقديمهم كميدان خصومة نظرية مع مقاربات ضعيفة بينما يغض الطرف عن النيوماركسية، لأنها تتنبئ بدورها ابستيمولوجيا وضعية، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن معايير النشر في الدوريات الأكاديمية تطغى عليها النزعة الوضعية فسوف يبدو الطرح النيوماركسي مؤسسا نسبيا.³⁹⁵

لكن وحتى إذا سلمنا بوجهة النظر هذه، فإن التحدى الباراديمي المتأتي من "التأمليه" لم يكن هينا في النهاية، لأنه ساهم في صقل "الباراديم البنائي" بداية التسعينيات مستقida من ثلاثة عوامل أساسية:³⁹⁶ أولى هذه العوامل، مغالاة التوليفة نيو-نيو في نزعتها العلمية بما أبعدها عن الاهتمام بالقضايا الجوهرية للحركة السياسية مع العلم أن الواقعية الكلاسيكية جنبا إلى جنب مع الليبرالية الكلاسيكية كانتا تتفقان هذه الحركة بشكل أفضل بتوظيف أدواتهما التحليلية التقليدية. ومن جانب آخر، فإن التأمليه وجدت نفسها رهينة النزعة التقويضية التي لا تقدم أية بدائل عملية نظرية أو ممارستية؛ ثانية العوامل التي أفادت البنائية تمثلت في صعوبة إرساء قنوات اتصال

³⁹³ كريس براون، المرجع السابق، ص. 57.

³⁹⁴ Ole Waever, op cit., p. 240.

³⁹⁵ Ole Waever, op cit., p. 439.

³⁹⁶ لفهم أفضل للميزة المقارنة للتحليل البنائي في العلاقات الدولية انظر:

Ted Hopf, 'The Promise of Constructivism in International Relations Theory', in Andrew Linklater, 'International Relations: Critical Concepts in Political Science' (UK Taylor & Francis, 2000), p. 1756.

منظوراتي بين العقلانية والتأملية بسبب انغلاقهما في ابستيمولوجيا ذات نسق معرفي متفرد أعاد طرح مشكلة الالمقاييسة من جديد في نظرية العلاقات الدولية. لكن العامل الأكثر أهمية ربما له علاقة بالتطورات الإمبريقية التي لم يسايرها أي من المنظورين السابقين: نهاية الحرب الباردة. وبالنسبة لهذه النقطة بالذات، وجدت العقلانية في مصيدة التبريرية للوضع القائم بحيث أخفقت في في التنبؤ لهذا الحدث البارز، أما التأملية فقد كانت غارقة في مطارحات مفاهيمية مثيرة للاهتمام لكن لم تصل بعد إلى درجة تزويدنا بنماذج عملية تحاكي الواقع وتستشرف له.

إذن فقد أصبح الحقل مرة أخرى في تضارب نظري يجمع ثلاثة بارادایمات [بكل ما تحمله الكلمة "بارادایم" من معنى] وذلك بعد أن بدا المشهد الأكاديمي مختزلاً في العقلانية والتأملية.

خاتمة

خاتمة

ساهمت الفصول الثلاثة من هذه الأطروحة في تمحیص عدد من الافتراضات الأولية والتصورات التي عادة ما كانت تلازم الحديث عن النقاشات النظرية، بما في ذلك تلك المتعلقة بنفي وجود نقاشات من الأساس في حقل العلاقات الدولية. إن محاولة إسقاط الطرحوت المتعلقة برصد وتفسير التحولات المعرفية على تطور الحقل المعرفي لعلم السياسة والعلاقات الدولية، ساعد على التوصل إلى نتيجة مفادها أن كلا من "التحولات الباراديمية الكونية" و"البرامج البحثية اللاكتوشية" و"الوثبات المعرفية لـ فایرآبنت" إنما تبصر باحثي التخصص جزئياً فقط، ذلك أن كلا منها يتمتع بقوة تفسيرية لدى الحديث عن مراحل معينة من تطور هذا الحقل المعرفي.

وبذلك تمت الإشارة إلى أنه، وخلافاً لكل التحديات الباراديمية التي واجهها التقليد البحثي السائد إن في علم السياسة أو في "العلاقات الدولية" IR، فوحدتها المقاربات السلوكية ذات النزعة العلمية المتطرفة شكلت تحولاً ثورياً باراديمياً بالمفهوم "الكوني" في علم السياسة، أما في "العلاقات الدولية" فإن الأمر بدا مختلفاً تماماً، حيث ظل التناقض رهن "الباراديم الوضعي" وبين برامج بحثية بالمفهوم "اللاكتوشي"، عدا أن الفوضى المنهجية "الخلافة"، حسب طرح "فایرآبنت"، مكنت من بروز تحديات باراديمية حقيقة للوضعية-العقلانية خلال النقاش النظري الرابع.

لكن الصيغة التي تم عبرها تأطير هذا النقاش كانت مختلفة، سمنتها الأساسية التملص من الثانية التي انبنت عليها طروحات "كون" و"لاكتوش" فضلاً عن "فایرآبنت". حيث أنه ومع وجود اختلافات بين نظرة كل منهم لمسألة التحول المعرفي (بين من يرى أن "النظرية الكبرى" القديمة يتم احتوايتها من طرف الجديدة وبين من يصر على القطعية المعرفية الجزئية أو الكلية)، إلا

أنهم يتفقون على قضية واحدة على الأقل، وهي تعاقب نظريتين في كل الحالات، لذا كان التملص من هذا الإطار الثنائي في حد ذاته تطوراً استثنائياً.

وقد ساهم المبحث الثاني من الفصل الأول في إلقاء الضوء على بعض ارتدادات ذلك على المستوى التئيري، فالقطيعة المعرفية الصرفة بمفهوم "باشلار"، بدا أنها غير مؤسسة نظراً لوجود اتصال منظوراتي ونقاش داخلي بين المقاربات المتنمية للتقليد البجبي السائد العقلاني وأو تلك المتنمية لتقاليد بحثية بديلة أي التأملية والبنائية، حيث برزت القوة التئيرية لكل منها على حده في جوانب معينة. إلا أن طرح "فيتغنشتاين" أثبت صحته جزئياً من حيث أن كل "بارادايم" كان يعتمد على لعبة لغوية language games متميزة وقام استبصارات حصرية لدى اختباره في مسألة "مؤسسة التفاعلات الدولية". ومع ذلك، يبدو غريباً أن هذه اللعبة اللغوية على صعيد كل "بارادايم" لم تغلق منافذ النقاش، بل أوجدت مجالات تواصل منظوراتي أمدت التخصص بمخرجات علمية متميزة: سيما قضايا مثل العلاقة بين المصلحة/الهوية/الخطاب.

في الجزء الأخير من البحث تم تبيان كيف أن "النقاش النظري الخامس" -المرتقب- في نظرية العلاقات الدولية، والذي يستند إلى علم "التعقد" بكل تشعباته، لا يبدو أنه سينطلق من بروز تحديات "بارادايمية" جديدة لتلك السائدة، بقدر تعقه بصيغة تمكن من تجاوز البنيان التصورى الحالى لـ "البارادايم"، والذي يعتمد على اللامقايسة الناجمة عن التمسك بادعاءات امتلاك الحقيقة وقياس الصحة والصلاحية وفق معايير انبعثت من صميم "البارادايم"، إلى صيغة جديدة للاتصال عبر المنظوراتي (أو البارادايمي) تقارب للمسعى المعرفي باعتباره مشروعًا يهتم أساساً ببناء نظريات متماسكة لا نظريات عامة. سيساعد ذلك في صياغة برامج بحثية تقدمية، ومن جانب آخر فإن التعايش "البارادايمي" في إطار العلم ما بعد الكوني سيساهم في تفعيل الاتصال عبر المنظوراتي بما يساعد على التخلص من الدوغماء المتأصلة في بعض النزعات "العلمية" السائدة وزيادة فاعلية الملاحظة من الدرجة الثانية بفضل تدليل عقبة "الأكسيلوجيا" بما:

- يزيد حدة التناقض البارادايمي والتناقض بين البرامج البحثية ضمن "البارادايم" الواحد.
- يقص أعمار مراحل الأزمات المعرفية كما يطرحها "كون".
- تقسيم العمل labour division بين المقاربات النظرية وحل معضلة "التلينوميا" عبر المخرج "الفرونيزي" أي البحث عن التوافق الممكنة بين النظرية والممارسة.

إن التوليفة التحليلية المتكونة من عدد من النظريات المتماسكة، تحل معضلة "أكسيلوجية" رئيسية عبر التخلص من الوصاية الوضعية على مسألة حيوية جداً في "فلسفة علم العلاقات الدولية": تحديد مضمون العلم نفسه. وذلك عبر القبول بوجود بنى معرفية ثلاثة هي: "العقلانية" و"البنائية" و"التأملية"، لكل منها تصورها الخاص للطريقة التي يتم من خلالها التثبت من مزاعم "الصحة" و"الصلاحية".

وأخيراً، فإنه من المهم جداً الإشارة إلى أن هذه الأطروحة لا تصبو إلى الإجابة عن التساؤلات التي تعتبر من صميم النقاش الرابع بين المقاربات النظرية للعلاقات الدولية، بل تهدف إلى فتح آفاق بحث أوسع سيما عبر اقتراح مخارج تصورية من قبيل "الفرونيزيا" و"سيبرنيطيقا"

المستوى الثاني للملاحظة"، لذا سيكون من المناسب إجراء بحوث مستقبلية حول تطبيقات "العلم ما بعد الكوني" في قضايا تتسم بـ"اللاخطية" non-linearity وـ"الشاوش" أو "الكاوس" chaos، والتي أصبحت الأحداث الدولية تصط冤غ بها.

قائمة المراجع

قائمة المراجع:

a. Books in arabic

أ. الكتب باللغة العربية:

1. بوبير، كارل. ترجمة: أحمد مستجير. "بحثا عن عالم أفضل". مصر: سلسلة أعمال فكرية، 2001.
2. - ترجمة: ماهر عبد القادر محمد. "منطق الكشف العلمي". بيروت: دار النهضة العربية، 1986.
3. براون، كرييس. ترجمة: مركز الخليج للأبحاث. "فهم العلاقات الدولية". دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004.
4. بيليس، جون و ستيف سميث. ترجمة: مركز الخليج للأبحاث. "علومة السياسة العالمية". ط. 1. دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004.
5. الجابري، محمد عابد. "مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي". ط. 6. لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006.
6. الخولي، يمنى طريف. "فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد والآفاق المستقبلية". الكويت: عالم المعرفة، 2000.
7. ستروك، جون. محمد عصافور، مترجم. "البنيوية وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى دريدا". الكويت: عالم المعرفة، 1996.
8. فايرأبنت، باول. ترجمة: محمد أحمد السيد. "ثلاث حماورات في المعرفة". الإسكندرية: منشأة المعارف، 1997.
9. كون، توماس. ترجمة: شوقي جلال. "بنية الثورات العلمية". الكويت: عالم المعرفة، 1992.

10. ناي، جوزيف وأخرون. ترجمة: محمد شريف الطرح. "الحكم في عالم يتجه نحو العولمة". الرياض: مكتبة العقيقان، 2002.

b. كتب وفصوص في كتب باللغة الإنجليزية:

1. Adcock, Robert. 'Interpreting Behavioralism', in Robert Adcock et al., eds. '**Modern Political Science: Anglo-American Exchanges Since 1880**'. USA: Princeton University Press, 2007.
2. Archer, Margaret S. '**Structure, agency and the internal conversation**'. UK: Cambridge University Press, 2003.
3. Banks, Michael 'The Inter-Paradigm Debate'. in M. Light & A.J.R. Groom. eds. '**International Relations. A Handbook of current theory**'. UK: Frances Pinter, 1985.
4. Bigo, Didier. 'The Möbius Ribbon of Internal and External Securities', in Mathias Albert et al. eds. '**Identities, Borders, Orders: Rethinking International Relations Theory**'. USA: University of Minnesota Press, 2001.
5. Blaikie, Norman. '**Approaches to Social Enquiry: Advancing Knowledge**'. USA: Polity, 2007.
6. Boston, David. 'The Political Science in the United States: Past and Present'. in David Easton, et al. eds. '**The Development of Political Science: A Comparative Survey**'. UK: Routledge, 1991.
7. Booth, Ken, Michael Cox and Timothy Dunne. '**The eighty years' crisis: international relations 1919-1999**'. UK: Cambridge University Press, 1998.
8. Brown, Harold I. '**Rationality**'. UK: Routledge, 1990.
9. Burchill Scott et al. '**Theories of International Relations**'. 3rd ed. UK: Palgrave Macmillan, 2005.
10. Cohen, Floris. '**The Scientific Revolution: A Historiographical Inquiry**'. University of Chicago: Press, 1994.
11. Elman, Colin and Miriam Fendius Elman. 'Appraising Progress in International Relations Theory: An Introduction'. in Colin Elman and

- Miriam Fendius Elman. eds. '**Progres in International Relations Theory**'. USA: Mit Press, 2003.
12. Foucault, Michel. '**Nirtzsche, Généalogie, Histoire**'. Paris: Editions la Découverte, 1971.
 13. Friedrichs, Jörg. 'The meaning of new medievalism: An exercise in theoretical reconstruction'. in Jörg Friedrichs '**European Approaches to International Relations Theory: A House with Many Mansions**'. London: Routledge, 2004.
 14. Geyer, Felix R. and Johannes Van der Zouwen, '**Sociocybernetics: Complexity, Autopoiesis, and Observation of Social Systems**'. UK: Greenwood Publishing Group, 2001.
 15. Giere, Ronald N. '**Science without Laws**'. USA: University of Chicago Press, 1999.
 16. Gillies, Donald. 'Lakatos' Criticisms of Popper'. in George Kampis, et al. eds. '**Appraising Lakatos: mathematics, methodology, and the man**'. US: Springer, 2002.
 17. Griffiths, Martin. 'Worldviews and IR Theory: Conquest or Coexistence'. in Martin Griffiths. ed. '**International Relations Theory for the Twenty First Century: An Introduction**'. UK: Routledge, 2007.
 18. Harisson, Neil E. 'Complex Systems and the Practice of World Politics'. in Neil E. Harisson. ed. '**Complexity in World Politics: Concepts and Methods of A New Paradigm**'. USA: State University of New York Press, 2006.
 19. – ed. '**Complexity in World Politics: Concepts and Methods of A New Paradigm**'. NY: State University of New York Press, 2006.
 20. – 'Thinking About The World We Make'. in Neil E. Harisson. ed. '**Complexity in World Politics: Concepts and Methods of A New Paradigm**'. USA: State University of New York Press, 2006.
 21. Heere, Gerald. '**Die Wellen der Theorie: Eine Empirische Untersuchung über die Grundlegenden Merkmale im System „IB Theorie“**'. Deutschland: Technische Universität Carolo Wilhelmina zu Braunschweig, 2004.

22. Heiskanen, Ilkka. 'On the role of meta-analysis in political science: from legitimization, illusions and sous-realism to transrealism, disillusionism and delegitimation'. in Dag Anckar and Erkki Berndtson. eds. '**Political Science Between the Past and the Future**'. Jyväskylä: Finnish Political Science Association, 1988.
23. Holsti, Karl J. '**The Dividing Discipline. Hegemony and Diversity in International Theory**'. London: Allen and Unwin, 1987.
24. Hopf, Ted. 'The Promise of Constructivism in International Relations Theory'. in Andrew Linklater. '**International Relations: Critical Concepts in Political Science**'. UK: Taylor & Francis, 2000.
25. James, Patrick. '**International Relations and Scientific Progress: Structural Realism Reconsidered**'. USA: Ohio State University Press, 2002.
26. Jones, Charles A. '**E.H. Carr and international relations: a duty to lie**'. UK: Cambridge University Press, 1998.
27. Kurki, Milja and Colin Wight. 'International Relations and Social Science'. in Timothy Dunne, et al. eds. '**International Relations Theories: Discipline and Diversity**'. UK: Oxford University Press, 2007.
28. Laitin, David D. 'The Political Science Discipline'. in Edward D. Mansfield. '**The Evolution of Political Knowledge: Theory and Inquiry in American Politics**'. USA: Ohio State University Press, 2003.
29. Lakatos, Imre and A. Musgrave. eds. '**Criticism and the Growth of Knowledge**'. Cambridge: Cambridge University Press, 1970.
30. Leydesdorff, Moet. '**A Sociological Theory of Communication: The Self-organization of the Knowledge-based Society**'. USA: Universal-Publishers, 2001.
31. Lingua Franca editors. '**The Sokal Hoax: The Sham That Shook the Academy**'. USA: University of Nebraska Press, 2000.
32. Losee, John. '**Theories of Scientific Progress: An Introduction**'. UK: Routledge, Taylor and Francis Group, 2004.

33. MacIntyre, Alasdair. 'First Principles, Final Ends, and Contemporary Philosophical Issues'. in Alasdair MacIntyre. '**The Tasks of Philosophy: Selected Essays**'. Vol. I. UK: Cambridge University Press, 2006.
34. Mangroor, Ray and Ramberg Bennett. '**Globalism versus Realism: International Relations Third Debate**
35. Mathias, Albert and Lena Hilkheimer. eds. '**Observing International Relations: Niklas Luhmann and World Politics**'. London: Routledge, 2004.
36. Maturana, Humberto R. Francisco J. Varela. '**Autopoiesis and cognition: the realization of the living**'. USA: Springer, 1980.
37. Monroe, Renwick. ed. '**Perestroika: The Raucous Rebellion in Political Science**'. New Haven: Yale University Press, 2005.
38. Morgenthau, Hans J. '**Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace**'. 5th revised ed. USA: Alfred A. Knopf, 1978.
39. Nagel, Ernest. '**The Structure of Science**'. New York: Harcourt, Brace & World, 1987.
40. Neufeld, Mark A. '**Restructuring of International Relations Theory**'. UK: Cambridge University Press, 1995.
41. Oakeshott, Michael. '**On Human Conduct**'. UK: Oxford University Press, 1990.
42. Pushala, Donald J. 'Woe to the Orphans of the Scientific Revolution'. in Robert L. Rothstein and William T. R. Fox. eds. '**The Evolution of Theory in International Relations: Essay in Honor of William T. R. Fox**'. USA: University of South Carolina Press, 1992.
43. Reinalda, Bob and Bertjan Verbeek. '**Patterns of Decision Making within International Organization**' (UK: Routledge, 2004).
44. Rengger, Nicholas J. '**International Relations, Political Theory, and the Problem of Order: Beyond International Relations Theory**'. UK: Routledge, 2000.

45. Ritzer, George. ed. '**Blackwell Companion to Major Contemporary Social Theorists**'. UK: Blackwell Publishing, 2003.
46. Roseneau, James. 'Globalization and Governance: Bleak Prospects for Sustainability', in Alfred Pfäller and Marika Lerch. '**Challenges of Globalization**'. Transaction Publishers, 2005.
47. Salomon, Jean-Jacques. '**Survivre à la Science : Une Certaine Idée du futur**'. Paris: Albin Michel, 1999.
48. Schmidt, Brian. 'Epilogue', in Knud Erik Jørgensen and Tonny Brems Knudsen. eds. '**International Relations in Europe Traditions, Perspectives and Destinations**'. UK: Routledge, 2006.
49. Schram, Sanford F. and Brian Caterino. eds. '**Making Political Science Matter: Debating Knowledge, Research, and Method**'. New York: New York University Press, 2006.
50. Simmons Beth A. and Lisa L. Martin, 'International Organizations and Institutions', in Walter Carlsnaes et al. eds. '**Handbook of International Relations**'. UK: Sage, 2002.
51. Smith, Steve and Patricia Owens. 'Alternative Approaches to International theory'. in John Baylis and Steve Smith. eds. '**The Globalization of World Politics: An Introduction to International Relations**'. 2nd ed. UK: Oxford University Press, 2001.
52. – '**International Theory: Positivism and Beyond**'. UK: Cambridge University Press, 1996.
53. – 'The Self-Images of a Discipline', in Ken Booth and Steve Smith, eds., '**International Relations Theory Today**'. US: State University of New York Press, 1995.
54. Taylor, Mark C. '**The Moment of Complexity: Emerging Network Culture**'. USA: University of Chicago Press, 2003.
55. van de Vijver, Gertrudis. '**New Perspectives on Cybernetics: Self-organization, Autonomy, and Connectionism**'. USA: Springer, 1992.
56. Vasquez, John. 'Kuhn versus Lakatos: The Case for Multiple Frames in Appraising International Relations Theory'. in Colin Elman and

- Miriam Fendius Elman. eds. '**Progres in International Relations Theory**'. USA: Mit Press, 2003.
57. – ‘The Post-Positivist Debate’, in Ken Booth and Steve Smith, eds., **International Relations Theory Today** (US: State University of New York Press, 1995).
58. Von Foerster, Heinz. **Understanding Understanding: Essays on Cybernetics and Cognition**. USA: Springer, 2002.
59. Wæver, Ole. ‘Figures of International Thought: Introducing Persons instead of Paradigms’. in Iver B. Neumann and Ole Wæver, ‘**The future of international relations: masters in the making?**’. UK: Routledge, 1997.
60. Wæver, Ole. ‘The Rise and Fall of Inter-paradigm Debate’. in Richard Little and Michael Smith ‘**Perspectives on world politics**’. UK: Routledge, 2006.
61. Wight, Colin. **‘Agents, Structures and International Relations: Politics as Ontology’**. UK: Cambridge University Press, 2006.
62. – ‘Philosophy of Social Science and International Relations’. in Walter Carlsnaes, et al. eds. '**Handbook of International Relations**'. UK: SAGE Publications, 2002.
63. Williams, Michael Charles. **‘The Realist Tradition and the Limits of International Relations’**. UK: Cambridge University Press, 2005.
64. Williams, Phil. **‘From the New Middle Ages to A New Dark Age: The Decline of the State and US Strategy’**. US: Strategic Studies Institute, 2008.
65. Wright, Larry. **‘Teleological Explanations: An Etiological Analysis of Goals and Functions’**. CA: University of California Press, 1976.

1. Almond, Gabriel Abraham. 'Separate Tables: Schools and Sects in Political Science'. **PS** 21 (04) 1990. pp. 828-42.
2. Armitage, David. 'The Fifty Years' Rift: Intellectual History and International Relations'. **Modern Intellectual Studies** 1 (1) 2004. pp. 97-109.
3. Ashworth, Lucian M. 'Did the Realist-Idealist Great Debate Really Happen ? A Revisionist History of International Relations', **International Relations** 16 (01) 2002. pp. 33-51.
4. Becker, George. 'The Merton Thesis: Oetinger and German Pietism, a Significant Negative Case'. **Sociological Forum** 7 (04) 1992. pp. 641-660.
5. Bieler, Andreas and Adam David Morton, 'The Gordian Knot of Agency—Structure in International Relations: A Neo-Gramscian Perspective'. **European Journal of International Relations** 7 (01) 2001. pp. 05-35.
6. Dryzek, John S. 'Revolutions Without Enemies: Key Transformations in Political Science'. **American Political Science Review** 100 (04) 2006. pp. 487-492.
7. Emilian, Kavalski. 'The fifth debate and the emergence of complex international relations theory: notes on the application of complexity theory to the study of international life'. **Cambridge Review of International Affairs** 20 (03) 2007. pp. 435-454.
8. Esposito, Elena. 'From Self-reference to Autology'. **Social Science Information** (Special Issue: Autopoietic Systems Theory and the System of Science) 1995. Pp. 269-281.
9. Flyvbjerg, Bent. 'Social Science That Matters'. **Foresight Europe** (Vol. 1) 2006. pp. 38-42.
10. Haslam, Jonathan. 'No Virtue Like Necessity: Realist Thought in International Relations since Machiavelli'. **Review of International Studies** (13) 1987. pp. 14-32.
11. Hoffman, Mark. 'Critical Theory and the Inter-Paradigm debate'. **Millennium: Journal of International Studies** 16 (2) 1987. pp. 231-250.

12. Kaplan, Robert. 'The Coming Anarchy'. **The Atlantic Monthly Review** (February) 1994. pp. 44-76.
13. Kratochwil, Friedrich. 'History, Action and Identity: Revisiting the Second' Great Debate and Assessing its Importance for Social Theory'. **European Journal of International Relations** 12 (01) 2006. pp. 05-29.
14. Kurth, James. 'Inside the Cave: The Banality of IR Studies'. **The National Interest** (53) 1998. pp. 29-40.
15. Lapid, Yosef. 'The Third Debate'. **International Studies Quarterly** (33) 1989. pp. 235-254.
16. Martinson, Brian C. et al. 'Scientists Behaving Badly'. **Nature** (Vol. 435) 2005. pp. 737-738.
17. Maton, Karl. 'Reflexivity, Rationalism & Research: Pierre Bourdieu and Epistemic Conditions of Social Scientific Knowledge'. **Space and Culture** 32 (06) 2003. pp. 52-65.
18. Mayr, Ernst. 'The Idea of Teleology'. **Journal of the History of Ideas** (Vol. 53) 1992. pp. 117-135.
19. Monastersky, Richard. 'French TV Stars Rock the World of Theoretical Physics'. **The Chronicle of Higher Education** (November) 2002. pp. 17-25.
20. Morgan, David L. 'Paradigms Lost and Pragmatism Regained: Methodological Implications of Combining Qualitative and Quantitative Methods' 48 (01) 2007. pp. 48-76.
21. Navon, Emmanuel. 'The 'Third Debate' Revisited'. **Review of International Studies** 27 (04) 2001. pp. 611-625.
22. NPS Caucus, 'History of the Caucus for a New Political Science'. **New Political Science** 29 (04) 2007. pp. 501-507.
23. Quirk, Joel and Darshan Vigneswaran, 'The Construction of an Edifice: The Story of a First Great Debate'. **Review of International Studies** (Vol. 31) 2005. pp. 59-74.
24. Salvaggio, Salvino A. 'Au commencement était le trait : Distinctions, cercles et autres miroirs dans la théorie sociologique contemporaine'.

- Social Science Information** (Special Issue: Autopoietic Systems Theory and the System of Science) 1995. pp. 02-11.
25. Shapin, Steven. ‘Understanding the Merton Thesis’. **Isis** 79 (04) 1988. pp. 594—605.
 26. Stephano, Guzzini. ‘The Enduring Dilemmas of Realism in International Relations’. **European Journal of International Relations** 10 (04) 2004. pp. 95-136.
 27. Taureck, Rita. ‘Securitization theory and securitization studies’, **Journal of International Studies and Development** 9 (01) 2006. pp. 53-61.
 28. Walker, Robert B. J. and Didier Bigo. ‘Political Sociology and the Problem of the International’. **Millennium Journal of International relations** 35 (3) 2007. pp. 725-739.
 29. Walt, Stephen. ‘International Relations : One World, Many Theories’. **Foreign Policy** (Spring) 1988. pp. 29-46.
 30. Walther, Bo Kampmann. ‘Big Theory – Strong Theory: The Ontological Ghost of Post-Ontological Epistemology’. **Cybernetics and Human Knowing** 11 (03) 2005. pp. 01-25.
 31. Wight, Colin. ‘Incommensurability and Cross-Paradigm Communication in International Relations Theory’. **Millennium Journal of International Relations** 25, 1996. pp. 291-319.
 32. Vieira, Marco Antonio. ‘The Securitization of the HIV/AIDS Epidemic as A Norm’. **Brazilian Political Science Review** 1 (2) 2007. pp. 137-182.
 33. Wilson, Peter. ‘The Myth of the “First Great Debate”’. **Review of International Studies** (Vol. 24) 1998. pp. 01-15.

b. Web Links

د. وصلات إنترنت:

1. Engle, Eric. ‘**Ontology, Epistemology and Axiology: Bases for a Comprehensive Theory of Law**’. Social Science Research Network. Retrieved on: 16/08/2008.

<http://papers.ssrn.com/sol3/Delivery.cfm/SSRN_ID1268528_code879868.pdf?abstractid=1268528&mirid=1>

2. Hendershot, Cris. '**Beyond Dichotomies: A Reflexive Engagement of Critical Reflexivity**'. YCISS Working Paper Number 28, May 2004. Retrieved on : 15/02/2008.
<www.yorku.ca/yciss/publications/documents/WP28-Hendershot.pdf>
3. Kaipi, Niilo. '**Rationality and Reflexivity in the EU: Some Ontological and Epistemological Considerations**'. Paris: CNRS / GSPE working paper, 2009. Retrieved on : 10/08/2008.
<prisme.u-strasbg.fr/workingpapers/WPKauppi.pdf>
4. Rose, John. '**Current Topics in Cybernetics and Systems**'. Proceedings of the Fourth International Congress of Cybernetics & Systems, 21-25 August, 1978, Amsterdam, Netherlands: 1978. Retrieved on: 08/01/2009.
<www.emeraldinsight.com/Insight/html/Output/Published/EmeraIdFullTextArticle/Pdf/0670290504.pdf>
5. Waever, Ole. '**Prolegomena to a Posthumous Textbook : How Should we teach' (IR?) Theory in a Post-international Age ?**'. A paper prepared for ECPR 5th Pan-European International Relations Conference, The Hague september 9-11 2004.
<<http://listserv.cddc.vt.edu/pipermail/interpretationandmethods/2006-August/000507.html>>

ملحق

:1 الملحق

جدائل تلخيصية لأهم المقاربات النظرية

المنضوية في النقاشات الأربع

- المقاصد، والافتراضات والمواضيع الأساسية
- التصورات المفتاحية،
- والقضايا التي التزمت إزائها الصمت وهو ما يميزها على الصعيد الباراديمي،
- والأعمال النظرية المؤسسة للمقاربة.

المصدر:

Colin Hay (ed.) Political Analysis: Contemporary Controversies (UK: Palgrave, 2002). pp. 08-27.

الواقعية:

مقاصدها وإسهاماتها:

تم حقن جرارات من الواقعية في العلاقات الدولية خلال ثلثينات القرن العشرين بعد أن بُرِزَتْ أوهام المثالية.

ترى الواقعية بأن الطبيعة الإنسانية دموية في جوهرها وهي تسعى لتفكيك أثر هذه النزعة في سلوك الإنسان على مستوى العلاقات الدولية.

تهدف الواقعية إلى جعل العلاقات الدولية كعلم يدرس السياسة الدولية يتسم بالصرامة ولا يخضع للانفعالات.

الافتراضات الأساسية:

العلاقات الدولية تحكمها قوانين موضوعية مستمدّة من الطبيعة الإنسانية.

إن سعي الأفراد والدول للحصول على القوة يعتبر بمثابة نزعة راسخة وحتمية، ولذلك فإن ظهور التنافس ومن ثمة النزاع يصبح مزمناً.

الدولة كيان سيد ووحدة تحليل طبيعية في العلاقات الدولية، فالدول لا تعترف بأية سلطة فوقية كما أنها مستقلة تماماً عن الفواعل والبني غير الدولاته.

تعتبر الدولة فاعلاً موحداً يوجه سلوكها المصالح الوطنية، أهم سمة للمصلحة الوطنية هي الموضوعية.

أهم المضامين التي تنتطوي عليها المصلحة الوطنية هما: السعي من أجل البقاء/السعى من أجل تعظيم مستوى الأمن.

هناك فصلٌ تامٌ بين السياسة الوطنية والسياسة الدوليّة على أن هذه الأخيرة تخضع للأولى.

المواضيع الرئيسية:

تنطوي دراسة العلاقات الدوليّة على دراسة التفاعلات بين دولٍ سيدة.

تنتج الفرضي أي غياب التراتبية عن غياب سلطة مركزية على المستوى العالمي تستطيع ضبط سلوكات الدول والتي تحركها المصالح الذاتية والأنسانية.

عادةً تطور الخلافات الطبيعية بين الدول إلى نزاعات، لكن إذا تم تقادي النزاع فلا يجب تفسير ذلك بكون الدول تتمتع بنزعة مساملة، إنما يفسر بكون المساعي العدائية لهذه الدول من أجل تعظيم قوتها وأمنها قد أوجدت توازنًا رديعًا.

من السذاجة التسلّيم بأن التعاون وليس النزاع هو الحالة الطبيعية لسياسة العالمية.

إن تطور العلاقات الدوليّة يخضع لمنطق الدورة والتي تخضع بدورها لعدد من القوانين الأزلية المتأصلة في الطبيعة الإنسانية وفي جوهر الفرد.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

الأمن.

السيادة.

المصلحة الوطنية.

سياسة القوة.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

اهتمام المحدود جداً بدور الفاعل غير الدوليين.

عدم إيلاء أهمية كافية بالمتغير الاقتصادي و بالعمليات الاقتصادية.

استنادها إلى تصور احتزالي للطبيعة الإنسانية وكذلك اعتمادها على افتراضات لا تتمتع بصلاحية أمير يقنة كافية.

النقطة الأخيرة والتي أشر إليها المنظر "ستانلي هوفمان" تتمثل في أن الواقعية أقرب إلى الرؤية التي يمكن من خلالها التأمل في الطريقة التي تصنع بها السياسة الدولية منها إلى نظرية دقيقة ومحكمة، وبالتالي فهي مجرد عقلنة (إضفاء الطبع العقلاني) على الحرب الباردة.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

E. H. Carr	The Twenty Years' Crisis	(1939)
Hans Morgenthau	Politics Among Nations	(1948)

نظريّة الخيار العقلاني:

مقاصدھا و اسھاماتھا:

العمل على جعل علم السياسة يحاكي الصراامة المنهجية والقدرة التنبؤية لعلم الاقتصاد النيو كلاسيكي.

التأسيس لعلم سياسة يقوم على الاستنباط الذي يستند إلى مجموعة من الافتراضات التبصيتية.
إبراز المضامين العقلانية للسلوك السياسي ونمذجتها رياضيا.

الافتراضات الأساسية:

الفرد بصفته فاعلاً يعتبر وحدة التحليل الأساسية التي ينبغي التركيز عليها لفهم العلاقات الدولية. يتسم الفاعل الفرد بعد من الخصائص، فهو عقلاني يسعى بشكل ذرائي بالأساس لتعظيم المنافع التي يجنيها مقارنة بالتكليف.

يمتلك الأفراد جملة من الخيارات المرتبة هرمياً بما يسهل عملية التنبؤ بالختار الذي سيتبناه الفرد في سياق معين.

المواضيع الرئيسية:

في حالات عدّة، تقدم لنا السلوكيات العقلانية للأفراد مجتمعة محصلات غير عقلانية. مسعي تحقيق الرفاه الاجتماعي تعيقه المشكلات الناجمة عن "الفعل الجماعي" وما اصطلاح على تسميته بـ "الركبة المجانية".

التسليم بأن الأفراد إنما يسعون لتحقيق مصلحتهم الخاصة تمنع الوثوق في مسعي "المسؤولين الرسميين" لتحقيق الرفاهية الجماعية (نظرية الخيار العام العقلاني).

يمكن التنبؤ بسلوك الأحزاب السياسية في الديمقراطيات الليبرالية بالرجوع إلى بنية النظام الانتخابي وطبيعة خيارات الناخبين.

تعيق ظاهرة "الركبة المجانية" "الفعل الجماعي" حتى عندما تكون هناك مصلحة جماعية مشتركة، وذلك بسبب غياب حواجز أخرى.

عندما يتيسر التغلب على معضلات "الفعل الجماعي"، يتفسى السلوك الذي يوصف بـ "ال усили وراء الريع" والذي تدعمه مجموعات المصالح القوية، والتي تقوم إضافة لذلك بالضغط من أجل احتكار السلطات ومن أجل التعويضات التي لم تعد فعالة.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

"العقلانية"

مشكلات "الفعل الجماعي"

"الركبة المجانية"

"ال усили وراء الريع"

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

الحديث عن الخيارات باعتبارها معطى ثابت وعدم إيلاء الأهمية الكافية لطريقة تشكيل هذه الخيارات.

الاهتمام المحدود بالسياق المؤسسي الذي يتم فيه تفعيل هذه "العقلانية".

رغم قوتها التنبؤية إلا أنها ظلت سجينه عقلانية معينة هي عقلانية الوضع القائم.

محدودية التصور الذي تمدنا به بخصوص "الذات الإنسانية".

محدودية التصور الذي تمدنا به بخصوص وجود أنماط سلوكية أخرى مثل "الإيثار" أو "السلوك العقلاني الجماعي".

تزودنا بتصور محدود عندما يتعلق الأمر بعملية التغير (رغم إسهامات نظرية المباريات التطورية).

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

Anthony Downs **Economic Theory of Democracy** (1957)

Mancur Olson **The Logic of Collective Action** (1978)

William A. Niskanen **Bureaucracy and Representative Government** (1971)

James Buchanan and **The Calculus of Consent** (1962)

Gordon Tullock

السلوكية:

مقاصدها وإسهاماتها:

استخدام تقييمات إحصائية تتسم بالصرامة المنهجية لتحليل المعطيات حول الظاهرة السياسية. التأسيس لعلم سياسة يقوم على الاستقراء، يكون قادراً على توليد فرضيات تمنع بقدرة تنبؤية، وذلك بالاعتماد على التحليل الكمي للسلوك الإنساني وفق المنطق التراكمي.

الافتراضات الأساسية:

يمكن الحصول على نظريات عامة يستقيها الباحث من ملاحظات إمبريقية محدودة. يظهر السلوك السياسي بمرور الوقت عدداً من الانتظامات التي تسمح بصياغة استقرائية لما يشبه القوانين التي تحكم هذا السلوك.

يمكن الحصول على تحليل محيد وغير منحاز للمعطيات الخام التي يتم تجميعها حول الظواهر السياسية.

لا وجود للفصل بين "الظاهر" و"الواقع".

المواضيع الرئيسية:

لا يمكن السماح لافتراضات نظرية مسبقة أن توجه عملية تحليل المعطيات السياسية.

يجب إخضاع الطرóرات والافتراضات النظرية لعملية اختبار إمبريقي نظمي صارم قبل اعتمادها وفق منطق استنباطي.

يجب استبعاد الأحكام الأخلاقية والهؤول دون تأثيرها في توجيه أو تشويه الحقائق الإمبريقية أو التأثير في مسعى تحليلها.

تأخذ الفرضيات النظرية شكل تنبؤات احتمالية، على أن الانتظامات التي تحصل عليها بالاعتماد على الاختبارات الإمبريقية يمكن تعليمها في سياق زمني أو مكاني مختلفين عن السياق الذي تم فيه جمع المعطيات.

السلطة السياسية يمكن اختزالها في صناعة القرار وبذلك يمكن ترميزها كمياً.

يمكن فهم المحصلات السياسية بنسبة كبيرة عبر تحليل المدخلات السياسية.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

السببية والتلازم.

المضمون الاحصائي

صناعة القرار.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

مشكلة التمييز بين السببية والتلازمية.

قيامها بحصر عملية التحليل في المتغيرات التي يمكن قراءتها بسهولة وترميزها كمياً.

افتراضها المتعلق بانتظام السلوك الإنساني يجعلنا نتسائل إلى أي مدى يمكن للسلوكية أن تقدم لنا تحليلاً ذا معنى حول عملية التغيير الاجتماعي والسياسي.

افتقادها لدور معين للوكلالة.

تعانى من اعتمادها مدلولات ضيقة لمفهومي: السياسة والسلطة.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

Robert A. Dahl	Who Governs?	(1961)
Ted Gurr	Why Men Rebel	(1970)
Gary King,	Designing Social Inquiry	(1994)
Robert O. Keohane and Sidney Verba's		

النيووقيوية:

مقاصدها وإسهاماتها:

إنتاج "معرفة في مجال العلاقات الدولية" وفي إطار "التقليد البحثي الواقعي" تكون أهم سمة لها أنها: أكثر نسقية، وبنوية وأكثر صرامة منهجية.

تحرير التقليد البحثي الواقعي من مسلماته الجوهرانية المتشائمة والمعممة إزاء الطبيعة الإنسانية.
بناء معرفة علمية استباطية حول السياسة الدولية تستند إلى الافتراضات الأكثر تعقيداً وإنما
بالنظام الدولي.

الافتراضات الأساسية:

يمكن تحليل العلاقات الدولية كما لو أن الدول فاعل موحد وعقلاني تسعى لتعظيم منفعتها. إن سياق الفوضى (غياب التراتبية) الذي تجد الدول نفسها مضطرة للعامل معه هو الذي يحدد مضمون العقلانية التي تطبع سلوكيات الدول وموافقها.

المتغير الوحيد الذي يفسر سلوكيات الدول هو بنية النظام الدول نفسه طالما أن الدول عقلانية والمحصلة المثلثة لتحركاتها تظل ثابتة.

تظل الدولة سيدة ووحدة التحليل الطبيعية في العلاقات الدولية.

ومع ذلك فإنه لا يمكن تجاهل الدور الذي تلعبه المؤسسات الدولية في ممارسة دور حوكمة للتفاعلات الدولية سواء على الصعيد السياسي أو الاقتصادي.

تظل الدولة فاعلاً موحداً تحركها الاعتبارات المرتبطة بالمصلحة الوطنية.

ما تسعى لتحقيقه الدول هو المكاسب النسبية وليس المطلقة.

المواضيع الرئيسية:

إن ما يجعل الدول تتبنى نمطاً معيناً من السلوك (النمط الأناني) هو فوضوية النظام الدولي.

وبالتالي، فإن النزاعات تعتبر مآلًا طبيعيًا لا تسمح فيه عدائية الدول كما يفترض الواقعيون التقليديون إنما تنتجه المساعي الحثيثة للدول من أجل تحقيق مصالحها الوطنية في ظل نظام دولي تنتفي التراتبية (الفوضى).

رغم أن النزعة التنافسية والنزاعية للدول متصل في سلوكياتها إلا أنه يمكن تقاديم النزاع في الوضعيات التي يحدث فيها توازن للقوى.

رغم أن حالة الاستقرار في النظام الدولي واردة دوماً إلا أنه يمكن استبعادها في إذا ما اضطاعت قوة كبيرة بدور الهيمنة.

يمكن للمؤسسات الدولية في ظل حالة الاستقرار بالهيمنة أن ترسّي أرضية للتعاون بين الأمم وهو ما يتجلّى على صعيد النظام الاقتصادي الدولي الذي تم تطويره بعد الحرب العالمية الثانية.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

توازن القوى.

المكاسب النسبية (مقابل المكاسب المطلقة).

الاستقرار بالهيمنة.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

عدم وضوح رؤية النيوواقعيين إزاء الشروط التي تمكن من إرساء التعاون أو التي تدفع باتجاه النزاع في النظام الدولي.

إخفاقهم في التنبؤ بل وحتى في تفسير نهاية الحرب الباردة رغم تركيزها على مفهوم توازن القوى في النظام الدولي.

تمركزهم حول الدولة وإغفال دور الفواعل الآخرين.

تقدمنا النيووأقعدية تصورا مختزلا وسطحيا جدا لما يمكن أن تكون عليه المبادأة لدى الدولة. استنادها إلى عدد من الافتراضات الضعيفة إمبريقيا حول كون الدولة فاعلاً موحداً وعقلانياً.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

Robert Gilpin	War and Change in World Politics	(1981)
Hans Morgenthau	The World in Depression (1929-1939)	(1973)
Kenneth Waltz	Theory of International Politics	(1979)

النيوليبرالية:

مقاصدها وإسهاماتها:

مواجهة تمراكز الواقعيين والنيووأقعديين حول الدولة عبر إدراج الديناميكيات الاقتصادية في العلاقات الدولية.

البحث عن فرص التعاون في سياق النظام الدولي.

البحث عن مضمونين نظرة أكثر مرؤنة وإيجابية للطبيعة الإنسانية.

الافتراضات الأساسية:

رغم أن الأفراد والدول عقلانيون إلا أن القدرة على حل المشكلات مرهونة بالعمل الجماعي.

التعاون الدولي الذي يعود بالمنفعة المشتركة يعتبر ممكناً بل مطلوباً أيضاً.

يلعب الفواعل من غير الدول (مثل الشركات المتعددة الجنسية والحركات الدينية والقومية) دوراً محورياً في الأحداث الدولية.

التصور القائم على اعتبار الدولة فاعلاً موحداً ليس دقيقاً ذلك أنها تتطوي على تناقض بين إرادات متنافسة في الداخل وضغوط من البيئة الخارجية.

تتوزع القوة في النظام الدولي وتتسابق بين مختلف الفواعل.

الدول الديمقراطية لا تحارب بعضها البعض (نظرية السلام الديمقراطي).

تسعي الدول للحصول على المكاسب المطلقة وذلك مقابل المكاسب النسبية حسب التصور الواقعي.

المواضيع الرئيسية:

إن تقسيم العمل المعقد في الاقتصاد الدولي يشجع على إرساء علاقات تتسم بالاعتماد المتبادل والتعاون بين الأمم والانتفاع المتبادل.

واقع الاعتماد المتبادل المعقد الذي يميز النظام الدولي يحول الاقتصاديات الوطنية أكثر هشاشة وتأثيراً بالأحداث الخارجية، مما يؤدي إلى تقلص قدرة الدولة واستقلاليتها.

هناك علاقات معقدة بين السياسة الداخلية للدولة والسياسة الدولية لكن مع غياب تراتبية واضحة ومناسبة.

رغم أن المؤسسات والمنظمات الدولية تعتبر نتاج الدول إلا أنها تكتسب شخصية وهوية مستقلتين وتحظى بإرادة خاصة وبقدرة على المبادأة.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

الاعتماد المتبادل/المتشابك.

المكاسب المطلقة (مقابل النسبية).

التعاون الدولي.

الأنساق الدولية.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

مثلاً مثل النيوواقعية، تفقد النيوليبرالية لرؤية واضحة بخصوص الشروط التي تجعل التعاون بين الدول ممكناً والشروط التي تدفع باتجاه النزاع.

يصر الواقعيون والنيوواقعيون على حد سواء على أن النيوليبراليين يتمسكون برؤية ساذجة ومثالية إزاء الطبيعة الإنسانية وإزاء فرص التعاون الدولي.

يميل النيوليبراليين إلى المبالغة في تقدير الدور الذي يمكن للمؤسسات الدولية أن تضطلع به، كما أنهم يبالغون بشأن حجم ظاهرة العولمة وبشأن قدرة الدول في رسم السياسة الدولية (مقارنة بالمؤسسات الدولية والفاعل الآخرين غير الدوليين).

يميل النيوليبراليين أيضاً إلى شرعة الوضع القائم.

القرائن الإمبريقية لا تسخير كثيراً الطرح المتعلق بالسلام الديمقراطي، فالدول الديمقراطية ومن خلال سلوكياتها تبدي عدائية لا تقل عن عدائية الدول غير الديمقراطية.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

Robert O. Keohane and Joseph S. Nye	Power and Interdependence	(1977)
Joseph S. Nye	Understanding International Conflicts	(1993)
James N. Rosenau	Turbulence in World Politics	(1990)

النيو-مؤسسية:

مقاصدها وإسهاماتها:

إيجاد رابط بين الافتراضات النظرية وبين الواقع الذي تدعى النظريات تمثله.

الإقرار بالدور الحيوي الذي تلعبه المؤسسات باعتبارها وسيطاً ي العمل على تأطير السلوك السياسي وكذلك ترجمة المدخلات السياسية إلى محصلات سياسية.

الإقرار بالطابع المعقد والعرضي لأنظمة السياسية.
الافتراضات الأساسية:

المؤسسات لها وزنها في المعادلة السياسية، فالسياسي المؤسستي القائم ي العمل على صقل السلوك السياسي ذلك أن هذا الأخير إنما ينشأ في ظل بنى مؤسساتية معينة يأخذ مضمونه منها.

للبعد التاريخي أيضاً وزنه في المعادلة السياسية فالتأثير الذي للماضي على الحاضر معتبرة.
الأنظمة السياسية معقدة لدرجة أنه يصعب التنبؤ بشأنها.

الفواعل السياسيين لا يصيرون دوماً من خلال سلوكياتهم "الذرئية" إلى تحقيق مصالح مادية خاصة بهم.

المواضيع الرئيسية:

العقلانية والسلوكية تمثل للتركيز على المدخلات في سعيها لتفسيير المحصلات السياسية، متجاهلة الدور الذي تلعبه المؤسسات ك وسيط في العملية.

تغطي الظل المؤسساتي الممارسات الروتينية والاتفاقية وبالنتيجة يصعب تحويل مسارها عبر إصلاحها أو إحداث تحولات عميقة بها أو تعويضها بأخرى.

إن توقيت ووتيرة تعاقب الأحداث مهم جداً طالما أن التاريخ يتسم بخاصية التبعية لمسار، وبذلك فإنه قد تترتب نتائج ضخمة عن أحداث عرضية.

يتآلف الفواعل السياسيون مع الترتيبات المؤسساتية القائمة والتي تحدد قواعد وإجراءات غير رسمية جنباً إلى جنب مع القواعد والإجراءات الرسمية.

وبناءً على ذلك، فإن "منطق التكيف" يفسر بشكل أفضل اتساق السلوك السياسي مع الترتيبات المؤسساتية مقارنة بالتفسيير القائل بأن السعي الذرائي لتحقيق المصلحة الخاصة هو ما يوجه سلوك الفرد/الفواعل السياسي.

مضمون مصطلح "الجمود المؤسساتي" هو أن الوقت وفق المعايير السياسية أي "الوقت السياسي" يتسم بفترات من الاستقرار النسبي يتخلله دورياً مراحل من التحولات العميقة.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

. المؤسسات.

"التبعدية لمسار" (تاريجي).

التوقيت/التتابع/التاريخ.

التوازن.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

رغم عنايتها الكبيرة بالمتغير التاريخي في افتراضاتها الأولية إلا أن تحليلها لا تولي الأهمية الكافية للتحولات المؤسساتية، وهي في النهاية تركز فقط على استحضار دور المتغيرات من خارج السياق المؤسسي والتي تلعب دور الصدمة في استثارة عملية التغيير.

يقع النيو-مؤسساتيون في فخ الانتقادات التي وجهوها لدعوة الخيار العقلاني، فبدل كون الفاعل سجينًا لسعيه الذرائي من أجل تحقيق مصالح خاصة كما يدعى العقلانيون، نجد الفاعل لدى النيو-مؤسساتيين سجين السياق المؤسسي الذي تجبره على التكيف وملازمة سلوكه (وفق منطق بنوي).

تقدمنا المؤسساتية شروحاً مطولة حول دور المؤسسات باعتبارها وسيطاً، لاسيما النقطة المتعلقة بتتنوع البنى المؤسساتية، وهي بذلك تقدم كما مبالغ فيها من النظريات والفرضيات.

تبعد "النيو-المؤسساتية" لدى حديثها عن "التبعدية لمسار" وعن "تركة الماضي" أكثر تركيزاً على الاستقرار مقارنة بالتحول.

الأعمال العلمية المؤسسة النظرية:

Douglass C. North	Institutions, Institutional Change and Economic Performance	(1990)
Sven Steinmo, Kathleen Thelen and Frank Longstreth	Structuring Politics	(1992)
James G. March and Johan P. Olsen	Rediscovering Institutions	(1989)
Paul Pierson	Dismantling the Welfare State?	(1994)
Theda Skocpol	States and Social Revolutions	(1979)

البنائية:

مقاصدها وإسهاماتها:

إيجاد أرضية وسطية للبحث في العلاقات الدولية تتوسط التحالف النيوواقعي-النيوليبرالي (نيو-نيو) "العقلاني" والتزعة التأملية (الانعكاسية) [حسب أحد منظريها آدلر Adler].

إرساء برنامج بحث يتولى شرح إحدى أهم مسلماتها: البناء الاجتماعي للواقع السياسي ودور الأفكار في العلاقات الدولية.

استكشاف مضامين تعويض المنطق العقلاني في التحليل (الذي يتبنّاه التقليد الباحثي المهيمن) بالعقلانية الذرائعة (الوسائلية: التي تهتم بالعمليات والمسار ولا تنظر للعقلانية نظرة جوهرية) لتنظر بذلك للوكالة (مع ما تتطوّي عليه من قدرة على المبادأة) نظرة سوسيولوجية.

فحص مضامين تسليمهم بأن المصالح والخيارات المتاحة للفواعل في العلاقات الدولية تبني اجتماعياً وليس معطى موضوعي مسبق.

الافتراضات الأساسية:

تلعب الاعتقادات دوراً حيوياً في بناء الواقع الذي نعيش فيه.

العالم الاجتماعي والسياسي ليس معطى ثابت موضوعي خارج الإدراك الإنساني بل هو بناء تضع لبناته الفهوم البيذاتانية فهو باختصار بناء اجتماعي.

لا وجود لأي "واقع" مادي موضوعي سياسياً كان أو اجتماعياً خارج حيز الفهوم البيذاتانية للأفراد الذين يصوغونه، فلا وجود لواقع اجتماعي مستقل عن تأثير الأفراد.

يجب أن نمنح الاهتمام الكافي للدور الذي تلعبه الأفكار في العلاقات الدولية بمثل الأهمية التي نوليها دور العوامل المادية.

بالنسبة لمعظم البنائيين فإنه يصعب توفيق مسلماتهم مع المسلمات الوضعية سيما في الشق المتعلق باعتقادهم (أي البنائيين) تصور "الفهوم البيذاتانية".

المواضيع الرئيسية:

الفوضى هي صنيع الدول أو ما جعلته عليه الدول [حسب ألكسندر ووندت] فبنية النظام الدولي وبالتالي لا تملّى على الدول السلوك الذي يجب أن تلتزم به، وخلافاً لذلك فإن ما يوجه سلوك الدول هو الفهوم البيذاتانية التي تنتج عن التفاعل المستمر بينها، هذا التفاعل أوجد ما نعرفه حالياً بحالة الفوضى (غياب التراتبية).

تبث البنائية التأثيرات التي تحدثها بعض البناءات الاجتماعية المبتكرة مثل الاتحاد الأوروبي. تشدد على تأثير الضوابط الوطنية على السياسة الدولية وتتأثر الضوابط الدولية على السياسة الوطنية.

تشدد على أهمية الخطاب في بناء دلالات ومضامين بعض المفاهيم المفتاحية في العلاقات الدولية مثل مفهوم "التهديد"، فطريقة تلقي وتأويل جوانب من الواقع ووسّعها بالتهديد هي ما يجعل منه تهديداً وليس لأنّه كذلك فعلاً في الواقع.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

البناء الاجتماعي.

البيذاتانية (أو التذاتانية أو البيشخصية).

الهوية.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

يتحاشى البنائيون الإقرار بأن ما يجمع بينهم ليس ما يتقاسمونه من أفكار بقدر ابتعادهم بذات المسافة تقريرياً عن الاتجاهات النظرية الأخرى.

بالنسبة للعقلانيين فإن الطروحات البنائية النظرية تبدو متسقة غير أن مشكلتها تتمثل في: إما أنها لم تخضع لأي اختبار أو أنها غير قابلة للاختبار من الأساس.

ادعاء البنائيين بأنهم يهدون إلى جسر الهوة بين العقلانيين وما بعد الحداثيين التأمليين يفتقد إلى الإسنادات الكافية فالاختلافات بين هذين التوجهين الفكريين يبدو أكبر من أن يتم التوفيق بينهما. وفضلاً عن ذلك، فإن رواج "التجهيز الفكري" البنائي يميلون في النهاية إما إلى العقلانية أو التأملية رغم ادعائهم التموقع في منطقة وسطية واحتقارهم بمسافة واحدة مع الإثنين.

البنائية طرحت برنامجاً بحثياً واعداً إلا أن منظريها يتحاشون الإشارة إلا أنه لم يتحقق منه الكثير.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

Friedrich Kratochwil **Rules, Norms and Decisions** (1989)

Nicholas Onuf **A World of Our Making** (1989)

Alexander Wendt **Social Theory of International Politics** (1999)

ما بعد الحداثة:

مقاصدها وإسهاماتها:

التشكيك بالافتراضات الحداثية التي تدعي القدرة على إنتاج معرفة موضوعية عن العالم الاجتماعي.

إثارة الاهتمام بالمداخل التصورية التي يقوم الحداثيون من خلالها بصياغة نظريات يدعون أنها تتسم بالحياد والابتعاد عن التأثيرات القيمية والعاطفية.

إماطة اللثام عن القضايا التي ظلت النظريات الحداثية صامتة إزاءها إضافة للإدعاءات بامتلاك نظريات عامة وذلك لكشف التواطؤ القائم بين علاقات القوة والإنتحاج المعرفي.

البحث فيما تنتهي عليه علاقات دولية لا تعتمد على الإدعاءات بامتلاك نظرية عامة، ولا تقوم على نفاذ غير متكافئ للمعرفة، أو ما ينطوي عليه تحرر أو انعتاق الإنسان من تأثيرات القوة.

الافتراضات الأساسية:

لا وجود لموقع يتمتع بأفضلية الحياد القيمي والذي يمكن الوقوف فيه والحكم وضع افتراضات غير منحازة واختبارها.

المعرفة الإنسانية تتسم بالصور والانحياز كما أنها تخدم قوى معينة.

لا تتسم الطروحات المعرفية بالحياد إزاء علاقات القوة القائمة حيث يستحيل استبعاد تأثيرات القوة.

لا وجود لحقائق ثابتة حول العالم الاجتماعي والسياسي كل ما هنالك تأويلات وقراءات يقوم بها الباحث وهو مت موقع ضمن إحدى معسكرات القوة.

العالم الاجتماعي والسياسي يتسمان، ليس بالتشابه الذي يدعمه التشبيث بـ "الأنّا" (الهوية المشتركة)، لكن بالاختلاف والتتنوع والذي يعززه التركيز على النّظرة للأخر الـ "هم".

المواضيع الرئيسية:

تحديد والبحث في الطريقة التي تتفاعل بها علاقات القوة مع الخطاب والممارسة في السياسة العالمية

الاعتداد بالاختلاف، التنوع والعدد.

تحدي النّظرية القائلة بأن التاريخ يسير وفق منطق "التقدّم" و "التطور".

السعى لتهيئة الظروف من أجل انعتاق الإنسان، لا يساهم ميدانياً سوى في تعويض شكل من أشكال الهيمنة بشكل آخر، حيث أنه في النهاية لا مفر من التغيير.

الإدعاء بامتلاك نظريات عامة تمهد لمشاريع "الانعتاق" (أو ما يسمى به ما وراء السردية الكبرى) يعتبر خرافات.

يتم تفعيل علاقات القوة عبر بناء تميزات هرمية للهوية (التماثل)/الاختلاف، "النحن/الـ "هم"، وذلك باستخدام اللغة.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

التشكيك في ما وراء السردية الكبرى، التفكيك، التمايز/الاختلاف Difference/otherness

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

الميل نحو العدمية، اتسامها بالقدرية، الإحجام عن إصدار الأحكام.

أليس الالتزام المعياري لما بعد الحداثة بالتنوع والاختلاف يدحض نفسه بنفسه طالما يتتجنب الدعوة للقيام بشيء حيال حماية التنوع والاختلاف؟

أليس مضامين ما بعد الحداثة محافظة في عمقها كونها تتحدث عن التفكير دون المساهمة في إعادة بناء البديل؟

ماذا عن التقاضيات الضمنية، أليس الطرح ما بعد الحداثي نفسه عبارة عن ما وراء سردية كبيرة تأمل أن تقوم على أنفاس ما وراء السردية الكبرى التقليدية؟

وأخيراً هناك التوجه ما بعد الحداثي ليكون بمثابة سردية وصفية بحثة وذلك بدل أن اهتمامه بالتحليل السياسي.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

David Campbell **Writing Security** (1992)

R. J. Walker **Inside/Outside** (1993)

Cynthia Weber **Simulating Sovereignty** (1995)

الفهرس

فهرس المحتويات	
الصفحة	خطة البحث
ii-i	مقدمة
1	
16	الفصل الأول: التحولات "الباراديمية" في العلاقات الدولية مدخل استيمولوجي تاريخي
17	المبحث الأول: الإطار الاستيمولوجي لدراسة التحولات المعرفية
18	المطلب الأول: أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي.....
24	المطلب الثاني: منطق الثورة العلمية لدى "توماس كون".....
31	المطلب الثالث: البرامج البحثية "اللاكتوشية".....
39	المطلب الرابع: "الفرضي المنهجية الخلاقية" لدى "فابير آبنت"
39	المبحث الثاني: مسار تطور علم السياسة والتفسير "الكوني"- "اللاكتوشي"
40	المطلب الأول: إرساء علم السياسة وأهم محطات تطوره.....
43	المطلب الثاني: دور الثورة المعرفية دولاتية-التوجه في إرساء تخصص العلوم السياسية.....
45	المطلب الثالث: أول تحدي باراديمي في حقل علم السياسة-الباراديم التعدي.....
48	المطلب الرابع: التحول الباراديمي الأول في علم السياسة-السلوكية.....
52	المطلب الخامس: التحدي الباراديمي الأول للسلوكية- "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد".....

55	المطلب السادس: استعصاء التحول "الباراديمي" - مستقبل بروسيترويكا علم السياسة.....
59	المبحث الثالث: النقاشات الثلاثة المؤسسة للبارادایم العقلاني في العلاقات الدولية
60	المطلب الأول: "النقاش النظري الأول"-نظرتان أنطولوجيتان للطبيعة الإنسانية.....
64	المطلب الثاني: مأخذ الليبراليين ومؤرخي العلم على النقاش النظري الأول.....
68	المطلب الثالث: "النقاش النظري الثاني" - نظرتان منهجهتان لطبيعة المعرفة.....
73	المطلب الرابع: بوادر النقاش النظري الثاني في سياق نظرية واقعية مغمورة.....
80	المطلب الخامس: النقاش النظري الثالث بين البارادایمات الثلاث.....
84	المطلب السادس: الاتصال المنظوراتي نيونيو وإطلاق النقاش النظري الرابع.....
90	الفصل الثاني: أهم التحولات الباراديمية في النقاش النظري الرابع.....
91	المبحث الأول: النقاش الرابع والتخلص من مصدبة الثنائيات في المنظومة المعرفي.....
92	المطلب الأول: مستويات التخلص من الثنائيات المؤطرة للنقاشات النظرية.....
95	المطلب الثاني: من الوضعيّة وما بعد الوضعيّة إلى ما العلم "ما بعد الكوني".....
100	المطلب الثالث: من الموضوعية والذاتانية إلى البيداغائية.....
105	المطلب الرابع: من التقسيمية والتوكينية إلى البناءية أرضية معرفية وسطوية.....
112	المبحث الثاني: مأسسة التفاعلات الدولية من منظور النقاش النظري الرابع.....
113	المطلب الأول: حافظ المأسسة من منظور النيومؤسساتية العقلانية.....
113	3. حافظ المكاسب النسبية لدى النبو وأعقبين.....
116	4. السعي من أجل المكاسب المطلقة لدى النيومؤسساتيين.....
118	المطلب الثاني: المأسسة وشر عننة الضوابط من منظور بنائي.....
118	5. سلطة تحديد مضمون المفاهيم المفتاحية.....
121	6. سلطة فرض التصنيفات الاجتماعية.....
124	7. سلطة بلورة ضوابط قيمة.....
129	8. مدخل الأمانة ورسم أدور جديدة للمؤسسات الدولية.....
132	المطلب الثالث: فهم توكيني تناسقي لعملية المأسسة من منظور تأملي.....
132	4. منطقات التحليل ما بعد البنوي.....
134	5. تعليق عملية التسييس للقرار المؤسساتي وإطلاق مسارات التنوف.....
137	6. المدخل الجنalogجي لعملية المأسسة.....
139	المطلب الرابع: مقومات التمايز "الباراديمي" وامكانيات التركيب.....
143	الفصل الثالث: معضلات النقاش الرابع. التحول عن حل المشكلات إلى تفكيك الأحادي.....
144	المبحث الأول: معضلة الأكسيلوجيا: الأرضية المحايدة لتقدير المسار المعرفي.....
145	المطلب الأول: محاذير المراجعات التاريخية-أطروحة "ميرتن".....
149	المطلب الثاني: رصد التحولات الباراديمية-ضعف الأسنان التاريخية للنقاشات.....
158	المطلب الثالث: عيوب نظام التحكيم العلمي وعقبة التبعية لمسار.....
162	المطلب الرابع: نحو "عصر وسيط" جديد.....
165	المطلب الخامس: بين نهضة إنسانية جديدة ومخاطر التقهقر لعصر ظلمات آخر.....
169	المبحث الثاني: معضلة التيليلوجيا والتيليونوميا-المسعى البحثي بين الغائية ومصدبة التمويل.....
170	المطلب الأول: بعد التيليلوجي للنقاش النظري الرابع.....
174	المطلب الثاني: تيليونوميا البحث ومسألة التمويل.....
178	المطلب الثالث: مخرج الفرونزيزا - "فلوبيرا".....
182	المطلب الرابع: مساعي إصلاح الحق المعرفي-بروسيترويكا علم السياسة.....
184	المبحث الثالث: الأساس التصورية لمخارج النقاش الرابع: نحو "بارادایم" التعقد.....
184	المطلب الأول: التحول من السعي لنظرية كبرى إلى البحث عن نظرية متماسكة.....
186	المطلب الثاني: نحو منطق هندسي جديد ذي تطبيقات سوسيلولوجية: قانون الأشكال.....
190	المطلب الثالث: التحرر من الهيكلاركية التصورية: تمثيل العالم وفق شريط موبوس.....

195	المطلب الرابع: سيرينيبيطا المستوى الثاني.....
200	المطلب الخامس: مزايا السوسيو سيرينيبيطا الجديدة.....
203	المطلب السادس: مزايا المقاربة للعلاقات الدولية من منظور "التعقد".
207	خاتمة.....
210	قائمة المراجع.....
221	الملحق 1: جداول تلخص الافتراضات الأساسية لأهم المقاربـات النظرية.....
238	فهرس المحتويات.....
الصفحة	فهرس الأشكال والجداول:
20	تمثيل بياني رقم 01: يوضح مثلث المعرفة استنادا إلى الطرح "البوري" المتعلق بالعالم الثلاثة.
25	تمثيل بياني رقم 02: يوضح منطق التعلم العلمي لدى "كارل بوبر".
26	صورة رقم 01: توضح صعوبة إعطاء قراءة لمعطى واحد ما ببساطة فكراً "الباراديم".
27	تمثيل بياني رقم 03: يوضح منطق التعلم العلمي لدى "توماس كون".
33	تمثيل بياني رقم 04: يوضح منطق التعلم العلمي لدى "إمري لاكتوش".
36	تمثيل بياني رقم 05: يوضح منطق التعلم العلمي لدى "باول فايرآبنت".
42	تمثيل بياني رقم 06: يوضح أهم محطات تطور علم السياسة من منظور "التحولات الباراديمية".
57	جدول رقم 01: أقسام البحث المعتمدة على مستوى "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة".
58	تمثيل بياني رقم 07: يقارن بين التحولات الباراديمية في علم السياسة وحقل العلاقات الدولية.
84	تمثيل بياني رقم 08: يوضح أطراف النقاش النظري الثالث.
86	تمثيل بياني رقم 09: يبرز التركيب نيو-نيو خلال الثمانينيات.
89	تمثيل بياني رقم 10: يوضح الاستقطاب الباراديمي الجديد نهاية الثمانينيات.
93	جدول رقم 02: يلخص أهم التمايزات القائمة بين النقاشات النظرية الأربع في العلاقات الدولية.
101	صورة رقم 02: نسبة "إيشر" Escher أو صعوبة تأكيد مزاعم امتلاك الحقيقة.
108	تمثيل بياني رقم 11: تصنيف مقاربـات العلاقات الدولية وفق التمايزات الأنطولوجية-الاستيمولوجية.
128	تمثيل بياني رقم 12: تبيولوجيا "كراسنر" مقارنة بين المواقف الباراديمية من مأسسة الضوابط.
150	المنحنى رقم 01: يوضح العدد الإجمالي للمنشورات التي اعتمدت عليها أبحاث "مينتس".
151	المنحنى رقم 02: يوضح عدد المنشورات العلمية التي تمثل أحد التقليدين الباحثين لـ"النقاش الأول".
152	المنحنى رقم 03: يوضح عدد المنشورات العلمية التي تمثل أحد التقليدين الباحثين لـ"النقاش الثاني".
153	المنحنى رقم 04: يوضح عدد المنشورات العلمية التي تضمنت النقاش في إطار "النقاش النظري الثاني".
154	المنحنى رقم 05: يوضح عدد المنشورات العلمية التي تضمنت النقاش في إطار "النقاش النظري الثالث".
155	المنحنى رقم 06: يوضح فترة حدوث تحول "باراديمي" بالنسبة للنقاش الرابع.
156	المنحنى رقم 07: يوضح نسبة المنشورات العلمية التي تمثل التقليد البختية للنقاش الرابع.
157	المنحنى رقم 08: يوضح طبيعة الهيمنة "الباراديمية" منذ تأسيس مقل العلاقات الدولية.
166	جدول رقم 03: يوضح الفروقات القائمة بين العصر الوسيط الأول والعصر الوسيط الجديد.
172	جدول رقم 04: يوضح المتغيرات المرتبطة بتمويل البحث العلمي في ثمانية دول أساسية.
172	جدول رقم 05: يوضح ترتيب أولى ثمان دول في العالم اهتماماً بالبحث العلمي.
179	جدول رقم 06: نموذجان للتقديم بالبحث العلمي-علم الاجتماع الاستيمولوجي وعلم الاجتماع الفرونيزي.
188	تمثيل بياني رقم 13: قوانين الشكل لـ "سبنس" و"براون".
189	تمثيل بياني رقم 14: يوضح أبعاد الاستيمولوجيا المتحررة أنطولوجيا.
192	صورة رقم 03: شريط موبوس.
194	صورة رقم 04: الصورة الأصلية التي تحاكي تصور موبوس وهي مأخوذة عن "إيشر".
203	جدول رقم 07: مقارنة بين خصائص "الأنظمة البسيطة" و"أنظمة التعقد".